قصص العرب

تأليف
علي محمد البجاوي
محمد أبو الفضل إبراهيم   محمد أحمد جاد المولى

الجزء الرابع

قصص العرب

تأليف

محمد أحمد جاد المولى محمد ابو الفضل ابراهيم على محمد البجاوى

الجزء الرابع

طبعة جديدة
[بها إضافة قصص، وفيها زيادة ضبط وشرح وتحقيق]

١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

عيسى البابى الحلبى وشركاه

الكتاب قصص العرب

المؤلف محمّد أحمد
علی أحمد
محمّد أبوالفضل ابراهيم

الناشر منشورات الرضی ـ قم

القطع وزيری

المطبعة مطبعة أمير ـ قم

المطبوع ۱۰۰۰ نسخة

الطبعة الخامسة

سنة الطبع ۱۳۶۴هـ.ش

عدد الأجزاء أربعة

عدد الصفحات ۱۸۶۷ صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

١ — هذا هو الجزء الرابع من كتاب « قصص العرب » وهو الأخير أيضاً؛ ويمتاز هذا الجزء عمّا سبقه من الأجزاء بأنه يجمع بين دفّتيه طائفة كبيرة من القصص التى وضعها الكتّاب من العرب قاصدين بها تصوير المجالس والأشخاص، والقصص التى نسبوها للطير والحيوان، والتى حكوْها عن شياطين الشعر أو تخيلوها عن الجان، واخترعوا لها من اللفظ الرشيق ما يفصح عن أغراضهم، ومن القول الجزْل ما يبلغ إرادتهم؛ وسبيلُهم فى كل ماروَوا الوضع والخيال. وبهذه المجموعة وما سبقها يتسق فى كتاب واحد نصيب حَسَنٌ من أروع ماخلقه العرب من قَصص تاريخى وموضوعى، وواقعىّ ومتخيَّل، ويتم الغرض الذى قصدنا إليه من: «عرض شامل لحياة العرب: مدنيّتهم وحضارتهم، وعلومهم ومعارفهم، وأديانهم وعقائدهم، وذكر لعوائدهم وشمائلهم، وما طبعوا عليه من كريم الغرائز وحدّة الذكاء، ثم ما كان للمرأة عندهم من سامى المكانة وعظيم المنزلة، وماأُثِرَ عنهم من أخبار صوّروا بها حبّهم العفيف، وغزَلهم الرقيق، وَعشقهم الشريف . . . وما كان لهم من محاوَرات ومُسَاجلات، وَمطايبات ومناقلات، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك، وطُرَف القضاة والولاة، وَأخبار الأيام والحروب . . .[1] ».

***

(١) مقدمة الكتاب .

٢ ـ ولقد ظهرت الأجزاء السابقة من الكتاب ، فلقيت من ثناء الكتّاب ، وإقبال القراء واحتفال الصحف والمجلات فى العالم العربى جميعه ما جعلنا نزداد إيماناً ويقيناً بأن الحاجة إليه كانت ماسّة ، وأنه سيسدّ فى المكتبة العربية فراغاً كبيراً ؛ ولسنا نحاول فى هذه الكلمة أن ننقلَ كل ما تحدّثوا به عن الكِتَاب ؛ ولكننا نُورِد قُلًّا من كُثْر مما ذكروه مؤيِّداً للغاية التى قصدنا إليها :

قالت صحيفة الأهرام الغراء : « ... وما من شك فى أن عمل المؤلفين يتجاوز الجمع والطبع ، إلى التبويب والضبط والتحقيق ، وهو قبل هذا قائم على حسن الاختيار والدقة فى النقل ، فهم شديدو الحرص على ألّا تقع العين فى كتابهم إلا على القصص المهذّبة ، والنوادر الرفيعة التى تحث على مكارم الأخلاق .

ولقد كان أكثر المربين يدعون إلى تهذيب الكتب القديمة ، وإبرائها من الأخبار والأشعار التى تنكرها الأخلاق الكريمة ؛ ولكن مؤرخى الأدب وعلماء اللغة لم يؤيّدوا هذه الدعوة ؛ لأنهم يشفقون منها على تُرَاثنا الأدبى وفاء لحق التاريخ ، واحتفاظاً للكتب القديمة بمقوّمات شخصيتها .

وظل الرأى حائراً بين المربين ورجال اللغة والأدب : الأولون يريدون ألا يقرأ الشباب العربى إلا المهذّب الرفيع ، والآخرون يحرصون على أن يبقى للكتب القديمة عناصر شخصيتها ، وتراثها التاريخى .

واليوم يظهر كتاب « قصص العرب » فيوفّق بين الرأيين جميعاً ؛ فهو لا يمس تراثنا الأدبى بالتعديل والتغيير ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يحرم الشباب العربى فَضْلَ الانتفاع به والاتصال بماضيه ؛ فهو يتركُ الكتب القديمة كما هى : للعلماء والمؤرخين ، ويختار منها ما يصحّ للشبيبة أن تقرأه ، فيعرضه عليهم فى أسلوب مهذب .

فالآن نستطيع أن نُوَجِّه الدعوة إلى الشباب ، لكي يتصلوا بلغتهم ، ويتعرفوا إلى ماضيها بقراءة هذه المختارات المهذّبة ، التى عالجت ما نشكوه من سقم وخشونة واضطراب ، وأعفتهم من بعض أخبارهم التى لا نرضى للشبان قراءتها ..[1] » .

***

وقالت صحيفة البلاغ فى كلمتها عن الجزأين الأول والثانى : « ... يشتمل الجزءان اللذان صدرا من هذا الكتاب على خلاصة ما فى نحو مائة مؤلف قديم من أروع أقاصيص العرب التى انحدرت عنهم مصوِّرة لجميع مظاهر حياتهم العامة .

وقد رتبت هذه الأقاصيص بعد تهذيبها ، وتأليف ما تنافر منها فى أمهات المراجع - إلى أقسام وأبواب فى هذين الجزأين وماسوف يليهما ، حتى صارت فى وضعها الجديد أقربَ نسقاً واتصالا إلى هيئة القاموس ، وانتظام موارده .

والحقّ أن هذه الطرائف المختارة ، والنوادر المنتقاة ، وهى مادة ما عند العرب من قصص كانت أحوجَ شىء منذ زمن بعيد إلى مثل هذا المعجم القصصى الذى اصطنعه المؤلفون لأروع مخلّفات العرب ... »[2] .

وقالت صحيفة الهاتف[3] .

« ... صدر فى ظروف ملائمة جدًّا لتوجيه الأفكار إلى نفسيّة العرب الذاتية وجبلّتهم الطبيعية ، وصفاتهم الثابتة ، فكان كصورة ناطقة بما كان يتحلّى به العربى من الصفات النادرة ، وتصوير مجتمعه تصويراً صادقاً فى كل حركاته وسكناته ؛ وهى صورة إن لم يكن لها إلا فائدة تنبيه الأمة العربية الحاضرة إلى ما كان يتّصف

---

(١) ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ .

(٢) ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٩ (من مقال للأستاذ أحمد صبرى) .

(٣) تصدر فى النجف ، ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ هـ .

به العربُ الأقدمون شهامة وغيرة وحمية ، لكنى ذلك نفعاً فى هذا الوقت الذى تنشد فيه الأمة العربية مجدَها ، وتحاول الاقتداء بما كان يتحلى به العربى قديما من جمال الصفات ، وسمو الغايات ، لتبنى من كل ذلك وحدة روحية تحقق لها مطالبها المشروعة . . . »

٣ — هذا وقد لاحظ بعض الكتاب أننا لم نورد فى كتابنا شيئاً من القصص التى قامت عليها كتب ألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة بن شداد ، وذات الهمة ، وأخبار ابن ذى يزن ، وغيرها مما يشبهها . . . وعذرُنا فى ذلك أن هذه القصص كتبٌ قائمة بذاتها ، معروفة بأعيانها ، وكثير منها — كما أوردنا فى مقدمة الكتاب — تافه الغرض ، مُبْهَم القصد ، ردىء اللغة والأسلوب . وإنما كان همُّنا أن نختار القصص الحسنة التى زخرت بها كتب الأدب القديمة ، واختفت تحت ركام من رداءة الطبع واضطراب النصوص ؛ ثم ما كان منها نبيل المقصد شريف الغاية جيد الأسلوب ، فكان من مجموعها « . . . معرض ثمين ، عرضت فيه أفانين جميلة من روائع البلاغة العربية ، وبدائع الأساليب ، وطرائف الصور الأدبية من جهة ؛ وعرضت فيه من جهة أخرى : ألواح جليلة مشرقة من حياة العرب فى شتى جهاتها وألوانها وصورها ، فبرز العرب فى هذا الكتاب أناساً أحياء يَرُوحون ويغدون أمام عينيك بأخلاقهم وشمائلهم وسجاياهم ، بعاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم ، بألوان معايشهم ومشاربهم ، بأحاسيسهم ومشاعرهم وأذواقهم ، وبكل ما تحفل به حياة العرب الأولين من مَجَالِى الذهن والعقل والشعور . . . »[1] .

وأخذ بعضهم علينا أيضاً أننا لم نستوعب القصص التى تضمنت أيام العرب

---

(١) الهاتف ١٦ رجب سنة ١٣٥٨ هـ .

المشهورة ، وملاحمهم المأثورة ؛ على كثرتها . والعذر فى ذلك أننا حين عالجنا الاختيار من هذه الأيام وجدناها تضم فى أثنائها كثيراً من الشعر ، وتحمل فى طيّاتها كثيراً من الحوادث ، وأنها مضطربة الروايات محرفة النصوص ، فهى لذلك تستأهل أن أن تُفرد بكتاب خاص . ونحن آخذون بحول الله فى وضع هـذا الكتاب ، ونأمل ألّا يمضى كبير زمن حتى يكون فى يد القراء إن شاء الله[1] .

* * *

وفى كل حال نتوجه إلى الله العلى الكبير شاكرين له ما وفقنا إليه من إتمام هذا الكتاب ضارعين إليه أن يسبغ عليه حسن القبول ؟

يناير سنة ١٩٤٨ }
صفر سنة ١٣٦٧ }

المؤلفون

---

(١) هذا ما كتبناه فى مقدمة الطبعة الأولى . ويسرنا أن نقول : إننا وفينا بوعدنا ، فأخرجنا كتاب « أيام العرب فى الجاهلية » ، وكتاب « أيام العرب فى الإسلام » وهما بأيدى القراء .

مقدمة الطبعة الجديدة

هذه هى الطبعة الخامسة من كتابنا «قصص العرب» نقدمه بعد أن نفدت طبعته الرابعة . وفى هذه الطبعة أضفنا إلى الكتاب بعض القصص الطريفة التى انتخبناها فى أثناء قراءتنا لكتب الأدب والتاريخ . وقد أردنا بذلك أن يكون للكتاب مدد جديد يزيد من رونقه ، ويبقى على جدّته .

أما الشرح والضبط فقد زدنا فيه لنقربه إلى القراء جميعا ، ولينهل منه شبابنا وناشئتنا الذين ينشدون المورد الصافى للثقافة العربية ، ويودون لو عرفوا مصادر هذه الثقافة ، وقرءوا من تراثها ما يشبع رغبتهم ، ويقفهم على حياة أسلافهم وأمجاد عروبتهم .

والله نسأله التوفيق ، إنه سميع مجيب ؟

المحرم سنة ١٣٩٢ هـ
مارس سنة ١٩٧٢ م

المؤلفون

البَابُ الأول

في القصص التي تصِفُ ما عقدوه من مجالس الطرب ، وحفَلات الغناء ، وما أثاروه من أسباب المنافسة بين المُغَنِّينَ ، قاصدين التَّرْفيه عن النفوس ، وجَلاء الهم ، وتهذيب المشاعر ، وَترقيقَ الوجدان .

١ — الشعر والغناء*

كان معاويةُ يَعيبُ على عبد الله بن جعفر(١) سماعَ الغناء ، فأقبل معاوية عاماً حاجًّا ؛ فنزل المدينة ، فمرَّ ليلة بدار عبد الله بن جعفر ، فسمع عنده غناء على أوتار ، فوقف ساعةً يستمع ، ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله !

فلمَّا انصرف من آخر الليل مرَّ بداره أيضاً ، فإذا عبدُ الله قائم يصلِّي فوقف ليسمع قراءته ، فقال : الحمد لله ، ثم مضى وهو يقول : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ »(٢) .

فلما بلغ ابنَ جعفر ذلك أعدَّ له طعاماً ، ودعاه إلى منزله ، وأحضر ابن صياد المُغَنى ، ثم تقدم إليه وهو يقول : إذا رأيت معاويةَ واضعاً يده فى الطعام ، فحرِّكْ أوتارك وغَنِّ ؛ فلما وضع معاوية يَدَهُ فى الطعام حرّك ابنُ صياد أوتاره وغنى بشعر عَدِىّ بن زيد ـ وكان معاويةُ يعجب به :

يا لُبَيْنَى أوْقِدِى النَّارَا   إنّ مَنْ تهوينَ قد حارَا(٣)
ربَّ نارٍ بِتُّ أرْمُقُها   تَقْضِمُ الهِنْدِىَّ والغَارَا(٤)

---

* العقد الفريد : ٤ ـ ٩٨ ، الأغانى : ٢ ـ ١٧٤

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان كريما جواداً ، يحب البذل ويرتاح للعطاء ، وأخباره فى الكرم والسماع كثيرة ، توفى سنة ٩٠ هـ . (٢) سورة التوبة ، آية ١٠٢ (٣) حار : ضل . (٤) الغار : شجر طيب الريح ، وشجر السوس .

عندها ظَبْيٌ يُؤَجِّجها عاقِدٌ في الخصْرِ زُنّارا(١)

فأعجب معاويةَ غناؤه حتى قبضَ يده عن الطعام ، وجعـل يضربُ برجله الأرض طَرَبًا ؛ فقال له عبدُ الله بن جعفر : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنما هو مختار الشعر يركَّب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً ؟ قال : لا بأس بحـكمة الشعر مع حِكمة الألحان .

---

(١) الزنار : ماعلى وسط النصارى والمجوس ، وقد روى هذا البيت فى الأغانى :

عندها ظبى يؤرثها عاقد فى الجيد تقصارا

يؤرثها : يوقدها ويكثر حطبها . والتقصار : القلادة .

٢ — قل للكرام ببابنا يَلِجُوا*

بَيْنَا عبد الله بن جعفر فى أزقة المدينة إذ سمع غناء ، فأصْغَى إليه، فإذا بصوتٍ شَجِيَ رقيق لقَيْنَةٍ تغنى :

قُلْ للكرامِ ببابنــا يَلجِوا   مافى التَّصابى على الفتى حَرَجُ

فنزل عبدُ الله عن دابَّتِهِ ، ودخل على القوم بلا إذْن ؛ فلما رأوه قاموا إليـه إجْلالا ، ورفعوا مجلسه ؛ ثم أقبل عليه صاحبُ المنزل ، فقال : يابن عم رسول الله؛ دخلتَ منزلنا بلا إذن ، وما كنتَ لهذا بخليق ! فقال عبد الله : لم أدخل إلا بإذن. قال : ومنْ أذنَ لك ؟ قال : قَيْنَتَكَ هذه ، سمعتُها تقول :

* قُلْ للكِرَام ببابنا يَلِجُوا . . . *

فإن كنَّا كراماً فقد أُذِنَ لنا   و إن كنا لئاماً خرجنا مذمومين ؛ فضحك صاحبُ المنزل وقال : صدقتَ ، جُعلت فِدَاك ! ما أنت إلا مِنْ أكرم الأكرمين.

ثم بعث عبدُ الله إلى جاريةٍ من جوَاريه ، فقال لها : غنّى ، فغنَّت ؛ فطَرِبَ القوم ، وطرب عبد الله ، فدعا بثياب وطِيبٍ ؛ فكسا القومَ وصاحب المنزل ، وطيّبهم ، ووهب له الجاريةَ ، وقال له : هذه أحذق بالغناء مِنْ جاريتك.

---

* العقد الفريد : ٤ ــ ٩٩

٣ — عبد الله بن جعفر ضيف طُوَيس *

كان عبد الله بن جعفر معه إخْوَان له فى عَشِيَّةٍ من عشَايا الربيع ، فراحت عليهم السماء بمطرٍ جَوْدٍ(١) ، فأسَالَ كلَّ شىء ، فقال عبدالله : هل لكم فى العَقيق(٢) ؟ فركبوا دوابهم ، ثم انتهَوْا إليه ، فوقفوا على شاطئه ، وهو يرمى بالزَّبَد مثل مَدِّ الفُرَات . وإنهم لينظرون إذ هاجتِ السماء ، فقال عبد الله لأصحابه : ليس معنا جُنَّةٌ(٣) نَسْتَجِنُّ بها ، وهذه سماء خليقةٌ أن تَبُلَّ ثيابنَا ، فهل لكم فى منزل طُويس(٤) فإنه قريب منا فنستكنَّ فيه ويحدّثنا ويُضحِكنا — وطويس فى النَّظَّارَةِ يسمع كلامَ عبد الله بن جعفر .

فقال له عبدُ الرحمن بن حسان بن ثابت : جُعلت فداكَ ! وما تريد من طُوَيس عليه غضب الله ! هو يَشِينُ(٥) مَنْ عرَفَه ! فقال له عبد الله : لا تقلْ ذلك فإنه مليح خَفِيف لنا فيه أُنْس .

فلما استوفى طُوَيْسٌ كلامَهم تعجَّلَ إلى منزله فقال لامرأته : ويحك ! قد جاءنا عبدُ الله بن جعفر سيِّدُ الناس ، فما عندك ؟ قالت : نذبحُ هذه العَناق(٦) — وكانت عندها عُنَيِّقة قدْ رَبَّتْها باللبن — وأختبز خُبْزاً رُقاقاً ؛ فبادر فذبحهـــا ، وعَجَنَتْ هى .

ثم خرج فتلقاه مُقبِلا إليه ؛ فقال له طُوَيس : بأبى أنتَ وأمى ! هذا المطرُ ،

* الأغانى : ٣ — ٣٢

(١) الجود : المطر الغزير ، أو مالا مطر فوقه . (٢) العقيق : متنزه أهل المدينة فى أيام المطر والربيع . (٣) الجنة : ما استترت به . (٤) اسمه عيسى بن عبد الله ، وطويس لقب غلب عليه ، وهو أول من غنى فى الإسلام ، وكان ظريفاً عالما بأمر المدينة وأنساب أهلها . (٥) يشين : يعيب . (٦) العناق : الأنثى من ولد المعز .

فهل لك فى المنزل فتستكِنّ فيه إلى أن تكُفّ السماء ؟ قال : إياك أريد . قال : فامْضِ يا سيِّدِى على بركةِ الله . وجاء يمشى بين يديه حتى نزلوا ، فتحدّثوا حتى أدرك الطعام ، فقال : بأبى أنت وأمى ! تُكرمنى إذا دخلتَ منزلى بأن تتعشّى عندى ؛ قال : هات ما عندك . فجاء بعَنَاقٍ سمينةٍ ورُقاق . فأكل وأكل القوم حتى تملّئُوا[(١)] ، فأعجبه طِيبُ طعامِه ؛ فلما غسلوا أيديَهم قال : بأبى أنت وأمى ! أتمشّى معك وأُغنّيك ؟ قال : افعلْ يا طُوَيس ، فأخذ مِلحَفَةً فأتزر بها ، وأرخى لها ذَنَبَين ، ثم أخذ المُرَبّع[(٢)] فتمشى ، وأنشأ يغنى :

يا خليلَىّ نابنى سُهُدِى   لم تنمْ عينى ولم تكَدِ
فشرابى ما أُسِيغُ وما   أشتكى ما بى إلى أحَدِ
كيف تَلحَوْنى[(٣)] على رَجُلٍ   آنِسٍ تَلتَذُّه كَبِدِى
مثلُ ضوء البَدْرِ طلعته   ليس بالزُّمَّيلةِ النَّكِدِ[(٤)]
من بنى آل المغيرة لا   خاملٍ نِكْسٍ ولا جَحِدِ[(٥)]
نظرَتْ يوما فلا نظرَتْ   بعدَه عينى إلى أحَدِ

فطرب القوم ، وقالوا : أحسنتَ والله يا طُوَيس ! ثم قال : ياسيدى ؛ أتدرى لمَنْ هذا الشعر ؟ قال : لا ، والله ما أدرى لمَنْ هو . إلا أنى سمعتُ شعراً حسناً . قال : هو لفارعةَ بنت ثابت أخت حسان بن ثابت فى عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى . فنكس القومُ رءوسَهم ، وضرب عبد الرحمن برأسه على صَدْرِه[(٦)] ، فلو شُقّتِ الأرض له لدخل فيها .

---

(١) تملئوا : امتلئوا من كثرة الأكل . (٢) المربع : آلة من آلات الطرب . (٣) لحاه يلحوه : لامه . (٤) الزميلة : الجبان الضعيف . (٥) النكس : الضعيف لا خير فيه . والجحد : القليل الخير . (٦) ضرب برأسه على صدره : أطرق استحياء وخجلا ، وهو يريد بعبد الرحمن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت .

٤ – سَقَوْنى وقالوا لا تُغَنِّ*

جلس عبدُ الله بن جعفر يوماً عند عبد الملك بن مروان ، فحدّثه عن إقلالِ[١] ابن أبى عَتِيق وكثرةِ عياله ؛ فأمره عبد الملك أن يبعث به إليه ، فأتاه ابنُ جعفر فأعْلَمَه بما دار بينه وبين عبد الملك وبعَثَهَ إليه .

فدخلَ ابنُ عتيق على عبد الملك ، فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه تَمِيسان[٢] كغُصْنَىْ بَانٍ ، بيد كل جارية مِرْوَحة ، تروّح بها عليه ، مكتوب بالذهب فى المِرْوحة الواحدة :

إننى أجْلِبُ الرياح وبى يلعب الخَجِلْ
وحجابٌ إذا الحبيـبُ نَنى الرأسَ للقُبَلْ
وغِيــاث إذا النديــمُ تغنَّى أو ارْتجل

وفى المروحة الأخرى :

أنا فى الكفّ لَطيفه مسكنِى قصرُ الخليفهْ
أنا لا أصْلُح إلّا لظريفٍ أو ظريفـه
أو وصيفٍ[٣] حَسَنِ القَــدِّ شبيهٍ بالوصيفَـه

قال ابنُ أبى عتيق : فلما نظرتُ إلى الجاريتين هوّنتا الدنيا علىّ ، وأنْسَتَانى سوء حالى ، ثم قلت : إنْ كانتَا من الإنس فما نساؤنا إلّا من البهائم،فلما كررتُ بصرى فيهما تذكرت الجنة ، فإذا تذكرت امرأتى ــ وكنت لها مُحِبًّا ــ تذكرت

---

* العقد الفريد : ٤ ـ ٩١

(١) فقر . (٢) تميسان : تتبختران . (٣) الوصيف : الخادم ، غلاما كان أو جارية .

النار ، وبدأ عبد الملك يتوجّع لى بما حـكى له ابنُ جعفر عنّى،ويخبرنى بما لِى عنده من جميـل الرأى ؛ فأ كذبْتُ له كلّ ما حكاه له ابنُ جعفر عنى ، ووصفت له نفسى بغايةِ المَلَا والِجدَة(١) ؛ فامتلأ عبدالملك سروراً بما ذكرت له وغمّا بتكذيب ابن جعفر .

فلما عاد إليـه ابنُ جعفر عاتبه عبد الملك على ما حـكاه عنى ، وأخبره بمـا حَلَّيْتُ(٢) له نفسى ، فقال : كذب ، والله ياأمير المؤمنين ، وإنه أحوجُ أهل الحجاز إلى قليلِ فَضْلِك ، فضلا عن كثيره .

ثم خرج عَبْدُ الله فلقينى ، فقال : ما حملك على أن كذّبتنى عند أميرالمؤمنين؟ قلت : أفـكنت ترانى وقد أجلسنى بين شمس وقمر ، ثم أتفاقَرُ(٣) عنده ! لا والله، ما رأيت ذَلك لنفسى ، وإنْ رأيته لى .

فلما أعلم بذلك عبدُ الله بن جعفر عبد الملك بن مروان قال : فالجاريتان له .

قال ابنُ أبى عَتِيق : فلمّا صارتا إلىّ زرتُ عبدالله بن جعفر فوجدتُه قد امتلأ فرحاً وهو يشرَبُ، وبين يديه عُسٌّ(٤) فيه عسل ممزوج بمسك وكافور ، فقال : مَهْيَم(٥) ؟ قلت : قد والله قبضتُ الجاريتين ، قال : فاشرب ، فتناولت العُسّ ، فجرعت منه جرْعة ، فقال لى : زِدْ ، فأبيتُ عليه ، فقال لجارية له عنده تُغنِّيه : إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين تغذى فى نَعَمِهما ، فحركت الجارية العود ، ثم غنت :

---

(١) الملا : سعة العيش . والجـدة : الغنى . (٢) حلى نفسه : وصف حليته . (٣) تفاقر : أظهر الفقر . (٤) العس : القدح العظيم . (٥) كلمة استفهام : أى ما حالك وما شأنك ؟ أو ما وراءك ؟ أو أحدث لك شىء ؟

عهدى بها فى الحىّ قد جردت   صفراء مثل المهرة الضامرِ
قد حَجَمَ(١) الثَّدْىُ على نحرها   فى مشرق ذى بَهْجَةٍ ناضر
لو أسندت مَيْتاً إلى صدرها   قام ولم ينقل إلى قابر(٢)
حتى يقول الناس مما رأوا :   ياعجباً للميتِ الناشر

فلما سمعتُ الأبيات طرِبت ، ثم تناولتُ العُسّ ، فشربت عَلَلًا(٣) بعد نَهَل ، ورفعت عقيرتى أغنى :

سَقَوْنى وقالوا : لاتُغَنِّ ولو سَقَوا   جبال حُنَيْنٍ ما سَقَوْنِى لَغَنَّتِ

---

(١) حجم الثدى : نهد . (٢) قبره يقبره : دفنه ، أى إلى دافن . (٣) العلل : الشربة الثانية ، أو الشرب بعد الشرب تباعا ، والنهل : الشرب الأول .

٥ — عبدالله بن جعفر عند جميلة *

جلستْ جميلةُ(١) يوماً للوِفادةِ عليها ، وجعلت على رءوسِ جواريها شعوراً مُسْدَلةً كالعناقيد إلى أعجازهنَّ ، وألبستهنّ أنْواعَ الثياب المصَّبغة ، ووَضَعت فوق الشعور التيجانَ ، وزَيَّنتهُنَّ بأنواع الحُلِيّ .

ووجّهتْ إلى عبد الله بن جعفر تَستزيره ، وقالت لكاتب أملتْ عليه :

« بأبي أنت وأمي ! قَدْرُكَ يَجِلُّ عن رسالتي ، وكرمُك يحتمِلُ زَلّتي ، وذَنبي لا تقالُ عَثْرَتُهُ ، ولا تُغفرُ حَوْبتُهُ(٢) ؛ فإن صَفَحْتَ فالصفحُ لكم معشرَ أهلِ البيت يُؤثَر ، والخير والفضلُ كلّه فيكم مُدّخر ، ونحن العبيد وأنتم الموالي . فطُوبَى لمن كان لكم مُجاوِراً ، وبِعزِّكم قاهراً ، وبضيائكمْ مُبصراً ! والويلُ لمن جَهِلَ قدركم ، ولم يَعْرِف ما أوْجَبَه اللهُ على هذا الخَلْق لكم ! فصغيرُكم كبيرٌ ، بل لا صغيرَ فيكم ، وكبيركم جليلٌ ، بل الجَلالَةُ التي وهبها الله عزَّ وجل للخلق هي لكم ، ومقصورةٌ عليكم ؛ وبالكتابِ نسألُك ، وبحقِّ الرسول ندعوك — إن كنت نشيطاً — لمجلسٍ هَيَّأتُه لك ، لا يحسنُ إلا بك ، ولا يتمُّ إلا معَك ، ولا يصلح أن ينقُلَ عن موضوعه ، ولا يُسْلَكَ به عن طريقه » .

فلما قرأ عبدُ الله الكتاب قال : إنا لنعرفُ تعظيمها لنا ، وإكرامَها لصغيرنا وكبيرنا ، وقد علمتُ أنها قد آلَتْ أَلِيّةً(٣) ألا تُغنّي أحداً إلا في مَنزلها . وقال

---

* الأغاني : ٨ — ٢٢٧

(١) هي جميلة مولاة بني سليم ، كانت أصلا من أصول الغناء ، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات ، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريباً . (٢) الحوبة : الإثم . (٣) آلت : أقسمت يمينا .

للرسول : والله قد كنتُ على الركوب إلى موضع كذا،وكان فى عزمى المرورُ بها؛ فأمَّا إذ وافقَ مُرادها فإنى جاعلٌ بعد رجوعى طريقى عليها .

فلما صار إلى بابها أدخلَ بعض مَن كانَ معه إليها وصرفَ بعضهم .فنظر إلى ذلك الحُسْنِ البارع والهيئة الباذَّةِ(١) ، فأعجبه ووقعَ من نفسه ؛ فقال : يا جميلة ؛ لقد أتيتِ خيراً كثيراً ! ما أحسن ما صنعتِ ! فقالت : سيدى ؛ إن الجميل للجميل يَصْلُح ، ولك هيَّأْتُ هذا المجلس .

فجلس عبد الله بن جعفر ، وقامت على رأسه ، وقامت الجوارى صَفَّيْن ؛ فأقسم عليها فجلستْ غيرَ بعيدٍ . ثم قالت : يا سيدى ؛ ألا أغنِّيكَ ، فقال : بلى ! فغنَّت :

بَنِى شَيْبَةِ(٢) الحمدِ الذى كان وجهُهُ ... يُضِئُ ظلامَ الليلِ كالقمرِ البَدْرِ
كُهُولُهمُ خيرُ الكهول ونَسْلُهم ... كنسلِ الملوكِ لا يَبُورُ ولا يَحْرِى(٣)
أبوكم قُصَىٌّ كان يُدْعى مُجَمِّعاً ... به جَمَّعَ الله القبائلَ من فِهْرِ

فقال عبد الله : أحسنتِ ياجميلة ! بالله أعيديه على ، فأعادته ؛ فجاء الصوت أحسنَ من الارتجال . ثم دعت لكل جارية بعودٍ ، وأمرتْهُنَّ بالجلوس على كراسى صغار قد أعدَّتها لهنَّ ، فضربن، وغنت عليهن هذا الصوت وغنى جواريها على غنائها .

فلما ضربْنَ جميعاً قال عبد الله : ما ظننتُ أنَّ مثل هذا يكون ! وإنه لِمَّا يفتِن القَلْبَ !

ثم دعا ببغلته فركبها وانصرف إلى منزله - وقد كانت جميلة أعدت طعاماً كثيراً - فقال لأصحابه : تخلَّفُوا فتغدَّوا وانصرفوا مسرورين .

---

(١) الهيئة الباذة : الغالبة الفائقة . (٢) شيبة الحمد : لقب عبد المطلب بن هاشم، وهو جد عبد الله ابن جعفر . (٣) يبور : يهلك ، ويحرى : ينقص .

٦ — بيتانِ من الشِّعرِ*

قال أبو عبّاد : أتيتُ جميلةَ يوماً ، وقد ظننت أنى سبقتُ الناسَ إليها ، فإذا مجلسها غاصّ ؛ فسألتها أن تعلّمنى شيئاً ، فقالت لى : إنّ غيرَك قد سبقك ، ولا يجمُلُ تقديمُك على مَنْ سواك . فقلت : جُعِلْت فداك ! متى تَفْرُغين ممن سَبَقَنى ؟ قالت : هو ذاك ، الحقُّ يَسَعُك ويسعُهم .

فبينا نحن كذلك إذ أقبل عبدُ الله بن جعفر ـ وإنه لأوّلُ يوم رأيته وآخره ، وكنت صغيراً كيّساً[1] ، وكانت جميلةُ شديدةَ الفرح ـ فقامت وقام الناس ، فتلقّتهُ وقبلتْ رجليه ويديه ، وجلس فى صَدْرِ المجلس على كَوْم[2] لها ، وتحوّق[3] أصحابه حوله ، وأشارت إلى مَنْ عندها بالانصراف ، وتفرق الناس ، وغمزَتنى ألا أبرَحَ ، فأقمتُ . وقالت : يا سيدى وسيّدَ آبائى وموالىّ ؛ كيف نَشِطْتَ إلى أن تنقل قدميك إلى أمَتِك ؟ قال : يا جميلة ؛ قد علمتُ ما آليتِ على نفسك ألا تغنى أحداً إلّا فى منزلك ، وأحببتُ الاستماع . قالت : جُعِلْتُ فِداك ! فأنا أصيرُ إليك وأُكَفِّرُ . قال : لا أُكلِّفك ذلك ، وبلغنى أنك تُغنّين بيتين لامرئ القيس تجيدين الغناء فيهما ، وكان اللهُ أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت . قالت : ياسيدى ، نعم ! فاندَفعَتْ تُغنّى ، فغنّت بِعُودِها ؛ فما سمعتُ منها قبلَ ذلك ، ولا بعد

---

* الأغانى : ٨ ـ ١٩٨

(١) كيس : عاقل . (٢) الكوم : المواضع المشرفة ، واحدتها كومة . (٣) تحوق القوم حوله : استداروا وأحاطوا به .

إلى أن ماتت ، مثلَ ذلك الفناء ، فسبَّح عبد الله بن جعفر والقومُ معه ، وهما :

ولمـــا رأتْ أنّ الشريعةَ همُّها   وأن البياضَ من فرائصِها دَامِي [١]

تيمَّمَتِ العينَ التى عنـد ضَارِجٍ   يفيء عليها الظلُّ، عَرْمَضُها طَامِي [٢]

فلما فرغت قالت جميلة : أى سَيّدى ؛ أزيدك ؟ قال : حسبي . فقال بعض من كان معه : بأبى جُعلت فداك ! وكيف أنقذ الله من المسلمين جماعةً بهـذين البيتين ؟ قال : نعم ، أقبَلَ قومٌ من أهل اليمن ، يريدون النبى صلى الله عليه وسلم؛ فضلُّوا الطريق ، ووقعوا على غيرها ، ومكثوا ثلاثاً لا يقدرون على المـاء ، وجعل الرجل منهم يَسْتَذْرِى [٣] بفيء السَّمُرِ والطَّلْحِ يائساً من الحياة إذ أقبلَ راكبٌ على بعير له ، وأنشد بعضُ القوم هذين البيتين ، فقال :

ولمـــا رَأتْ أنَّ الشريعةَ همُّها   وأنَّ البياضَ من فرائصهـا دَامِي

تيممَّتِ العينَ التى عنـد ضَارِجٍ   يفيء عليهـا الظلُّ عَرْمَضُها طَامِي

فقال الراكبُ : منْ يقول هذا ؟ قال : امرؤ القيس . قال : والله ما كذب ، هـذا ضارجٌ عندكم ، وأشار لهم إليه ، فحَبَوا على الرُّكَب فإذا ماء عذْب ، وإذا عليه العَرْمضُ والظل يفيء عليه ؛ فشربوا منه ريَّهم ، وحملوا ما اكْتَفَوا به حتى بلغوا الماء .

---

(١) الضمير فى رأت للحمر ، والشريعة : مورد الماء الذى تشرب فيه الدواب ، وهمها : طلبها ، والفريصة : اللحم الذى بين الكتف والصدر . (٢) ضارج : موضع فى بلاد بنى عبس ، والعرمض : الطحلب ، وطام : عال مرتفع . يريد أن الحمر لما أرادت شريعة الماء خافت على أنفسها من الرماة وأن تدمى فرائصها من سهامهم ، فعدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التى فيها . (٣) يستذرى : يستظل

فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه وقالوا: يارسولَ الله؛ أحْيَانَا الله عزوجل ببيتين من شعر امرئ القيس ، وأنشدوه الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك رجل مذكور فى الدنيا شريفٌ فيها ، مَنْسِيٌّ فى الآخرة ، خاملٌ فيها ، يجىء يوم القيامة مَعَهُ لواء الشعراء إلى النار . فكلٌّ استحسن الحديث . ونهض عبد الله بن جعفر ونَهَضَ القوم معه ؛ فما رأيت مجلساً كان أحْسَنَ من مجلسه .

٧ – ماذا فعلت بزاهد متَعَبِّدٍ !*

قال الأصمعي: قدم عراق بعدْلٍ[١] من خُمُر العراق إلى المدينة ، فباعها كلها إلا السّود؛ فشكا ذلك إلى الدارِمى[٢] ، وكان قد تنسّك وترك الشِّعر ولزِمَ المسجد، فقال : ما تجعلُ لى على أنْ أحتَال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك ؟ قال : ما شئت ! فعمدَ الدّارمى إلى ثياب نُسُكه ، فألقاها عنه، وعاد إلى مثل شأنه الأول، وقال شعراً رفعه إلى صديق له من المغنين ، فغنّى به ، وكان الشعر :

قُلْ للمليحة فى الخِمارِ[٣] الأسود ماذا فعلتِ بزاهـدٍ متعبِّدِ
قد كان شمّرَ للصـلاة ثيابَهُ حتى خطرْتِ له بباب المسجدِ
رُدِّى عليـه صلاته وصيامَهُ لا تقتُليه بحقِّ دِينِ محمـدِ

فشاع هذا الغناء فى المدينة، وقالوا : قدْ رجع الدارمى ، وتعشق صاحبة الخِمار الأسود، فلم تبق مليحةٌ بالمدينة إلا اشترت خِماراً أسود، وباع التاجر جميعَ ما كان معه ، فجعل إخوانُ الدارمى من النسّاك يَلقوْن الدارمى فيقولون : ماذا صنعت ؟ فيقول : ستعلمون نبأه بعد حين ، فلما نَفِدَ ما كان مع العراق رجع الدارمى إلى نسكه ولَبِسَ ثيابه !

---

* العقد الفريد : ٤ ــ ٩٦

(١) العدل : نصف الحمل . (٢) هو ربيعة بن عامر ، ولقبه مسكين ، ويصل نسبة إلى دارم بن مالك ، كان شاعراً شريفاً من سادات قومه، وقد غلب شعره فى مدح معاوية، توفى سنة ٩٠هـ .
(٣) الخمار : النصيف ، وما تغطى به المرأة رأسها .

٨ — دُعَابة ابن أبى عَتِيق *

لما دخلَ المدينةَ عُثمان بن حَيَّان المرِّى والياً[١] عليها اجتمع الأشرافُ عليه من قريشٍ والأنصار ؛ فقالوا له : إنك لا تعملُ عملا أَجْدَى ولا أولى من تحريم الغناء والرِّثاء[٢] ، ففعل وأجّل أهلها ثلاثاً يخرجون فيها من المدينة .

فقدمَ ابنُ أبى عَتِيق[٣] فى الليلة الثالثة ؛ فحطَّ رحلَه بباب سَلَّامةَ[٤] ؟ وقال لها: بدأتُ بكِ قبل أن أصِيرَ إلى منزلى ؛ فقالت : أوَ ما تدرى ما حدَث ؟ وأخبَرَتْه الخبر . فقال : أقيمى إلى السَّحر حتى ألقاهُ ! فقالت : إنا نخاف ألّا تُغْنى شيئاً ، ونُنْكَظَ[٥] . فقال : إنه لا بأسَ عليك !

ثم مضى إلى عثمان فاستأذنَ عليه ، فأذِنَ له وسلّم عليه ، وذكر له غيبتَه ، وأنه جاء ليقضى حقه ، وقال له : إن من أفْضَل ماعملتَ تحريمَ الغناء والرثاء . قال : إن أهلكَ قد أشاروا علىّ بذلك . قال : فإنك قد وُفِّقْتَ ! ولكنى رسولُ امرأةٍ إليك تقول : قد كانتْ هذه صناعتى فتُبتُ إلى اللهِ منها، وأنا أسألك أيُّها الأمير ألّا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبى صلى الله عليه وسلم.

فقال عثمان : إذن أدَعُها لك ولكلامك . قال : لا يدَعُك الناسُ ؛ ولكن

---

* الأغانى : ٨ ـ ٣٤١ ؛ الكامل : ١ ـ ٣٨٠ ، ذيل زهر الآداب : ٤٤

(١) دخل المدينة والياً للوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ هـ . (٢) الرثاء : يريد النياحة بالمراثى ، وفى رواية الأغانى غير ذلك . (٣) هو عبد الله بن أبى عتيق بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق: كان من نساك قريش وظرفائهم ، وله أخبار طويلة طريفة . (٤) سلامة الزرقاء : من مولدات المدينة ، وكانت أحسن الناس وجها وأتمهن عقلا ، وأجودهن حديثاً ، قرأت القرآن ، وروت الأشعار ، وأخذت الغناء من جميلة مولاة بنى سليم . (٥) ننكظ : تنالنا شدة .

تدعو بها وتسمع كلامها ، وتنظر إليها ، فإن كانت ممن يُترَك تركتَها . قال : فادْعُ بها .

فأمرها ابنُ أبى عتيق ؛ فتخشّعتْ ، وأخذتْ سُبْحَةً فى يدها ، وصارت إليه، وحدّثته ؛ فإذا هى من أعلم الناس بالناس ؛ فأُعجب بها ، وحدثته عن آبائه وأمورهم، فَفَكِهَ[1] لذلك ، فقال لها ابن أبى عتيق : اقْرَئى للأمير ؛ فقرأت له . فقال لها : احْدِى للأمير ، فحرّكه حُدَاؤها[2] . ثم قال لها : غَبِّرِى[3] للأمير ؛ فجعل يُعْجَبُ بذلك عثمان . فقال له ابن أبى عتيق : فكيف لو سَمِعتَها فى صناعتها ! فقال : قل لها فلتقل . فأمرها فغنّتْ :

سَدَدْنَ خَصَاصَ[4] الخَيم[5] لمادَخَلْنَهُ ... بِكُلِّ لَبَانٍ[6] واضِحٍ وجَبِينِ

فنزل عثمان بن حيّان عن سريره ، حتى جلس بين يديهــا ، ثم قال : والله مامثلكِ يخرج عن المدينة !

فقال له ابنُ أبى عَتِيق : يقول الناس : أَذِنَ لسلّامة فى المُقام وأخرج غيرها .

فقال له عثمان : قد أَذِنتُ لهم جميعاً !

---

(١) فكه لها : طابت نفسه . (٢) الحداء : غناء خلف الإبل تنشط به . (٣) التغبير : ضرب من الغناء اتخذه المتصوفة يتواجدون على أنغامه . (٤) الخصاص : خروق واسعة فى الخيم قدر الوجه، الواحدة خصاصة ، وهو يصف نساء تطلعن منها . (٥) الخيم : أعواد تنصب فى القيظ ، وتجعل لها عوارض ، وتظلل بالشجر ، فتكون أبرد من الأخبية . (٦) اللبان : الصدر.

٩— لَحْنُ الجميلة*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : حدثتْنى عَمَّتِي ـ وكانت أَسَنَّ من أبى وعُمِّرَتْ بعده ـ قالت : كان السببُ فى طلب أبيك الغناء والمواظبة عليه لحناً سمعه لجميلةَ فى منزلِ يونسَ بنِ محمد الكاتب ، فانصرف وهو كئيبٌ حزينٌ مهمومٌ ، ولم يَطْعَمْ(١) ولم يُقْبِلْ علينا بوجهه كما كان يفعل. فسألته عن السبب فأمسك، فألححتُ عليه فانْتَهرَنى ، وكان لى مُكْرِماً ؛ فغضِبتُ وقمتُ من ذلك المجلس إلى بيتٍ آخر ؛ فتبِعنى وترضَّانى ، وقال لى : أحدِّثُكِ ولا كتمانَ منكِ ! عشقتُ صوتاً لامرأة قد ماتت ، فأنا بها وبصوتها هائمٌ ، إن لم يتدارَكْنى الله منه برحمته. فقلت : أتظنُّ أن اللهَ يُحيِي لك ميتاً ! قال : لا . قلت : فما تعليقك قلبك بما لا يُعطاه أحد ! وأمّا عشقُك الصوت فهو أن تحذِقَهُ وتُغَنِّيَهُ عشرَ مرارٍ، فتَمَلَّهُ ويذهبَ عشقُك له ! فكأنه آرعوى ورجع إلى نفسه ، وقام فقبَّل رأسى ويدىَّ ورجلىَّ ، وقال لى : فرَّجْتِ عنى ما كنتُ فيه من الكرْب والغمِّ ، ثم تمثَّلَ :

* حُبُّكَ الشىءَ يُعْمِى ويُصِمّ *

ولزم بيت يونُسَ حتى حَذَق الصوتَ ، ولم يمكُثْ إلا زمناً يسيراً حتى مات يونس ، وانضمَّ إلى سِياط(٢) ، وكان من أحذق أهل زمانِه بالغناء وأحسنهم أداءً مّمن مضى .

---

* الأغاني : ٨ ـ ٢٢٠

(١) لم يطعم : لم يتناول الطعام . (٢) اسمه عبد الله ، مكى من موالى خزاعة ، وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلى ، وكان مقدماً فى الغناء ، رواية وصنعة ، مات فى أيام الهادى .

قالت عمتى : فقلت لإبراهيم : وما الصَّوْتُ ؟ فأنشدنى الشعر ولم يُحسن أداء الغناء :

مِنَ البَكَرَاتِ عِرَاقِيَّةٌ ... تُسَمَّى سُبَيْعَةَ أطْرَيْتُهَا

ومن آل أبى بكْرَةَ الأكْرَمِين ... خَصَصْتُ بِوُدِّى فأصْفَيْتُهَا

ومن حُبِّهَا زُرْتُ أهلَ العراق ... وأسْخَطْتُ أهْلِي وأرْضَيْتُهَا

أموتُ إذا شَحَطَتْ دَارُها ... وأحْيَا إذا أنا لاقَيْتُهَا

فأُقسمُ لو أنَّ مابى بهــا ... وكنتُ الطبيبَ لداويتُها

قالت عمتى : هذا شِعْرٌ حسنٌ ، فكيفَ به إذا ما قُطِّعَ ومُدِّدَ ! فما مضتِ الأيامُ والليالى حتى سمعتُ اللحنَ مؤدًّى ؛ فما خرق مسامعى شىءٌ قطُّ أحسنُ منه ؛ ولقد أذْكَرَنى بما يُؤْثَر من حُسْن صوتِ داودَ وجمالِ يوسف .

فبينا أنا يوماً جالسةٌ ، إذ طلع علىّ إبراهيمُ ضاحكا مستبشراً ؛ فقال لى : ألا أحدِّثُكِ بِعَجَب ؟ قلت : وما هو ؟ قال : إن لى شريكا فى عشق صوت جميلة ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : كنت عند سِياط فى يومنا هذا ، وأنا أُغَنِّيه الصوت ، وقد وقَّفَنى فيه على شىءٍ لم أكُنْ أحْكَمْتُهُ عن يونس ، وحضر عند سِياط شيخٌ نبيل ، فسبَّح(١) على الصوت تَسْبيحاً طويلا ؛ فظننت أنه فعل ذلك لاستحسانه الصوت . فلما فرغتُ أنا وسِياطٌ من اللحن قال الشيخ : ما أعجبَ أمرَ هذا الشعر ، وأحسنَ ما غُنِّى به ، وأحسنَ ما قال قائله !

فقلت له دُونَ القوم : وما بلغ من العَجَب به ؟ قال : نعم ! حَجَّتْ سُبَيْعَةُ

---

(١) سبح : قال : سبحان الله !

من ولد عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ ، وكانت من أجملِ النساء ، فأبصرها عمر بن أبي ربيعة(١) ، فلما انحدرتْ إلى العراق اتَّبَعَها يُشَيِّعها حتى بلغ معها موضعاً يقال له : الخَوَرْنَق . فقالت له : لو بلغتَ إلى أهلي ، وخطبْتَني لزوَّجوك . فقال لها : ما كنتُ لأخلِط تَشْييعي إيَّاكِ بِخِطْبَةٍ ، ولكن أرجعُ ثم آتيكم خاطباً ؛ فرجع ومرَّ بالمدينة ، فقال فيها :

من البَكَرَاتِ عِرَاقِيَّةٌ تُسَمَّى سُبَيْعَــةَ أطْرَيْتُها

ثم أتى بيتَ جميلة ، فسألها أن تَغَنَّى بهذا الشعرِ ففعلتْ . فأعجبه ما سمعَ من حُسْنِ غنائها وجودةِ تأليفها ؛ فحَسُن موقعُ ذلك منه ؛ فوجَّه إلى جارية له كانت تطلبُ الغناء أن تأتيَ جميلة ، وتأخذَ الصوتَ منها ، فطارحتْها إياه أياماً حتى حَذَقَتْ ومَهرتْ به . فلما رأى ذلك عمر قال : أرى أن تخرُجى إلى سُبيعة وتغنِّيها هذا الصوتَ وتبلِّغيها رسالتى ؛ قالت : نعم ؛ جعلنى الله فِدَاكَ .

فأتتها فرحَّبتْ بهـا ، وأعلمتْهـا الرسالةَ ، فحيَّتْ وأكْرَمَتْ ، ثم غنَّتْها فكادتْ تموت فرحاً وسروراً لحسن الغناء والشعر .

ثم عادتْ رسولُ عمر ، فأعلمَتْه ما كان ؛ وقالتْ له : إنهـا خارجةٌ فى تلك السنة .

فلما كان أوانُ الحجِّ استأذَنتْ سُبَيعة أباها فى الحج فأبى عليها ، وقال لها : قد حَجَجْتِ حِجَّةَ الإسلام . قالت له : تلك الحجة هى التى أسْهرَتنى ليلى ، وأطالت نهارى ، وتوَقَتْنِي إلى أن أعودَ وأزورَ البيتَ والقبرَ ؛ وإن أنتَ لم تأذنْ لى متُّ كَمَداً وغمّاً .

---

(١) عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة ، شاعر مشهور ، كان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ، وتوفى سنة ٩٣ هـ .

فلما رأى ذلك أبوها رقَّ لها، وقال : ليس يَسَعُنى منعها لِما أرى بها ؛ فأذن لها

ووافى عمرُ المدينة ليعرف خبرَها ؛ فلما قدمت علم بذلك ، وسألها أن تأتي منزل جميلة ، وقد سبقَ إليها عمرُ ، فأ كرَمتْها جميلة ، وسُرَّتْ بمكانها . فقالت لها سُبيعة : جعلنى الله فِدَاكِ ! أقلقنى وأسهرنى صوتُكِ بشعر عمرَ فِىَّ ، فأسمعينى إياه . قالت جميلة : وعَزَازَةً لوجْهكِ الجميل ! فغنَّتْها الصوت ؛ فأُغمى عليها ساعةً حتى رُش على وجهها الماء ، وثاب إليها عقْلُها . ثم قالتْ : أعيدى علىَّ ، فأعادت الصوت مراراً فى كل مرة يُغشَى عليها .

ثم خرجت إلى مكة وخرج معها . فلما رجعتْ مرَّتْ بالمدينة وعُمَرُ معها ؛ فأتت جميلة فقالت لها : أعيدى علىَّ الصوت. ففعلت ؛ وأقامت عليها ثلاثاً تسألها أن تعيدَ الصوت ، فقالت لها جميلة : إنى أريد أن أغنيك صوتاً فاسمعيه . قالت : هاتيه ياسيدتى فغنَّتها :

أبتِ المليحةُ أنْ تُوَاصِلَنِي ... وأظُنُّ أنِّى زائرٌ رَمْسِى (١)

لا خيرَ فى الدنيا وزينتها ... مالم تُوَافِقْ نفسُها نَفْسِي

لاصَبْرَ لى عنها إذا حَسَرَتْ (٢) ... كالبَدْرِ أو قَرْنٍ من الشمس

قالت سُبيعة : لولا أن الأوَّل شعر عمر لقدَّمْتُ هذا على كل شىء سمعته .

فقال عمر : فإنه والله أحسنُ من ذلك ؟ فأما الشعر فلا . قالت جميلة : صدقت والله !

---

(١) الرمس : القبر . (٢) يريد ظهرت .

١٠ — فى أيام الحج*

حجّ عمرُ بن أبى ربيعة فى عامٍ من الأعوام على نَجِيبٍ له، مَخضوبٍ بالحِنَّاء مشهَّر الرَّحل بقِرابٍ[١]، مُذْهَبٍ[٢]، ومعه عُبَيْدُ بن سُرَيْج على بَغْلةٍ له شَقراء، ومعه غلامه جَنَّاد[٣]، ويقودُ فرساً له أدْهَمَ أغرَّ مُحجَّلًا وكان عمر بن أبى ربيعة يسميه «الكوكب» فى عنقه طوق ذَهَب. ومع عُمَرَ جماعةٌ من حَشَمِهِ وغِلْمانه ومواليه، وعليه حُـلَّةٌ مَوشيَّة يمانية وعلى ابن سُرَيج ثوبان هَرَوِيَّانِ[٤] مرتفعان، فلم يمرُّوا بأحدٍ إلا عجِبَ من حسن هيئتهم، وكان عُمَرُ من أعْطر الناس وأحسنهم هيئة، فخرجوا من مكَّةَ يوم التَّرْوِية[٥] بعد العصر يريدون مِنًى.

فمرُّوا بمنزل رجل من بنى عبد مناف بمِنًى، قد ضُرِبَتْ عليه فَساطِيطُه[٦] وخِيَمُهُ، ووافَى الموضعَ عمرُ فأبصر بنتاً للرجل قدخرجتْ من قُبّتها، وستَر جَوارِيها دون القُبة لئلا يراها مَنْ مرَّ، فأشرف عمرُ على النَّجيب، فنظر إليها، وكانتمن أحسن النساء وأجملهن، فقال لها جوارِيها: هذا عمرُ بن أبى ربيعة، فرفعت رأسها

---

* الأغانى: ١ـ٢٥٩

(١) القراب: جراب السيف يصنع من الجلد. (٢) الإذهاب: الطلاء بالذهب. (٣) فى جناد يقول عمر:

فقلت لجناد خذ السيف واشتمل ... عليه برفق وارقب الشمس تغرب
وأسرج لى الدهماء واعجل بممطرى ... ولا تعلمن خلقاً من الناس مذهبى

(٤) ثوب هروى: منسوب إلى هراة. (٥) يوم التروية: الثامن من ذى الحجة لأن الماء كان قليلا بمنى فكانوا يرتوون من الماء لما بعد. (٦) الفسطاط: ضرب من الأبنية، وجمعه فساطيط.

فنظرت إليه، ثم سترتها جواريها وولائدها[١] عنه، حتى دخلت، ومضى عمر إلى منزله وفساطيطه بمنى، وقد نظر من الجارية إلى ماتيّمه، ومن جمالها إلى ماحيره؛ فقال فيها:

نظرتُ إليها بالمحصَّبِ[٢] من مِنًى ولى نظرٌ - لولا التحرّج - عارمُ[٣]
فقلت: أشمسٌ أم مصابيحُ بِيعةٍ[٤] بدَتْ لى خلفَ السجفِ أم أنت حالمُ
بعيدة مَهْوَى[٥] القُرْطِ إما لنوفلٍ أبوها وإما عبدُ شمس وهاشم
ومدّ عليها السَّجْفَ يوم لقيتُها على عَجَلٍ تُبّاعُها والخوادِمُ
فلم أستَطِعْها غيرَ أنْ قد بدَا لنا على الرغمِ منها كفُّها والمعاصِمُ
مَعَاصِمُ لم تَضرِبْ على البهْمِ[٦] بالضُّحَى عصاها ووَجْهٌ لم تَلحْهُ السمائم
نَضِيرٌ ترى فيه أساريعَ مائه[٧] صَبيحٌ تُغاديه الأكُفُّ النواعِمُ
إذا ما دعَتْ أترابَهَا فاكْتَنَفْنَهَا تمايَلْنَ أو مالَتْ بهن المآكِمُ[٨]
طلبنَ الصِّبا حتى إذا ما أصبْنَهُ نَزَعْنَ وهن المُسْلِمَاتُ الظَّوالِمُ

ثم قال لابن سُرَيج: يا أبا يحيى؛ إنى تفكرت فى رجوعنا مع العَشِيّة إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار وجَلَبَةِ الحاجّ، فثقُل علىّ؛ فهل لك أن نَرُوح رَواحاً طيباً معتزلا، فنرى فيه من راح صادراً إلى المدينة من أهلها، ونرى أهلَ العراق

---

(١) الوليدة: الأمة وجمعها ولائد. (٢) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى. (٣) عارم: حاد
(٤) البيعة: كنيسة النصارى. (٥) بعيدة مهوى القرط: كناية عن طول العنق. (٦) البهم: جمع بهمة، الصغير من أولاد الضأن. (٧) أساريع الماء: طرائقه، والمراد أنه يترقرق فيه ماء الشباب. (٨) المآكم: جمع مأكمة وهى العجيزة.

والشام ، ونتعلّل[1] في عشيتنا وليلتنا ونستريح ؟ قال : وأنَّى ذلك يا أبا الخطاب ؟ قال : على كُثَيِّب أبى شَخْوَة[2] ، المشرفِ على بَطْنِ يأْجَج[3] بين مِنًى وسَرِف ، فنُبْصر مرورَ الحاجّ بنا ونراهم ولا يَرَوْننا . قال ابن سُرَيج : طَيِّبٌ والله ياسيدى.

فدعا بعضَ خدَمِه فقال : اذهبوا إلى الدار بمكة ، فاعملوا لنا سُفْرَة[4] ، واحملوها مع شراب إلى الكُثَيِّب ، حتى إذا أبْرَدْنا[5] ، ورَمَيْنا الجَمْرة[6] صِرْنا إليكم .

فصارا إليه فأكلا وشَرِبا ، فلما انتشيا أخذ ابنُ سُرَيْج الدُّفَّ فنقره ، وجعل يغنِّى ، وهم ينظرون إلى الحاجّ ، فلما أمسيا رفع ابنُ سُرَيْج صوتَه فغنى فى الشعر الذى قاله عمر ، فسمعه الرُّكْبَان فجعلوا يَصيحون به : ياصاحبَ الصوت ؛ أما تتقى الله ! فقد حَبَسْتَ الناس عن مناسكهم ! فيسكُتُ قليلا ؛ حتى إذا مضَوْا رفع صوته ، وقد أخذ فيه الشراب ؛ فيقف آخرون ، إلى أن مرَّت قطعة من الليل ؛ فوقفَ عليه فى الليل رجلٌ على فرس عَتِيق[7] عربى مَرِح مُسْتَن[8] ، فهو كأنه تَمِل ، حتى وقف بأصل الكثيب ، وثنى رجلَه على قَرَبُوسِ[9] سَرْجِه ، ثم نادى : ياصاحب الصوت ؛ أيسهلُ عليك أن تَرُدَّ شيئاً مما سمعتهُ ؟ قال : نعم ، ونَعْمَةُ عين[10] ، فأيها تريد ؟ قال . تعيد علىّ[11] :

---

(١) تتعلل : تتلهى وتتسلى . (٢) موضع على خمسة أميال من مكة . (٣) يأجج : موضع قرب مكة . (٤) السفرة : طعام يتخذ للمسافر . (٥) أبردنا : دخلنا فى آخر النهار . (٦) الجمرة : واحدة جمرات المناسك وهى ثلاث جمرات . (٧) العتيق : الفرس الرائع الكريم . (٨) يقال استن الفرس : جرى فى نشاطه على سننه فى جهة واحدة. (٩) القربوس : مقدم السرج ومؤخره. (١٠) أفعل ذلك إنعاماً لعينك وإكراماً. (١١) الشعر لقيس بن ذريح .

أَلَا يا غُرابُ البينِ مالك كُلَّمَا ... نَعَبْتَ بِفِقْدانٍ علىَّ تَحُومُ
أَبِالْبَيْنِ من عَفْراء أنتَ مُخَبِّرِى ... عَدِمْتُكَ من طَيرٍ فأنت مَشُومُ

فأعاده، ثم قال له ابن سُرَيْج: ازدد إن شئت، فقال: غَنِّى:

أَمسلمَ(١) إنى - يابنَ كلِّ خليفةٍ ... ويافارسَ الهيجا ويافرَ الأرضِ
شكرتُكَ إن الشُّكرَ حَبْلٌ من التُّقَى ... وما كلُّ من أقرضْتَهُ نعمةً يَقْضِى
ونَوَّهتَ لى باسمى وما كان خاملًا ... ولكنَّ بعضَ الذكرِ أَنْبَهُ من بعضِ

فغنّاه، فقال له: الثالث، ولا أستزيدك. فقال: قل ما شئت، فقال: تغنينى(٢):

يادارُ أقْوَتْ(٣) بالجَزْعِ فالكُتُبِ(٤) ... بين مَسِيلِ العُذَيْبِ(٥) فالرُّحَبِ(٦)
لم تَتَقَنَّعْ بِفَضْلِ مِئْزَرِها ... دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَبِ

فغنّاه، فقال له ابن سُرَيْج: أبقيتَ لك حاجة؟ قال: نعم، تنزل إلىّ لأخاطبكَ شِفَاهاً بما أريد. فقال له عمر: انزل إليه، فنزل، فقال له: لولا أنى أريدُ وَدَاعَ الكعبة وقد تقدّمنى ثَقَلِى(٧) وغلمانى لأطلتُ المقام معك، ولنزلت

---

(١) يريد مسلمة بن عبد الملك. والشعر لأبى نخيلة الحمانى. (٢) نسب هذا الشعر فى اللسان - مادة (دعد) - لجرير، وورد فيه كما يأتى:

يادار أقوت بجانب اللبب ... بين تلاع العقيق فالكثب
حيث استقرت نواهم فسقوا ... صوب غمام مجلجل لجب
لم تتلفع بفضل مئزرها ... دعد ولم تغذ دعد بالعلب

والتلفع: الاشتمال بالثوب كلبسة نساء الأعراب. والعلب: أقداح من جلود، الواحد علبة يحلب فيه اللبن ويشرب، أى: ليست دعد هذه ممن تشتمل بثوبها وتشرب اللبن بالعلبة كنساء الأعراب الشقيات ولكنها ممن نشأ فى نعمة، وكسى أحسن كسوة. (٣) أقوت الدار: خلت. والجزع: منعطف الوادى. (٤) الكثب: موضع بديار طيء. (٥) العذيب - كزبير: ماء، أربعة مواضع (٦) موضع. (٧) الثقل: متاع المسافر.

عندكم ؛ ولكنى أخافُ أن يَفْضَحَنِي الصبح ، ولو كان ثقَلى معى لما رضيتُ لك بالهُوَيْنَى (١) ، ولكن خُذْ حُلَّتِي هذه وخاتمى ولا تُخْدَع عنهما ، فإن شراءهما ألفٌ وخَمْسُمائة دينار .

ثم قال له : بالله أنتَ ابن سُرَيج ؟ قال : نعم ، قال : حياك الله . وهذا عمرُ ابن أبى ربيعة ؟ قال : نعم ؛ قال : حياك الله يا أبا الخطاب !

فقال له : وأنت فحيَّاك الله ! قد عرفتَنا فعرِّفْنا نفسك ، قال : لا يمكننى ذلك ، فغضِبَ ابنُ سُرَيج وقال : والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد ، فقال له : أنا يزيد بن عبد الملك !

فوثب إليه عُمَرُ فأعْظَمه ، وابنُ سريج فقبَّلَ ركابه ، ثم مضى يزيد إلى ثَقَلِه ، ودفع ابن سُريج الحلةَ والخاتم إلى عمر فأعطاه إياهما ، وقال له : إنَّ هَذَيْنِ بك أشبه منهما بى ، فأعطاه عمر ثلاثمائة دينار وغَدَا فيهما إلى المسجد ، فعرفهما الناس ، وجعلوا يتعجّبون ويقولون : كأنهما والله حلَّة يزيد بن عبد الملك وخاتمه ، ثم يسألون عمر فيخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك !

---

(١) الهوينى : الأهون والأيسر .

١١ — فى وادى العَقيق*

كان ابنُ عائشةَ(١) من أحْسَنِ الناس غناء ، وأَنبهِم فيه ، وأضيقهم خلقاً : إذا قيل له غَنِّ ، يقول : أوَ لمثلى يُقال هذا ؟ علىَّ عِتقُ رقبة إنْ غنَّيت يومى هذا ! فإن غنَّى وقيل له : أحسنتَ ، قال : ألمثلى يقال أحسنت ؟ علىَّ عِتقُ رقبة إن غنيتُ سائِرَ يومى هذا .

فلما كان فى بعض الأيام سال وادِى العقيق ، فجاء بالعَجب ، فلم يَبْقَ بالمدينة مُخَبَّأة ولا شابَة ولا شابٌ ولا كَهْل إلا خرج يُبْصِرهُ ، وكان فيمن خرج ابنُ عائشة المغنِّى ، وهو مُعْتجر(٢) بفَضْل ردَائه ، فنظر إليه الحسنُ بن الحسن بن على بن أبى طالب —وكان فيمن خرج إلى العَقِيق— وبين يديه أسْوَدَانِ كأنهما سارِيتان يمشيان بين يديه أمام دابتِّهِ ، فقال لهما : اذهبا إلى الرجل المعتَجِر بفضلِ ردائه فخُذَا بضَبْعيهِ(٣) ، فإنْ فعل ما آمرُه به ، وإلا فاقْذفا به فى العقيق .

فمضيا والحسَنُ يقفُوهما ، فلم يشعر ابنُ عائشة إلا وهما آخِذَان بضَبْعَيْهِ ، فقال : مَن هذا ؟ فقال له الحسن : أنا هذا يابْنَ عائشة ، قال : لبيك وسَعْدَيك ! وبأبى أنت وأمى ! قال : اسمع منى ما أقول ، واعلم أنك مأسور فى أيديهما ، فغنِّ مائةَ صوت أو يطْرَحاكَ فى العقيق ، وإن لم يفعلا ذلك لأقطعنَّ أيديَهما !

---

* العقد الفريد : ٤ ـ ١١٠

(١) هو محمد بن عائشة : من المقدمين فى صناعة الغناء ، ووضع الألحان فى العصر الأموى ، توفى نحو سنة ١٠٠ هـ . (٢) الاعتجار : لف العمامة . (٣) أخذ بضبعيه : أى بعضديه .

فصاح ابنُ عائشة : يا ويْلَاه ! واعظمِ مُصِيبتاه ! قال : دَعْ صياحَك ، وخُذْ فيما ينفعنا .

قال : اقترح ، وأَقِمِ مَنْ يحصى ؛ وأقبل يغنى ، فترك الناسُ العقيق ؛ وأقبلوا عليه ؛ فلما تمَّت أصواتُه مائة كبّر الناسُ بلسان واحد تكبيرة واحدة ، ارتجّتْ لها أقطارُ المدينة ، وقالوا للحسن : صلى الله على رُوحك حيًّا وميتاً ! فما اجتمع لأهل المدينة سرورٌ قط إلا بكم أهل البيت .

فقال له الحسن . إنما فعلتُ هذا بكَ يابنَ عائشة لأخلاقك الشكِسَة ، قال له ابن عائشة : والله ما مرّت علىَّ مصيبة أعظمُ منها .

فكان ابنُ عائشة بعد ذلك إذا قيل له : ما أشدُّ ما مرَّ عليك ؟ قال : يوم العقيق .

١٢ — من أين صبّك اللهُ علىّ *

خرج ابنُ عائشةَ من عند الوليد بن يزيد وقد غنّاه :

أبعدَكَ مَعْقِلًا أرْجُو وَحِصْنًا   قد أعْيَتْنى المعاقِلُ والحُصون

فَأَطْرَبَه ؛ فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارَةِ القَصّار[١] كُسوة .

فبينا ابنُ عائشة يسيرُ إذ نظر إليه رجلٌ من أهلِ وادى القرَى كان يشتهى الغناء ويشربُ النبيذَ ؛ فدنا من غلامه وقال : مَنْ هذا الراكب ؟ قال : ابن عائشة المغنى ، فدنا منه وقال : جُعِلْتُ فداءك ! أنت ابن عائشة أم المؤمنين ؟ قال : لا ، أنا مَوْلًى لقريش ، وعائشةُ أمى ، وحسبُك هذا ، فلا عليك أن تُكْثِر ؛ قال : وما هذا الذى أراهُ بين يديك من المال والكُسوة ؟ قال : غنّيتُ أمير المؤمنين صوتًا فأطربته فأمر لى بهذا المال وهذه الكُسوة . قال : جُعلت فداءك ؛ فهل تمنُّ علىّ بأن تُسْمِعنى ما أسمعتَه إياه ؟ فقال له : وَيْلَكَ أمِثْلى يكلَّم بمثل هذا فى الطريق ! قال : فما أصنع ؟ قال : الحقنى بالباب .

وحرّكَ ابنُ عائشة بَغْلَةً شقراء كانت تحتَه لينقطعَ عنه ، فعَدَا معه حتى وافَيَا الباب كفَرَسَىْ رِهان ، ودخل ابنُ عائشة فمكث طويلا طمعًا فى أن يَضْجر فينصرف ؛ فلم يفعل ؛ فلما أعياه قال لغلامه : أَدْخِله ، فلما دخل ، قال له : وَيْلَكَ ! من أينَ صَبّك الله علىّ ؟ قال : أنا رجلٌ من أهل وادى القرَى ، أشتهى هذا

* الأغانى : ٢ — ٢٢٧

(١) كارة القصار : الثياب التى يجمعها ويحملها . والقصار : محور الثياب .

الغناء ؛ فقال له : هل لك فيما هو أنفعُ لك منه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرِفُ بها إلى أهلك ؛ فقال له : جُعِلت فداءك ؛ والله إن لى لبُنَيَّة ما فى أذنها - علم الله - حَلْقة من الوَرِق فضلا عن الذهب ، وإن لى لزوجة ، ما عليها - يشهدُ الله - قميصٌ ؛ ولو أعطيتَنى جميعَ ما أمر لك به أميرُ المؤمنين على هذه الخَلَّة[1] والفقر اللذين عرَّفْتُكهما ؛ وأضْعَفْتَ لى ذلك ، لكان الصوتُ أعجبَ إلىّ - وكان ابنُ عائشة تائها[2] لا يغنّى إلا الخليفةِ أو لذى قَدْرٍ جليل من إخوانه - فتعجَّب ابنُ عائشة منه ورَحِمه ودَعَا بالأَدَاة[3] - وكان يغنى مرتجلا - فغنَّاه الصوت ؛ فطرب له طرباً شديداً ، وجعل يحرِّك رأسه حتى ظنّ أن عُنُقَهُ سينقصف . ثم خرج من عنده .

وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد ، فسأل ابنَ عائشة عنه ، فجعل يَغِيبُ عن الحديث ؛ ثم جدَّ الوليد به فصدقَه عنه . وأمر بطَلَبِ الرجل فطُلِبَ حتى أحضر ؛ ووصله صِلةً سنيَّة ، وجعله فى ندمائه ، ووكَّله بالسَّقْى ، فلم يزَلْ معه حتى مات .

---

(١) الخلة : الحاجة والخصاصة . (٢) من التيه ، وهو الصلف والكبر . (٣) الأداة : آلة من آلات الغناء .

١٣ — ارجع إلى عملك راشداً *

أتى رجلٌ من العراق المدينة فى طلب جاريةٍ - وُصِفت له - قارئةٍ قوّالةٍ ؛ فسأل عنها فوجدها عنـد قاضى المدينـة ، فأتاه وسأله أن يَعْرِضها عليه ، فقال : ياعبد الله ، لقد أبْعَدتَ الشُّقَّة فى طلب هذه الجارية فما رغبتُك فيها ؟ قال : إنها تُغَنِّى فتجيد . فقال القاضى : ما علمتُ بهذا ، فألحّ عليه فى عَرْضِها ، فعُرِضت بحضرة مولاها القاضى . فقال لها الفتى : هاتى ، فغنّت :

إلى خالدٍ حتى أُنِخْنَ بخالد ... فنعم الفتى يُرْجى ونعمَ المؤمّل !

ففرح القاضى بجاريته ، وسرّ بغنائها ، وغَشِيه من الطرب أمر عظيم ، وقال : هاتى شيئاً بأبى أنت ؛ فغنّت :

أروح إلى القُصّاصِ[١] كلّ عشية ... أرجِّى ثواب الله فى عَدَدِ الخُطَا

فزاد الطرب على القاضى ، ولم يدر ماذا يصنع ، فأخذ نعله فعلّقها فى أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه ، والنعل معلقة فيها ويقول : اهدونى إلى البيت الحرام ، فإنى بَدَنَةٌ[٢] ! حتى أَدْمَى أذنه !

فلما أمسكَتْ أقبل على الفتى فقال : انصرف ! قد كنّا فيها راغبين قبـل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغَبُ . فانصرف الفتى .

---

* المسعودى : ٢ ـ ١٧٠

(١) القصاص : جمع قاص ، وكانوا يجلسون فى صدر الإسلام فى المساجد يقصلون ما فى كتاب الله من قصص الأنبياء ، ابتغاء العبرة . (٢) البدنة : من الإبل والبقر ماتهدى إلى مكة .

وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ؛ فقال : قاتله الله ! لقد استرقّه الطرب ، وأمر بصَرْفِه عن عمله .

فلما صُرِف قال : لو سمعها عمر لقال : ارْكَبُونى فإنى مطيّة !

فبلغ ذلك عمر ، فأشْخَص[1] القاضى والجارية ؛ فلما دخلا عليه قال : أعد ماقلت ! قال : نعم ! فأعاد ما قال ، فقال للجارية : قولى ؛ فغنت[2] :

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُونِ[3] إلى الصَّفَا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامِرُ
بلى ! نحنُ كنَّا أهلَها فأبَادَنا صروفُ اللَّيالى والجدودُ العَواثِرُ

فما فرغتْ من الشعر حتى طَرِب عُمر طرباً بيناً ، وأقبل يستعيدها ثلاثاً ، وقد بلَّتْ دموعُهُ لحيته ، ثم أقبل على القاضى ، فقال : ارجع إلى عَمَلك راشداً !

---

(١) أشخص : الشخوص : السير من بلد إلى بلد . (٢) قائل البيتين : عمرو بن الحارث بن مضاض ابن عمرو يتأسف على البيت . (٣) الحجون : جبل بمكة .

١٤ — الأحوص يحتال حتى تسمع سلامة غناء الغريض *

وجَّه يزيدُ[١] بن عبد الملك إلى الأحْوص فى القُدوم عليه ، وكان الغَرِيض[٢] معه ، فقال له : اخْرُجْ معى حتى آخذَ لك جائزةَ أمير المؤمنين وتُغَنِّيه ؛ فإنى لا أحمل إليه شيئاً هو أحبّ إليه منك ، فخرجا .

فلما قدم الأحوص على يزيد جلس له ودَعا به ؛ فأنشده مدائح فاستحسنها ، وخرج مِن عنده ؛ فبعثتْ إليه سَلامَة جارية يزيد بلَطَف[٣] ؛ فأرسل إليها : إنَّ الغَرِيض عندى قدمتُ به هديةً إليك . فلما جاءها الجواب اشتاقت إلى الغريض وإلى الاستماع منه .

فلما دعاها أميرُ المؤمنين تمارضتْ وبعثت إلى الأحوص : إذا دعاك أمير المؤمنين فاحتلْ له فى أن تذكر له الغَرِيضَ .

فلما دعا يزيد الأحوص قال له يزيد : ويحك يا أحوص ! هل سمعت شيئا فى طريقك نُطْرِفُنَا به ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ مررت فى بعض الطريق فسمعت صوتاً أعجبنى حُسْنُه وجودةُ شعره ؛ فوقفتُ حتى استقصيتُ خبرَه ، فإذا هو الغَرِيض ، وإذا هو يغنى بأحسن صوت وأشْجَاه .

---

* الأغانى : ٨ — ٣٤٤

(١) بويع يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، وكان صاحب لهو ولذات ، محباً لسماع الغناء . توفى سنة ١٠٥ هـ . (٢) اسمه عبد الملك ؛ والغريض لقبه ، أخذ الغناء عن ابن سريج ، وبرع فيه وفاقه . (٣) اللطف : البر .

ألا هاج التذكرُ لى سقاما ... ونُكسَ[1] الداءِ والوجعَ الغراما[2]
سلامةُ إنها همّى ودائى ... وشرُّ الداء ما بطنَ العظاما[3]
فقلتُ له - ودمعُ العين يجرى ... على الخدّين أربعةً سِجاما[4]:
عليك لها السلامُ فمن لِصبٍّ ... يبيتُ الليل يهذِى مُستهاما

قال يزيد: ويلكَ يا أحوص! أنا ذاك فى هوى خليلتى، وما كنت أحسب مثلَ هذا يتّفِق، وإن ذاك لما يزيد لها فى قلبى. فما صنعتَ يا أحوص حين سمعتَ ذاك! قال: سمعتُ ما لم أسمع يا أمير المؤمنين أحسن منه، فما صبرتُ حتى أخرجت الغَريض معى وأخفيتُ أمره، وعلمتُ أن أميرَ المؤمنين يسألنى عما رأيتُ فى طريقى.

فقال له يزيد: ائتنى بالغَريض ليلًا وأخفِ أمرَهُ؛ فرجع الأحوص إلى منزله، وبعث إلى سلّامة بالخبر. فقالت للرسول: جُزِيت خيراً. قد انتهى إلىّ كلُّ ما قلتَ، وقد تلطفتَ وأحسنتَ.

فلما وارَى الليلُ أهلَه بعث إلى الأحوص أنْ عجّلْ المجىء إلىّ مع ضيفك.

فجاء الأحوص مع الغَريض فدخلا عليه؛ فقال: غَنِّنى الصوتَ الذى أخبرنى أنه سمعه منك - وكان الأحوصُ قد أخبر الغَريضَ الخبرَ، وإنما ذلك شعر قاله الأحوص يريد أن يحركه به على سلّامة، ويحتال للغريض فى الدخول عليه -

---

(١) النكس: عود المرض بعد النقه. (٢) الغرام: الملازم الشديد. (٣) بطن: دخل.
(٤) يريد اللحاظين والموقين للعينين.

فلما غنّاه الغريض دمعت عَيْنُ يزيد ، وأمر بإحضار سلّامة فحضرت، وضُرِبَ لها حجابٌ فجلست ، وأعاد عليه الغَرِيض الصوت ؛ فقالت : أحسنَ والله يا أمير المؤمنين ، فاسمَعْهُ منى . فأخذت العود فضربته وغنّت الصوت ، فكاد يزيد يطير فرحاً وسُرُوراً، وقال : يا أحوص ؛ إنك لَمُبارك ! يا غريض ؛ غَنِّنى فى ليلتى هذا الصوت ، فلم يزل يغنيه حتى قام يزيد وأمر لهما بمال ، وبعثت سلّامة إليهما بكُسْوَةٍ ولَطَف كثير .

١٥ — غناء فى ختان*

قال عبدُ الرحمن بن إبراهيم المخزومى : أرسلتنى أمى وأنا غلام أسأل عَطاء[١] بن أبى رباح عن مسألة ، فوجدته فى دارٍ يقالُ لها دار المعلّى ، وعليه مِلْحَفة مُعَصْفَرة ، وهو جالس على مِنبر ، وقد خُتِنَ ابنُه ، والطعامُ يوضع بين يديه ، وهو يأمرُ به أن يُفرَّق فى الخلق ، فلهَوْتُ مع الصبيان ألعب بالجوز حتى أكل القومُ وتفرَّقُوا ، وبقى مع عطاء خاصَّتُه ، فقالوا : يا أبا محمد ، لو أذِنْتَ لنا ، فأرسلنا إلى الغَرِيض وابن سُرَيج ! فقال : ما شئتمُ . فأرسَلُوا إليهما ، فلما أتيا قاموا معها ، وثبتَ عطاء فى مجلسه فلم يدخل ، فدخلوا بهما بيتاً فى الدار فَغَنَّيَا وأنا أسمع ، فبدأ ابن سُريج فنقر بالدُّفِّ ، وتغنى بشعر كثير :

بلَيْلَى وجارَاتٍ لليلى كأنها ... نِعاجُ المَلا[٢] تُحْدَى بهنَّ الأباعرُ

أمُنْقَطِعٌ يا عزَّ ما كانَ بيننا ... وشاجِرُنى يا عزَّ فيك الشَّواجر[٣]

إذا قيلَ هذا بيتُ عزَّةَ قادَنى ... إليه الهوى واستَعْجَلَتْنِى البَوادِرُ[٤]

أصدُّ وبى مثلُ الجُنون لكى يرَى ... رُوَاةُ الخنا أنى لِبَيْتِكِ هاجِرُ

ألَا ليتَ حَظِّى منك يا عزُّ أننى ... إذا بنتِ باعَ الصبرَ لى عَنْكِ تاجِرُ

---

* الأغانى : ١ — ٢٧٨

(١) هو عطاء بن أسلم بن صفوان . تابعى من أجلاء الفقهاء ، ولد فى اليمن ، ونشأ بمكة ، فكان مفتى أهلها ومحدثهم ، وتوفى فيها سنة ١١٥ هـ . (٢) الملا : الصحراء . (٣) الشواجر : جمع شاجر ؛ شجره عن الأمر : صرفه عنه . (٤) البوادر : الدموع .

فكأن القوم نزل عليهم السُّبَات ، وأدركهم الغَشْيُ ، فكانوا كالأموات ، ثم أصغَوا إليه بآذانهم ، وشخصت إليه أعينهم ، وطالت أعناقهم . ثم غنّى ابن سُريج ووقّع بالقضيب ، وأخذ الغريضُ الدُّفَّ ، فغنّى بشعر الأخطل :

فقلتُ اصْبَحُونا[1] لا أبا لأبيكمُ ... وما وضعوا الأثقالَ إلا ليفعلوا

وقلت : اقتلوها[2] عنكُمُ بمزاجها ... فأكْرِمْ بها مقتولةً حين تُقتَلُ

أناخوا فجرُّوا شاصياتٍ[3] كأنها ... رجالٌ من السودان لم يَتَسَرْبَلُوا

فوالله ما رأيتهم تحركوا ولا نطقوا إلا مستمعين لما يقول .

ثم غنّى الغَرِيض بشعر آخر ؛ وهو :

هل تعرف الرسمَ والأطلالَ والدِّمَنا ... زِدْنَ الفؤاد على ما عِنْدَهُ حزنا

دارٌ لأسماء إذ كانت تَحُلُّ بها ... وإذ ترى الوصْلَ فيما بيننا حسنا

إذ تَسْتَبِيكَ بمَصْقُولٍ عَوَارِضُهُ[4] ... ومُقْلَتَيْ جُؤْذَرٍ لم يَعْدُ أن شَدَنا

ثم غنى الغَرِيض فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، وهو قوله :

كفى حَزَنًا أن تجمعَ الدارُ شَمْلَنَا ... وأمسِي قريبًا لا أزورُكِ كُلَّمَا

دَعِي القلبَ لا يَزْدَدْ خبالًا مع الذى ... به منكِ أو دَارِى جَوَاهُ المكتَّمَا

ومَنْ كان لا يَعْدُو هواهُ لسانَه ... فقد حلَّ فى قلبى هواكِ وخيَّمَا

وليس بتَزْوِيقِ[5] اللِّسان وصَوْغه ... ولكنّه قد خالَطَ اللحمَ والدَّمَا

---

(١) اصبحونا : ايتونا بالصبوح ، وهو ما يشرب فى الغداة إلى القائلة . (٢) قتل الخمر : مزجها بالماء . (٣) الشاصيات : الزقاق المملوءة الشائلة القوائم . (٤) العوارض : الثنايا ، أو هى الأسنان التى تبدو من الفم عند الضحك . (٥) التزويق : التحسين والتزيين .

قال الراوى : وما زالا يغنّيان وعطاء يسمع على منبره ومكانه ، وربما رأيت رأسه قد مال وشفتيه تتحركان حتى بلغتْه الشمس ، فقام يريد منزله ، فما سمع السامعون شيئاً أحسن منهما ، وقد رفعا أصواتهما ، وتغنيا .

ولما بلغت الشمس عطاء قام وهم على طريقةٍ واحدة فى الغناء ، فاطّلع فى كُوَّة البيت ، فلما رأوه قالوا : يا أبا محمد ؛ أيهما أحسنُ غناء ؟ قال : الرقيق الصوت . يَعْنى ابنَ سُرَيْج !

١٦ – يضطرب حين سمع الغناء*

لقى عطاءُ بنُ أبى رَباح ابنَ سُرَيج[١] بذى طُوًى[٢] ، وعليه ثيابٌ مصبَّغة، وفى يده جَرادةٌ مشدودةُ الرِّجل بخيط يطيِّرُها ويجذبها به كلّما تخلَّفتْ ، فقال له عطاء : يافَتّان ؛ ألَا تكفَّ عما أنتَ عليـه ! كفى اللهُ الناسَ مئونتك . فقال ابنُ سريج : وما على الناس من تلوينى ثيابى ولعبى بجَرادتى ؟ فقال له : تفتنُهم بأغانيك الخبيثةِ ، فقال له ابنُ سُريج : سألتُكَ بحقِّ مَنْ تبعتَه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحقِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلَّا ماسمعتَ منى بيتاً من الشعر ، فإن سمعتَ منى مُنكراً أمرتنى بالإمساك عما أنا عليه ، وأنا أقسم بالله وبحق هذه البَنِيَّة[٣] لئن أمرتنى بعد استماعك منى بالإمساك عمَّا أنا عليه لأفعلَنَّ ذلك .

فأطمع ذلك عطاء فى ابن سُرَيج ، وقال : قل ، فاندفع يغنى بشعر جرير :

إنَّ الذين غَدَوْا بِلُبِّك غادروا   وشَلًا[٤] بعينكَ لا يزالُ مَعِينا[٥]

---

* الأغانى : ١ – ٥٦ ، نهاية الأرب : ٤ – ٢٤٥

(١) هو عبد بن سريج ، كان من أحسن الناس غناء ، وهو أول من ضرب بالعود على الغناء العربى بمكة ، انقطع إلى عبد الله بن جعفر ، ومات فى خلافة هشام بن عبد الملك .

(٢) ذو طوى : موضع بمكة .   (٣) البنية : الكعبة .   (٤) الوشل: الدمع الكثير .

(٥) المعين : الجارى السائل .

غَيْضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لى   ماذا لقيت من الهـــــوى ولقينا

فلما سمع عطاء الغناء اضطربَ اضطراباً شديداً ودخلته أريحيَّة، فحلف ألّا يكلّمَ أحَداً بقيَّةَ يومه إلا بهذا الشعر ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كلُّ مَنْ يأتيه سائلًا عن حَلَالٍ أو حرامٍ أوخبرٍ من الأخبار ، لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وينشد هذا الشعر حتى صلى المغرب ، ولم يعاود ابنَ سُرَيج بعدها ولا تعرَّض له .

١٧ — فى قصر الوليد بن يزيد*

اشتاق الوليدُ بنُ يزيدَ إلى مَعْبد(١) ، فوجَّه إليه إلى المدينة فأُحْضِر، وبلغ الوليدَ قدومُه ؛ فأمر بِبِرْكةٍ بين يدَىْ مجلسِه فمُلئت ماءَ وَرْدٍ قد خُلِط بمسك وزعفران، ثم فُرِش للوليد فى داخل البيت على حافةِ البِرْكة ، وبُسِط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معهما ثالثٌ ، وجىءَ بمعبد فرأى سِتْراً مُرْخًى ومجلسَ رجل واحد ، فقال له الحُجّاب : يامعبد ؛ سلِّمْ على أمير المؤمنين واجلِسْ فى هذا الموضع ، فسلَّم فردَّ عليه الوليدُ السلامَ مِنْ خَلْفِ السِّتْر ؛ ثم قال له : حيَّاك الله يامعبد ! أتدرى لِمَ وَجّهتُ إليك ؟ قال : الله أعلم وأميرُ المؤمنين . قال : ذكرتك فأحببتُ أن أسمع منك . قال معبد : أأُغَنِّى ما حضر أم مايقترحُه أمير المؤمنين ؟ قال: بل غَنِّنى :

مازال يَعْدُو عليهم رَيْبُ دهرِهمُ   حتى تفانَوْا ورَيْبُ الدَّهْر عدَّاء
أبْكَى فِراقُهُمُ عينى وأرَّقَهــا   إن التفرقَ للأحبــاب بكّاء

فغنّاه ، فما فرغ منه حتى رفع الجوارى السَّجْفَ(٢) ، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها ، ثم خرج منها فاستقبله الجوارى بثيابٍ غير الثياب الأولى، ثم شرب وسقى معبداً ، ثم قال : غنّنى يامعبد :

يارَبْعُ مالكَ لا تُجِيبُ متيَّماً   قد عاجَ(٣) نحوكَ زائراً ومسلِّما

---

* الأغانى : ١ـ ٥٣

(١) هو معبد بن وهب ، فحل المغنين ، وإمام أهل المدينة فى الغناء ، اشتغل فى أول أمره بالتجارة ، ورعى الغنم ، واختلف إلى نشيط الفارسى وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت ، مات بدمشق فى أيام الوليد بن يزيد .

(٢) السجف : الستر . (٣) عاج : مال .

جادتكَ كلُّ سحـــابةٍ هَطّالةٍ   حـــتى ترُى عن زَهرةٍ مُتَبَسِّما
لو كنتَ تَدرِى مَنْ دعاك أجبتَه   وبكيت من حُرَقٍ عليه إذَنْ دَما

فغناه؛ وأقبل الجوارى فرفعْنَ السِّتْرَ ، وخرج الوليد فألقى نفسَه فى البركة فغاص فيها ثم خرج ، فلبس ثيابا غير تلك ، ثم شرِب وسقى معبداً ، ثم قال له : غنّنى . فقال : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : غنّنى :

عَجِبتْ لما رَأتْنِي   أندبُ الربعَ المُحِيلا[1]
واقفاً فى الدار أبكى   لا أرى إلا الطـــلولا
كيفَ تبكى لأناسٍ   لا يملّون الذَّمِيلا[2]
كلَّما قلتُ اطمأنّتْ   دارُهم قالوا الرَّحِيـــلا

فلما غنّاهُ رمى بنفسه فى البركة ثم خرج فرَدُّوا عليـه ثيابه ، ثم شرب وسقى معبداً ، ثم أقبل عليه الوليد فقال له : يا معبد ؛ مَن أراد أن يزداد عند الملوك حُظْوَةً فليكْتُمْ أسرارَهم ، فقلت : ذلك مالا يحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصائى به ، فقال : يا غلام ؛ احمل إلى معبدٍ عشرة آلاف دينار تُحَصَّلُ له فى بلده ، وألفى دينار لنفقةِ طريقه ، فحُمِلَتْ إليه كلّها ، وحُمِل على البريد من وقتِهِ إلى المدينة .

---

(١) المحيل : الذى أتت عليه أحوال فغيرته . (٢) الذميل : السير اللين .

١٨ — معبد فى مكة*

قال معبد : غنّيتُ فأعجبنى غنائى ، وأعجبَ النــاسَ ، وذهبَ لى به صِيتٌ وذِكْرٌ ، فقلت : لآتينّ مكة فلأسْمَعَنّ من المغنّين بها ، ولأُغَنِّيَنَّهُمْ ، ولأَتعرّفَنّ إليهم .

فابتَعْتُ حمارا ، فخرجتُ عليه إلى مكة ، فلما قدِمْتها بعتُ حمارى ، وسألتُ عن المغنّين : أين يجتمعون ؟ فقيل : بقُعَيقِعان(١) ، فى بيت فلان .

فجئت إلى منزله بالغَلَسِ(٢) ، فقرعتُ البـاب ، فقال : مَنْ هـذا ؟ فقلت : انظرْ عافاك الله ؛ فدنا وهو يسبّحُ ويستعيذ كأنه يخاف ، ففتح ، فقال : مَن أنت عافاك الله ؟ قلت : رجل من أهل المدينة . قال : فمـا حاجتك ؟ قلت : أنا رجل أشتهى الغناء ، وأزعم أنى أعرف منه شيئاً ، وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك ، وقد أحببت أن تُنزلنى فى جانب منزلك وتخلطَنى بهم ، فإنه لا مئونة عليــك ولا عليهم .

فلوَى(٣) شيئاً ثم قال : انزل على بركة الله . فنقلت متاعى فنزلت فى جانب حُجرته .

ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكرونى ،وقالوا:

---

* الأغانى : ١ ــ ٥٧

(١) قعيقعان : اسم قرية بها مياه وزروع ونخيل قرب مكة . (٢) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بظلمة الصباح . (٣) فلوى شيئاً : فتمكث قليلا .

مَنْ هـذا الرجل ؟ قال : رجل من أهل المدينة ضيفٌ يشتهى الغناء ، ويطرب عليه ، ليس عليكم منه عَنَاء ولا مكروه . فرحّبوا بى وكلّمهم ، ثم انبَسَطوا وشربوا وغَنَّوْا ، فجعلت أُعْجَبُ بغنائهم وأظهر ذلك لهم ، ويعجبهم منى حتى أقمنا أياماً ، وأخـذتُ من غنائهم ـ وهم لا يدرون ـ أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ؛ ثم قلت لابن سُرَيج : أَمْسِك علىّ صوتك :

قل لهِنْـــدٍ وتِرْبِهَا[(١)] قبلَ شَحْطِ[(٢)] النَّوَى غَـدا
إنْ تَجُودِى فطَالَمـــا بتُّ ليـــلى مُسَهَّدَا

قال : أو تحسن شيئاً ؟ قلت : تنَظَّرْ[(٣)] ، وعسى أن أصنعَ شيئاً ، واندفعت فيه فغنّيته ؛ فصاح وصاحوا ، وقالوا : أحسنْتَ ! قاتلك الله ! قلت : فأَمْسِكْ علىّ صوت كذا ؛ فأمسكوه علىّ فغنيته ؛ فازدادوا عجباً وصياحاً ، فما تركت واحداً منهم إلا غنيتهُ من غنائه أصواتاً قد تخيّرتها ؛ فصاحوا حتى علتْ أصواتُهم ، وهَرَفُوا بى[(٤)] ، وقالوا : لأنت أحسنُ بأداء غنائنا عنّا مِنّا . قلت : فأمسكوا علىّ ولا تضحكوا[(٥)] بى حتى تسمعوا من غِنائى . فأمسكوا علىّ فغنيت صوتاً من غِنائى ، فصاحوا بى ، ثم غنيتهم آخر وآخر ؛ فوثبوا إلىّ وقالوا : نحلف بالله إن لك لصيتا واسماً وذِكْراً ، وإن لك فيما هنا[(٦)] لسهماً عظيما ، فمن أنت ؟ قلت : أنا معبد ؛ فقبّلوا رأسى ، وقالوا : لَفَّفْتَ[(٧)] علينا وكنا نَتهاوَنُ بك ، ولا نعدُّك شيئاً ، وأنت أنتَ !

فأقمتُ عندهم شهراً آخذ منهم ويأخذون منى ، ثم انصرفتُ إلى المدينة .

---

(١) الترب : اللدة ، وهو من عاثلك فى سنك . (٢) الشحط : البعـد ، والشعر لعمر بن أبى ربيعة . (٣) تنظر : تأن وتلبث . (٤) هرف به : مدح حتى جاوز القدر فى الثناء والإطراء . (٥) ضحك به ومنه بمعنى . (٦) سهما : نصيبا . (٧) لففت علينا : أى سترت علينا أمرك .

١٩ — مَعْبَد فى السفينة*

كان مَعْبَد قد علَّم الغناء جارية من جوارى الحجاز تدعى ظَبْيَة، وعُنِى بتخريجها؛ فاشتراها رجل من أهل العراق، فأخرجها إلى البصرة، وباعها هناك، فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأُعجِب بها، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده بُرْهَةً من الزمان، وأخذ جواريه أكثرَ غنائها عنها، فكان لمحبته إياها وأسَفِه عليها لا يزال يسألُ عن أخبار مَعْبد وأين مستقرُّه؟ ويُظهرُ التعصب له والميل إليه، والتقديمَ لغنائه على سائر أغانى أهلِ عَصْره إلى أن عرف ذلك منه.

وبلغ معبداً خبرُه، فخرج من مكة حتى أتى البصرة، فلما وَرَدَها صادف الرجلَ، وقد خرج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز، فاكترى سفينة، وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز، فلم يجد غير سفينة الرجل، وليس يعرف أحد منهما صاحبه، فأمر الرجلُ الملّاحَ أن يُجلسه معه فى مؤخَّر السفينة، ففعل وانحدروا.

فلما صاروا فى فم نهر الأُبُلَّة(١) تغدَّوا وشربوا، وأمر جواريه فغنَّين، ومعبد ساكت، وهو فى ثياب السفر، وعليه فروٌ وخُفَّان غليظان وزِىٌّ جافٍ من زِىّ أهل الحجاز، إلى أن غنَّت إحدى الجوارى:

بانت سُعَادُ وأمسى حبلُها انصَرَمَا ... واحتلتِ الغَوْرَ والأجْراعَ من إضَمَا(٢)

---

* الأغانى: ١ — ٤٨

(١) الأبلة: بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة. (٢) الغور: المطمئن من الأرض، والأجراع: جمع جرع، وهو مفرد أو جمع جرعة، وهى الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها، وإضم: واد بجبل تهامة، وهو الوادى الذى فيه المدينة، والشعر للنابغة.

إحدى بَلِيٍّ وما هام الفؤادُ بها إلّا السِّفَاهَ وإلا ذِكرةً حُلُما[1]

فلم تُجِدْ أداءه، فصاح بها مَعْبَد: ياجارية؛ إن غناءك هذا ليس بمستقيم. فقال له مولاها ـ وقد غضب: وأنتَ ما يُدْرِيك الغناء ما هو! ألَا تُمسِكُ وَتلزم شأنَك! فأمسك.

ثم غنّت أصواتاً من غناء غيره، وهو ساكت لا يتكلم، حتى غنت:

يابنةَ الأزدِيّ قلبي كئيبُ مُسْتَهَام عنـدها ما يُنيبُ
ولقـد لاموا فقلت: دَعُونى إن من تَنْهَوْنَ عنه حَبِيبُ
إنما أَبْلَى عظامى وجسمى حبُّها، والحبُّ شىءٌ عجيبُ
أيها العائبُ عنـدى هواها أنت تفْدِى من أراكَ تعيبُ

فأَخَلَّتْ ببعْضِه؛ فقال لها معبد: يا جارية؛ لقد أخللتِ بهذا الصوت إخلالا شديداً؛ فغضب الرجل وقال له: ويلك! ما أنتَ والغناء! ألا تكفّ عن هذا الفُضُول! فأمسك وغنّى الجوارى مليا؛ ثم غنت إحداهن:

خليلَىَّ عُوجَا فابكيا ساعةً معى على الرَّبْع نَقْضى حاجة ونودّع
ولا تعجِـلَانى أن أُلِمّ بِدِمْنَةٍ لعزّةَ لاحتْ لى ببيـداء بَلْقَعِ
وقُولَا لقلبٍ قد سَلَا: راجع الهوى وللعين: أذْرِى من دموعكِ أودَعِى
فلا عَيْشَ إلا مثلُ عيش مَضَى لنـا مَصِيفاً أقمنا فيه من بعـد مَرْبع

فلم تصنع فيه شيئاً، فقال لها معبد: ياهذه؛ أماتقومينَ على أداء صوت واحد! فغضب الرجل وقال له: ما أراك تدعُ[2] هذا الفضول بوجهٍ ولا حيلةٍ، فأقسم بالله لئن عاودتَ لأخرجنّك من السفينة!

---

(١) بلى: اسم قبيلة، والسفاه: الطيش، والذكرة ـ بالكسر والضم: نقيض النسيان.

(٢) تدع: تترك

فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجوارى سكتة اندفع يغنى الصوت الأول حتى فرغ منه ؛ فصاح الجوارى : أحسنتَ والله يا رجل ؛ فأَعِدْه ، فقال : لا ، والله ولا كرامة ! ثم اندفع يغنى الثانى ، فقلن لسيدهن : ويحك والله ! إن هذا أحسنُ الناس غناء ، فسَلْه أن يعيده علينا ولو مرة واحدة ، لعلنا نأخذه عنه ؛ فإنه إنْ فاتنا لم نجد مثله أبداً . فقال : قد سمعتُنَّ سوء ردّه عليكن ، وأنا خائف مثلَه منه ، وقد أسلفناه(١) الإساءة فاصبِرْنَ حتى نُدَارِيَه . ثم غنّى الثالث ، فزلزل الأرض ، فوثب الرجل وقبّل رأسه ، وقال : يا سيدى ؛ أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك . فقال له : فهبك لم تعرف موضعى ، قد كان ينبغى لك أن تَتَثَبَّتَ ولا تسرع إلى بسوء العِشْرَة وجفاء القول ! فقال له : قد أخطأتُ ، وأنا أعتذر إليك مما جرى ، وأسألك أن تنزل إلىّ ، وتختلط بى ، فقال له : أما الآن فلا .

فلم يزل يَرْفُق(٢) به حتى نزل إليه . فقال الرجل : ممن أخذتَ هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أينَ أخذه جواريك ؟ فقال : أخذته عن جارية كانت لى ، ابتاعها رجلٌ من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن مَعْبَد ، وعُنِى بتخريجها(٣) ، فكانت تحل منى محلَّ الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عز وجل بها ، وبقى هؤلاء الجوارى وهنَّ مِن تعليمها ، فأنا إلى الآن أتعصَّب لمعبد ، وأُفضِّله على المغنين جميعاً ، وأفضل صَنْعَته على كل صنعة .

فقال له معبد : أو إنكَ لأنتَ هو ؟ أفتعرفنى ؟ قال : لا . فصكَّ(٤) معبدٌ بيده صَلْعَته ، ثم قال : فأنا والله معبد ، وإليك قدمتُ من الحجاز ، ووافيتُ البصرة ساعة

---

(١) أسلفناه : قدمنا إليه . (٢) يترفق به .

(٣) بتخريجها : بتدريبها . (٤) صك : ضرب .

نزلت السفينة لأقصدك بالأهواز ؛ ووالله لا قصّرتُ فى جواريك هؤلاء، ولأجعلنّ لك فى كل واحدة منهن خلفاً من الماضية .

فأكبّ الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبّلونها، ويقولون: كتمْتَنا نفسك طولَ هذا الوقت حتى جفَوْناك فى المخاطبة ، وأسأنا عِشرتك وأنت سيدنا ومَنْ نتمنى على الله أن نلقاه .

ثم غيّر الرجلُ زِيّهُ وحاله وخلع عليه عدة خِلَع وأعطاه ثلثمائة دينار وطيباً وهدايا بمثلها ، وانحدر معه إلى الأهواز ، فأقام عنده حتى حذق جواريه ما أخذنه عنه ، ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز .

٢٠ — وفاء مالك بن أبى السَّمح لمعبد*

كان مالكُ(١) بن أبى السَّمح المغنى من طيّئ ، فأصابتهم حَطْمَةٌ(٢) فى بلادهم بالجبلين ؛ فقدِمَتْ به أُمُّه وبأخوةٍ له وأخواتٍ أيتام لا شىء لهم ، فكان يسألُ الناسَ على باب حمزة بن عبد الله بن الزُّبير — وكان معبدٌ منقطعاً إلى حمزة يكون عنده فى كل يوم يغنّيه — فسمع مالك غناءه ، فأعجبه واشتهاه .

فكان لا يفارق باب حمزة ، يسمعُ غناءَ معبد إلى الليل ، فلا يطوف المدينة ولا يطلب من أحدٍ شيئاً ولا يَرِيمُ(٣) موضعه ، فينصرف إلى أمه ، ولم يكتسب شيئاً فتَضْرِبه ، وهو مع ذلك يترنم بألحان معبد ، يؤدّيها دَوْراً دَوْراً ، فى مواضع صيحاته ونَبَراته(٤) نغماً بغير لفظ ولا رواية شىء من الشعر ؛ وجعل حمزةُ كلما غدا وراح ملازماً لبابه ، فقال لغلامه يوماً : أدْخِل هذا الغلام الأعرابى إلىَّ ؛ فأدخله ، فقال له : مَنَ أنت ؟ فقال : أنا غلام من طيّئ أصابتنا حَطْمَةٌ بالجبلين فحطَّتْنا إليكم ، ومعى أم لى وإخوة ، وإنى قد لزمتُ بابك فسمعت من دارك صوتاً أعجبنى فلزمتُ بابك من أجله ، قال : فهل تعرفُ منه شيئاً ؟ قال : أعرفُ لحنه كله ؛ ولا أعرف الشعر . فقال : إن كنت صادقاً فإنك لَفَهِم .

ودعا بمعبد ، فأمره أن يُغنِّى صوتاً فغنّاه ، ثم قال لمالك : هل تستطيع أن

---

* نهاية الأرب : ٤ — ٢٨١ ، الأغانى : ٥ — ١٠٢

(١) أخذ مالك الغناء عن جميلة ومعبد وأدرك الدولة العباسية ، وانقطع إلى بنى سليمان بن على ، ومات فى خلافة أبى جعفر المنصور . (٢) الحطمة : السنة والجدب . (٣) يريم موضعه : يفارقه.

(٤) نبرة المغنى : رفع صوته عن خفض .

تقوله؟ قال: نعم، قال: هاتِه، فاندفع فغناه، فأدى نَغَمَه بغير شعر، يؤدى مَدّاتِه وَلَيَّاتِه، وعَطَفاتِه و نَبَرَاتِه، لا يَخْرِمُ حرفاً.

فقال لمعبد: خُذْ هذا الغلام إليك وخرِّجه فَلَيكونَنّ له شأن، قال معبد: ولِمَ أفعل ذلك؟ قال: لِتَكونَ محاسنه منسوبةً إليك.

فقال: صدقَ الأمير، وأنا أفعل ما أمرتَنى به. ثم قال حمزةُ لمالك: كيف وجدت مُلَازمتك لبابنا؟ قال: أرأيت لو قلتُ فيك غير الذى أنت له مستحقٌّ من الباطل أكنتَ تَرْضَى بذلك؟ قال: لا. قال: وكذلك لا يسرُّك أن تُحْمَدَ بما لم تفعل؛ قال: نعم. قال: فوالله ما شبِعتُ على بابك شَبْعَةً قط، ولا انقلبتُ منه إلى أهلى بخير. فأمر له وَلأُمِّه وَلإخوته بمنزل؛ وأجرى لهم رزقاً وكُسْوَة، وأمر لهم بخادم يخدمُهم، وعَبْدٍ يسقيهم الماء، وأجلس مالكا معه فى مجالسه، وأمر معبداً أن يطَارِحه، فلم يَنْشَبْ[1] أن مهرَ وحذَق، وكان فى ذلك بعقِب مقتل هُدْبَةَ بن خَشْرَم؛ فخرج مالك يوماً، فسمع امرأةً تنوحُ على زيادة الذى قتله هُدْبة بن خشرم بشعر أخى زيادة:

أبعد الذى بالنَّعفِ[2] نَعْفِ كُوَيكبٍ رهينةِ رَمْسٍ ذى تُرابٍ وجَنْدَلِ
أُذَكَّرُ بالبُقْيَا على مَنْ أصابنى وبُقْيَايَ أنى جاهد غير مُؤْتَلِ[3]
فلا يَدْعُنِي قومى لزيدِ بن مالك لئن لم أُعَجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ

(١) لم ينشب: لم يلبث. (٢) النعف: ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مجرى السيل.

(٣) غير مؤتل: غير مقصر، والبقيا: الاسم، من أبقيت عليه إذا رعيت عليه ورحمته. وقد رد هذا البيت فى اللسان منسوباً إلى أبى القمقام الأسدى هكذا:

أذكر بالبقوى على ما أصابنى وبقواى أنى جاهد غير مؤتل

وإلا أنلْ ثأرِى من اليـوم أو غدٍ ... بنى عمِّنـــا فالدهرُ ذو مُتطوّلِ
أنحتُمْ علينا كَلْكلَ الحربِ مرَّةً ... فنحن مُنيخُوهـا عليكم بـكَلْكلِ

فغنّى فى هذا الشعر لحنين : أحدهما نحا فيـه نحْوَ المرأة فى نوْحها ورَقّقَهُ وأصلحه ، وزاد فيه ، والآخر نحا فيه نحْوَ معبد فى غِنائه .

ثم دخل على حمزة فقال له : أيها الأمير ؛ إنى صَنَعْتُ غناءً فى شعرٍ سمعتُ بعضَ أهل المدينة ينشده . وقد أعجبنى ؛ فإن أذن الأمير غنّيْتُه فيه . قال : هَاتِهِ ؛ فَغَنَّاه اللّحْنَ الذى نحا فيه نَحْوَ مَعْبَدَ ؛ فطرب حمزة ، وقال له : أحسنتَ يا غلام ! هذا الغناء غناء معبد وطريقته ، فقال : لا تَعْجَل أيها الأمير ، واسمع منى شيئاً ليس من غناء مَعْبَدٍ ولا طريقته . قال : هات ، فغنّاه اللحنَ الذى تشبَّه فيه بنوح المرأة ؛ فطرب حمزةُ حتى ألقى عليه حُلَّة كانت عليه قيمتُها مائة دينار .

ودَخل معبد فرأى حُلة حمزة عليه ، فأنـكرها ، وعلم حمزة بذلك ، فأخـبر معبداً بالسبب ، وأمر مالـكا فغنّاه الصوتين ؛ فغضب معبد لمـا سمع الصوت الأول ، وقال : قد كرِهتُ أن آخذَ هذا الغلام فيتعلم غنائى فيدعيه لنفسه . فقال له حمزة : لا تعجلْ واسمع غناءً صَنَعه ليس من شأنِك ولا غنائك ، وأمره أن يُغَنِّى الصوت الآخر ، فغنّاه فأطرق معبـد ، فقال له حمزة : والله لو انفَرَدَ بهـذا لضاهاك ، ثم يتزايدُ على الأيام ، وكلما كبِرَ وزاد شِخْتَ أنت ونقصتَ ، فلأَنْ يكون منسوباً إليك أجملُ .

فقال له معبد — وهو منكِرٌ : صدق الأمير ! ثم أمر حمزة لمعبد بخلعةٍ من ثيابه وجائزة حتى سكن وطابت نفسه ، فقام مالك فقبّلَ رأس معبد ، وقال له :

يا أبا عباد ؛ أساءكَ ما سمعتَ منِّى ؟ والله لا أُغـنِّى لنفسى شيئاً أبدا ما دمتَ حيًّا ، وإن غَلَبَتْنِى نفسى فغنيتُ فى شعر استحسنته ُ لا نسبتهُ إلا إليك ، فطِبْ نفساً وارضَ عنِّى . فقال له معبد : أو تفعلُ هـذا وتَـفِى به ؟ قال : إى والله وأزِيد .

فـكان مالكٌ بعد ذلك إذا غنَّى صوتاً وسئِلَ عنه قال : هذا لمعبد ، ما غنيت لنفسى شيئاً قط ، وإنما آخُذُ غناء معبد فأنقـله إلى الأشعار وأحسِّنه وأزيدُ فيه وأنْقِص منه .

٢١ — مالك بن أنَس يغنى*

قال حُسين بن دَحْمَان الأشْقَر : كنتُ بالمدينة ، فخَلا لى الطريقُ وسَطَ النهار فجعلتُ أتغنى :

ما بالُ أهلكِ يا ربابُ خُزْراً[1] كأنهمُ غِضابُ

قال : فإذا خَوْخَةٌ[2] قد فُتِحتْ ، وإذا وَجْهٌ قد بدا تتبعه لحيةٌ حَمْراء، فقال: يا فاسق ، أسأتَ التَّأدِية ، ومنعتَ القائلة[3] ، وأذَعت الفاحشة ؛ ثم اندفع يغنيه ، فظننتُ أن طُوَيساً قد نُشِرَ بعينه .

فقلت له : أصلحك الله ! من أيْنَ لك هذا الغناء ؟ فقال : نشأت وأنا غلام حدَث أتتَبَّع المغنِّين ، وآخُذُ عنهم ؛ فقالت لى أمى : يا بنىّ ؛ إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفَتْ إلى غنائه ؛ فدَع الغناء واطلب الفِقْه فإنه لا يضرُّ معه قُبْحُ الوجه . فتركت المغنين واتَّبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى عزّ وجل ما ترى . فقلت له : فأعِدْ ، جُعِلتُ فداءك ! قال : لا ! ولا كرامةَ ، أتريد أن تقول : أخذتُه عن مالك ابن أنس ! وإذا هو مالك[4] بن أنس ، ولم أعلم .

---

* الأغانى : ٤ — ٢٢٢

(١) الخزر : النظر بلحاظ العين. (٢) الخوخة : البويب، أو الباب الصغير فى الباب الكبير.

(٣) القائلة : القيلولة . (٤) مالك بن أنس : أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة كان صلباً فى دينه بعيداً من الأمراء والملوك ، وهو صاحب كتاب الموطأ ، توفى سنة ١٧٩ هـ .

٢٢ — أفْسَدَ آخِراً ما أصْلَحَ أوَّلاً*

قدم ابنُ جامع السَّهمى مَكَّةَ بمالٍ كثير ، ففرَّقهُ فى ضُعفاء أهلها ؛ فقال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ[1] : بلغنى أن هذا السهمىّ قدِم بمال كثير ! قالوا : نعم ، قال : فعلامَ يُعْطَى ؟ قالوا : يغنى الملوك فيعطونه . قال : وبأىّ شىء يغنيهم ؟ قالوا : بالشعر . قال : فكيف يقول ؟ فقال له فتى من تلاميذه : يقول :

أُطَوِّفُ بالبيتِ مَعْ مَنْ يَطُوفُ　　　وأرفعُ من مئزرى المسْبلِ[2]

قال : بارك الله عليه ، ما أحسنَ ما قال ! ثم ماذا ؟ قال :

وأسْجد بالليل حتى الصباح　　　وأتلو من المُحْكَمِ المُنْزلِ

قال : وأحْسَنَ أيضاً ، أحسن الله إليه ، ثم ماذا ؟ قال :

عسى فارِجُ الهمِّ عن يوسف　　　يُسَخِّرُ لى ربَّةَ المحمل

قال : أمْسِكْ ! أفْسَدَ آخراً ما أصلحَ أوَّلا !

---

* العقد الفريد : ٤ — ٩٣

(١) محدث الحرم ، كان حافظاً ثقة ، واسع العلم ، ولد بالكوفة ، ومات بمكة سنة ١٩٨ هـ .

(١) المسبل : المرخى .

٢٣ — ابن جامع فى دار الخلافة*

قال إسماعيلُ بن جامع السَّهمى(١) :

ضَمَّنِي(٢) الدهر ضماً شديداً بمكة ، فانتقلتُ منها إلى المدينة ، فأصبحتُ يوماً وما أملِكُ إلا ثلاثةَ دراهم ، فهى فى كُمّى إذا أنا بجارية حُمَيْرَاء على رقبتها جَرّة تريد الرَّكِيّ(٣) تسعى بين يدىَّ ، وتُرَنِّمُ بصوتٍ شَجِيّ تقول :

شَكَوْنا إلى أحبابنا طولَ ليلنا ... فقالوا لنا : ما أقصر الليلَ عندنا !
وذاك لأنَّ النوم يَغْشَى عيونَهُمْ ... سِراعاً وما يغشى لنا النَّومُ أعيُنَا
إذا ما دنا الليلُ المُضِرُّ لِذِى الهوى ... جَزِعنا وهمْ يَستبشرون إذا دَنَا
فلو أنهم كانوا يُلاقُون مثلَ ما ... نُلاقِى لكانوا فى المضاجع مِثْلَنَا

فأخذ الغناء بِقَلْبى ، ولم يَدُرْ لى منه حرف . فقلت : يا جارية ؛ ما أدْرِى أوجهُك أحسن أم غناؤُكِ ! فلو شئتِ أعدتِ . قالت : حباً وكرامة . ثم أسندَتْ ظهرها إلى جِدَار قَرُبَ منها ووضعت إحدى رجليها على الأخرى ، ووضعت الجرّةَ على ساقيها ، ثم انبعثت تُغَنِّيه ؛ فوالله ما دار لى منه حرف . فقلت : أحسنتِ !

---

* الأغانى : ٦ — ٣١١

(١) اشتهر ابن جامع بالغناء ، ولكنه كان من أحفظ خلق الله لكتاب الله ، وكان ورعاً تقيا يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة ، فيصلى الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس ، ولا يصلى الناس الجمعة حتى يختم القرآن ، ثم ينصرف إلى منزله . (٢) ضمنى : ضغطنى واشتد على ، من شدة الفقر . (٣) الركى : جمع الركية ، وهى البئر .

فلو شئتِ أعدتِ مرة أخرى ! فَفَطِنت وكَلَحَتْ(١) وقالت : ما أعجبَ أمركم ! أحَدُكُمْ لا يزال يجيء إلى الجارية عليهـا الضَّريبة فيشغلها ! فضربتُ بيدى إلى الثلاثة الدراهم فدفعتُها إليهـا ، وقلتُ : أقيمى بها وجهـك اليوم إلى أن نَلتقى . فأخذتْها كالـكارهة وقالت : أنت الآن تريد أن تأخذ منى صوتاً أحسبك ستأخذُ به ألفَ دينار وألف دينار وألف دينار ؛ وانبعثتْ تُغَنِّى ؛ فأعملتُ فِكرى فى غِنائها حتى دار لى الصوتُ وفهمتُه ، وانصرفتُ مسروراً إلى منزلى أرَدِّدُه حتى خَفَّ على لسانى .

ثم إنى خرجتُ أُريد بَغْدَاد ، فدخلتُها ، فنزل بى المُكَارِىَ على باب مُحَوَّل(٢) ؛ فبقيتُ لا أدرى أين أتوجَّه ولا مَنْ أقْصِد ! فذهبتُ أمشى مع النـــاس ، حتى أتيتُ الجِسْرَ فعبرتُ معهم ، ثم انتهيتُ إلى شارعِ المدينة ، فرأيت مسْجِداً بالقرب من دار الفَضْل بن الربيع مرتفعاً ، فقلت : مسجد قوم سَرَاة ؛ فدخلتُه وحضرتُ صلاةَ المغرب ، وأقمتُ بمكانى حتى صلَّيْتُ العِشاء الآخرة على جوع وتعب ، وانصرفَ أهلُ المسجد ، وبقى رجل يُصَلِّى ، خَلْفَه جماعةٌ : خدم وخَوَلٌ ينتظرون فراغه ، فصلى ملياً ثم انصرف ؛ فرآنى فقال : أحْسِبك غرِيباً . قلت: أجل. قال : فمتى كنتَ فى هذه المدينة ؟ قلت : دخلتُها آنفاً ، وليس لى بها منزلٌ ولا معرِفة ، وليست صناعتى مما يُمَتُّ بها إلى أهل الخير . قال : وما صناعتُك ؟ قلت :أتغنى. فوثب مُبادِراً ، ووكَّل بى بعضَ من معه ، فسألتُ المو َكَّل بى عنه ، فقال : هـذا سَلَّام الأبرش(٣) .

(١) كلح : تكشر فى عبوس . (٢) باب محول : محلة كبيرة من محال بغداد . (٣) سلام الأبرش : خدم المنصور وتولى المظالم للمهدى وعاصر الهادى والرشيد .

قال ابنُ جامع : وإذا رسولٌ قد جاء فى طلبى ، فانتهى بى إلى قصرٍ من قصورِ الخلافة ، وجازَ بى مقصورةً إلى مقصورة ، ثم أُدْخِلتُ مقصورة فى آخر الدِّهْليز ، ودعا بطعام فأُتِيتُ بمائدة عليها من طعام الملوك ، فأكلتُ حتى امتلأتُ .

فإنى لكذلك إذ سمعتُ رَكْضاً فى الدِّهليز وقائلا يقول : أين الرجل؟ قيل: هو ذا ، قال : ادعوا له بِغَسول[1] وخِلْعَةٍ وطِيبٍ . ففُعل ذلك بى ، فَحُمِلْتُ على دابةٍ إلى دار الخلافة – وعرفتُها بالحرَس والتَّكْبير والنِّيران – فجاوزتُ مقاصيرَ عِدَّة ، حتى صِرْتُ إلى دارٍ قَوْرَاء[2] فيها أسِرَّة فى وسطها ، قد أُضيف بعضها إلى بعض .

فأمرنى رجلٌ بالصعود فصَعِدتُ ، وإذا رجلٌ جالس ، عن يمينه ثلاثُ جوارٍ فى حجورهنّ العيدان ، وفى حِجْرِ الرجل عود ، فرحّب الرجلُ بى ، وإذا مجالسُ حيالَه كان فيها قومٌ قد قاموا عنها ، فلم ألبثْ أنْ خرج خادمٌ من وراء الستر ؛ فقال للرجل : تَغَنَّ ، فانبعث يغنّى بصوتٍ لى وهو :

لم تَمْشِ مِيلًا ولم تركبْ على قَتَبٍ ... ولم ترَ الشمسَ إلا دونها الكِلَلُ[3]
تمشِى الهُوَيْنى كأنّ الريحَ ترجِعُها ... مَشْىَ اليعافيرِ فى جَيْئاتها الوَهَلُ[4]

فغنّى بغير إصابة ، وبأوتار ودساتينَ[5] مختلفة ، ثم عاد الخادمُ إلى الجارية التى

---

(١) الغسول : الماء يغتسل به . (٢) الدار القوراء : الواسعة . (٣) الكلل : جمع كلة ، وهى ستر يخاط كالبيت . (٤) اليعافير : الظباء ، والوهل : الفزع . (٥) الدساتين : الرباطات التى توضع الأصابع عليها ، واحدها دستان .

تلى الرجل ، فقال لها : تغنّىْ ، فغنّتْ أيضاً بصوتٍ لى ، كانتْ فيه أحسنَ حالاً من الرجل ، وهو :

يادارُ أضحتْ خلاءً لا أنيسَ بهـــا … إلا الظِّباء وإلا النَّاشِطُ[1] الفرِدُ[2]

أينَ الذين إذا مازرتَهمْ جـــذِلُوا[3] … وطار عن قلبِيَ التَّشْوَاق والكَمَدُ !

ثم عاد الخادم إلى الجارية التى تليها ، فانبعثت تُغَنِّى :

فواللهِ ما أدرِى أيَغْلِبُنِى الهـــوَى … إذا جـدّ وَشْكُ البَيْنِ أم أنا غالبُهُ ؟

فإن أستطِعْ أغلبْ ، وإن يغلب الهوَى … فمثـــلُ الذى لاقيتُ يُغْلَبُ صاحبُه

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فغنّت :

مرَرْنا على قَيْنيَّـــةٍ عامِرِيَّةٍ … لهـا بشَرٌ صافى الأدِيم هجانِ[4]

فقالت ، وألقتْ جانبَ السِّتْرِ دونها : … منَ آيةِ أرض أو مَنِ الرجُلان ؟

فقلت لهـــا : أمّا تميمٌ فأسرتى … هُـــديتِ ، وأما صاحبى فيَمَانِ

رفيقان ضَمَّ السَّفْرُ بينى وبينـه … وقـــد يلتقى الشتّى فيأتلفـان

ثم عاد إلى الرجل فغنّى صوتاً فشبَّه[5] فيه وهو :

أمْسى بأسماءَ هـــذا القلبُ معموداً … إذا أقول صحـا يعتـادُه عِيـــدَا

أُجرِى على موعـــدٍ منها فتخلفُنِى … فـا أمَلُّ ولا توفِى المواعيـــدا

كأنَّ أحْوَرَ من غِزْلَانِ ذى بقَرٍ[6] … أعارها شبَهَ العينين والجِيـــدَا

قامت ترَاءى وقد جدّ الرحيلُ بنا … لِتَنْكَـأَ القرحَ من قلب قد اصْطِيدا

---

(١) الناشط : الثور الوحشى . (٢) الفرد : المنفرد . (٣) جزلوا : فرحوا . (٤) الهجان : الأبيض : الخالص من كل شىء . (٥) شبه : خلط فيه ولم يحسن أداءه . (٦) ذو بقر : قرية فى ديار بنى أسد .

بمشرقٍ كشُعاعِ الشمس بهجتُه ... ومُسْبَكِرٍ[1] على لَبّاتها سُودا

ثم عاد إلى الجارية ، فتغنتْ :

تُعَيِّرُنا أنَّا قليلٌ عَدِيدُنا ... فقلت لها : إن الكرامَ قليلُ

وما ضَرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا ... عَزيزٌ وجارُ الأكثَرين ذليلُ

وإنّا لَقَوْمٌ ما نرى القتلَ سُبَّةً ... إذا ما رأتْهُ عامرٌ وسَلُولُ

يُقَرِّبُ حبُّ الموت آجالَنا لنا ... وتكرهُهُ آجالُهم فتطولُ

وتغنّتِ الثانية :

وَدِدْتكِ لمّا كان وُدُّكِ خالصاً ... وأعرضتُ لمّا صِرْتِ نهباً مقسَّما

ولا يلبثُ الحوضُ الجديدُ بناؤُه ... على كثرةِ الوُرَّادِ أن يتهدّما

وتغنّتِ الثالثة :

وما كرَّ إلا كان أوّلَ طاعنٍ ... وما أبصرتْهُ الخيلُ إلّا اقشعرَّتِ

فيُدْرِكَ ثأراً وهو لم يُخْطِهِ الغِنَى ... فمثلُ أخي يوماً به العينُ قرَّتِ

فلستُ أُرَزَّا بعده برزيّةٍ ... فأذكره إلّا سَلَتْ وتجَلَّتِ

وغنّى الرجلُ :

لحى الله صُعلوكاً مُناه وهمُّهُ ... من الدهر أن يَلْقَى لبُوساً ومَطْعَما

ينامُ الضُّحا حتى إذا ليلُه انتهى ... تنبَّهَ مَثْلوجَ الفؤاد مُوَرَّما[2]

ولكنَّ صعلوكاً يساوِرُ همّه ... ويمضي على الهيْجاء ليثاً مقدَّما

فذلك إن يَلْقَ الكريهه يلْقَها ... كريماً ، وإن يستغْن يوماً فربّما

---

(١) شعر مسبكر : مسترسل . (٢) مورما : أى منتفخا بادنا لعدم مايشغله من أمور الحياة .

وتغنّتِ الجاريةُ :

إذا كنتَ ربّاً[1] للقَلُوصِ فَلايكن رفيقُك يمشى خلفَها غيرَ راكبِ
أَنِخْهَا فأَرْدِفْهُ فإنْ حملتْكما فذاك ، وإن كان العِقَابُ[2] فَعاقِبِ

وتغنّتِ الثانية :

أَلَمْ تَرَ لمّا ضمنى البلدُ القفرُ سمعتُ نداء يَصْدَعُ القلبَ ياعَمْرُو !
أَغِثْنَا فإنّا عُصْبَةٌ مَذْحَجِيَّةٌ نُزَارُ على وَفْرٍ وليس لنا وَفْرُ

وتغنّتِ الثالثة :

فلما توافَقْنَا وسلّمتُ أَسْفَرَتْ وجوهٌ زهاها الُحسْنُ أن تَتَقَنّعَا
تبالَهْنَ بالعِرْفَانِ لمّا عَرَفْنَنِى وقُلْنَ امرؤٌ باغٍ أَكَلَّ وأوضعا[3]
ولما تنازَعْنَ الأحاديثَ قلنَ لى أَخِفْتَ علينا أن نُغَرَّ ونُخْدَعا !

قال ابن جامع : وتوقّعتُ مجىء الخادم إلىّ ، فقلتُ للرجل : بأبى أنت ! خُذِ العودَ ، فشُدَّ وَتَرَ كذا وارفع الطبقة ، وحُطَّ دُسْتان كذا ، ففعل ماأمرتُه .

وخرج الخادم فقال لى : تَغَنَّ ، عافاك الله ! فتغنَّيتُ بصَوتِ الرجل الأول على غير ماغنّاه ، فإذا جماعةٌ من الخَدَم يحضُرُون حتى استنَدُوا إلى الأسِرّة ، وقالوا: وَيْحكَ ! لِمَن هذا الغناء ؟ قلت : لى . فانصرفوا عنى بتلك السرعة ، وخرج إلىَّ الخادم وقال : كذبت ! هذا الغناء لابن جامع . ودار الدور ، فلما انتهى الغناء إلىَّ قلتُ للجارية التى تَلِي الرجل : خذى العود فعلِمَتْ ما أريد ، فسوّت العودَ على غنائِها للصوت الثانى فتغنّيتُ به ؛ فخرجت الجماعة الأولى من الخَدَم فقالوا :

---

(١) ربا : صاحبا . (٢) العقاب : هو أن تركب الناقة مرة، ويركبها صاحبك مرة أخرى .
(٣) أكل : أعيا . وأوضع : أسرع ؛ يريد أنه أوضع فأكل ، ولكن قدم وأخر .

وَيْحكَ ! لمن هذا ؟ قلت : لى . فرجعوا وخرج الخادم فقال : كذبت ، ثم تغنيتُ بصوتٍ لى ، فلا يُعرف إلا بى ، وهو :

عُوجِى علىَّ فسلِّمى جَبْرُ فيمَ الصدودُ وأنتمُ سفْرُ[1]
مانلتقى إلا ثلاثَ مِنًى حتى يُفرِّقَ بيننا الدّهرُ

فتزلزلَتْ والله الدّارُ عليهم ، وخرج الخادمُ فقال : وَيْحكَ ! لمَنْ هذا الغناء ؟ قلت : لى . فرجع ، ثم خرج فقال : كذبتَ ! هـذا غناء ابن جامع ، فقلت : فأنا إسماعيل بن جامع .

فما شعرتُ إلا وأميرُ المؤمنين وجَعْفَر بن يحيى قد أقبلَا مِنْ وراء السِّتْرِ الذى كان يخرج منه الخادم . فقال لى الفضل بن الربيع : هـذا أمير المؤمنين قد أقبل إليك ؛ فلما صَعِد السريرَ وثبْتُ قائمًا ، فقال لى : ابنُ جامع ؟ قلت : ابن جامع ، جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين ! قال : ويحك ! متى كنتَ فى هذه البلدة ؟ قلت : آنفًا ، دخلتُهـا فى الوقت الذى علم بى أميرُ المؤمنين . قال : اجلس ، ويحـك يا بن جامع !

ومضى هو وجعفر ، فجلسا فى بعض تلك المجالس ، وقال لى : أبشِرْ وابْسُط أمَلك ؛ فدعوتُ له . ثم قال : غنِّنى يابن جامع ، فخطر بقلبى صوتُ الجـارية الُحمَيْراء ، فأمرتُ الرجلَ بإصلاح العودِ على ما أردتُ من الطبقة، فعرف ما أردتُ ، فوزن العود وَزْنًا ، وتعاهدَهُ حتى استقامت الأوتار ، وأخذت الدساتينُ مواضعَها، وانبعثتُ أغنى بصوت الجارية الُحمَيراء :

---

(١) سفر : مسافرون .

شكَوْنَا إلى أحبابنا طولَ ليلِنـا فقالوا لنا : ما أقصرَ الليـل عندنا !
وذاك لأنّ النومَ يَغْشى عيونَهم سِرَاعاً وما يَغشى لنـا النوم أعْيُنا
إذا مادَنا الليلُ المُضِرُّ لذى الهوَى جَزِعنـا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهمْ كانوا يلاقُون مثـلَ مَا نُلَاقِى لـكانوا فى المضاجع مِثْلَنَا

فنظر الرشيد إلى جعفر وقال : أسمعتَ مثل هذا قطّ ! فقال : لا والله ماخَرَقَ مسامعى قطّ مِثْـلُه. فرفع الرّشيد رأسَه إلى خادم بالقُرْب منه ، ودعا بكيس فيـه ألفُ دينار ، فجاء ورَمَى به إلىّ فصيَّرتُه تحت فخذى ودعوتُ لأمير المؤمنين .

فقال : يابْن جامع ؛ رُدّ على أمير المؤمنين هذا الصوت ، فرددته ، وتزيَّدْتُ فيه ؛ فقال له جعفر : ياسيِّدى ؛ أما تراه كيف يتزيَّد فى الغناء ! هـذا خلاف ما سمعناه أولا ، وإن كان الأمر فى اللحن واحداً .

فرفع الرشيدُ رأسَه إلى ذلك الخـادم ، ودعا بكيس آخر فيه ألفُ دينار ، فجاءنى به ، فصيَّرتُه تحت فخـذى ، وقال : تَغَنّ يا إسماعيـل ما حَضرَك ، فجعلتُ أقصد الصوتَ من بعـد الصوت ؛ ممـا كان يبلغنى أنه يشترى عليه الجوارى فأغنِّيه ، فلم أزلْ أفعـلُ ذلك إلى أن عَسْعَسَ(١) الليـل . فقال : أتعبْناك يا إسماعيل هـذه الليـلةَ بالغناء ؛ فأعِدْ على أمير المؤمنين الصوت (يعنى صوت الجارية) فتغنّيت ؛ فدعا الخـادمَ وأمره فأحضر كيساً ثالثاً فيـه ألفُ دينار ؛ فذكرتُ ماكانت الجارية قالت لى فتبسَّمْتُ ، ولحظنى ؛ فقـال : مِمّ تبسَّمت ؟ فجثَوْتَ على ركبتى وقلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ الصـدقُ مَنْجاة ،

---

(١) عسعس الليل : أقبل ظلامه .

فقال لى بانتهار : قُلْ ! فقصصْتُ عليه خبرَ الجارية ، فلما استوعبه(١) قال : صدقْتَ ، قد يكون هذا ؛ وقام .

ونزلتُ من السرير ولا أدرى أينَ أقصِد ، فابتدرَنى(٢) فرّاشان فصارابى إلى دارٍ قد أمر بها أميرُ المؤمنين ، فَفُرِشَتْ وأُعِدَّ فيها جميعُ ما يكون فى مثلها من آلة جلساء الملوك وندمائهم ، ومن كلّ آلة وخَوَل(٣) إلى جوارٍ ووُصَفاء ، فدخلت بغداد فقيراً وأصبحت من جِلّةِ(٤) أهلها ومَيَاسيرهم !

---

(١) عرفه كله .　　(٢) ابتدرنى : أسرع إلى .　　(٣) الخول : الخدم .
(٤) الجلة جمع جليل : عظيم .

٢٤ — ابن جامع وأبو يوسف القاضى *

قدِم ابن جامع قَدْمَةً له من مكة على الرشيد ـ وكان ابنُ جامع حسنَ السَّمْتِ كثيرَ الصلاة ، قد بَانَ أَثَرُ السجودِ فى جَبْهته ، وكان يَعْتَمُّ بعمامة سوداء على قَلَنْسُوَة طويلة ، ويلبس لباسَ الفُقهاء ويركب حماراً مِرِّيسِيًّا(١) فى زِىِّ أهلِ الحجاز .

فبينا هو واقفٌ على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذنَ ، إذ أقبل أبو يوسف القاضى بأصحابه أهلِ القَلَانس ، فلما هجَم على الباب نظر إلى رجلٍ يقفُ إلى جانبه ويحادِثهُ ، فوقعت عَيْنُه على ابن جامع ، فرأى سَمْتَهُ وحلاوة هيئَتِه ؛ فجاء فوقف إلى جانبه ، ثم قال له : أمْتعَ الله بك ؟ توسَّمْتُ فيك الحجازية والقرشيّة ، قال : أصبْت ، قال : فمن أىِّ قريش أنتَ ؟ قال : من بنى سَهم . قال : فأىُّ الحرمين منزلُك ؟ قال : مكّة ، قال : ومَنْ لقيتَ من فقهائهم ؟ قال : سَلْ عمن شئتَ ، ففاتحه الفقه والحديثَ فوجد عنده ما أحبَّ ؛ فأُعْجبَ به ، ونظر الناسُ إليهما فقالوا : هذا القاضى أبو يوسف قد أقبل على المُغَنِّى ـ وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع ؟ فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه ! ثم قالوا : لا ، لعله لا يعودُ إلى موافقته بعد اليوم فلِمَ نَغُمّه !

فلما كان الإذنُ الثانى ليحيى غَدَا عليه الناسُ وغدا عليه أبو يوسف ، فنظر يطلبُ ابنَ جامع فرآه ، فذهب فوقف إلى جانبه ، فحادثه طويلا كما فعل فى المرّةِ

---

* الأغانى : ٦ ـ ٢٩١

(١) مريسى : نسبة إلى مريسة، وهى قرية بمصر مشهورة بالحمير .

الأولى ، فلما انصرف قال له أصحابُه : أيُّها القاضى ؛ أتعرفُ هذا الذى تُوَاقِف[1] وتحادِثُ ؟ قال : نعم ؛ رجلٌ من قريش من أهل مكةَ من الفقهاء . قالوا : هـذا ابنُ جامع المغنّى ، قال : إنا لله ! قالوا : إن الناسَ قد شَهَرُوك بمُوَاقفته، وأنـكروا ذلك من فِعْلك .

فلمـا كان الإذْنُ الثالثُ جاء أبو يوسف ونظر إليه فتَنَـكَّبه ، وعرف ابنُ جامع أنه قد أُنْذِرَ به، فجاء فوقف فسلَّم عليه ، فردَّ عليه أبو يوسف بغـير ذلك الوجه الذى كان يَلْقَاهُ به ، ثم انحرف عنه .

فدنا منه ابنُ جامع ، وعرف الناسُ القِصَّة ، وكان ابنُ جامع جهيرًا ، فرفع صوته . ثم قال : يا أبا يوسف ؛ مالك تنْحَرِفُ عنى ! أىَّ شىء أنـكرْتَ ؟ قالوا لك : إنى ابنُ جامع المغنى ، فـكرهتَ مُوَاقَفَتى ! أسألك عن مسألة ثم اصنع ما شئت ـ ومال الناسُ فأقبلوا نحوهما يستمعون ـ فقال: ياأبا يوسف ، لوأن أعرابيًّا جِلْفًا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغِلْظة من لسانه وقال :

يا دَارَ مَيَّـــةَ بالعَلْياء فالسَّندِ أَقْوَتْ وطال عليها سَالِفُ الأمَدِ

أ كنتَ ترى بذلك بأسًا ؟ قال : لا ، قد رُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الشعر قولٌ ورُوِى فى الحديث .

قال ابنُ جامع : فإن قلتُ أنا هكذا . . . ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف ؛ رأيتنى زِدْتُ فيه أو نقصتُ منه ؟ قال : عافاك الله ؛ أعْفِنا من ذلك . ثم قال : يا أبا يوسف ؛ أنتَ صاحبُ فُتْيَا ، ما زدتُه على أن حسَّنته بألفاظى ، فحَسُن فى السماع ، ووصل إلى القلب ! ثم تنحى عنه ابنُ جامع !

---

(١) واقفه : سأله الوقوف .

٢٥ — سَرِقَةُ الغناء*

قال الرشيدُ يوماً لجعفر بن يحيي : قد طال سماعُنا هـذه العصابةَ على اختِلاطِ الأمرِ فيها ، فهلمَّ أُقاسِمْكَ إياها وَأُخايِرْكَ ؛ فاقتسما المغنّين ، على أنْ جعلا بإزاء كل رجلٍ نظيرَه ؛ وكان ابنُ جامع في حَيّزِ الرشيد ، وإبراهيم الموصليّ في حيّز جعفر بن يحيي ، وحضر النُّدماء لِمِحْنة(١) المغنّين .

وأمرَ الرشيدُ ابنَ جامع فغنّى صوتاً أحْسَنَ فيه كلَّ الإحسان ، وطرِب الرشيدُ غايةَ الطرب ، فلما قطعه قال الرشيدُ لإبراهيم : هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنِّه . فقال : لا ، والله يا أميرَ المؤمنين ما أعْرِفُه ؛ وظهر الانكسار فيه ، فقال الرشيدُ لجعفر : هذا واحدٌ .

ثم قال لإسماعيل بن جامع : غنِّ يا إسماعيلُ ؛ فغنّى صوتاً ثانياً أحسنَ من الأول ، فلما استوفاه قال الرشيدُ لإبراهيم : هاته يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا ! فقال : هذان اثنان ! غَنِّ يا إسماعيل ؛ فغنّى ثالثاً يتقدّم الصوتين الأولين ويفضُلُهما . فلما أتى على آخره قال : هاتِهِ يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هـذا أيضاً . فقال له جعفر : أخْزاكَ الله .

وأتمَّ ابنُ جامع يومَه ، والرشيدُ مسرورٌ به ، وأجازه بجوائزَ كثيرة ، وخلعَ عليه خِلَعاً فاخرة ، ولم يزل إبراهيم مُنْخَذِلاً منكسراً حتى انصرف . ومضى إلى

---

* الأغاني : ٥ ـ ٢٠٦

(١) المحنة : الاختبار .

منزله ، فلم يستقِرّ فيه حتى بعث إلى محمد المعروف بالزّف[١] ـ وكان من المغنين المحسنين ، وكان أسرعَ مَنْ عُرِف فى أيامه فى أخذِ صوتٍ يريدُ أخْذَه ، وكان الرشيدُ قد وَجَدَ[٢] عليه فى بعض ما يجدُه الملوكُ على أمثاله ، فألزمه بيتَه وتناساه ـ فقال إبراهيم للزّف : إنى اخترْتُكَ على مَنْ هو أحبُّ إلىّ منك لأمرٍ لا يصلح له غيرُك ، فانظر كيف تكون ! قال : أبلغُ فى ذلك مَحَبّتَك ، إن شاء الله تعالى . فأدّى إليه الخبر ، وقال : أريدُ أن تمضىَ الساعةَ إلى ابن جامع ، فتعلمه أنك صِرْتَ إليه مهنئًا بما تهيّأ له علىّ وتَتَنَقَّصُنى وتَثْلِبُنى[٣] وتَشْتِمُنى ، وتحتال فى أن تسمعَ منه الأصواتَ وتأخذها منه ، ولك ما تُحِبُّهُ من جهتى مِنْ عرَض من الأعراض مع رضا الخليفة إن شاء الله .

فمضى واستأْذنَ على ابن جامع فأذِن له ، فدخل وسلم عليه وقال : جئتُك مُهنئًا بما بلغنى مِنْ خبرك ، والحمد لله الذى أخزَى ابنَ الجُرْمُقانيَّة[٤] على يدك ، وكشف الفضلَ فى محلك من صناعتك ، قال : وهل بلغك خبَرُنا ؟ قال : هو أشهرُ من أن يَخْفَى على مثلى ، قال : ويحك ! إنه يقصُرُ عن العِيان . قال : أيها الأستاذ ؛ سُرَّنى بأنْ أسمعه مِنْ فِيك حتى أرويَهُ عنك ؛ قال : أقِمْ عندى حتى أفعَل ، قال : السمع والطاعة .

فدعا له ابنُ جامع بالطعام فأكلا ودَعَا بالشراب ، ثم ابتدأ يحدّثه بالخبر حتى

---

(١) هو محمد بن عمرو ، مولى بنى تميم ، كوفى الأصل والمولد ، والزف لقب غلب عليه ، كان مغنيا ضاربا ، طيب المسموع ، صالح الصنعة ، مليح النادرة ، أسرع خلق الله أخذا للغناء . وأصحهم أداء له ، كان يتعصب لابن جامع ، مات فى خلافة الرشيد . (٢) وجد عليه : غضب . (٣) ثلبه : عابه وتنقصه . (٤) الجرمقانى واحد الجرامقة : وهم قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل الإسلام .

انتهى إلى خَبرِ الصوت الأول . فقال له الزّف : وما هو أيُّها الأستاذ ؟ فغنّاه ابنُ جامع إياه ، فجعل محمد يُصَفِّق وينقر ويشربُ وابنُ جامع مجتهد فى شأنه حتى أخذه عنه ، ثم سأله عن الصوت الثانى فغنّاه إياه . وفعل مثلَ فِعْلِهِ فى الصوت الأول ، ثم كذلك فى الصوت الثالث .

فلما أخذ الأصواتَ الثلاثة وأحكمها ، قال له : يا أستاذ ؛ قد بلغتُ ما أحبُّ فتأذن لى فى الانصراف ؟ قال : إذَا شئْتَ .

فانصرف محمدٌ من وجهه إلى إبراهيم ، فلما طلع من باب داره قال له : ماوراءك؟ قال : كلُّ ما تحبّ ؛ ادْعُ لى بعُودٍ ، فدعا له به ؛ فضَرَب وغنّاه الأصوات . قال إبراهيم : وأبيك هى بصُوَرِها وأعيانها ؛ ردِّدْها علىَّ الآن ، فلم يزل يردّدها حتى صحّت لإبراهيم ، وانصرف الزّفُّ إلى منزله .

وغدَا إبرهيم إلى الرشيد فلما دعا بالمُغنِّين دخل فيهم ، فلما بَصُرَ به قال له : أو قد حضرت ! أما كان ينبغى لك أنْ تجلسَ فى منزلك شهراً بسبب مالقيتَ من ابن جامع ! قال : ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين ؟ جعلنى الله فداك ! والله لئن أذنتَ لى أن أقولَ لأقولَنَّ ، قال : وما عساك أنْ تقول ! قل . فقال : إنه ليس ينبغى لى ولا لغيرى أنْ يراك نشيطاً لشىء ، فيعارضك ، ولا أن تكونَ متعصباً لحيِّزٍ وجَنْبة[1] فيغالبَك ؛ وإلا فما فى الأرض صَوْتٌ لا أعرفه . قال : دَعْ ذا عنك ؛ قد أقررتَ أمس بالجهالة بما سمعتَ من صاحبنا ، فإن كنتَ أمسكتَ عنه بالأمس على معرفةٍ كما تقول فهاتِهِ اليوم ، فليس هٰهنا عَصَبِيَّة ولا تمييز .

---

(١) الجنبة : الناحية .

فاندفع فأمرَّ الأصواتَ كلها ، وابنُ جامع مُصْغٍ يسمع منه ، حتى أتى على آخرها ، فاندفع ابنُ جامع لحلف بالأيمان المُخْرِجة أنه ما عرفها قط ولا سَمِعها ، ولا هى إلا مِنْ صَنْعته ، ولم تخرُج إلى أحد غيره ، فقال له : ويحك ! فما أحدثتَ بعدى ! قال : ما أحدثتُ شيئاً .

فقال : يا إبراهيم ؛ بحياتى ، اصدقنى . فقال : وحياتك لأصْدُقَنَّكَ ؛ رميتُه بحَجَره(١) ، فبعثت إليه بمحمد الزَّف وضمنتُ له ضماناتٍ ، أوَّلها رضاك عنه ؛ فمضى فاحتال لى عليه حتى أخذها عنه ونقلتُها حتى سقط الآن اللومُ عنى بإقراره ، لأنه ليس علىَّ أن أعرفَ ماصنعه هو ولم يُخْرِجْه إلى الناس ، وهذا بابٌ من الغيب ، وإنما يلزمنى ألّا يعرف هو شيئاً من غناء الأوائل وأجهله أنا ، وإلا فلو لزمنى أنْ أرْوى صنعتَه للزمه أن يروِىَ صنعتى ولزم كلَّ واحدٍ منا لسائرِ طبقته ونظرائه مثلُ ذلك ، فمن قصر كان مذموماً ساقطاً .

فقال له الرشيد : صدقتَ يا إبراهيم ونَضَحْتَ(٢) عن نفسك وقمْتَ بحجّتِك .

ثم أقبل على ابن جامع ، فقال له : يا إسماعيل ؛ أُتيت أُتيت ! دُهيت دُهيت ! أبطل عليك الموصلى مافعلتَه به أمس ، وانتصَفَ اليومَ منكَ ، ثم دعا بالزّف فرَضِيَ عنه .

---

(١) رمى فلان بحجره : إذا قرن بمثله . (٢) نضح عن نفسه : دفع عنها بالحجة .

٢٦ — أنا والصبح كَفَرَسَىْ رِهان *

قال إبراهيم [١] الموصلى :

قال لى الرشيدُ يوماً : يا إبراهيم ؛ بكِّر علىّ غدا حتى نصطَبح ؛ فقلتُ له : أنا والصُّبحُ كفَرَسَىْ رِهانٍ ، فبكّرت فإذا أنا به خالياً ، وبين يديه جاريةٌ كأنها خُوطُ [٢] بَانٍ ، حُلْوَةُ المنظر ، دَمِثَةُ الشمائل ، وفى يدها عود ، فقال لها : غَنِّى ، فغنّتْ فى شِعْرِ أبى نواس وهو :

تَوَهَّمَهُ قلبى فأصبح خَدُّه ... وفيه مكانَ الوهْم من نظرى أثْرُ [٣]

ومرَّ بفِكْرِى خاطراً فجرحته ... ولم أر جِسْماً قطّ يَجْرَحُه الفِكْرُ

وصافحه قلبى فآلم كفَّهُ ... فمِنْ غَمْزِ قلبى فى أنامله عَقْرُ [٤]

قال إبراهيم : فذهبَتْ والله بعقلى حتى كِدْتُ أن أفتضِحَ ، فقلت : مَن هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال: هذه التى يقول فيها الشاعر :

لهـا قلبى الغَدَاةَ وقلبُها لى ... فنحنُ كذاك فى جَسَدَيْن رُوح

ثم قال : غَنِّى ، فغنّت :

تقولُ غداةَ البينِ إحدى نسائهم : ... لِىَ الكَبِدُ الحَرَّى فسِرْ ولك الصَّبْرُ [٥]

---

* الأغانى : ٥ ـ ٢٢٨

(١) أوحد زمانه فى الغناء واختراع الألحان ، اتصل بالخلفاء فكانت له عندهم منزلة حسنة . ومات فى بغداد سنة ١٨٨ هـ . (٢) الخوط : الغصن ، والبان : نوع من الشجر ، لحب ثمره دهن طيب . (٣) أثر الجرح : أثره يبقى بعد ما يبرأ . (٤) العقر : الجرح . (٥) الشعر لأبى الشيص .

وقد خَنَقَتْهَا عَبْرَةٌ فدمُوعُها ... على خدِّها بيضٌ وفى نحرها صُفْرُ

قال : فشرب وسقانى ثم سقاها ، ثم قال : غَنِّ يا إبراهيم ؛ فغنَّيت حسبَ ما فى قلبى غير مُتحفظٍ من شىء :

تشرَّبَ قلبى حبّهـا ومَشَى به ... تَمَشِّىَ حُمَيَّا الكأس فى جسم شاربِ

ودبَّ هوَاها فى عِظَامى فشفَّها ... كما دبَّ فى الملسوع سُمُّ العقاربِ

قال : ففطِن بتعريضى - وكان جهالةً منِّى - وأمرنى بالانصراف ، ولم يدعُنى شهراً ، ولا حَضَرْتُ مجلسه .

فلما كان بعد شهر دسَّ إلىَّ خادماً معه رقعةٌ ، فيها مكتوب :

قد تخوَّفتُ أنْ أموتَ من الوَجْـدِ ... ولم يدرِ مَنْ هويتُ بما بِى

يا كتابى فاقرَ السَّلامَ على مَنْ ... لا أسمِّى وقل له يا كتابى

إنّ كفًّا إليـك قد بَعَثَتْنى ... فى شقاءٍ مُواصِلٍ وعَـذَابِ

فأتانى الخادم بالرُّقعة ؛ فقلت له : ما هـذا ؟ قال : رقعـة الجارية فلانة التى غنَّتك بين يدى أمير المؤمنين ؛ فأحسست القصة ، فشتمتُ الخادم ووثبتُ عليـه وضربتُه ضرباً شَفَيْتُ به نفسى وغَيْظى .

وركبتُ إلى الرشيدِ من فَوْرِى فأخبرته القصةَ وأعطيته الرقعة ؛ فضحك حتى كاد يَسْتَلْقى ، ثم قال : على عَمْدٍ فعلتُ ذلك بك لِأَمْتَحِن مَذْهَبَك وطريقتك ، ثم دعا بالخادم ، فلما خرج رآنى فقـال لى : قطع الله يديك ورجليك ، ويحـك ! قَتَلْتَنى ؛ فقلت : القَتْلُ والله كان بعضَ حقك لما وردتَ به علىّ ، ولكن رَحِمْتُك فأبقيتُ عليك ، وأخبرتُ أمير المؤمنين ليـأتى فى عقوبتك بما تستحقه . وأمر لى الرشيد بصلةٍ سَنِيَّةٍ .

٢٧ — ما هذا بجزائى منك *

قال الأصمعى[١] : مررتُ بدار الزُّبَيْر بالبَصْرَة ، فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير ، يكنى أبا رَيْحانة ، جالس بالباب عليه شَمْلَة[٢] تستره ؛ فسلمْتُ عليه ؛ وجلستُ إليه ؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعت علينا سُوَيْداء ، تحمل قِرْبة ، فلما نظر إليها لم يتمالكْ أنْ قام إليها ، فقال لها : بالله غَنّى صوتاً ! فقالت : إن مَوالى أعْجلونى[٣] ؛ فقال : لا بدَّ من ذلك! قالت : أمّا والقربةُ على كتفى فلا! قال : فأنا أحْمِلها ؛ فأخذ القِرْبَةَ منها ؛ فاندفعتْ تُغَنِّى :

فؤادٌ أسيرٌ لا يُفَـكّ ومُهْجَتِى ... تَفيضُ ، وأحزانى عليك تَطُول

ولى مقْلَةٌ قَرْحَى لطول اشتياقها ... إليك ، وأجفانى عليك هُمول[٤]

فَدَيْتُـك! أعدائى كثيرٌ ،وشُقَّتى ... بعيدٌ ، وأشْياعى لديك قليـلُ

فطرب، وصرخ صرخةً ، وضرب بالقِرْبَة إلى الأرض فشقّها !

فقامت الجارية تبـكى ، وقالت : ما هـذا بجزائى منك ! أسْعَفْتُك بحاجتـك فعرَّضْتَنى لما أكْرَهُ من مواليَّ !

قال : لا تَغْتَمّى ؛ فإن المصيبةَ علىّ حَصَلَتْ ! ونزع شملته ، وابتاع لها قِرْبَةً جديدة ! وقعَد ؛ فاجتـاز به رجلٌ من ولد علىّ بن أبى طالب ؛ فعرف حالَه ،

---

* زهر الآداب : ١ ـ ١٥٦

(١) هو عبد الملك بن قريب، اشتهر بالرواية والتضلع فى اللغة، توفى سنة ٢١٦ هـ. (٢) الشملة: كساء دون القطيفة يشتمل به. (٣) أعجله : استحثه. (٤) تفيض بالدمع.

فقال : يا أبا رَيْحَانة ؛ أحسبك من الذين قال الله فيهم : ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾(١) .

قال: لا؛ يابْنَ رسول الله ، ولكنى من الذين قال الله فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذين يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٢) !

فضحك وأمر له بألف درهم .

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٦

(٢) سورة الزمر ، آية ١٧ ، ١٨

٢٨ — ما نفعنى الغِنَاء إلا ذلك اليوم*

قال إبراهيم[1] بن المهدى : حججتُ مع الرشيد ، فبينما نحن فى الطريق وقد انفردتُ أسيرُ وَحْدِى ، وأنا على دابّتى إذ غلبتنى عيناى ، فسلَكَتْ بى الدّابةُ غيرَ الطريق ، فانتبهتُ وأنا على غير الجادَّةِ[2] ، فاشْتَدَّ بى الحرّ ، فعطشت عطشاً شديداً ، فارْتَفَعَ لى خِباء فقصدته ، فإذا بقُبَّةٍ ، وبجنبها بئْرُ ماء ، بقرب مزرعة ـ وذلك بين مكة والمدينة ـ ولم أر بها إنسيًّا ، فاطلعت فى القبة ، فإذا أنا بأَسْود نائم ، فأحسّ بى ، ففتح عينيه ثم استَوَى جالساً ، فإذا هو عظيمُ الصورة . فقلت : يا أَسْود ، اسقنى من هذا الماء ، فقال : يا أَسْود ، اسقنى من هذا الماء ، مُحاكيًا لى . وقال : إن كنتَ عطشان فانزلْ واشرب ، وكان تحتى بِرْذون[3] خبيث نَفُور ، فخشيتُ أن أنزِل عنه ، فيَنفِرَ ، فضربتُ رأس البِرْذون .

وما نَفَعنى الغِناء قطّ إلا فى ذلك اليوم ، وذلك أنى رفعتُ عَقيرتى وغنَّيت .

فرفع الأَسْوَدُ رأسَه إلىّ ، وقال : أيّما أحب إليك ، أن أسقيك ماء وحدَهُ ، أو ماء وسَوِيقا[4] ؟ قلت : الماء والسويق . فأخرج قَعْباً[5] له ، فصبَّ السَّوِيقَ فى القدح فسقانى ، وأقبل يضرب بيده على رأسه وصَدْرِه ، ويقول : واحرَّ صَدْرَاه ! يا مولاى ؛ زِدنى وأنا أزيدك ، وشَربتُ السويق ، ثم قال لى : يامولاى ، إنّ بينك

---

* المسعودى : ٢ ـ ٢٧٠

(١) هو إبراهيم بن محمد المهدى أخو هارون الرشيد ، كان أسود حالك اللون فصيح اللسان واسع الصدر ، سخى الكف حاذقا بصنعة الغناء ، توفى سنة ٢٢٤ هـ . (٢) الجادة : معظم الطريق (٣) البرذون : الدابة . (٤) السويق : مايتخذ من الحنطة والشعير . (٥) القعب : القدح الضخم .

وبين الطريق أمْيَالًا ، ولست أشكُّ أنك تعطش ؛ لكنى أملأ قِرْبتى هذه وأحملها قُدّامك . فقلتُ : افعل .

فملأ قِرْبته ، وسار قُدّامى وهو يحجل فى مِشْيَته غيْرَ خارج عن الإيقاع ، فإذا أمسكت لأستريحَ أقبل علىّ ، فقال : يامولاى ؛ عطشتَ ؛ فأُغَنّيه إلى أنْ أوقفنى على الجَادَّة ، ثم قال لى : سِرْ رعاك الله ، ولا سَلَبك ما كساك من هذه النعم ـ بكلام عجمى ، معناه هذا الدعاء ـ فلحقتُ بالقافلة ، والرشيد قد فقدنى ، وقد بثَّ الخيلَ فى طلبى ، فسُرَّ بى حين رآنى ، فأتيتُهُ فقصَصْتُ عليه الأمرَ ، فقال : علىّ بالأسود ، فما كان إلا هُنَيْهَة حتى مَثل بين يديه ، فقال له : وَيْلَكَ ! ما حَرُّ صدرك ؟ فقال : يا مولاى ، ميمونة ! قال : ومَنْ ميمونة ؟ قال : حَبَشِيّة يامولاى ؛ فأمر من يستفهمه ، فإذا الأسود عبدٌ لبنى جعفر الطيار ، وإذا السوداء التى يَهْوَاها لقوم مِن وَلَدِ الحسن بن على ؛ فأمر الرشيدُ بابتياعها له ، فأبى مواليها أن يقبلوا لها ثمناً ، ووهبوها للرشيد ، فاشترى الأَسْوَدَ وأعتقه ، وزوّجه منها ، ووهب له من ماله بالمدينة حديقتين وثلاثمائة دينار .

٢٩ — طُفَيْلِيّ ولكنه ظريف*

حدّث إسحاق[١] الموصليّ قال : غدوْتُ يوماً وأنا ضَجِرٌ من مُلَازمة دارِ الخلافة والخِدْمةِ فيها ؛ فخرجتُ وركبتُ بُكْرَةً[٢] ، وعزمتُ على أن أطوفَ الصحراء وأتفرّج . فقلت لغِلْمَانى : إنْ جاء رسولُ الخليفة أو غيرُه فعرّفوه أنى بَكّرْتُ فى بعض مُهِمَّاتى ، وأنكم لا تعرفون أين توجّهت !

ومضيتُ وطُفْتُ ما بَدَا لِى ، ثم عدتُ وقد حَمِيَ النهار . فوقفتُ فى الشارع المعروف بالمُخَرِّم[٣] فى فناء ثَخين الظل ، وجناحٍ رحْبٍ[٤] عَلَى الطريق لأَسْتَرِيح .

فلم أَلْبَثْ أن جاء خادمٌ يقود حِمَاراً فارِهاً عليه جاريةٌ راكبة ، تحتها منديلٌ دَبِيقِيٌّ[٥] ، وعليها من اللباس الفاخرِ مالا غايةَ بعده . ورأيت لها قَواماً حسناً وشمائل حسنةً .

فخَرَصْتُ[٦] أنها مُغَنِّية ، فدخلتِ الدارَ التى كنتُ واقفاً عليها .

ثم لم أَلْبَثْ أن جاء رجلان شابان ، فاستأذنا فأُذِنَ لهما ، فنزلا ، ونزلت معهما

---

* الأغانى : ٥ ـ ٤٢٣

(١) إسحاق الموصلى : من أشهر ندماء الخلفاء ، تفرد بصناعة الغناء ، وكان عالما باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ، وراوية للشعر وحافظا للأخبار . توفى ٢٣٥هـ . (٢) باكراً (٣) المخرم : محلة ببغداد . (٤) رحب : واسع . (٥) دبيقى : منسوب إلى دبيق ، وهى بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر ، وتنسب إليها الثياب . (٦) خرصت : ظننت .

ودخلت ؛ فظنَّا أن صاحبَ الدار دَعانِي وظنَّ صاحبُ الدار أنى معهما ؛ فجلسْنا وأُتِي بالطعام فأكلنا وبالشراب فوُضع ، وخرجت الجارية وفى يدها عودٌ فغنَّتْ وشرِبْنا ؛ وقُمْتُ قومةً ، فسأل صاحبُ المنزل الرجلين عنِّى ، فأخبراه أنهما لا يعرفانِي ؛ فقال : هذا طُفيليّ ولكنه ظَريف ، فأَجِلوا عِشْرته ، وجئتُ فجلستُ ؛ وغنَّتِ الجارية فى لَحْنٍ لى ، فأدَّتْه أداءً صالحاً ؛ ثم غنَّتْ أصواتاً شتى ، وغنَّت فى أضعافها من صَنْعَتِي :

الطلولُ الدَّوارِسُ   فارَقَتْها الأَوَانِسُ
أوحشَتْ بعد أهْلِها   فهى قَفْرٌ بَسَابِسُ(١)

فكان أمرُها فيه أصلحَ منه فى الأول؛ ثم غنَّت أصواتاً من القديم والحديث، وغنَّتْ فى أثنائها من صَنْعتى :

قل لمَنْ صَدَّ عاتباً   ونأى عنكَ جانبا
قد بلغتَ الذى أردْ   تَ وإن كنتَ لاعِبا

فكان أصلح ما غنَّته . فاستعدته منها لأصحِّحَه لها . فأقبل علىَّ رجلٌ من الرجلين ، وقال : ما رأيتُ طُفيليَّاً أصفَق وجهاً منك ! لم ترضَ بالتَّطفيل حتى اقترحْتَ ، وهذا غاية المثل : « طُفَيلِيٌّ مُقترِح » ؛ فأطرقْتُ ولم أجبه . وجعل صاحبُه يكُفُّه عنى فلا يكُفُّ . ثم قاموا للصلاة وتأخرتُ قليلًا ، فأخذتُ عودَ الجارية ، ثم أصلحتُه إصلاحاً مُحْكَماً ، وعدْتُ إلى موضعى فصلَّيت . وعادوا ثم أخذ ذلك الرجلُ يُعَنِّفُنى وأنا صامت .

---

(١) بسابس ، لغة فى السباسب : الصحارى .

ثم أخذَتِ الجارية العودَ فجسَّته وأنكرتْ حاله ، وقالت : مَنْ مسَّ عودى؟ قالوا : ما مَسَّهُ أحدٌ ، قالت : بلى ، والله لقد مسَّهُ حاذقٌ متقدّم وأصلَحهُ إصلاحَ متمكّنٍ من صناعته ، فقلت لها : أنا أصلحْتُه؛ قالت: فبالله خُذْه واضرب به؛ فأخذته وضربتُ به مبدأ ظريفاً عجيباً صعباً ، فيه نَقَرَاتٌ متحركة . فما بقى أحدٌ منهم إلا وثب على قدميه وجلس بين يدىّ .

ثم قالوا : بالله ياسيدنا ، أتُغنِّى ؟ فقلت : نعم ، وأعرّفكم نفسى ؛ أنا إسحاق ابن إبراهيم الموصلى ، ووالله إنى لأَتِيهُ على الخليفة إذا طلبنى ، وأنتم تُسمعوننى ما أكره منذ اليوم لأنى نَزَلْتُ بكم ! فوالله لا نَطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى تُخْرِجوا هذا المُعَرْبِدَ[1] المَقيتَ[2] الفتَّ . فقال له صاحبهُ: مِنْ هذاحَذِرْتُ عليك . فأخذ يعتذر ؛ فقلت : والله لا نَطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى يَخْرُج ؛ فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا .

فبدأتُ وغنيّت الأصوات التى غنّتْها الجاريةُ من صَنْعَتى ، فقال لى الرجل : هلْ لك فى خَصْلَة ؟ قلت : ما هى ؛ قال : تقيمُ عندى شهراً والجارية والحمارُ لك مع ما عليها من حُلِىٍّ ؛ قلت : أفعل . فأقمتُ عنده ثلاثين يوماً لا يدرى أحدٌ أين أنا ، والمأمون يَطلُبنى فى كل موضع فلا يعرِفُ لى خبراً .

فلما كانَ بعد ثلاثين يوماً أسْلَمَ إلىَّ الجاريةَ والحمارَ والخادم فجئتُ بذلك إلى منزلى ، وركبتُ إلى المأمون مِن وقْتى ، فلما رآنى قال : إسحاق ! ويحك ! أين تكون ؟ فأخبرتُه بخبرى . فقال : علىَّ بالرجل الساعة ؛ فدلَلْتُهُمْ على بيته فأحضر.

---

(١) المعربد ، رجل معربد : يؤذى نديمه . (٢) المقيت : المكروه .

فسأله المأمون عن القِصَّة فأخبره . فقال له : أنت رجلٌ ذو مروءة ، وسبيلُك أن تُعاوَنَ عليها . وأمر له بمائة ألف درهم ، وأمر لى بخمسين ألف درهم ، وقال : أَحْضِرْنى الجاريةَ . فأحْضرتُها فغنّته . فقال لى : قد جعلتُ لها نَوْبةً فى كلّ يوم ثُلاثاء تُغَنّينى وراء السِّتْر مع الجوارى . وأمرَ لها بخمسين ألف درهم، فربحتُ والله بتلك الرَّكْبَةِ وأَرْبَحْتُ .

٣٠ – زِرْياب وإسحاق الموصلى*

كان زِرْياب(١) تلميذاً لإسحاق الموصلى ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً، وهُدِىَ من فَهْم الصناعة وصِدْق العقل ، مع طِيبِ الصوت ، إلى مافاق به إسحاق، وإسْحاقُ لا يشعرُ بما فُتح به عليه ، إلى أن اقترح الرشيدُ عليـــه أنْ يأتيه بمغنٍّ غريبٍ مُجيدٍ للصنعة، لم يشتهر مكانه إليه ؛ فذكر له تلميذَه هذا ، وقال : إنه موْلًى لكم ، وسمعتُ له نَزَعاتٍ حسنة ، ونغماتٍ رائقة مُلْتَاطَةً(٢) بالنفس ، وهو من اختراعى واسْتِنْباطِ فكرى ، وأحْدِسُ(٣) أن يكون له شأن .

فقال الرشيد : هذا طَلِبتى ، فأَحْضِرْنيه ، لعلّ حاجتى عنده . فأحضره ، فلما كلمه الرشيدُ أَعْرَب عن نفسه بأحْسنِ منطق ، وأوْجَز خطاب ؛ وسأله عن معرفته بالغِناء، فقال: نعم، أُحْسِنُ مايُحْسِنُه الناس، وأكثر ماأُحْسِنه لايحسنونه، مما لا يَحْسُنُ إلا عندك ، ولا يُدَّخَرُ إلا لك ؛ فإن أذنتَ غنيْتُك مالم تسمعه أُذنٌ قبلك .

فأمر بإحْضار عودِ أستاذه إسحاق ، فلما أُدْنِىَ إليه وقف عن تناوُله ، وقال :

---

* نفح الطيب : ٢ ـ ١٠٩

(١) كان زرياب مع علمه بصناعة الغناء عالماً بالنجوم، شاعراً أديباً حلو الحديث، لطيف المعاشرة، ماهراً فى خدمة الملوك ، توفى سنة ٢٣٠ هـ . (٢) التاط بالقلب : لزق به . (٣) الحدس : الظن والتخمين .

لى عودٌ نحتُّه بيدى ، وأرهفته بإحكامى ، لا أرْتضِى غيره ، وهو بالباب ، فليَأْذَنْ لى أمير المؤمنين فى استدعائه ؛ فأمر بإدخاله إليه .

فلما تأمّله الرشيدُ — وكان شبيهاً بالعود الذى دفعه إليه — قال : ما منعك أن تستعمِلَ عودَ أُستاذِك ؟ فقال : إنْ كان مولاى يرغبُ فى غِناء أستاذى غنّيْتُه بعوده ، وإن كان يرغبُ فى غِنائى فلا بدّ لى من عودى ! فقال له : ما أراهما إلا واحداً ؛ فقال : صدقتَ يا مولاى ؛ ولا يؤدِّى النظرُ غيرَ ذلك ، ولكنّ عُودى وإن كان فى قَدْر جِسم عوده ، ومن جِنس خَشَبِه ، فهو يقع من وزنه فى الثُّلث ؛ ووصَفَه وَصفاً استبرعه الرشيد ، وأمره بالغناء ، فجسّ ثم اندفع فغنّاه :

يأيهـــا الملك الميمونُ طائرُه   هارُون راح إليك الناسُ وابتكروا[1]

فلما أتمّ طار الرشيد طرباً ، وقال لإسحاق : والله لولا أنى أعلم من صِدْقِك وتصديقه لك ؛ من أنك لم تَسْمَعْه قَبْلُ لأنزلتُ بك العقوبة ؛ لِتَرْكِك إعلامى بشأنه ؛ فخذه إليك واعتنِ به ، حين أفرغَ له ، فإن لى فيه نظراً .

فسُقِط فى يد إسحاق ، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره ، فخلا بزِرْياب ، وقال : يا علىّ ، إن الحسدَ أقدمُ الأدواء[2] . والدنيا فتّانة ، والشركةُ فى الصناعة عداوةٌ ، ولا حِيلَةَ فى حَسْمِها ، وقد مكرتَ بى فيما انطويتَ عليه من إجادتك ؛ وعلوّ طبقتك ، وقصدتُ منفعتك ، فإذا أنا قد أتيتُ نفسى من مأْمَنِها بإدْنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى ، وترتقى أنتَ فَوْقِى ، وهذا مالا أصاحبك عليه

(١) ابتكروا : أتوه بكرة ، والبكرة : الغدوة . (٢) جمع داء .

ولو أنك وَلَدِي؛ ولولا رَعْيي لذمّةِ تربيتك لما قدّمتُ شيئاً على أن أُذْهِبَ نفسك، ويكونُ في ذلك ما يكون.

فتخيَّرْ في ثِنْتَيْنِ لا بدّ لك منهما: إما أن تذهبَ عني في الأرض العريضة، لا أسمعُ لك خبراً، بعد أن تعطيَني على ذلك الأيمان الموثقة؛ وأنهِضُك لذلك بما أردتَ من مالٍ وغيره، وإما أن تقيمَ على كُرْهي ورَغْمي مُسْتَهْدِفاً إليّ؛ فخذ الآن حِذْرَك مني، فلستُ - والله - أُبْقِي عليك، ولا أَدَعُ اغتيالك، باذِلاً في ذلك بَدَني ومالي، فاقْضِ قضاءك!

فخرج زِرْياب لوقته، وعلم قدرتَه على ما قال، واختار الفِرَار، فأعانه إسحاق على ذلك سريعا، ورَاشَ[1] جناحَه، فرحل عنه ومضى يبغي مغرب الشمس، واستراح قلبُ إسحاق منه.

وتذكّره الرشيد بعد فَرَاغِه من شغل كان منغمساً فيه، فأمر إسحاق بإحضاره؛ فقال: ومَنْ لي به يا أمير المؤمنين! ذاك غلام مجنون، يَزْعُمُ أن الجنَّ تكلّمُه، وتطارِحُه ما يُزْهَى[2] به من غِنائه، فما يرى في الدنيا من يَعْدِله[3]، وما هو إلا أن أبطأتْ عليه جائزةُ أمير المؤمنين، فقدّر التقصير به، والتهوينَ بصِناعته، فرحل مُغاضِباً[4] ذاهبا على وجهه، مستخفيا عني، وقد صنع الله تعالى ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لَمَمٌ[5] يغشَاه، وقد كان يفرط خَبَلُه، فيُفْزِع من رآه.

فسكن الرشيدُ إلى قول إسحاق، وقال: على ما كان به، فقد فاتنا منه سرورٌ كثير!

---

(١) راشه: إذا أحسن إليه، وراش صديقه: إذا أطعمه وسقاه وكساه. (٢) زهي به: أعجب به. (٣) يعدله: يساويه. (٤) مغاضبا: غاضبت الرجل: أغضبته وكرهته. (٥) اللمم: الجنون.

ومضى زرياب إلى المغرب[١] ، وعلم عبد الرحمن بن الحكم بخبره؛ فكتب إلى عُمَّاله على البلاد أن يُحْسِنوا إليه ، ويوصلوه إلى قُرْطُبة ، وأمر مَنْ يتلقَّاه ببغال وآلاتٍ حسنة .

فدخل هو وأهلُه ليلًا ، وأنزله فى دار من أحْسَنِ الدور ، وحمل إليها جميعَ ما يحتاج إليه ، وخَلَع عليه . ثم أجرى عليه راتباً ، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ، ومن الضِّياع ما يقوَّم بأربعين ألف دينار ، فلما قضى له سُؤْلَه ، وأنجز موعِدَه ، وعلم أن قد أرْضاه ، وملك نفسه استدعاه ، ولما سمع غناءه اطَّرح كلَّ غِناء سواه ، وأحبّه حبًّا شديداً ، وقدّمه على جميع المغنِّين .

---

(١) يريد الأندلس .

٣١ — فى مسجد رسول الله تتغنى ؟*

قال إبراهيم الحرّانى : حججتُ مع أمير المؤمنين الرشيد ، فدخلتُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينا أنا بين القَبْر والمِنْبَر إذا أنا برجلٍ حسن الهيئة خاضِب ، ومعه رجلٌ فى مِثْل حاله ، فحانتْ منى التِفاتة ، فإذا هو يقوّس حاجبيه ، ويفتح فاهُ ، ويَلْوِى عنقَه ، فتجوَّزتُ(١) فى صلاتى ، ثم سلّمت فقلت : أفى مسجد رسول الله تَتَغنَّى ! فقال : ما أجْهَلَكَ ! أما فى الجنةِ غِناء ! قلت : بلى ! لعمرى ، فيها ما تَشْتهيه الأنفسُ وتلَذُّ الأعين ! قال : أمَا نحن فى رَوْضَةٍ من رياض الجنة ؟ قلت : نعم ! قال : واحَرَباه ! أتردُّ على رسول الله قوله : « بين قَبْرى ومِنْبَرى روضةٌ من رِياض الجنــة » ! فنحن فى تلك الرّوضة . قلت : قبّح اللهُ شيخاً ما أسفهه ! قال : بالقبر والمنبر لَمّا(٢) أنصتَّ إلىّ ! فتخوّفت ألا أُنصت . فاندفع يغنى بصوت يخفيه :

وليستْ عشيّاتُ الحِمَى برواجعٍ ... إليك ، ولـكنْ خلِّ عينيك تدْمَعا

بكتْ عَيْنِيَ اليُسرى فلما زجرتُها ... عن الجهل بعـد الحلم أسْبَلتَا معا

فوالله إنْ قمتُ إلى الصلاة لِمَا دخل قلبى ! فلما رأى ما نزل بى ، قال: يابن أم؛ أرى نفسَك قد استَجابَت وطابَت ، فهل لك فى زيادة ؟ قلت : ويحك ! فى مسجد

---

* ذيل زهر الآداب : ٤٨

(١) تجوز فى صلاته : خفف . (٢) لما : إلا .

رسول الله ! ! قال : أنا والله أعرفُ بالله ورسوله منك ! فدعْنـــا من جهلك ، ثم تغنّى :

فلو كان واشٍ باليمامـــةِ دَارُه ودَارِى بأقصى حَضْرَ مَوتَ اهتدى لِيَا
وماذا لهم ـ لا أحسنَ الله حِفْظَهم ـ من الشأن فى تَصْرِيمِ[1] لَيلَى حِبَالِيَا

فقال له صاحبُه : يابن أمّ ، أحسنْتَ والله ، وعِتْق ماأَمْلِكُ لوكان أميرُ المؤمنين الرشيد حاضراً لخلع عليك ثيابَه مشقوقةً طَرَباً .

فقمت ، وهما لايعلمان مَنْ أنا ؟ فدخلتُ على أمير المؤمنين فأعلمتُه الخبر، فقال: أدْرِكْهُمَا لا يفوتاك !

فوجهتُ من جاء بهما . فلما دخلا عليـه دخلا بوجوه قد ذهبَ ماؤُها ، وأنا قائمٌ على رأسه ؛ فقال : ياإبراهيم ؛ هذان هما ؟ قلت : نعم ! فنظر إلىّ المغنى منهما ، وقال : سِعَايةٌ[2] فى جوار رسول الله ! فسُرِّى عن أمير المؤمنين بعضُ غَضَبه ، وتبسّم ، فقال : ما كُنْتُما فيه ؟ قالا : فى خير ! قال : فما الخير ؟ فسكَتَا .

فقال للمغنى منهما : من أنْتَ ؟ فابتدره جماعة فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنه ابنُ جُرَيْج[3] فقيهُ مكةَ ! فقال : فقيه مكة يتغنى فى مسجد رسول الله !

قال : يا أمير المؤمنين ؛ لم يكن ذلك منى بالقَصْد للغناء ، ولكنى كنتُ أسمعت هـذا المخزومى ـ يعنى صاحبه ـ صوتين ، فلم يزالا فى قلبى حتى التقينا ، فأحبَبْتُ أن يأخذَهما عنى فأخذهما ، وحلف أنى أحسنتُ ، وأنه لو كان فى الموضع أميرُ المؤمنين لخلع علىّ ـ وسكت .

---

(١) صرمته ، وصارمته : قاطعته . (٢) سعاية : وشاية . (٣) ابن جريج : وهو عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريج ، ويكنى أبا الوليد .

فقال الرشيد : تركتَ من الحديث شيئاً ؟ قال : ماتركتُ شيئاً يا أمير المؤمنين! قال : والله لتقولَنّ . قال : يا أمير المؤمنين ؛ زعم أنك لو كنتَ فى موضعه لخلعت علىّ ثياباً مشقوقة طَرَباً !

فتبسّم ، وقال : أمّا هـذا فلا ، ولـكن نخلعُها عليك صحيحة ، فهى خير لك !

ثم دعا بثياب فلبِسها ونَبَذَ إليه ثيابَه ، وأمر له بعشرين ألف درهم ولصاحبه بعَشْرَة آلاف درهم !

وقال : لا تعودَنّ لهـذا . فقال صاحبهُ : إلا أن يحجّ أمير المؤمنين ثانية . فضحك وقال : ألحِقوه بصاحبه فى الجائزة !

٣٢ — شِعْرٌ رقيق*

قال إسحاق الموصلىّ : حضر مسامرةَ الرشيد عَبْثَر المغنىّ ـ وكان فصيحاً متأدباً، عَلِيّاً الشِّعْرِ ، ذا صوتٍ حسَنٍ ـ فتذاكروا رِقَّةَ شِعْرِ المدنيِّين ، فأنشد بعضُ جلسائه أبياتاً لابن الدُّمَيْنَة حيث يقول :

وأذْكُر أيامَ الحِمَى ثم أنْثَنِى   على كبدى من خشيةٍ أنْ تَصَدَّعا(١)
وليسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى برواجعٍ   عليك ، ولكِنْ خلِّ عينيك تدمعاَ
بكَتْ عينىَ اليمنى فلما زجرتُهَا   عن الجهل بعد الحِلم أسْبَلَتَا معاَ

فأَعْجِبَ الرشيد برقةِ الأبيات ، فقال له عَبْثَر : ياأمير المؤمنين ؛ إن هذا مدنىٌّ رقيق ، قد غُذِى بماء العقيق ، حتى رقَّ وصَفَا ، فصار أصفى من الهواء ؛ ولكِنْ إنْ شاء أميرُ المؤمنين أنشدته ماهو أرقّ من هذا وأحْلى ، وأصلبُ وأقوى لرجل من أهل البادية ! قال : فإنى أشاء . قال : وأترنَّمُ به ياأميرَ المؤمنين ؟ قال: وذلك لك ، فغنّى لجرير :

إنَّ الذين غَدَوْا بلُبِّكَ غادَرُوا   وشَلًا(٢) بعَيْنِك لا يَزالُ مَعِيناَ
غَيَّضْنَ(٣) مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقلْنَ لى :   ماذا لقيتَ من الهوى ولَقِينا !

قال : صدقتَ ياعَبْثَر ، وخلع عليه وأجازه.

---

* العقد الفريد : ٤ ـ ١٠٩

(١) أصله تتصدعا . (٢) الوشل : القليل من الدمع والكثير منه . (٣) غيضن من عبراتهن: سيلن دموعهن حتى نزفنها ، ومن هنا للتبعيض أو زائدة .

٣٣ — صَوْتٌ بدِرْهمين*

قَدِم إسماعيل(١) بن الهِرْبِذ على الرّشيد من مكة ، فدخل إليه وعنده ابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاق وفُلَيح وغيرهم ، والرشيد يومئذ خاثِر(٢) ، فغنّى ابن جامع ثم فُلَيح ثم إبراهيم ثم إسحاق ، فما حرّكه أحدٌ منهم ولا أطْرَبه ؛ فاندفع ابن الهِرْبِذ يُغَنّي ، فعجبوا من إقدامه فى تلك الحال على الرشيد ، فغنّى :

يارَاكِبَ العِيسِ(٣) التى ... وفدَتْ من البلد الحَرَامِ
قُل للإمام ابن الإما ... م أخى الإمام أبى الإمامِ
زينِ البريةِ إذ بدا ... فيهم كمصباح الظلامِ
جعل الإلهُ الهِرْبذىَّ ... فِداكَ مِن بينِ الأنامِ

فكاد الرشيد يرقُص ، واستخفّه الطرب حتى ضربَ بيديه ورجليه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم . فقال له : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن لهذا الصوت حديثاً ؛ فإنْ أذِنَ مولاى حدّثته به ؛ فقال : حَدّث .

قالت : كنتُ مملوكا لرجل من ولد الزبير ؛ فدفع إلىّ درهمين أبتاعُ بهما لحماً ، فرُحْتُ فلقيت جاريةً على رأسها جرّةٌ مملوءةٌ من ماء العقيق ، وهى تَغَنّى هذا اللّحن فى شعرٍ غير هذا الشعر على وزنه ورويّه ، فسألتها أن تعلّمنيه ؛ فقالت :

---

* الأغانى : ٧ — ١٠٤

(١) إسماعيل بن هربذ : مولى آل الزبير بن العوام ، أدرك آخر أيام بنى أمية ، وغنى الوليد بن يزيد ، وعمر إلى آخر أيام الرشيد . (٢) خثرت نفسه : غثت وثقلت واختلطت .

(٣) العيس : الإبل .

لا وحقِّ القبر إلا بدرهمين ؛ فدفعت إليها الدرهمين وعلّمتنيه، فرجعتُ إلى مولاى بغير لحم ، فضربنى ضرباً مبرِّحاً شُغِلْتُ معه بنفسى فأنسيتُ الصوت .

ثم دفع إلىّ درهمين آخرين بعد أيام أبتاع له بهما لحماً، فلقيتنى الجاريةُ فسألتها أنْ تعيدَ علىّ الصوت ؛ فقالت : لا والله إلا بدرهمين، فدفعتُها إليها، وأعادته علىّ مراراً حتى أخَذْته .

فلما رجعتُ إلى مولاى أيضاً ولا لَحْمَ معى، قال: ما القصّةُ فى هذين الدرهمين؟ فصدّقته القصة ، وأعَدْتُ عليه الصوت ، فقبّل بين عينىّ وأعتقنى ؛ فرحلتُ إليك بهذا الصوت ، وقد جعلت ذلك اللَّحْنَ فى هذا الشعر ، فقال : دَعِ الأول وتناسَه، وأقم على الغناء بهذا اللحن فى هذا الشعر ، فأما مولاك فسأدفع إليه بَدَل كل درهم ألفَ دينار ، ثم أمر له بذلك فحُمِلَ إليه .

---

٣٤ — أُمُّ جَعْفَرٍ تَنُوحُ على الرشيد*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

سمعتُ نائحةً تنوحُ بهذا الشعر(١) :

قد لعمرى بتُّ ليلى كأخِى الداء الوجيعِ
ونَجِيُّ الهمِّ مِــنِّى بات أدنى من ضُلوعى
كلما أبصرتُ رَبعاً دَارِساً(٢) فاضت دُمُوعى
مُقْفِراً من سَيِّدٍ كا ن لنا غيرَ مُضِيعِ

فلما سمعتُه منها استحسنته واشتهيتُه ، ولهِجتُ به ، فكنتُ أترنَّمُ به كثيراً ، فسمع ذلك منى أبى ، فقال : ما تصنعُ بهذا ؟ قلت : شِعرٌ قاله الأَحْوَص وصنعه مَعْبَد لسَلّامَة ، وناحت به سلّامة على يزيد .

ثم ضرب الدّهر(٣) ؛ فلما مات الرشيدُ إذا رسول أمِّ جعفر قد وافانى فأمرنى بالحضور . فسِرْتُ إليها ؛ فبعثْتْ إلىَّ : إنى قد جمعتُ بنات الخلفاء وبناتِ هاشم لنَنُوحَ على الرشيد فى ليلتنا هذه ؛ فقل الساعةَ أبياتاً رقيقة ، وَاصْنَعْهن صنعةً حسنة حتى أنوحَ بهنّ .

---

* الأغانى : ٨ — ٣٤٨

(١) الشعر للأحوص والنوح لمعبد ، وكان صنعه لسلامة ، وناحت به سلامة على يزيد بن عبد الملك . (٢) الدارس : العافى الذى امحى . (٣) ضرب الدهر بيننا : فرقنا .

فأردتُ نفسى على أن أقول شيئاً فما حضرنى ، وجعلتْ ترسل إلىّ تَحُثُّنى ،
فذكرتُ هذا النَّوْح ، فأريتُ أنى أصنع شيئاً ، ثم قلت : قد حضرَنى القول ،وقد
صنعتُ فيه ما أمرت ، فبعثَتْ إلىّ بكُنَيْزَة ، وقالت : طارِحْهاَ حتى تُطَارِحَنيه ،
فأخذتْ كنيزَةُ العودَ ورددّتُه عليها حتى أخذتْه ،ثم دخلت فطارحته أم جعفر ،
فبعثت إلىّ بمائة ألف درهم ومائة ثوب .

٣٥ — أما إليك سبيل غير مسدود!*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ: لما أفضَت الخلافةُ إلى المأمون أقام عشرين شهراً لم يسمع حرْفاً من الغِناء؛ ثم كان أولَ من تغنَّى بحضرته أبو عيسى، ثم واظبَ على السماع، وسأل عنى، فجرَّحَني عنده بعضُ مَنْ حسَدنى؛ فقال: ذلك رجل يَتِيهُ على الخلافةِ؛ فقال المأمون: ما أبْقَى هذا من التِّيهِ شيئاً، وأمسك عن ذِكْرى.

وجفَانى كلُّ من كان يَصِلُنى لِمَا ظهر من سُوء رأيه؛ فأضرَّ ذلك بى حتى جاءنى يوماً عَلَّوَيْهِ، فقال لى: أتأذنُ لى اليوم فى ذِكْرك، فإنى اليوم عنده؟ قلت: لا، ولكنْ غنِّه بهذا الشعر؛ فإنه سيبعثُه على أن يسألك: مِنْ أين هذا؟ فينفتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء؛ فمضى عَلَّوَيْه، فلما استقرَّ به المجلس غنَّاه الشعر الذى أمرتُه به، وهو:

يا مَشْرَعَ الماء قد سُدَّت مسالِكُه أمَا إليك سبيلٌ غيرُ مسدود!

لِحَائم حارَ حتَّى لا حيَاةَ به مشرَّدٍ عن طريقِ الماء مَطْرُود

فلما سمعه المأمون: قال: ويلك! لِمَنْ هذا؟ قال: ياسيدى، لعبدٍ مِنْ عبيدك، جفَوْتَه واطَّرحْتَه، قال: إسحاق؟ قال: نعم؛ قال: ليحضر الساعة.

---

* العقد الفريد: ٤ — ١٠٩

قال إسحاق : فجاءنى الرسولُ ، فسرتُ إليه ، فلما دخلتُ قال: ادْنُ ، فدنوتُ فرفع يديه وقد مدّهما ، فاتكأتُ عليه؛ فاحتضننى بيديه؛ وأظهر من إكرامى وبِرّى مالو أظهره صديقٌ لى مُوَاسٍ لسرّنى .

٣٦ — عند مُخارِق*

قال بعضُ الرُّوَاة : كنتُ عند مُخَارِق(١) أنا وهارون بن أحمد بن هشام ، فلعب مع هارون بالنَّرْدِ ، فقَمَرَه(٢) مُخارق ، ومرّ بهارون فَصِيلٌ(٣) ينادَى عليه، فاشتراه بأربعة دنانير ، ووجّه به إلى مخارق ، وقال : أطعِمْنا من هذا الفَصِيل .

فاجتمعنا وطبخ مخارق بيده جَزُورِيّةً ، وعمل من سَنَامه وكبده طعاماً شُوِى فى التَّنُّور ، وعمل من لَحْمه لوناً يُشْبِه الهريسة بشمير مُقَشَّر فى نهاية الطيب، فأكلنا وجلسنا نشرب ؛ فإذا نحن بامرأة تصيحُ من الشَّطِّ : يا أبا المهنأ ، الله ، الله فىَّ ! حلَفَ زوجى بالطلاق أن يسمع غناءك ويشربَ عليه ، فقال : اذهبى وجيئى به ، فجاء فجلس ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال له : يا سيِّدى ؛ كنتُ سمعتُ صوتاً من صَنْعتك فطربتُ عليه حتى استخفّنى الطَّرب ، فحلفتُ أن أسْمَعه منك ثقةً بإجابتك رغبةَ زوجتى ؛ فقال : وما هذا الصوت ؟ فقال :

---

* الأغانى : ٢١ ـ ١٥١

(١) هو أبو المهنأ بن يحيى ، منشؤه بالمدينة ، وكان أبوه جزاراً ، فكان وهو صبى ينادى على ما يبيعه أبوه ، فلما بان طيب صوته علمته مولاته طرفاً من الغناء ثم اشتهر أمره وغنى الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ، توفى أيام المتوكل . (٢) غلبه .

(٣) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

بكرتْ عليك فهيجتْ وجْدا ... هُوجُ[1] الرياح وأذْكرت نجْدا
أتحِنُّ مِنْ شوْقٍ إذا ذُكِرتْ ... نجدٌ وأنت تركْتَها عمدا !

فغنّاه إياه ، وسقاه رطلًا ، وأمَرَهُ بالانصراف ، ونهاه أن يعاوِد ؛ فخرج .

قال الراوى : فما لبثنا أن عادت المرأةُ تَصْرخ : اللهَ ، اللهَ فىَّ يا أبا المهنّأ ! قد أعاد زوجى المشئوم اليمين ؛ أنْ تغنّيَه صوتاً آخر ؛ فقال لها : أحضريه ، فأحضرته أيضاً ، فقال له : ويلك ! مالِى ولك ؟ ما قِصّتُك ؟ فقال له : يا سيِّدِى ؛ أنا رجل طروب ، وكنت قد سمعتُ صوتاً لك آخر فاسْتَفَزّنى الطرب إلى أن حلفْتُ بالطّلاق ثلاثاً أنى أسْمَعه منك ، قال : وما هُوَ ؟ قال : لحنُك :

أبلغْ سلامةَ أنَّ البَيْنَ قد أفِدَا[2] ... وأنّ صَحْبَك عنها رائحون غدا
هذا الفِراقُ يقيناً إن صَبَرت له ... أوْلا فإنك منها ميّتٌ كمَدا
لاشكّ أن الذى بى سوف يهلكنى ... إنْ كان أهْلَكَ حُبٌّ قبلَه أحدا

فغنّاه إياه مخارق ، وسقاه رطلًا وقال له : احذَرْ ، ويلك أن تعاود .

قال الراوى : ولم تلبث أن عاودَت الصِّياحَ تَصْرخ : يا سيدى ! قد عاود اليمين ، اللهَ اللهَ فىّ وفى أولادى ! قال : هاتيه ، فأحضرتْه ، فقال لها : انصرفى أنت ؛ فإن هذا كلما انصرف حلف وعاد ، فدَعِيه يقيم يومه كلّه ، فتركته وانصرفت ، فقال له مخارق : ما قِصّتُك أيضاً ؟ قال : قد عرّفْتُك يا سيدى أنى رجل طروب ، وكنت سمعت صوتاً من صنْعتك فاستخفنى الطرب له ، فحلفت أنى أسمعه منك ، قال : وما هو ؟ قال :

أَلِفَ الظَّبْيُ بِعادِى ... ونَفَى الهمُّ رُقادِى

---

(١) هوج الرياح : شديد الرياح . (٢) أفد : دنا ، وأزف .

وعَدَا الهَجْرُ على الوصْـــلِ بأسيـافٍ حِدَادِ

قل لمن زيّن وُدّى : لستَ أهـلًا لودادى

فغنّاه إياه وسقاه رطلًا ، ثم أمر به فبُطِح ، وأمر بضرب به خمسين مِقْرَعة[1] ، وهو يستغيث ، ثم قال له : احْلِفْ أنك لا تذكرنى أبداً ، وإلّا كان هذا دأبك إلى الليـــل ، فحلف على ما أمر به ، ثم أقيم فأخرج عن الدار ، فجعلنا نضحك بقية يومنا من حُمقه .

---

(١) أصل المقرعة ماتقرع به الدابة .

٣٧ – مخارق يغنّى لأبى العتاهية فى شعره*

حدّث مخارق ، قال : جاءنى أبو العتاهية ، فقال : قد عزمتُ على أن أتزوّد منك يوماً تَهبَهُ لى فمتى تنشط ؟ قلت : متى شِئْتَ وإن طلبنى الخليفة ، فقال : يكون ذلك فى غد ؟ فقلت : أفعل .

فلما كان من غد باكرنى رسولُه فجئته ، فأدخلنى بيتاً له فيه فَرْشٌ نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خُبْز سَمِيذ(١) وخَلّ وبَقْل وملح وجَدْىٌ مَشْوِىّ ، فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بحَلْوَاء فأصبنا منها ، وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفاكهة وريْحان وألوان من الأنْبِذَة ، فقال : اخْتَرْ ما يصلُح لك منها ، فاخترت وشَرِبتُ ؛ قدحاً ثم قال : غنِّنى فى قولى :

أحمدٌ قال لى ولم يَدْرِ ما بى ... أتحبّ الغَداةَ عُتْبَةَ حقّا !

فغنّيته ، فشرب قَدَحاً وهو يبكى أحرَّ بكاء ، ثم قال : غننى فى قولى :

ليس لمن ليست له حِيلةٌ ... موجودةٌ خيرٌ من الصَّبرِ

فغنَّيْتُه وهو يبكى ويَنْشِج(٢) ، ثم شرب قدحاً آخر ، ثم قال : غَنِّنى فديتك فى قولى :

خليلى ما لى لا تزالُ مَضرّتى ... تكونُ مع الأقْدارِ حتماً من الحَتمِ

فغنيتهُ إياه ، وما زال يقترح علىَّ كلَّ صوت غُنِّىَ به فى شعره فأغنيه ويشرب ويبكى حتى العَتَمة(٣) ، فقال : أحبُّ أن تصبر حتى ترى ما أصنعُ . فجلست ، فأمر

* الأغانى : ٤ – ١٠٧

(١) السميذ : الدقيق الأبيض . (٢) نشج الباكى : غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .

(٣) العتمة : وقت صلاة العشاء .

ابنَه وغلامه فكسَّرَ كلَّ ما بأيدينا من النبيذ وآلِته والملاهى ، ثم أمر بإخراج كلِّ ما فى بيته من النبيذ وآلِته ، فأخرِجَ جميعُه ، فما زال يكسِّره ويصبّ النبيذ ، وهو يبكى حتى لم يَبْقَ من ذلك شىء ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بِيضًا من صوف ، ثم عانَقَنِى وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبى سلامَ الفراق الذى لا لِقَاءَ بعده ، وجعل يبكى وقال : هـذا آخرُ عَهْدِى بك . فظننتُ أنها بعضُ حَمَاقاته .

فانصرفتُ وما لقيتُه زماناً ، ثم تشوَّقتُ إليه فأتيته ، فاستأذنت عليه ، فأَذِن لى ، فدخلت فإذا هو قد أخذ قوصرّتين [١] ، وثَقَبَ إحداهما ، وأدخل رأسه ويديه فيها ، وأقامها مقام القميص ، وثقب أخرى ، وأخرج رجليه منها ، وأقامها مقام السراويل .

فلما رأيته نسيتُ كلَّ ما كان عندى من الغمِّ عليه والوَحْشةِ لعشرته ، وضحكت والله ضحكا ما ضحكت مثله قط . فقال : من أىّ شىء تضحك ؟ فقلت : أسخَنَ [٢] الله عينَك ! هذا أىّ شىء هو ؟ من بلَغَكَ عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزُّهَّاد والصحابة والمجانين ! انزِعْ عنك هذا ياسخينَ العين ! فكأنه استحْيَا منى .

ثم بلغنى أنه جلس حجَّاماً ، فجهِدتُ أنْ أراه بتلك الحال ، فلم أره ، ثم مرض فبلغنى أنه اشتهى أنْ أُغنِّيَهُ ، فأتيتُه عائداً ؛ فخرج إلىّ رسوله يقول : إن دخلت إلىّ جددتَ لى حزناً ، وتاقت نفسى من سماعك إلى ماقد غلبتُها عليه ، وأنا أستودعك الله ، وأعتذرُ إليك من عدم اللقاء ، ثم كان آخر عهدى به .

---

(١) القوصرة : وعاء من قصب يوضع فيه التمر . (٢) أسخن الله عينه : أبكاه وأحزنه .

٣٨ — المُغَنُّونَ عند الواثق*

تناظر المغنّون يوما عند الواثق، فذكروا الضُّرّاب وحِذْقَهم؛ فقدَّم إسحاق زَلْزَلًا(١) على ملاحظ، وللملاحظ فى ذلك الرياسة على جميعهم، فقال له الواثق: هذا حَيْفٌ وتَعَدٍّ منك؛ فقال إسحاق: يا أمير المؤمنين؛ اجمع بينهما وامتحنهما؛ فإنَّ الأمرَ سينكشف لك فيهما، فأمر بهما فأحضرا؛ فقال له إسحاق: إن للضُّرّاب أصواتاً معروفة، أفأمتحنهما بشىء منها؟ قال: أجل، افْعَلْ، فسمَّى ثلاثة أصوات كان أولها:

عُلِّقَ قلبي ظَبْيَةَ السَّيبِ(٢) جهلًا فقد أُغْرِى بتعذيبي
نَمَّتْ عليها حين مرَّتْ بنا مَجاسِدٌ(٣) يَنفَحْنَ بالطِّيبِ
تَصُدُّ عَنَّا عجوزٌ لها مُنْكَرَةٌ(٤) ذاتُ أعاجيبِ
فكلَّمَا هَمْتُ(٥) بإتيانها قالت: توقَّ عَدْوةَ الذِّيبِ(٦)

فضربا عليه، فتقدَّم زلزل وقصَّرَ عنه ملاحِظ، فعجِبَ الواثق من كشفه عمّا ادعاه فى مجلس واحد. فقال له ملاحظ: فما بَالُه يا أمير المؤمنين يُحيلك على الناس! ولِمَ لا يضرب هو! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنه لم يكن أحد فى زمانى أضربَ منى

---

* الأغانى: ٥ — ٢٨٠

(١) كان زلزل من سواد أهل الكوفة، وقفه إبراهيم الموصلى على الغناء العربى، وأراه وجوه النغم وثقفه، ثم أصبح بعد ذلك من حذاق الضراب. (٢) السيب: كورة من سواد الكوفة. (٣) المجاسد: القمصان التى صبغت بالزعفران. (٤) منكرة: مبغضة مكروهة (٥) همت: هممت، وهم بالشىء: أراده ونواه. (٦) الذيب: الذئب.

إلا أنكم أعفيتمونى ؛ فتفلّت مِنى ، على أن معى بقيّة لا يتعلق بها أحدٌ من هذه الطبقة .

ثم قال : ياملاحظ ؛ شَوِّشْ عودَك وهاتِه ، ففعل ذلك ملاحظ : فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا يخلّط الأوتار تخليط متعنت ، فهو لا يألو إفسادَها، ثم أخذ العود فجَسّه ساعة حتى عرف مواقِعَه ، ثم قال : ياملاحظ ؛ غَنِّ أيَّ صوتٍ ، فغنّى ملاحظ صوتا ، وضرب إسحاق بذلك العود الفاسد التسوية ، فلم يخرجْه عن لَحْنِه فى موضع واحد حتى استوفاه عن نقرةٍ واحدة ، ويده تصعد وتنحدر على الدَّساتين(١) ، فقال له الواثق : لا والله ما رأيتُ مثلك ولا سمعتُ به ! اطرح هذا على الجوارى .

فقال : هيهات يا أمير المؤمنين ! هذا لا تعرفه الجوارى ولا يصلحُ لهنّ ، إنما بلغنى أن الفهليذ ضرب يوماً بين يدى كِسْرَى فأحسن ، فحسده رجلٌ من حُذّاق أهل صَنْعَته ، فترقبه حتى قام لبعض شأنه ، ثم خالفه إلى عود فشوّش بعض أوتاره، فرجع فضربَ وهو لا يدرى ، والملوك لا تُصْلَحُ فى مجالسها العيدان، فلم يزل يضرب بذلك العودِ الفاسد إلى أن فرَغَ ، ثم قام على رجله فأخبر الملك بالقصّة ، فامتحن العودَ فعرف مافيه، ثم قال: «زِهْ زِهْ(٢) وزهانْ زِه » ، ووصله بالصلة التى كان يصل بها مَنْ خاطبه هذه المخاطبة ؛ فلما تواطأت الرواية بهذا أخذت نفسى ورُضْتُها عليه، وقلتُ : لا ينبغى أن يكون الفهليذُ أقوى على هـذا مِنّى ، فما زلتُ أستنبطه بضع

---

(١) الدساتين : ما عليه أطراف أو تار العود من مقدمه .

(٢) كلمة فارسية معناها أحسنت أحسنت .

عشرةَ سنة حتى لم يَبْقَ فى الأرض موضعٌ على طبقةٍ من الطبقاتِ إلا وأنا أعرِف نَغْمَتَه كيف هى ، والمواضع التى يخرج النّغم كلها منه فيها ، من أعاليها إلى أسافلها ، وكلّ شىء منها يُجانس شيئاً غيره كما أعرف ذلك فى مواضع الدساتين ، وهذا شىء لا تنى[1] به الجوارى . قال له الواثق : صدقتَ ، ولئن مُتَّ لتموتَنَّ هذه الصناعة معك ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

٣٩ — فى دارِ الواثق*

حدث ابن بُسْخُنَّر ، قال : كانت لى نَوْبة فى خِدْمة الواثق فى كلِّ جُمعة إذا حضرتُ ركبتُ إلى الدار ؛ فإن نَشِط أقمتُ عنده ، وإن لم ينْشط انصرفتُ ، وكان رَسْمُنا ألَّا يحضُرَ أحدٌ منا إلا فى يوم نوْبتِه .

فإنّى لفى منزلى فى غير يوم نوْبتِى إذا رُسُل الخليفةِ قد هجموا علىّ ، وقالوا لى : احضر ! فقلت : ألِخَيْر؟ قالوا : خير ، فقلت : إن هذا يومٌ لم يُحْضِرْنا فيه أمير المؤمنين قطّ ، ولعلكم غَلِطتُمْ . فقالوا : الله المستعان ! لا تطوِّل وبادِرْ ، فقَدْ أُمِرْنا ألّا ندَعك تستقرُّ على الأرض . فداخلنى فزعٌ شديد ، وخفتُ أن يكونَ ساعٍ قد سَعى بى أو بَلِيَّةٌ قد حَدَثَتْ فى رأيِ الخليفة علىّ .

فركبتُ حتى وافيتُ الدار ؛ فذهبتُ لأدخلَ مِنْ حيث كنت أدخل فمُنِعْتُ ، وأخذ بيدى الخدمُ فأدخلونى وعَدَلوا بى إلى ممرّاتٍ لا أعرفها ، فزاد ذلك فى جزَعِى وغَمِّى ، ثم لم يزل الخدمُ يُسلمونني من خدم إلى خدم ، حتى أفضَيْت إلى دار مَفروشة الصَّحْنِ ، ملبّسة الحِيطانِ بالوشْيِ المنسوج بالذهب ، ثم أفضيت إلى رواقٍ أرضُه وحيطانه ملبَّسةٌ بمثل ذلك ، وإذا الواثقُ فى صدْرِهِ على سرير مُرصّع بالجوهر، وعليه ثيابٌ منسوجةٌ بالذهب وإلى جانبِه فَريدة[1]، جاريتُه، عليها مثلُ ثيابه ، وفى حِجْرِها عُود . فلما رآنى قال : إلينا إلينا ! فقبلْتُ الأرضَ ثم قلت :

---

* الأغاني : ٤ ـ ١١٥

(١) فريدة : كانت جارية مغنية محسنة ، أهداها عمرو بن بانة إلى الواثق ، وكانت حسنة الوجه ، حسنة الغناء ، حادة الفطنة والفهم .

يا أمير المؤمنين ؛ خيراً ! قال : خيراً ، أما ترانا ! أنا طلبتُ والله ثالثاً يؤنسنا فلم أر أحقَّ بذلك منك ، فبحياتي بادرْ فكلْ شيئاً وبادِرْ إلينا . فقلتُ : قد والله يا سيدي أكلتُ وشربتُ أيضا ، قال : فاجلسْ ، فجلست . قال : هاتوا لمحمد رِطْلًا في قدح ، فأحضر ذلك ، واندفعت فريدةُ تغنّي :

أهابُكِ إجلالًا وما بكِ قدرةٌ عليَّ ولكنْ ملءُ عَيْنٍ حبيبُها
وما هجرتُكِ النفسُ يا لَيْلُ أنها قلَتْكِ[1] ولا أنْ قلَّ منكِ نصيبُها

فجاءت والله بالسِّحْر ، وجعلت تُغَنِّي الصوت بعد الصوت ، وأغنِّي أنا في خلال غنائها ؛ فمرَّ لنا أحسنُ ما مرَّ لأحدٍ .

فإنّا لكذلك إذ رفع رِجْلَهُ فضرب بها صَدْر فريدة ضربةً تدحرجتْ منها من أعلى السرير إلى الأرض وتَفَتَّتَ عودُها ، ومرت تَعْدُو وتصيح ، وبقيت أنا كالمنزوع الروح ، فأطرق ساعةً إلى الأرض مُتحيِّراً ، وأطرقتُ أتوقَّعُ ضربَ العنق.

فإني لكذلك إذ قال لي : يا محمد ؛ فوثبتُ . فقال : ويحك ! أرأيت أغرب مما تهيَّأ لنا ؟ فقلت : يا سيدي ؛ الساعة والله تخرُجُ روحي . فعلى مَنْ أصابنا بالعين لعنةُ الله ! فما كان السبب ! ألِذَنب ؟ قال : لا والله ولكن فكرْتُ أن جعفرا يَقْعُدُ هذا المقعد ، ويقعد معها كما هي قاعدةٌ معي ، فلم أطق الصبر ، وخامرني ما أخرجني إلى ما رأيت . فَسُرِّيَ عني وقلت : بل يَقْتُلُ الله جعفرا ويحيا أميرُ المؤمنين أبدا ، وقَبَّلت الأرض وقلت : يا سيدي ؛ الله الله ! ارحمها ومُرْ بِرَدِّها. فقال لبعض الخدم الوقوف : مَنْ يجيء بها ! فلم يكن بأسرع من أن خرجتْ في يدها عودُها ، وعليها غيرُ الثياب التي كانت عليها . فلما رآها لا طَفَها ، فبكتْ وجعل هو يبكي ، واندفعتُ أنا في البكاء ، فقالت : ما ذنبي يامولاي وسيدي ؟ وبأي شيء استوجبت هذا ؟

---

(١) قلتك : أبغضتك وكرهتك .

فأعاد عليها ما قاله وهو يبكى وهى تبكى ! فقالتْ : سألتُك بالله يا أمير المؤمنين إلا ضربتَ عنقى الساعة وأرحْتَنى من الفكر فى هذا ، وأرَحْتَ قلبك من الهمِّ بى ؛ وجعلتْ تبكى ويبكى ، ثم مَسحا أعينهما ، ورجعتْ إلى مكانها .

وأومأ إلى خدَمٍ وقوفٍ بشىء لا أعرفه، فمضوا وأحضروا أكياساً فيها عَيْن ووَرِق(١) ورزمًا فيها ثياب كثيرة ، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عِقداً ما رأيتُ قطُّ مثل جوهر كان فيه، فألبَسها إياه، وأُحْضِرَت بَدْرَة فيها عشرة آلاف درهم ، فجُعِلت بين يدى ، وخمسة تخوت فيها ثياب ، وعُدنا إلى أمرنا وإلى أحسن مما كنا فيه ، فلم نزل كذلك إلى الليل .

ثم تفرقنا وضرب الدَّهْرُ ضَرْبَه(٢)، وتقلَّد المتوكل ، فوالله إنى لفى منزلى بعد يوم نَوْبتى إذ هجم علىَّ رُسُل الخليفة ، فما أمْهلونى حتى ركبتُ وصرْتُ إلى الدار ، فأُدْخِلتُ والله الحجرة بعينها ، وإذا المتوكلُ فى الموضع الذى كان فيه الواثق على السرير بعينه وإلى جانبه فَريدة ، فلما رآنى قال : ويحك ! أما ترى ما أنا فيه من هــذه ! أنا منذ غُدوة أُطالبها بأنْ تغنينى فتأْبى ذلك ! فقلت لهــا : سبحان الله ؟ أتخالفين سيدَك وسيدَنا وسيِّد البشر ! بحياته غَنِّى ، فعزفَتْ ، والله ثم اندفعت تُغَنِّى :

مقيمٌ بالمجازة(٣) من قَنَوْنَى(٤) وأهلُك بالأجيفر فالثِّماد(٥)
فلا تبعُدْ فكل فتًى سيأتى عليه الموت يَطْرُق أو يُغادى

---

(١) العين : الذهب المضروب ، والورق : الدراهم المضروبة من الفضة . (٢) يقال : ضرب الدهر من ضربه ، أى مر من مروره وذهب بعضه . (٣) المجازة : منزل من منازل طريق مكة .
(٥) قنونا : واد من أودية السراة يصب إلى البحر . (٥) الأجيفر والثماد : موضعان .

ثم رمَتْ بالعُودِ الأرضَ، ورَمَتْ بنفسها عن السرير، ومرت تعدو وتصيح: واسيِّدَاه؟

فقال لى: ويحك! ما هذا؟ فقلت: لا أدرى والله يا سيّدى. فقال: فما ترى؟ فقلت: أرى أنْ أنصرفَ أنا وتحضر هذه ومعها غيرها، فإنّ الأمر يؤولُ إلى ما يريدُ أميرُ المؤمنين. قال: فانْصَرِف فى حفظِ الله، فانصرفتُ، ولم أدرِ ما كانت القصّة!

٤٠ ـ محبوبة جارية المتوكل*

قال على بن الجَهْم : كانت محبوبةُ أُهديتْ إلى المتوكل ، أهداها إليه عبدُ الله ابن طاهر فى جملةِ أربعمائة جارية ، وكانت بارعةَ الحسن والظَّرْف والأدبِ ، مغنّيةً محسنة ، فحَظِيت عند المتوكل حتى إنه كان يُجْلسها خَلْفَ ستارةٍ وراء ظهره إذا جلس للشرب ، فيُدْخِل رأسه إليها ويحدثها ويراها فى كل ساعة ؛ فغاضَبَها يوما ، وهجرها ، ومنع جواريَه جميعاً من كَلَامِها ، ثم نازعتْه نفسُه إليها ، وأراد ذلك ، ثم منعتْه العِزّةُ منها ، وامتنعتْ من ابتدائه إدلالًا عليه بمحلّها منه !

قال ابنُ الجهم : فبكّرتُ إليه يوماً فقال لى : يا على ؛ إنى رأيتُ البارحة محبوبةَ فى نومى كأنى قد صالحتُها ، فقلت : أقرَّ الله عينيك يا أمير المؤمنين ، وأنامَك على خَيْر ، وأيقظك على سرور ، وأرجو أن يكونَ هذا الصلحُ فى اليقظة .

فبينا هو يحدّثنى وأجيبه إذا بوصيفةٍ قد جاءته فأسرّتْ إليه شيئاً ، فقال لى : أتدرى ما أسرّت هذه إلىّ ؟ قلت : لا . قال : حدّثتنى أنها اجتازتْ محبوبة الساعة ، وهى فى حجرتها تُغَنّى ! أفلا تعجبّ إلى هذا ! إنى مغاضِبُها وهى متهاونة بذلك ، لا تبدؤنى بصلح ، ثم لا ترضى حتى تُغَنى فى حُجْرتها ! قم بنا يا علىّ حتى نسمعَ ما تغنى ، ثم قام ، وتبعتُه حتى انتهى إلى حجرتها ، فإذا هى تغنى وتقول :

أَدُور فى القَصْر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلّمنى
حتى كأنى ركبتُ معصيةً ليست لها توبةٌ تخلّصنى

* نهاية الأرب : ٥ : ١٠٩

فهل لنا شافعٌ إلى مالكٍ قد زارنى فى الكَرَى[1] فصالحنى

حتى إذا ما الصَّباحُ لاحَ لنا عاد إلى هَجْره فصارَمَنى[2]

فطرب المتوكلُ، وأحسّتْ بمكانه، فخرجت إليه، وتنحّيتُ، فحدثته أنها رأتْه فى منامها، وقد صالحها فانتبهت، وقالت هذه الأبيات، وغنّت فيها؛ فحدّثها هو أيضا برؤياه، واصطلحا، وبعث إلىّ بجائزة وخِلْعة.

ولما قُتِل تسلَّى عنه جميعُ جواريه غيرها، فإنها لم تزل حزينةً، هاجرة لكل لذةٍ حتى ماتت.

---

(١) الكرى: النوم.

(٢) الصرم: القطع والهجر.

٤١ — قَينة تحنُّ إلى بَغداد*

قال أبو على بن الأسكر المصرى ، كنتُ من جُلّاسِ تميم بن أبى تميم وممّنْ يخِفّ عليه ، فأُتِىَ من بغدادَ بجاريةٍ رائعة فائقة الغناء ، فدعا جُلّاسه ومُدّت الستّارة وأمرها فغنّتْ :

وبَدَا له من بعدما اندَمَل الهوى ... بَرْقٌ تألّقَ مَوْهِنــاً لمعانُه

يبدُو كحاشيةِ الرِّداء ودونه ... صعب الذُّرا متمنّـع أركانُه

وبدا لينظرَ كيف لاح فلم يُطِق ... نظراً إليــه وصدّه أشجانُه

فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضلوعُه ... والماء ما سحّتْ به أجفانُه

فأحسنتْ ما شاءت ، وطرب تميم ومَنْ حضر ، ثم غَنّتْ :

ستُسْليكَ عمافات دولة مُفضِلٍ ... أوائـــلُه محمودةٌ وأواخرُه

ثَنى الله عِطْفَيْه وألّف شَخْصه ... على البرِّ مذشُدّتْ عليه مآزرُه

فطرب تميم ومَنْ حضر طرباً شديدا ، ثم غنّتْ :

أستودع اللهَ فى بغـدادَ لِى قمراً ... بالـكرْخ من فَلَك الأزرار مَطْلَعُه

فأفرط تميم فى الطرب جدًّا ، ثم قال لها : تَمنّىْ ما شئتِ فلك مُناكِ ، فقالت : أتمنّى عافيةَ الأمير وسعادتَه ، فقال : لابدّ والله ! فقالت : عَلَى الوفاء أتمنى أيها الأمير؟ قال : نعم ، فقالت : أتمنّى أن أغنّى هـذه النَّوبة ببغداد . . فتغيّر وجهُ تميم ،

---

* شرح مقامات الحريرى : ١ ـ ٣٢٣

وتكدّر المجلس ، وقمْنا ؛ فلحقنى بعضُ خدمه فردّنى ، فلمّا وقفتُ بين يديه قال لى : وَيحكَ ! أرأيتَ ما امتُحِنّا به ؟ ولا بُدّ من الوفاء ، وما أثق فى هذا بغيرك ، فتأهّبْ لتحملَها إلى بغداد ، فإذا غنّت هناك فاصْرِفها . فقلت : سمعاً وطاعة .

فأصْحَبها جاريةً سوداء تخدمها وتُعادِلها[1] ، وأمر لى بناقة وبمحمل عليه هَوْدَج ، فأُدْخِلتْ فيه ، وسرنا مع القافلة إلى مكّة ، فقضينا حجّنا ، ثم لما وردنا القادسيّة ، أَتَتْنِي السوداء فقالت لى : تقول لك سيدتى : أين نحن ؟ فقلت : نحن نُزُولٌ بالقادسية ، فأخبرتها ، فسمعتُ صوتها قد ارتفع بالغناء :

لمّــــا نزلنَا القادِسيّـــــة حيثُ مُجتمعُ الرفاق
وشممتُ من أرض الحِجَا زِ نسيمَ أنفاسِ العراق
أيقنتُ لى ولمن أُحِـــبُّ بجَمْعِ شملٍ واتفاق
وضحكتُ مِنْ فَرح اللقا ء كما بكيتُ من الفراق

فصاح من أقطارِ القافلة : أعيدى ، أعيدى ؛ فما سُمِع لها كلمة .

فلما نزلنا اليَاسِرية ـ على خمسة أميال من بغداد فى بساتين متصلة يبيتُ الناس بها ثم يبكّرُون لبغداد ـ بتْنا هناك ، ولما قرُب الصباح إذا بالسوداء قد أتتْنِي مذعورةً ، فقالت : إن سيّدتى ليست بحاضرة ، ووالله لا أدرى أين هى ؟ فطلبتُها فلم أجدها ، ولا وجدتُ لها ببغداد خبراً ، فقضيتُ حوائجى ببغداد ، وانصرفتُ إلى تميم فأخبرته خبرَها ، فلم يَزَلْ واجِماً[2] عليها !

---

(١) وتعادلها : تركب معها . (٢) واجما : حزينا .

البَابُ الثّانِي

في القصص التي تُفْصِحُ عن رِقَّةِ قلوب العرب ، ورفاهة عواطفهم ، وسموِّ نفوسهم بالإخبار عمن وقع الحبُّ في قلبه ، وامتزج العَفَافُ والشرف بحبه ، ولكن امتنع عليه أمله ، فبقي معذَّبا في سبيل من أحبّ ، وراح شهيدَ الرقة والعفاف .

٤٢ – جَنَى الجمالُ على نَصْرٍ فغرَّ به
عن المدينة تبْكِيه ويبْكِيهـــا *

عشقت امرأةٌ من المدينة فتى من بنى سليم ، يقال له نَصْر بن حَجّاج – وكان أحسنَ أهل زمانه – فَضنيَتْ من حُبّه ، ودَنِفت[1] من الوَجْدِ به ، ثم لهجت بذكره حتى صار ذِكْره هِجِّيرَاها[2] .

وخرج أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب – رضى الله عنه – ذات ليلةٍ يَعُسُّ ، ومرَّ بدارها ، فسمعها تقول رافعةً عَقِيرَتها[3] :

هل من سبيلٍ إلى خَمْرٍ فأشربَها ... أم هل سبيل إلى نَصْر بن حجّاج

فقال عمر : أمّا ما عشتُ فلا ، لا أرى معى رَجُلا تَهتِفُ به العواتقُ فى خدورهنّ .

فلما أصبح دعا نصرَ بن حجّاج ، فأبصره ، فإذا هو أحسنُ الناس وجهاً ، وأصْبحُهم وأمْلَحُهم حسناً ، فأمر أن يُطَمَّ[4] شعره فَخَرَجَتْ جبهتُه فازداد حسناً ، فقال له عمر : اذهب فاعْتَمّ ، فاعتم فبَدَتْ وَفْرَته[5] ، فأمر بحلقها فازداد حسناً ، فقال له : فتنتَ نساء المدينة يابنَ حجاج ، فقال : وأيّ ذَنْبٍ لى فى ذلك ! قال عمر :

* مجمع الأمثال : ١ – ٣٧٩ ، ابن أبى الحديد : ٣ – ٩٣ ، ثمرات الأوراق : ٢٣٦

(١) دنف : إذا لازمه المرض . (٢) هجيراها : دأبها وشأنها . (٣) العقيرة : صوت الشاكى والباكى والمغنى . (٤) طم شعره : عقصه . (٥) الوفرة : ماسال على الأذنين من الشعر .

صدقتَ ، الذنبُ لى إن تركتُك فى دار الهِجْرة، ثم أرْكبه جملا وسيّره إلى البصرة .

وأقام نصرٌ بالبصرة مدة ، ثم سمع يوماً منادياً يُنادى : « مَنْ أرادأنْ يكتب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً فليكتب ؛ فإنّ بريد المسلمين خارج » فكتب الناس ، ودسّ نصرُ بن حجاج كتاباً فيه : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من نصر بن حجاج . سلام عليك ، أما بعد يا أمير المؤمنين :

لَعَمْرى لئِنْ سيَّرْتَنى أو حرمْتَنى ... لمَا نِلْتَ من عِرْضى عليك حرامُ
أإنْ غنّتِ الذّلفاءُ يوماً بمُنيـةٍ ... وبعضُ أمانىِّ النسـاء غَرَامُ
ظنَنْتَ بىَ الظنَّ الذى ليس بعدَه ... بقاءٌ ، فمالى فى النـدِىِّ كلامُ
وأصبحتُ مَنفيًّا على غيرِ رِيبـةٍ ... وقد كان لى بالمكّتَين[1] مُقامُ
سيمنعنى ممـا تظنُّ تكرُّمى ... وآباءُ صـدقٍ سالفون كِرامُ
ويمنعُها ممـا تمنَّتْ صَلاتُها ... وحالٌ لهـا فى دينها وصِيامُ
فهاتان حالانا، فهل أنت رَاجعى[2]؟ ... فقد جُبَّ منى كاهِلٌ وسَنامُ[3]

ولما بلغ عمرَ بن الخطاب قال : أما وَلِى وِلَايةً فلا ، وأقطعَه بالبصرة أرضاً وداراً .

ثم بدا لمجاشع بن مسعود السلمى أن يُنزِله منزله لقرابته، فصيّره إليه، وأخدمه امرأته شُمَيلة ـ وكانت أجملَ امرأة بالبصرة ـ فعلِقَتْهُ وعلِقها ، وخفى على كل واحد منهما خبرُ الآخر لملازمة مجاشع لضَيْفِهِ ، وكان مجاشع أُمِّيًّا ونصر وشُميلة

---

(١) يريد مكة والمدينة على التغليب . (٢) راجعى : رادى . (٣) جب : قطع ، والكاهل: مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق ؛ ذكروا أن المتمنية هى الفارعة أم الحجاج ، وقيل هى جدة الحجاج أم أبيه (ابن خلكان : ص ١٢٤ ، ج ١) .

كانبين ، فعِيل صبرُ نصر ، فكتب على الأرض بحضرة مجاشع : « إنى قد أحببتك حُبًّا لو كان فوقَك لأظلّك ، ولو كان تحتك لأقلّك » . فوقّعت تحته غير محتشمة « وأنا » . فقال لها مجاشع : ما الذى كتبه ؟ فقالت : كتب : كم تحلُب ناقتكم ؟ فقال : وما الذى كتبت تحته ، فقالت : كتبت وأنا ؛ فقال مجاشع : كم تحلُب ناقتكم ، وأنا ؛ ما هذا لهذا بطَبَق[1] ! فقالت : أصدقك ، إنه كتب ، كم تُغِل أرضُكم ؟ فقال مجاشع : كم تُغِل أرضكم ، وأنا ؛ ما بين كلامه وجوابك قرابة !

ثم كَفَأ على الكتابة جَفْنَة ودعا بغلام من الكُتّاب[2] ، فقرأ عليه ، فالتفت إلى نَصْر وقال : يابن عم ؛ ما سيَّرك عمرُ من خير ؛ قم فإنَّ وراءك أوسع ، فنهض مُسْتَحْيِياً ، وعدل إلى منزل بعض السُّلميين ؛ ووقع لجنبه ، فضَنِي من حُبّ شُميلة ؛ ودنِف[3] وانتشر خبره .

ثم إن مجاشعاً وقف على خبر عِلّتِه ؛ فدخل عليه فلحقته رِقَّةٌ لما رأى ما به من الدَّنف ؛ فرجع إلى بيته ؛ وقال لشُمَيْلة : عزمت عليك لما أخذت خُبْزَة[4] فَلَبَكْتِها بسمن ، ثم بادرتِ بها إلى نصر ؛ فبادرَتْ بها إليه ، فلم يكن به نهوض ؛ فجعلت تلقمه بيدها ، فعادت قُواه وبَرَأ كأن لم يكن به قَلَبة[5] .

فلما فارقَتْه عاودهُ النُّكْس[6] ، فلم يزل يتردد فى علته حتى مات فيها !

---

(١) الطبق من كل شىء : ماساواه . (٢) الكتاب والمكتب : موضع التعليم ، أو هو جمع كاتب . (٣) الدنف : المرض الملازم . (٤) الخبزة : عجين يوضع فى الملة حتى ينضج . (٥) يقال : مابه قلبة — بالتحريك : أى داء وتعب . (٦) النكس : عود المرض .

٤٣ — عُرْوة وعَفْرَاء*

هلك حِزَام ، وترك ابنه عرْوَة(١) صغيراً فى حِجْر عمّه عقال ؛ وكانت عَفْرَاء تِرْباً(٢) لعروة ، يلعبان جميعاً ، ويكونان معاً ، حتى تألّف كلٌّ واحدٍ منهما صاحبه إلفاً شديداً ؛ وكان عقال يقول لعرْوة لما يرى من إلفهما : أبشرْ فإن عفراء أمَتُك(٣) إن شاء الله !

فكانا كذلك حتى لحقت عَفْراء بالنساء ، ولحق عُرْوَةُ بالرجال ؛ فأتى عروة عمّة له يقال لها : هند ، وقال لها فى بعض ما يقول : يا عمة ؛ إنى لمكلّمُك ؛ وإنى منك لمستَحْيٍ ، ولكن لم أفعل هذا حتى ضِقْتُ ذَرْعاً بما أنا فيه .

فذهبت عمته إلى أخيها ، فقالت له : يا أخى ؛ قد أتيتُك فى حاجةٍ أحِبُّ أن تُحْسِن بها ، فإن الله يَأْجُرُك(٤) لصلةِ رحمك بى ؛ فقال لها : قولى ، فلنْ تَسألى حاجةً إلا ردَدْتُك بها ، قالت : تُزَوِّج عروةَ ابْنَ أخيك بابنتك عفراء ، فقال : ما عنه مَذْهب ، ولا هو دون رجل يُرْغَب فيه ، ولا بِنا عنه رغْبة ؛ ولكنه ليس بذِى مال ، وليستْ عليه عَجَلة .

---

* الأغانى : ٢٠ ـ ١٥٢

(١) هو عروة بن حزام بن مالك ، شاعر لبيب حاذق متمكن فى العشق ، قيل : إنه أول عاشق مات بالهجر من العذريين ، ولشدة مقاساته فى العشق ضرب به المثل بين العرب . مات سنة ٣٠ هـ ، ودفن بوادى القرى قرب المدينة . (٢) الترب : من ولد معك . (٣) يريد زوجتك وامرأتك . (٤) يأجرك : يجازيك .

فطابت نفسُ عروة ؛ وسكنَ بعضَ السُّكُونِ ، وكانت أمُّها سيئةَ الرأى فيه تريد لابنتها ذامال ووفر[١] ، وكانت عُرضةً[٢] لذلك كمالًا وجمالًا .

فلما تكاملتْ سِنُّه ، وبلغ أشدَّه ؛ عرف أن رجلًا من قومه ذَا يسار ومالٍ كثيرٍ يخطبها ؛ فأتى عمه ، فقال : ياعمّ ؛ قد عرفتَ حقِّى وقرابتى ؛ وإنى ولدُك ورُبِّيتُ فى حِجْرِك ؛ وبلغنى أن رجلًا خطب عَفْرَاء ؛ فإن أسعفْتَه بطَلِبتِه قتَلْتَنى وسفكتَ دمى ؛ فأنشدكَ الله ورحمى وحَقِّى ! فرَقَّ له ؛ وقال : يابنى ؛ أنت مُعْدِمٌ وحالُنا قريبةٌ من حالك ؛ ولستُ مخرجها إلى سِوَاك ، وأمُّها أبت أن تزوِّجها إلّا بمَهْرٍ غال .

فضَرَب فى الأرض يبتغى الرزق ، ثم جاء إلى أمها فألْطفها[٣] ودَارَاها ، فأبت أن تجيبه إلا بما تحتكمه من المهر ، وبعد أن يَسُوقَ شَطْره[٤] إليها ، فوعدها بذلك ، وعلم أنه لا تنفعُه قرابةٌ ولا غيرها إلا المال الذى يطلبونه ، فعمل على قَصْد ابنِ عم له موسرٍ ، وكان مقيماً بالرّىّ ، فجاء إلى عمه وامرأته ، فأخبرهما بعزْمه ، فصوَّباه ووعداه ألّا يُحْدِثا حدثاً حتى يعود .

وصار فى ليلةِ رحيله إلى عَفْراء ، فجلس عندها هو وجوارى الحىّ يتحدثون حتى أصبحوا ، ثم ودّعها وودّع الحىّ ، وشدّ على راحلتِه ، وصحِبَهُ فى طريقه فتيَان كانا يألفَانه ، وكان فى طول سفره ساهما يكلمانه فلا يفهم ، فِكْره فى عفراء حتى يُرَدَّا عليه القولُ مِراراً .

---

(١) الوفر : الغنى .　(٢) عرضة لذلك : أى أهلا لذلك .　(٣) ألطفها : برها .
(٤) الشطر : النصف .

وسار إلى أنْ قدم على ابن عمه ، فلقيَه ، وعرّفه حالَه وما قدم له ، فوصله وكساه وأعطاه مائةً من الإبل ، فانصرف بها إلى أهْله .

وقد كان رجلٌ من أهل الشام من أنْسَاب بنى أمية نزل فى حيٍّ عَفْراء، فنَحَر وَوَهَب وأطعم ، وكان ذا مال ، فرأى عفراء ، وكان منزله قريباً من منزلهم ، فأعجبَتْه وخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سميّتُها إلى ابن أخٍ لى يَعْدِلُها عندى ، وما إليها لغيره سبيل . فقال له : إنى أُرَغِّبُك فى المهر ، قال : لا حاجةَ لى بذلك ؛ فعَدَل إلى أمِّها ، فوافق عندها قبولًا لبذْله ، ورغبتْ فى ماله ، فأجابته ووعدته ، وجاءت إلى عقال وقالت : أىُّ خير فى عُرْوة حتى تحبسَ ابنتى عليه وقد جاءها الغِنى يَطْرقُ عليها بابها ؟ والله ما تدرى أعُرْوة حىٌّ أم ميت ؟ وهل ينقلبُ إليكَ بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمتَ ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سَنِيًّا ، فلم تزل به حتى قال لها : فإنْ عاد لى خاطباً أجبتُه .

فوجَّهَتْ إليه : أن عُدْ إليه خاطباً . فلما كان من غد نحرَ جُزراً عِدَّة ، وأطعم ووهب ، وجمع الحىَّ معه على طعامه ، وفيهم أبو عَفْراء ، فلما طعموا أعادَ القول فى الخطبة ، فأجابه وزوّجه ، وساق إليه المَهْرَ وحُوِّلت إليه عفراء ، وقالت قبل أن يدخلَ بها :

يا عُرْوُ إنَّ الحىَّ قد نقضُوا عهدَ الإله وحاولوا الغَدْرَا

فلما كانَ الليلُ دخل بها زوجُها ، وأقام فيهم ثلاثاً ، ثم ارتحل بها إلى الشام ، وعَمَدَ أبوها إلى قَبْرٍ عتيقٍ فجدَّدَهُ وسوَّاه ، وسأل الحىَّ كِتْمان أمرها .

وقدم عُرْوَة بعد أيام ، فنَعاها أبوها إليه ، وذهب به إلى ذلك القبر ، فمكث يختلفُ إليه أياما وهو مُضْنًى هالك ، حتى جاءته جاريةٌ من جَوارِى الحىّ فأخبرتهُ الخبر ؛ فتركهم وركب بعض إبله وأخذ معه زاداً ونفقةً ، ورحل إلى الشام فقدِمها ، يسأل عن الرجل ، فأُخْبِرَ به ودُلّ عليه ، فقصده وانتسب إليه فى عدْنان ، فأكرمه وأحسن ضِيافَته ، فمكث أياما حتى أنِسُوا به .

ثم قال لجاريةٍ لهم : هل لك فى يدٍ تُولينيها ؟ قالت : نعم ، قال : تدفعين خاتمى هذا إلى مولاتك ، فقالت : سوءةً لك ! أما تستحى لهذا القول ! فأمسكَ عنها ثم أعاد عليها ، وقال لها : وَيحك ! هى والله بنتُ عمى ، وما أحدٌ مِنّاً إلا وهو أعزُّ على صاحبه من الناس ، فاطْرحى هذا الخاتم فى صَحْنها ، فإن أنكرتْ عليك فقولى لها : اصْطَبحَ ضيفُك قبلك ولعله سقَطَ منه !

فرقّت له الجارية ، وفعلَتْ ما أمرها به ، فلما شرِبَت عفراء اللبن رأت الخاتم فعرفتهُ فشهقت ، ثم قالت لجاريتها : اصْدقينى الخبر ، فصَدَقتها ، فلما جاء زوجُها قالت له : أتدْرى مَنْ ضيفُك هذا ؟ قال : نعم ! فلان ابن فلان (للنسب الذى انتسبه له عروة) . فقالت : كلا والله ، بل هو عُرْوَة بن حزام ابن عمى ، وقد كتمَك نفسه حياء منك .

فبعث إليه ، فدعاه وعاتبه على كِتْمانه نفسه إياه ، وقال له : بالرّحب والسعة ، نشدُتك الله إن رِمْتَ(١) هذا المكان أبدا ، وخرج وتركه مع عَفْراء يتحدثان ، وأوصى خادما له بالاستماع عليهما ، وإعادة ما تسمعه منهما عليه .

---

(١) رام المكان : برحه وتركه .

فلما خَلوَا تشاكيَا ما وَجدا بعد الفراق ، فطالت الشَّكْوى وهو يَبْكى أحرَّ بكاء ، ثم أتته بشراب ، وسألته أن يشرَبه ، فقال : والله ما دخل فى جوفى حرامٌ قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللتُ حراماً لكنتُ قد استحللته منك ، فأنتِ حظِّى من الدنيا ، وقد ذهبتِ منى وذهبْتُ بعدك فما أعيش ، وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن ، وأنا أستَحْيِي منه ، والله لا أقيمُ بَعْدَ علمه مكانى ، وإنى عالم أنى راحِلٌ إلى مَنِيَّتى ، فبكت وبكى وانصرف .

فلما جاء زوجُها أخبرتهُ الجاريةُ بما دار بينهما ، فقال : يا عفراء ؛ امنعى ابن عمك من الخروج ، فقالت : لا يمتنعُ ، هو والله أكرم وأشدُّ حياء من أن يقيمَ بعد ما جرى بينكما ؛ فدعاه وقال له : يا أخى ؛ اتَّقِ اللهَ فى نفسك ، فقد عرفتُ خبرَك ؛ وإنَّكَ إن رحلتَ تَلِفْتَ ، والله لا أمْنَعُكَ من الاجتماع معها أبداً ، ولئن شئتَ لأفارقنَّهَا ، ولأنزلنَّ عنها لك ، فقال له : جزاك الله خيراً وأثنى عليه . وقال : إنما كان الطمعُ إليها آفتى ، والآن قد يئسْتُ ، وحملتُ نَفْسى على الصبر ، فإن اليَأْسَ يُسلى ، وَلِى أمورٌ لا بدَّ من رجوعى إليها ، فإن وجدتُ بى قوة على ذلك ، وإلا عدتُ إليكم وزُرْتُكم حتى يقضى الله من أمرى ما يشاء ؛ فزوَّدُوه وأكرموه وشيَّعوه فانصرف .

فلما رحل عنهم نُكِس بعد صلاحه وتماسكه ، وأصابه غَشْيٌ وخَفَقان ، فكان كلَّمَا أُغْمِيَ عليه ألْقَى على وجهه خِمَاراً لعفراء زوَّدته إياه فيُفِيق .

ولقِيَه فى الطريق ابنُ مكحول عرّافُ اليمامة ، فرآه وجلس عنده وسأله عما به وهل هو خَبَل أو جنون ؛ فقال له عروة : ألك علم بالأوجاع ؟ قال : نعم ، فأنشأ يقول :

فما بى مِنْ خبلٍ ولا بى جِنَّةٌ ... ولـكن عمى يا أُخَىَّ كَذُوب
أقول لعرّافِ اليمامة دَاوِنى ... فإنك إن داوَيْتَنى لَطَبِيبُ
فيا كبِداً أمست رُفاتاً كأنما ... يُلَذِّعُهـا بالمُوقِدَاتِ طبيبُ
عشية لا عَفْرَاء منك بعيـدةٌ ... فتَسْلُو ولا عفراء منك قريبُ
فوالله لا أنساكِ ما هبَّتِ الصَّبا ... وما عقَّبتها فى الرياح جَنُوبُ
وإنى لتعرُونى لذِكْرَاكِ هِزَّةٌ ... لها بين جِلْدِى والعِظام دَبِيبُ

وقال يُخاطِبُ صاحبيه بقصته (١) :

خَليلَىَّ مِنْ عليْاَ هلالِ بن عامر ... بصَنْعاء عُوجا اليومَ وانتظرانى
ولا تزْهدَا فى الأجرِ عندى وأَجْمِلا ... فإنـكما بى اليَوْمَ مُبْتَليَانِ
أَلِمَّا على عفْراء إنـكما غـداً ... بِوَشْـكِ النوَى والبَيْنِ مُعْتَرِفان
فيَا وَاشِيَىْ عفرَا دَعَانِى ونَظْرَةً ... تقرُّ بها عيناى ثم كِلانى
أَغرَّكما منى قميـصٌ لَبِسْته ... جديدٌ وبُرْدَا يمْنَةٍ زَهيانِ
متى تَـكْشِفَا عنى القميصَ تَبَيَّنَا ... بى الضُّرَّ من عَفْراء يافتيَانِ
وتَعْتَرِفَا لحماً قليـلًا وأعظُماً ... بَلِينَ وقلباً دائمَ الخفقَانِ
على كبدى مِنْ حُبِّ عفراء قُرْحَةٌ ... وعَيْنَاىَ مِنْ وَجْدٍ بها تَـكِفَانِ
فعَفْرَاءُ أرجى الناس عندى مودّة ... وعفراء عنى المُعرِضُ (٢) المُتوانى
فياليت كلَّ اثنين بينهما هوًى ... من الناس والأنعـامِ يلتقيان

---

(١) راجع هذه القصيدة بتمامها من ١٥٨ إلى ١٦٢ من ذيل الأمالى طبعة دار الـكتب .

(٢) قال صاحب الأمالى : ذكر المعرض ، لأنه أراد : وعفراء عنى الشخص المعرض ، أو ذكره بناء على التشبيه وأراد : وعفراء عنى مثل المعرض .

فيقضى حبيبٌ من حبيبٍ لُبانَةً　　وَيَرْعاهما رَبّى فلا يُريَانِ
هوًى ناقتى خَلْفِى وقُدّامَىَ الهوى　　وإنى وإياها لمختلفان
تحملتُ مِنْ عَفْراء ماليس لى به　　ولا للجبالِ الرسياتِ يَدَانِ
كأنَّ قطاةً علِّقتْ بجناحها　　على كَبِدِى مِنْ شدّةِ الخفقانِ
وقد تركتنى لا أعِى لمحدِّث　　حديثاً وإن ناجَيْتُهُ ونجانى
جعلتُ لعرّافِ اليمامةِ حُكْمَهُ　　وعرّاف نجدٍ إن هما شَفَيَانى
فقالا : نعم نشفى مِنَ الداء كلِّه　　وقاما مع العُوّاد يَبْتَدِرَانِ
فما تركا من رُقْيَةٍ يَعْلَمَانِها　　ولا شَرْبَةٍ إلّا وقد سقيانى
وما شَفَيَا الداءَ الذى بِى كلَّهُ　　ولا ذَخَرَا نُصْحاً ولا أَلَوَانى[1]
وقالا : شفاكَ الله ، والله ما لنا　　بما ضُمِّنَتْ منكَ الضلوعُ يَدَانِ
فويلى على عَفْراء وَيْلاً كأنه　　على الصدر والأحشاء حَدُّ سِنَانِ
أحب ابنةَ العذرى حبًّا وإن نأتْ　　ودانيتُ فيها غَيْرَ ما مُتَدَانِ
فياربِّ أنت المستعانُ على الذى　　تَحملتُ من عفراء منذ زمانِ

ثم تُوفى[2] وهو راجع بالشام . ولما بلغ عفراء موتُه قالت لزوجها : قد كان من خبر ابن عمى ما بلغك ، ووالله ما عرفتُ منه قطّ إلا الحسَن ، وقدمات فىّ وبسببى ؛ ولا بُدّ لى من أن أندبه فأقيم مأتماً عليه ، قال : افعلى ؛ فمازالت تندبه ثلاثاً حتى تُوفيت فى اليوم الرابع ، وبلغ معاويةَ بن أبى سفيان خَبَرُهما ؛ فقال : لو علمتُ بحال هذين الحرّين الكريمين لجمعتُ بينهما .

---

(١) ألوانى : قصرا فى حقى .　(٢) انظر القصة التالية .

٤٤ — قتيل الحب*

قال النعمان بن بَشِير :

استعملنى معاوية على صدقات بَلِيّ وعُذْرَة(١) ، فإنى لَفِي بعض مياههم إذا أنا ببيت مُنْحَرِدٍ(٢) ناحيةً ، وإذا بفنائه رجلٌ مُسْتَلْقٍ ، وعنده امرأةٌ ، وهو يقول ، أوْ يَتَغَنَّى بهذه الأبيات :

جعلتُ لعرَّافِ اليمامةِ حُكْمَه ... وعرَّاف نَجْدٍ إن هما شَفَيانى
فقالا : نعم ، نَشْفِي من الداء كلِّه ... وقاما مع العُوَّادِ يَبْتَدِرَان
فما تركا من رُقْيةٍ يعلمانِها ... ولا سَلْوَةٍ إلا وقد سقَيانى
فقالا : شفاكَ الله ، والله ما لنا ... بما حُمِّلتْ منك الضلوعُ يَدَانِ

فقلت لها : ما قِصتُهُ ؟ فقالت : هو مريضٌ ، ما تكلّمَ بكلمة ، ولا أنَّ أنةً منذ وقت كذا وكذا إلى الساعة ، ثم فتَح عينيه ، وأنشأ يقول :

مَن كانَ من أُمَّهاتى باكياً أبداً ... فاليومَ إنى أرانى اليومَ مقبوضا
يُسْمِعْنَنِيه ، فإنى غيرُ سامِعه ... إذ حُمِلْتُ على الأعناق مَعْرُوضا

ثم خَفَتَ فمات ، فغمّضتُه وغَسَّلْتُهُ ، وصليتُ عليه ودفنتُه ، وقلتُ للمرأة : من هذا ؟ فقالت : هذا قتيلُ الحبِّ ! هذا عُرْوة بن حزام !

---

* ذيل الأمالى . ١٥٧

(١) بلى وعذرة : قبيلتان . (٢) منحرد : منفرد منزل .

٤٥ — قيس و لُبنَى*

— ١ —

كان منزلُ قَيْسٍ(١) فى ظَاهِرِ المدينة ، وكان هو وأبوه من حاضِرَةِ المدينة ؛ فمرَّ قَيْسٌ لبعض حاجته بخيام بنى كَعْب بن خُزاعة ، فوقف على خَيْمةٍ منهـا ؛ والحىُّ خُلُوف(٢) ، والخيمةُ خَيْمةُ لُبْنى بنتِ الحُبَاب الـكَعْبِيَّة ، فاستسقى ماء ، فسقَتْه وخرجتْ إليــه به ، وكانت امرأةً مديدةَ القامةِ شَهْلاءَ(٣) حُلْوَةَ المنظر والـكلام .

فلما رآها وقعتْ فى نفسه ، وشرب الماء ، فقالت له : أتنزِلُ فتتبرَّدَ عندنا ؟ قال : نعم ؛ فنزل بهم . وجاء أبوها فنَحَرله وأكرمه ، فانصرف قيسٌ وفى قلبه من لُبْنَى حَرٌّ لا يُطْفَأ ، فجعل ينطِقُ بالشعر فيها حتى شاع ورُوِى .

ثم أتاها يوماً آخر ، وقد اشتدّ وَجْدُه بها ، فسلّم فظهرت له وردّتْ سلامَه ، وتَحَفَّتْ(٤) به ، فشكا إليها ما يَلْقَى مِنْ حُبِّها ، وَشـكت إليه مثلَ ذلك فأطالت، وَعرف كلٌّ وَاحدٍ منهما مالَهُ عند صاحبه .

---

* الأغانى : ٩ ـ ١٨١

(١) هو قيس بن ذريح من كنانة ، كان هو وأبوه من حاضرة المدينة، واشتهر قيس بحبه لبنى بنت الحباب الـكعبية، وهى التى ألهمته القول وأنطقته بالشعر، توفى نحو سنة ٧٠ هـ (٢) خلوف: غيب . (٣) الشهلاء: التى يخالط سواد عينيها زرقة. (٤) تحفت : بالغت فى إكرامه، وأظهرت السرور والفرح .

فانصرف إلى أبيه وأعلمهُ حاله ، وسأله أن يُزَوِّجه إياها . فأبَى عليه ، وقال : يا بُنَيَّ ؛ عليك بإحْدَى بنات عمك ، فهنَّ أحقُّ بك ـ وكان ذَرِيحٌ كثيرَ المال مُوسِراً ، فأحبَّ ألَّا يَخرُج ابنُه إلى غريبة .

فانصرف قيسٌ ، وقد ساءه ما خاطبَهُ أبوه به ، فأتى أُمّه فشكا ذلك إليها ، واستعان بها على أبيه ؛ فلم يَجِدْ عندها ما يحبُّ .

فأتى الحسينَ بن على بن أبى طالب وابْنَ أبى عَتِيق ، فشكا إليهما ما به وما رَدَّ عليه أبوه . فقال له الحُسَيْنُ : أنا أَكْفِيك . فمشى معه إلى أبى لُبْنى ؛ فلما بَصُر به أعظمه وَوَثَبَ إليه وقال له : يا بنَ رسول الله ؛ ما جاء بك؟ ألَا بعثْتَ إلىَّ فأتيتُك ! قال : إن الذى جئتُ فيه يُوجِب قصدَك ، وقد جئتُكَ خاطباً ابنتك لُبنى لقيس بن ذَرِيح . فقال : يا بْنَ رسول الله ؛ ما كنا لنعصى لك أمراً ، وما بنا عن الفتى رَغْبَة ؛ ولكن أحَبُّ الأمر إلينا أن يخطبها ذَرِيح أبوه ، وأن يكون ذلك على أمره ؛ فإنا نخافُ إن لم يَسْعَ أبوه فى هذا أن يكون عاراً وسُبَّةً علينا .

فأتَى الحُسَيْنُ رضى الله عنه ذَرِيحاً وقومَه وهم مجتمعون ، فقامُوا إليه إعظاماً له ، وقالوا له مثل قول الخزاعِيين[1] . فقال لذَرِيح : أقسمتُ عليك إلَّا خطبتَ لُبْنى لابنك قيس . قال : السَّمع والطاعة لأمرك .

فخرج معه فى وجوهٍ من قومه حتى أتَوْا دار لُبنى ، فخطبها ذَرِيحٌ على ابنه إلى أبيها ، فزوَّجها به إياها وزُفَّت إليه بعد ذلك ، فأقامت معه مدَّةً لا يُنْكِر أحدٌ من صاحبه شيئا .

---

(١) الخزاعيون : قوم لبنى .

وكان أبرَّ الناسِ بأمّه ، فألهتْه لُبنى وعكوفُه عليها عن بعض ذلك ، فوجَدت أمُّه فى نفسها وقالت : لقد شغلتْ هذه المرأةُ ابنى عن بِرِّى ، ولم تر للكلام فى ذلك موضعاً حتى مَرض مرضاً شديداً . فلما برَأ من علته قالت أمّه لأبيه : لقد خشيتُ أن يموتَ قيس وما يترك خَلَفاً وقد حُرِم الولد من هذه المرأة ، وأنتَ ذو مال فيصير مالُك إلى الكَلَالَةِ(١) ، فزَوِّجْهُ بغيرها لعل الله أن يرزقَهُ ولداً ؛ وألحّتْ عليه فى ذلك .

فأمهلَ قيساً حتى إذا اجتمع قومُه دعاه فقال: ياقَيْسُ ؛ إنك اعتَلَلْت هذه العلة فخِفتُ عليك ولا ولدَ لك ولا لى سِواك ، وهذه المرأةُ ليست بوَلُود ؛ فتزوجْ إحدَى بناتِ عمِّك ؛ لعلَّ اللهَ أن يَهَبَ لكَ ولدا تقَرُّ به عينُك وأعينُنا .

فقال قيس : لستُ متزوجا غيرها أبداً ؛ فقال له أبوه : فإن فى مالى سعة فتَسَرَّ بالإماء ، قال: ولا أسوءها بشىء أبداً والله. قال أبوه: فإنى أقسم عليك إلّا طلّقتها. فأبى وقال : الموتُ والله علىَّ أسهلُ من ذلك ، ولكنى أخَيِّرُك خصلة من ثلاث خصال. قال : وما هى ؟ قال: تتزوّج أنت فلعلَّ اللهَ أن يرزقك ولدا غيرى. قال: فما فىَّ فَضْلَةٌ لذلك . قال: فدعْنِي أرتحل عنك بأهلى وأصنع ما كنت صانعا لومتُّ فى علتى هذه . قال : ولا هذه . قال : فأدعُ لُبْنى عندكَ وأرتحل عنك فلعلى أسلوها فإنى ما أحبُّ بعد أن تكون نفسى طيّبةً أنها فى خيالى .

قال : لا أرضى أو تطلّقها ، وحلف لا يكُنُّه سقْفُ بيت أبدا ، حتى يطلّق لُبنى ، فكان يخرج فيقفُ فى حرِّ الشمس ويجىء قيس فيقف إلى جانبه فيُظلُّه

---

(١) يراد بالكلالة هنا : من عدا الأب والابن من الورثة .

بردائه ، ويَصْلَى هو بَحَرَّ الشمس حتى يفِئَ الفَيْءُ[١] فينصرف عنه ، ويدخل إلى لُبنى فيعانقها وتعانقه ، ويبكى وتبكى معه ، وتقول له : ياقيس ؛ لاتُطِع أباك فتهلِكَ وتُهلِكَنى . فيقول: ما كنت لأطيعَ أحداً فيك أبدا، ومكث كذلك سنة ثم طلّقها.

فلما بانَتْ لُبْنَى بطَلَاقِه ، وفرَغ من الكلام لم يلبث حتى استُطِيرَ عقله وذُهِبَ به ، ولحقه مثلُ الجنُون ، وتذكّر لُبنى وحالَها معه ، فأسِفَ وجعل يبكى ويَنْشِجُ[٢] أحرَّ نَشِيجٍ . وبلغها الخبر فأرسلت إلى أبيها ليحْمِلَها ؛ فأقبل أبوها بِهَوْدَجٍ على ناقة وبإبلٍ تحمل أثاثَهَا .

فلما رأى ذلك قَيْس أقبل على جارِيَتِها فقال :وَيْحَك !مادهانى فيكم؟ فقالت: لا تسألنى وسَلْ لُبنَى ، فذهب لِيُلِمَّ بخِبَائِها فيسألها ، فمنعه قومُها . فأقبلت عليه امرأةٌ من قومه فقالت له : مالك ؟ وَيحك ! تسأل كأنك جاهل أو متجاهل ! هذه لُبنى ترتحل الليلة أو غداً ، فسقط مَغْشيًّا عليه لا يعقل ، ثم أفاق وهو يقول :

وإنى لَمُفْنٍ دَمْعَ عينَىَ بالبُكا   حِذَارَ الذى قد كان أو هو كائنُ
وقالوا : غداً أو بعد ذاك بليلةٍ   فراقُ حبيب لم يَبِنْ وهو بائن
وما كنتُ أخشى أن تكون مَنِيَّتِى   بكَفَّيْكِ إلَّا أنَّ ما حانَ حائِنُ

ثم التفت فرأى غُرابا سقط قريباً منه ، فجعل ينعق مِرَاراً ، فتطيَّر منه وقال :

لقد نادى الغرابُ بِبَيْنِ لُبْنَى   فطار القَلْبُ من حَذَرِ الغرابِ
وقال : غداً تباعدُ دارُ لُبْنَى   وتنأى بعد وُدٍّ واقترابِ

---

(١) الفىء : ماكان شمسا فينسخه الظل .

(٢) النشيج : أن يغص الباكى بالبكاء من غير انتحاب .

فقلت : تَعِسْتَ وَيحَكَ من غرابٍ   وكان الدهرَ سعيُك فى تبَابِ

ومنعه قومُه من الإلمام بها ، فقال :

ألَا ياغراب البَيْنِ ؛ ويحكَ ! نَبّنى   بِعِلْمِكَ فى لُبْنَى وأنتَ خبيرُ
فإنْ أنْتَ لم تُخْبِرِ بما قد عَلِمْتَهُ   فلا طِرْتَ إلّا والجناحُ كَسِيرُ
ودُرْتَ بأعداءٍ حبيبُك فيهمُ   كما قد ترانى بالحبيب أدُورُ

ثم أُدْخِلَتْ فى هودجها ، ورحلت وهى تبكى ! فاتبعها وهو يقول :

ألا ياغرابَ البينِ ؛هل أنت مُخْبِرِى   بخيرٍ كما خبّرْتَ بالنـأْيِ والشرّ
وقلتَ : كذاكَ الدهرُ مازال فاجعاً   صدقتَ ، وهل شىء بباقٍ على الدهرِ

ثم علم أنّ أباها سيمنَعُهُ من المسير معها ؛ فوقف ينظر إليهم ويبكى، حتى غابوا عن عينه ، فكرّ راجعاً ؛ ونظر إلى أثر خُفّ بعيرها ؛ فأكبّ عليه يقبّله ، ورجع يقبّل موضع مجلسها وأثر قدمها ؛ فَلِيمَ على ذلك وعَنّفَه قومُه على تقبيل التراب ، فقال :

وما أحببتُ أرضَكُمُ ولٰكن   أُقبّلُ إثْرَ مَنْ وَطِئْ التّرَابا
لقد لاقيتُ مِنْ كَلَفى بلُبْنَى   بلاءً ما أُسِيغُ به الشرابا
إذا نادى المنادِى باسْم لُبْنى   عييتُ فما أُطيقُ له جوابا

وقال ، وقد نظر إلى آثارها :

ألَا يارَبعَ لُبْنَى ما تقولُ ؟   أبِنْ لى اليومَ ما فعلَ الحلولُ
فلو أنّ الديارَ تُجيبُ صَبًّا   لردّ جوابىَ الربعُ المُحِيلُ
ولو أنى قدَرْتُ غداةَ قالتْ :   غدرْتَ ، وماء مُقْلتِها يَسِيلُ

نحرتُ النفسَ حين سمعت منها ... مقالتها وذاكَ لها قليـــلُ
شفيتُ غليلَ نفسى مِن فِعالى ... ولم أغبرْ بلا عقـــلٍ أجولُ
كأنى وَالِهٌ بفراق لُبـــنى ... تَهيمُ بفقدِ واحدِها ثَـكُولُ
ألا يا قلبُ ويحك ! كن جَليدا ؛ ... فقد رَحلتْ ، وفات بها الذَّمِيلُ[1]
فإنك لا تُطيقُ رجـــوعَ لُبْنى ... إذا رحلتْ ، وإنْ كثُرَ العَويلُ
وكم قد عِشْتَ ؟ كم بالقُرْبِ منها ! ... ولـكنّ الفِراقَ هـــو السبيـلُ
فصَبْراً ؛ كلُّ مؤتلفَيْنِ يوماً ... من الأيام عَيْشهُمَا يزولُ

فلما جُنَّ عليه الليلُ وانفرد ، وأوى إلى مضجعه لم يأخذْهُ القرار ، وجعل يتَمَلْمَلُ فيه تمَلْمُلَ السليم ، ثم وثبَ حتى أتى موضعَ خِبائِهَا ؛ فجعل يتمرّغ فيه ويبكى ويقول :

بِتُّ والهمُّ يالُبَيْنى ضَجِيعِى ... وجرَتْ مذ نأيتِ عنى دُمُوعِى
وتنفّسْتُ إذ ذكرتُكِ حتى ... زالتِ اليومَ عن فؤادى ضُلُوعى
أتناساكِ كى يُريغَ[2] فؤادى ... ثم يشتدُّ عند ذاكَ وَلُوعِى
يالُبَيْنَى ! فدَتْكِ نفسى وأهلى! ... هل لدهرٍ لنا من رجوع

— ٢ —

ومَرِضَ قيسٌ ، فسأل أبوه فتيات الحىّ أنْ يَعُدْنه ويحدّثْنه ، لعلّه أن يتسلى؛ ففعلن ذلك ، ودخل الطبيب إليه ليداويه ، والفتيات معه ، فلما اجتمعن عنده جعلن يحادثنه ، وأطلْنَ السؤال عن سبب علته ، فقال :

---

(١) الذميل : السير اللين . (٢) يريغ : يحيد .

عِيدَ قيس من حُبِّ لُبنى، ولُبنى … داءُ قيسٍ، والحبُّ داءٌ شديدُ
وإذا عادنى العــوائدُ يوماً … قالت العينُ: لا أرى من أريدُ
ليت لُبنى تعودنى ثم أقضى … إنها لا تعود فيمن يعـودُ
ويحَ قيس لقد تضمن منها … داء خَبْـلٍ، فالقلب منه عميدُ

فقال له الطبيب : منذ كم هذه العلة ؟ ومنذُ كم وجدتَ بهذه المرأة ماوجدت ؟
فقال :

تعلّق رُوحى روحَها قبل خَلْقِنا … ومن بعدِ ما كنّا نِطَافاً وفى المَهْدِ
فزاد كما زِدنا ، فأصبح نامِيـاً … وليس إذا مُتْنا بِمُنْصَرِمِ العَهْدِ
ولـكنه باقٍ على كلِّ حادثٍ … وزائرُنا فى ظُلْمَةِ القـبْرِ واللَّحْدِ

فقال له الطبيب : إنّ مما يسليك عنها أن تتذكّر مافيها من المساوئ والمعايب، وما تَعَافُهُ النفسُ من أقذار بنى آدم ، فإن النفس حينئذٍ تنبو وتَسْلُو ويخفُّ مابها ،
فقال :

إذا عِبْتُهَا شبهتها البـدرَ طالِعـاً … وحسبُكَ من عيب بها شبهُ البَدْرِ
لقد فُضِّلَتْ لُبْنى على الناس مثلَ ما … على ألفِ شهرٍ فُضِّلَتْ ليـلةُ القدر

ودخل أبوه وهو يخاطبُ الطبيبَ بهذه المخـاطبة ، فأنّبَه ولامَه ، وقال له :
يابنى ؛ اللهَ اللهَ فى نفسك ! فإنك ميّتٌ إن دُمْتَ على هذا ، فقال :

وفى عُرْوَةَ[١] العُذْرِىِّ إن متُّ أسوةٌ … وعَمْرُو[٢] بن عَجْلانَ الذى قتلَتْ هِنْدُ

---

(١) هو عروة بن حزام أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى (انظر صفحة ١١٣) . (٢) شاعر جاهلى أحد من قتلهم الحب ، وكان له زوجة يقال لها هند فطلقها ثم ندم عليها ، ولما تزوجت زوجاً غيره مات أسفاً (الأغاني ص ١٠٢ ، ج ١٩) .

وبى مثلُ ما مَاتَا به ، غيرَ أننى   إلى أجَـــل لم يَأْتنى وَقْتُه بَعدُ
هل الحبُّ إلّا عَبْرَة بعد زَفْرَةٍ   وحَرٌّ على الأحْشاء ليسَ له بَرْدُ
وفَيْضُ دُمُوعٍ تستهلُّ إذا بدا   لنا عَلَمٌ من أرضكم لم يكن يبدُو

— ٣ —

ولَمَّا طال على قيسٍ ما بِهِ من الأمْر بعد طلاق لُبنى ، أشار قومه على أبيه بأن يزوِّجه امرأةً جميلة ، فلعله أن يَسْلُو بها عن لُبنى ؛ فدعاه إلى ذلك فأباه وقال :

لقد خِفْتُ ألّا تَقْنعَ النفس بعدها   بشىء من الدنيا وإن كان مقْنعاَ
وأزْجُر عنها النفسَ إذ حيلَ دونها   وتأبى إليهـا النفسُ إلّا تَطَلُّعاَ

فأعلمهم أبوه بما ردّ عليه . قالوا : فَمُرْهُ بالمَسيرِ فى أحْياء العرب والنزولِ عليهم فلعلّ عينه أن تقعَ على امرأةٍ تُعْجِبُهُ . فأقسم عليه أبوه أن يفعل .

فسار حتى نزل بحيٍّ من فَزارةَ ، فرأى جاريةً حَسْناء قد حسرت بُرقُعَ خزٍّ عن وجهها وهى كالبَدْر ليلة تِمِّهِ ، فقال لها : ما اسْمـكِ يا جارية ؟ قالت : لُبنى . فسقط على وجهه مغشيًّا عليه فَنَضَحت على وجهِهِ ماء وارتاعت لمـا عَراهُ ، ثم قالت : إن لم يـكن هذا قيسَ بن ذَريح إنه لمجنون ! فأفاقَ فَنَسَبتْه فانتسب . فقالت : قد علمتُ أنك قَيْس ، ولـكن نَشَدْتُك باللهِ وبحقِّ لُبنى إلا أصبتَ من طعامنا؛ وقدَّمَتْ إليه طعاماً ، فأصاب منه بإصبَعه ، وركب فأتى على أثرِه أخٌ لها كان غائباً فرأى مُناخَ ناقته ؛ فسألهم عنه فأخبروه ، فركب حتى ردّه إلى منزله ، وحلف عليه ليُقيمنَّ عنده شهراً . فقال له : لقد شققْتَ علىّ ، ولـكنّى سأتبع هواك ، والفزارِىُّ

يزداد إعجاباً بحديثه وعقله وروايته ، فعرض عليه الصِّهر . فقال له : يا هذا ؛ إن فيك لرغبة ، ولكني في شُغْل لا يُنْتفع بي معه .

فلم يزل يعاوده والحيُّ يلومونه ويقولون له : قد خشِينا أن يصير علينا فعلك سُبَّة . فقال : دعوني ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام . فلم يزل به حتى أجابه ، وعقدَ الصِّهر بينه وبينه على أخته المسماة لُبنَى ، وقال له : أنا أسُوقُ عنك صدَاقها . فقال : أنا والله يا أخي أكثرُ قومي مالًا . فما حاجتُك إلى تكلُّفِ هذا؟ أنا سائرٌ إلى قومي وسائقٌ إليها المهْر . ففعل وأعلم أباه الذي كان منه ؛ فسرّه وساقَ المهر عنه .

ورجع إلى الفزَارِيِّين حتى أُدْخِلَتْ عليه زوجتُه ، فلم يَرَوْهُ هشَّ إليها ولا دنا منها ؛ ولا خاطَبها بحرْفٍ ولا نظَرَ إليها .

وأقام على ذلك أياماً كثيرة ؛ ثم أعلمهم أنه يريد الخروج إلى قومهِ أياما ، فأذِنوا له في ذلك ؛ فمضى لوجهه إلى المدينة ، وكان له صديقٌ من الأنصار بها ، فأتاه فأعلمه الأنصار أنَّ خبرَ تزويجه بلغ لُبنى فغمّها وقالت : إنه لغَدّار ! ولقد كنتُ أمتنع من إجابة قومي إلى التزويج فأنا الآنَ أجيبهم .

وقد كان أبوها شكا قيْساً إلى معاوية ، وأعلمه تعرُّضَه لها بعْدَ الطلاق ، فكتب إلى مروان بن الحكم يُهْدِرُ دَمه إنْ تعرّض لها ، وأمر أباها أن يُزَوِّجها رجلا يعرف بخالد بن حِلِّزة ، فزوجها أبوها منه ، فجعل نساء الحيّ يَقُلْنَ ليلة زِفافها :

لُبَيْنَى زوجُها أصبحَ لا حُرٌّ بوَادِيه
له فضلٌ على الناس بما باتَتْ تُنَاجِيه
وقيس ميِّتٌ حيٌّ صريعٌ في بواكيه
فلا يُبْعِدهُ الله وبُعْداً لِنواعيه

فَجزِعَ قيسٌ جزعاً شديداً ، وجعل ينشِج أحرَّ نشيج ويبكى أحر بكاء .

ثم ركب مِنْ فَوْره حتى أتى مَحَلّة قومِها ، فناداه النساء : ما تصنعُ الآن هاهنا! قد نُقِلتْ لُبنى إلى زوجها ! وجعل الفتيانُ يُعارضونه بهذه المَقالةِ وأشبهها وهو لا يجيبهم حتى أتى موضعَ خِبائها ، فنزل عن راحلته وجعل يَتَمَعَّكُ(١) فى موضعها؛ ويُمَرِّغ خدَّه على ترابها ، ويبكى أحرَّ بكاء ، ، ثم قال :

إلى الله أشكو فقدَ لُبنَى كما شكا ... إلى الله فقــدَ الوالِدَيْنِ يتيمُ
يتيمٌ جفاهُ الأقرَبون فجِسْمُه ... نحيلٌ وعَهْــدُ الوالِدَيْن قديمُ
بكتْ دارُهم مِنْ نَأيِهم فتهلَّلتْ ... دموعى ، فأىُّ الجازِعَيْنِ ألُومُ ؟
أمستعبراً يبكى من الشوق والهوى ... أمَ آخرَ يبكى شَجْوَهُ ويَهِيمُ
تَهَيَّضَنِى(٢) من حُبِّ لُبنى علائقٌ ... وأصنـاف حُبٍّ هَوْلُهن عظيمُ
ومَنْ يتعلَّقْ حبَّ لُبنى فؤادُه ... يمُتْ أو يَعِشْ ما عاش وهْو كليمُ
فإنى وإن أجمعتُ عنكِ تجلُّداً ... على العهــد فيما بيننا لَمُقيمُ
وإنَّ زماناً شتَّتَ الشَّمْـلَ بيننـا ... وبينكُم فيــه العِدَا لَمَشُومُ
أفى الحقِّ هذا أن قلبكِ فارغٌ ... صحيح وقلبى فى هواكِ سقيمُ !

— ٤ —

وشَخَص أبو لُبنى إلى معاوية ، فشكا إليه قيساً ، وتَعَرُّضَه لابنته بعد طلاقه إياها ، فكتب معاويةُ إلى مَرْوان يُهْدِر دمه إن ألَمَّ بها ، وأنْ يشتد فى ذلك .

---

(١) يتمعك : يتمرغ . (٢) تهيض : انكسر .

فكتب مَرْوَان فى ذلك إلى صاحب الماء الذى ينزله أبو لُبْنَى كتاباً وكيداً ؛ ووجّهت لُبْنَى رسولًا قاصداً إلى قيس تُعْلِمه ما جرى وتحذّره .

وبلغ أباه الخبر ، فعاتبه ، وقال له : انتهى بك الأمر إلى أن يُهْدِر السلطان دمك ؟ فقال :

فإنْ يحجبوها أو يَحُلْ دون وَصْلِها ... مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أميرِ
فلن يمنعوا عينىّ مِنْ دائم البُكَا ... ولن يُذْهبوا ما قد أجنّ ضميرى
إلى الله أشْكو ما ألاقى من الهوى ... ومن حُرَقٍ تعْتَادنى وزَفِيرِ
ومن حُرَقٍ للحبّ فى باطن الحَشَى ... وليلٍ طويلِ الحزن غير قصيرِ
سأبكى على نفسى بعَيْنٍ غزيرةٍ ... بُكاء حزينٍ فى الوَثَاق أسيرِ
وكنّا جميعاً قبل أنْ يظهرَ الهوى ... بأنعَمِ حالَىْ غِبطَةٍ وسُرُورِ
فما برِحَ الواشون حتى بدَتْ لهم ... بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورِ
لقد كنتِ حَسْبَ النفسِ لو دام وصْلُنَا ... ولكنّما الدنيا متاعُ غرورِ

— ٥ —

وحجّ قيسُ بن ذَرِيح ، واتفق أنْ حجّت لُبنى فى تلك السنة ، فرآها ومعها امرأةٌ من قومها ؛ فدَهِشَ ، وبقى واقفاً مكانه ومضت لسبيلها .

ثم أرسلت إليه بالمرأة تبلّغه السلام وتسأله عن خبَرِه ، فألفتْهُ جالسا وحده ينشد ويبكى :

ويوم مِنًى أعرضْتِ عنى فلم أقلْ ... بحاجةِ نفسٍ عند لُبنى مقالُها
وفى اليأس للنفس المريضةِ راحةٌ ... إذا النفسُ رامتْ خُطّةً لا تنالُها

فدخلتْ خِباءهُ وجعلت تحدّثه عن لُبنى ويحدّثها عن نفسه مَلِيًّا ، ولم تعلمه أن لُبنى أرسلتْها إليه ، فسألها أن تبلِّغها عنه السلام ، فامتنعت عليه ؛ فأنشأ يقول :

إذا طلعتْ شمسُ النهار فسلِّمى ... فآيةُ تسليمى عليكِ طلوعُها
بعشرِ تحيّاتٍ إذا الشمسُ أشرقتْ ... وعشرٍ إذا اصفرّت وحان رجوعُها
ولو أبلغتْها جارةٌ قولىَ آسلَمى ... بكتْ جزَعاً وارفضّ منها دموعُها
وبانَ الذى تُخْفِي من الوَجْدِ فى الحَشى ... إذا جاءها عنى الحديثُ يَروعُها

وقضى الناسُ حجَّهم ، وانصرفوا ؛ فمرض قيس فى طريقه مرضاً شديداً أشفى منه على الموت ؛ فلم يأتِه رسولُها عائداً ؛ لأنّ قومها رأوه وعلموا به فقال :

أَلُبنى لقد جلّت عليكِ مصيبتى ... غداةَ غدٍ إذ حلّ ما أتوقّع
تُمَنِّيننى نَيلًا وتَلْوِيننى به ... فنفسىَ شوقاً كلّ يوم تَقَطَّع
وقلبكِ قطّ ما يلينُ لما يرى ... فوا كَبِدِى قد طال هذا التضرُّع
ألومُكِ فى شأنى وأنتِ مُليمَةٌ ... لعمرى ، وأجْفَى للمحبِّ وأقطعُ
أُخْبِرْتِ أنى فيكِ ميتٌ حَسْرَتى ... فما فاض من عينيك للوجْدِ مَدْمَعُ
ولكنْ لعمْرِى قد بكيتُكِ جاهداً ... وإنْ كان دائى كلُّه منك أجمعُ
صبيحةَ جاء العائداتُ يَعُدْننى ... فظلّتْ علىّ العائداتُ تفجّعُ
فقائلةٌ جئنا إليه وقد قَضَى ... وقائلةٌ لا ، بل تركناه يَنْزِع[1]
فما غشيَتْ عينيكِ مِنْ ذاك عَبْرَةٌ ... وعينى على ما بى بذكراكِ تدمعُ

فبلغَتْها الأبياتُ ؛ فجزعت جزعاً شديداً ، وبكتْ بكاء كثيراً ، ثم خرجت

(١) فى النزع : أى على شفا الموت.

إليه ليلا على موعد ؛ فاعتذرتْ وقالت : إنما أُبْقِى عليك وأخشى أن تُقْتَلَ ، فإنى أتحاماك لذلك ، ولولا هذا لما افترقنا ، وودَّعته وانصرفت .

وبلغه أنَّ أهلها قالوا لها : إنه عليل لما به ، وإنه سيموت فى سفره هذا ، فقالت لهم لتدفَعهم عن نفسها : ما أراه إلا كاذباً فيما يدَّعى ، ومتعلِّلًا لا عليلا ، فبلغه ذلك فقال :

تكادُ بلادُ اللهِ يا أمَّ مَعْمَرٍ ... بما رَحُبَتْ يوماً علىَّ تضيقُ

إلى أن قال :

سعى الدَّهْرُ والواشونَ بينى وبينها ... فقُطِّعَ حبلُ الوصلِ وهْو وَثيق

هل الصبرُ إلَّا أن أصُدَّ فلا أرى ... بأرضكِ إلا أن يكون طريق

ثم أتى قومه ، فاقْتَطَعَ قِطعةً من الإبل ، وأعْلَمَ أباه أنه يريد المدينة ليبيعَها ، ويَمتَار لأهله بثمنها . فعرف أبوه أنه إنما يريدُ لُبنى ، فعاتبَه وزَجَره عن ذلك ؛ فلم يَقْبل منه ، وأخذ إبلَه وقدم المدينة .

فبينما هو يَعْرِضُها إذ ساومه زوجُ لُبنى بناقةٍ منها ، وهما لا يتعارفان فباعه إياها . فقال له : إذا كان غدٌ فأْتِنى فى دار كَثير بن الصَّلْتِ فاقبضِ الثمن . قال : نعم . ومضى زوجُ لبنى إليها ، فقال لها : إنى ٱبْتَعْتُ ناقةً من رجل من أهل البادية ، هو يأتينا غداً لَيَقْبضِ ثمنها ، فأعِدِّى له طعاما ، ففعلت .

فلما كان من الغد جاء قيس فصوَّت بالخادم وقال : قولى لسيِّدك : صاحب الناقة بالباب . فعرفتْ لُبنى نَغْمتَه فلم تقل شيئاً . فقال زوجها للخادم : قولى له : ادخل . فدخل فجلس . فقالت لُبنى للخادم : قولى له : يا فتى ؛ مالى أراك أشْعثَ أغْبَرَ ؟

فقالت له ذلك . فتنفس ثم قال لها : هكذا تكون حالُ مَن فارق الأحِبَّةَ واختار الموت على الحياة ، وبكى .

فقالت لها لُبنى : قولى له : حَدِّثنا حديثَك ؛ فلما ابتدأ يُحدِّث به كشفت الحجابَ ، وقالت : حسبُك ! قد عرفنا حديثَك ! وأسبلتِ الحجاب ؛ فبُهِت ساعةً لا يتكلَّم ، ثم انفجر باكيا ونهض نخرج ؛ فناداه زوجُها : ويْحَك ! ما قصّتُك ؟ ارجع اقبِضْ ثمنَ ناقتِك وإن شئتَ زِدْناك . فلم يكلمه ، ومضى .

وقالت لُبنى لزوجها : ويحك ! هذا قيس بن ذَريح . فما حملَك على مافعلتَ به؟ قال : ما عرفتُه . وجعل قيسٌ يبكى فى طريقه ، ويندُب نفسه ، ويوبِّخُها على فِعْلِه ، ثم قال :

أتبكى على لُبنى وأنتَ تركتَها	وأنْتَ عليها بالمَلَا أنت أقْدَر
فإن تكن الدُّنيا بلُبنَى تقلَّبتْ	علىَّ فلِلدُّنيا بطُونٌ وأظهُرُ
لقد كان فيها للأمانةِ مَوْضِعٌ	ولِلكفِّ مُرْتادٌ وللعين مَنْظر
وللحائمِ العَطْشَان رِىٌّ بريقِها	ولِلمَرِحِ المختَالِ خمرٌ ومُسْكِرُ
كأنى لها أرْجُوحَةٌ بين أحبُلٍ	إذا ذُكْرَةٌ(١) منها على القلب تَخطُر

وعاد إلى قومه بعد رُؤْيته إياها وقد أنكر نفسه ، وأسِف ، ولحِقَه أمرعظيم! فأنكروه ، وسألوه عن حاله فلم يخبرهم؛ ومرض مرضاً شديداً أشرف فيه على الموت. فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلّموه وعاتبوه وناشدوه الله . فقال : ويحكم !

---

(١) الذكرة : ضد النسيان .

أَتَرَوْنِي أَمْرَضْتُ نفسى أو وجدتُ لها سَلْوَةً بعد اليأس فاخترتُ الهمَّ والبلاء ، أَوْلِي فى ذلك صُنْع ! هذا ما اختاره لى أبواى وقتلانى به .

فجعل أبوه يبكى ، ويدعو له بالفرج والسَّلْوَة ، فقال قيس :

لقد عذَّبْتني يا حبَّ لُبْنَى ... فقَعْ إمَّا بموتٍ أو حياةِ
فإنَّ الموتَ أرْوَحُ من حياةٍ ... تدوم على التباعد والشّتاتِ
وقال الأقربون : تعزَّ عنها ... فقلتُ لهم : إذَنْ حانت وَفَاتِي (1)

---

(١) قد اختلف فى آخر أمر قيس ولبنى ، فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على افتراقهما ؛ وذكر بعضهم أنه تزوجها فلم تزل معه حتى ماتا (راجع الأغانى ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ج ٩) .

٤٦ — ما أبالى ما نِيلَ مِن شَعْرى ومن بَشرى*

كان بِشْرُ(١) بنُ مروان شديداً على العصاة فكان إذا ظَفِر بالعاصى أقامه على كرسى وسَمَّر كفَّيه فى الحائط بمسمار ، ونزَع الكرسىَّ من تحتِهِ فيضطرب معلقاً حتى يموت .

وكان فتًى من بنى عِجْل مع المُهَلَّب وهو يحاربُ الأزارقة ، عاشقاً لابنةِ عمٍّ له ، فكتبت إليه تستَزيره ؛ فكتب إليها :

لولا مَخَافةُ بِشْرٍ أو عقُوبته ... أو أنْ يُشَدَّ على كفَّىَّ مِسمار
إذَنْ لعطَّلتُ ثَغْرِى(٢) ثم زُرْتكُم ... إنَّ المحبَّ إذا ما اشْتَاق زَوَّار

فكتبت إليه :

ليس المحبُّ الذى يخشى العقابَ ولو ... كانت عُقُوبَتَه فى إلْفِهِ النارُ
بل المحبُّ الذى لا شىْءٌ يمنَعُه ... أو تَسْتَقِرَّ ومَنْ يَهْوَى بِهِ الدارُ

فلما قرأ كتابها عطَّل ثغره ، وانصرف إليها ، وهو يقول :

أستغفرُ الله إذ خِفتُ الأمير ولم ... أخْشَ الذى أنا منه غيرُ منتصر
فشأن بِشْرٍ بلحمى فَلْيَغْذَ به ... أو يعفُ عَفْو أمير خيرِ مقتدر

---

* الأمالى : ٢ ـ ٣٠

(١) بشر بن مروان : أمير كان سمحاً جواداً ، ولى إمرة العراقين لأخيه عبد الملك ، توفى سنة ٧٥ هـ

(٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

فمـا أبالى – إذا أمسَيْتِ راضيـةً يا هندُ – ما نِيلَ مِنْ شَعْرِى ومن بَشَرى

ثم قدِم البَصرة ، فما أقام إلاّ يومين حتى وَشى به واشٍ إلى بِشْرٍ ؛ فقال : علىّ به ! فأُتى به ، فقال : يافاسق ، عطلتَ ثغرك ! هَلُمُّوا إلى الكُرْسِىّ ، فقال : أعزّ الله الأمير ، إنّ لى عُذْراً ، فقال : وما عُذْرك ؟ فأنشده الأبيات ، فرقّ له وكتب إلى المهلب فأثبَته فى أصْحابه .

٤٧ — فى القَلْبَيْن ثمَّ هوًى دفين *

كان سببُ عشق المجنونِ (١) ليلَى ، أنه أقبل ذاتَ يوم على ناقة له كَرِيمةٍ ، وعليه حُلتَّان من حُلَل الملوك ، فمرَّ بامرأة من قومه يقال لها : كَرِيمةُ ، وعندها نِسْوَةٌ يتحدَّثن ، فيهنَّ ليلى ، فأعجبهنَّ جمالُه وكمالُه ، فدعَوْنه إلى النزول والحديث ، فنزل وجعلَ يحدِّثهن ، وأمر عبداً له كان معه ، فعقَر لهنَّ ناقتَه ، وظل يحدِّثهن بقيةَ يومِه .

فبينا هو كذلك ، إذ طلع عليهن فتًى عليه بُرْدَةٌ من بُرَدِ الأعراب يقال له : « مُنازِل » يَسُوق مِعزى له ، فلما رأينه أقبلْنَ عليه ، وتركْنَ المجنونَ ، فغضب وخرج من عندهنَّ وأنشأ يقول :

أأعقِرُهن جرّا (٢) كريمةَ ناقتى ... ووصلِيَ مفروشٌ (٣) لوصْل مُنازِلِ
إذا جاء قعقعن الحُلِيَّ ولم أكُنْ ... إذا جئتُ أُرضَى صوتَ تلك الخلاخِلِ
متى ما انتضَلْنا (٤) بالسهام نَضَلْتُه (٥) ... وإن نَرْمِ رَشْقاً (٦) عندها فهْو ناضِلى

فلما أصبح لبِس حُلتَه ، وركب ناقةً له أخرى ، ومضى متعرضاً لهنَّ ، فألفَى ليلى قاعدةً بفِناء بيتها ، وقد عَلِق حبُّه بقلبها وهَوِيَتْه ، وعندها جُوَيرِياتٌ يتحدثْن

---

* الأغانى : ٢ : ١٢

(١) هو قيس بن الملوح من بنى عامر ، وصاحبته هى ليلى بنت مهدى ، وتكنى أم مالك ، وقد استفاضت كتب الأدب بأخبار عشقه ، واختلف الرواة فى صحة نسبتها إليه ، توفى سنة ٨٠ هـ (٢) من جرا : من أجل (٣) مفروش : ممهد لوصله وسبيل إليه (٤) انتضلنا : ترامينا (٥) نضلته : سبقته (٦) الرشق : رمى أهل النضال ما معهم من السهام فى جهة واحدة .

معها ، فوقف بهنَّ وسلم ، فدعونَه للنزول وقلن له : هل لك فى محادثةِ مَنْ لا يَشْغَلُهُ عنك مُنازِلٌ ولا غيرُه ؟ فقال : إى لَعَمْرِى ! فنزل وفعل مثلَ مافعله بالأمس ، فأرادتْ أنْ تعلمَ ، هل لها عنده مثلُ ماله عندها ، فجعلت تُعرِض عن حديثه ساعةً بعد ساعة ، وتحدِّثُ غيره ، وقد كان عَلِق بقلبها مثلُ حبها إياه ، وشَغَفَتْه واستملَحَهَا .

فبينا هى تُحدِّثُه إذ أقبل فتى مِنَ الحىّ ، فدعتْه وسارّتْه سِرَاراً (١) طويلاً ، ثم قالت له : انصرفْ ، ونظرتْ إلى وجْهِ المجنون فوجدته قد تَغَيَّر ، وانتُقِعَ (٢) لَوْنه ، وشقّ عليه فعلُها ، فأنشأت تقول :

كِلاَنَا مُظْهِرٌ للناس بُغْضاً ... وكلٌّ عند صاحبه مَكِينُ (٣)
تبلِّغُنا العيونُ بما أرَدْنَا ... وفى القلْبين ثَمَّ هوًى دَفِينُ

فلما سمع البيتين شَهَقَ شَهْقَةً شديدة وأُغْمِى عليه ، فمكث على ذلك ساعةً . ونَضَحُوا الماء على وجهه حتى أفاق ، وتمكَّنَ حُبُّ كلٍّ واحدٍ منهما فى قلْبِ صاحبه حتى بلغ منه كلَّ مبلغ .

---

(١) سراراً : مصدر سارّه فى أذنه مسارة وسراراً (٢) انتقع : تغير لونه (٣) فلان مكين عند فلان : بيّن المكانة .

٤٨ — أخبرْنى عن ليلة الغَيْلِ *

اجتاز قَيْسُ بنُ ذَرِيح بالمجنون وهو جالسٌ وحدَه فى نادى قومه ، وكان كلُّ واحد منهما مُشْتَاقاً إلى لقاء الآخر ، وكانَ المجنونُ قبل توحُّشه لا يجلس إلّا منفرداً، ولا يحدّث أحداً ، ولا يردُّ على مُتَكلِّمٍ جواباً ، ولا على مسلِّمٍ سلاماً ، فسلَّم عليه قيسُ بنُ ذَرِيح ، فوثب إليه فعانَقَه وقال : مرحباً بك يا أخى ، أنا والله مَذْهُوبٌ بى ، مُشْتَرَكُ اللُّب فلا تَلُمْنِى ؛ فتحدثا ساعةً وتشاكيا وبكيا .

ثم قال له المجنونُ : يا أخى ؛ إنّ حىَّ ليلَى منا قريبٌ ، فهل لك أن تمضىَ إليها فتبلّغها عنى السلام ؟ فقال له : أفعل .

فمضى قيسُ بن ذَرِيح حتى أتى ليلَى فسلّم وانْتَسَب ؛ فقالت له : حيّاكَ الله ، ألكَ حاجةٌ ؟ قال : نعم ؛ ابنُ عمكِ أرسلنى إليك بالسلام ؛ فأطرقت ثم قالت : ما كنتَ أهلاً للتحية لو علمتُ أنكَ رسوله ، قل له عنى : أرأيت قولك :

أبِتْ ليلةً بالغَيْلِ (١) يا أمَّ مالكٍ ... لكم غيرَ حبٍّ صادق ليس يكذبُ
ألا إنما أبقيتِ يا أمَّ مالكٍ ... صدًى (٢) أينما تذهبْ به الريح يذهب

أخبرنى عن ليلة الغَيْل ، أىُّ ليلةٍ هى ؟ وهل خلوتُ معك فى الغَيْل أو غيره

---

* الأغانى : ٢ — ٩٣

(١) الغيل : اسم واد لبنى جعدة (٢) الصدى : يطلق على الرجل النحيف الجسد

ليلا أو نهارا ؟ فقال لها قيس : يابنة عم ، إنَّ الناسَ تأوَّلوا كلامه على غير ما أراد ، فلا تـكونى مثلَهم، إنما أَخْبَرَ أنه رآكِ ليلة الغَيْل فذهبتِ بقلبه، لا أنه عنَاكِ[1] بسوء.

فأطرقَتْ طويلا ودموعُها تجرى وهى تُـكَفْـكِفُها ، ثم انتحبَتْ حتى ظنّ أنه تقطَّعَتْ حَيَازِيمُها[2] ؛ ثم قالت : اقرأ على ابْنِ عمى السـلام ، وقل له : بنفسى أنت ! والله إن وجْدِى بك لَفَوْقَ ما تجدُ ، ولـكن لا حيـلةَ لى فيك ؛ فانصرف قيسٌ ليخبرَه فلم يَجِدْه !

---

(١) عناك : قصدك (٢) حيازيم : جمع حيزوم ، وهو الصدر أو وسطه .

٤٩ — أيا شِبْهَ ليلى لا تُراعِي *

مَرَّ المجنون برجلين قد صادَا ظبيةً فربطَاها بحبلٍ وذهبَا بها ، فلما نظرَ إليها وهي تركُضُ في حِبالِهما دمَعَتْ عيناه ، وقال لهما : حُلّاها وخُذَا مكانها شاةً من غنَمِي ، ثم أنشدهما :

يا صاحبيَّ اللّذين اليوم قد أخذا ... في الحبل شِبْهاً لليلى ثم غلّاها
إنّي أرى اليوم في أعطافِ شاتِكُما ... مُشابِهاً أشبهَتْ ليلى فحُلّاها

ثم أعطاهما الشاة فحلّاها ، فولَّتْ هاربة فقال ـ وقد نظر إليها وهي تعدُو :

أيا شِبْهَ ليلى لا تُراعِي [(١)] ؛ فإنني ... لكِ اليوم من وَحْشِيَّةٍ لَصَدِيقُ
ويا شِبْهَ ليلى لو تلَبَّثْتِ ساعةً ... لعلَّ فؤادِي من جَوَاهُ يُفيقُ
فعيناكِ عَيْنَاها وجيدُكِ جيدُها ... ولكنَّ عظمَ الساقِ منكِ دقيق
أقول وقد أطلقتُها مِن وَثاقِها ... لأنتِ لليلى ما حييتُ طَليقُ

---

* الأغاني : ٢ ـ ٨١ ـ لسان العرب ـ مادة روع .

(١) لا تراعي : لا تخافي .

٥٠ – اسْتَبْكانىَ السيلُ إذْ جرَى *

قال رجل من بنى عامر :

مُطِرنا مَطراً شديداً فى ربيع ، ودام المطر ثلاثاً ، ثم أصبحنا فى اليوم الرابع على صَحْوٍ ، وخرج الناسُ يمشون على الوادى ، فرأيت رجلا جالساً حَجْرةً (١) وَحْده ؛ فقصدتُه ، فإذا هو المجنونُ جالسٌ وحْدَه يبكى ، فوعَظْتُه وكلَّمتُه طويلا ، وهو ساكِتٌ لم يرفعْ رأسَه إلىّ ؛ ثم أنشدنى بصوتٍ حزين لا أنْساه أبداً :

جرى السَّيلُ فاسْتَبْكانِىَ السيلُ إذ جرى ... وفاضَتْ له من مُقْلتَىَّ غُرُوبُ (٢)
وما ذاك إلَّا حينَ أيقنتُ أنه ... يكونُ بوادٍ أنتِ فيه قريبُ
يكونُ أُجَاجاً (٣) دونكم فإذا انتهى ... إليكم تَلَقَّى طيبَكم فيطيبُ
أَظَلُّ غَريبَ الدار فى أرضِ عامرٍ ... ألا كلُّ مهجورٍ هُناكَ غريبُ
وإنَّ الكثيبَ الفرْدَ من أيمن الِحمَى ... إلىّ وإنْ لم آتِهِ لحبيبُ
فلا خيرَ فى الدنيا إذا أنتَ لم تَزُرْ ... حبيباً ولمْ يَطرَبْ إليك حبيبُ

---

* الأغانى : ٢ ـ ٦٣

(١) حجرة : ناحية (٢) الغروب : جمع غرب ، وهو الدمع (٣) ماء أجاج : ملح مر .

٥١ — عهود جَبل التَّوْباد *

كان المجنونُ وليلى وهما صَبِيَّان يَرْعَيان غَنماً لأهلهما عند جَبَلٍ فى بلادهما يقال له التَّوْباد (١) ، فلما ذهب عقلُه وتوحَّشَ كان يجىء إلى ذلك الجبل فيقيم به ، فإذا تذكَّرَ أيامَ كان يُطيفُ هو وليلى به جزِع جزَعاً شديداً ، واستوحش ؛ فهامَ على وجْهِهِ حتى يأتىَ نواحىَ الشأمِ ، فإذا ثابَ إليه عَقْلُه رأى بلداً لا يعرفه؛ فيقول لمَنْ يلقاهم من النـاس : بأبى أنتم ! أينَ التَّوْبادُ من أرْضِ بنى عامر ؟ فيقال له : وأين أنتَ من أرض بنى عامر ! أنْتَ بالشام ! عليك بنجم كذا فَأمَّهُ ! فيمضى على وجهـه نحو ذلك النجم حتى يقعَ بأرض اليمن ، فيرى بلاداً يُنْكِرُها وقوماً لا يعرفهم فيسألهم عن التَّوباد وأرض بنى عامر ، فيقولون : وأين أنتَ من أرض بنى عامر ! عليك بنجم كذا وكذا ، فلا يزالُ كذلك حتى يقعَ على التَّوباد، فإذا رآه قال فى ذلك :

وأجْهَشْتُ (٢) للتَّوْباد حين رأيتُه ... وكـبَّرَ للرحمٰن حين رآنِى
وأذْرَيتُ دمعَ العين لَمَّـا عرفتُه ... ونادى بأعلى صوته فدعانى
فقلتُ له : قد كان حولَكَ جِيرةٌ ... وعَهْـدِى بذاك الصَّرْمِ منذُ زمانِ
فقال : مضَوْا واستودَعُونى بلادهم ... ومَنْ ذا الذى يَبْقَى على الحدَثانِ !
وإنى لأبكى اليوم من حَذَرِى غداً ... فِرَاقَكَ والحَيَّانِ مُجْتَمِعَانِ
سِجَالاً وتَهْتَاناً (٣) ووَبْلاً ودِيمَـةً ... وسَحًّا وتَسْجَاماً (٤) إلى هَمَـلانِ

* الأغانى : ٢ — ٥

(١) جبل بنجد (٢) أجهش إليه : نزع إليه وهو يريد البكاء (٣) هتنت السماء : صبت

(٤) سجمت السحابة مطرها إذا صبته .

٥٢ — حديث المجنون عن لَيلى*

قال أحد الرّواة : قلتُ لقيس بن الملوّح قبل أن يخالَطَ (١) : ما أعجبُ شيء أصابكَ فى وَجْدِك بليلى ؟ قال : طرَقَنا ذات ليلةٍ أضيافٌ ، ولم يكنْ عندنا لهم أُدْم ، فبعثنى أبى إلى منزل أبى ليلى ، وقال لى : اطلبْ لنا منه أُدْماً . فأتيتُه فوقفتُ على خِبائه فصحْتُ به ، فقال : ما تشاء ؟ فقلتُ : طرقَنَا ضِيفانٌ ولا أُدْمَ عندنا لهم ، فأرسلنى أبى أطلبُ منك أُدْماً ، فقال : يا ليلى ؛ أخرِجى إليه ذلك النِّحْىَ (٢) ، فامْلئى له إناءه من السَّمْن . فأخرجَتْه ومعى قَعْبٌ (٣) ، فجعلَتْ تصبُّ السمن فيه ونتَحَدَّث ، فألهانا الحديثُ وهى تَصُبُّ السمنَ وقد امتلأ القعبُ ولا نعلم جميعاً ، وهو يَسيلُ حتى اسْتَنْقَعَتْ أرجلنا من السمن .

فأتيتُهم ليلةً ثانيةً أطلبُ ناراً ، وأنا مُتلَفِّع ببُرْدٍ لى ، فأخرجَتْ لى ناراً فى عُطْبة (٤) لى فأعطَتْنِيها ، ووقفنا نتحدّثُ ، فلما احترقت العُطبة خَرَقتُ من بُرْدِى خِرْقة ، وجعلتُ النارَ فيها ، فكلما احترَقَتْ خرقتُ أخرى ، وأذْكيتُ بها النار حتى لم يبق علىّ من البرد إلا ما وَارى عورتى ، وما أعقِلُ ما أصنع !

---

* الأغانى : ٢ — ٣١

(١) خولط فى عقله : فسد عقله (٢) النحى : الزق يوضع فيه السمن (٣) القعب : القدح الضخم الغليظ (٤) العطبة : خرقة تؤخذ بها النار .

٥٣ — حَلالٌ لِلَيْلَى شَتْمُنا *

سأل الملوّح ـ أبو المجنون ـ رجلًا قَدِم من الطائف أنْ يَمُرَّ بالمجنون فيجلسَ إليه فيخبرَه أنه لَقِيَ ليلى وجلس إليها ، وَوَصف له صفاتٍ منها ومِنْ كلامها يعرِفُها المجنون ؛ وقال له : حدِّثه بها ، فإذا رأيته قد اشْرَأَبَّ(١) لحديثك واشتهاه فعرِّفهُ أنك ذكرته لها ووصفتَ مابه فشَتَمَتْه وسبَّتْه ، وقالت : إنه يكذِب عليها وُيُشهرها(٢) بفعله ، وإنها مااجتمعتْ به قطّ كما يصفُ .

ففعل الرجلُ ذلك ، وجاء إليه فأخْبَره بلقائه إياها ، فأقبل عليه وجعل يُسائِله عنها ، فيخبره بما أمرَه به الملوّح ، فيزداد نشاطًا ويثوبُ إليه عقلُه ، إلى أن أخبرَه بسبِّها إياه وشتمِها له ، فقال ـ وهو غير مُكْتَرِث لما حكاه عنها :

تمر الصَّبا صَفْحاً بساكنِ ذِي الغضَى … ويَصدَعُ قلبي أن يَهُبَّ هُبوبُها
إذا هبَّتِ الريحُ الشَّمالُ فإنّما … جَوايَ بما تُهدى إليَّ جَنُوبُها
قريبةُ عهدٍ بالحبيب وإنّما … هوى كلِّ نفس حيثُ كان حبيبُها
وحسبُ الليالى أن طرَحْنكَ مَطْرَحاً … بدارِ قِلًى تُمسى وأنتَ غَرِيبُها
حلالٌ لِلَيلَى شتْمُنا وانتقاصُنا … هنيئاً ومغفورٌ لليلى ذُنوبُها

---

* الأغانى : ٢ ـ ٨٥

(١) اشرأب إليه : مد عنقه لينظر ، أو ارتفع .

(٢) الشهرة : ظهور الشىء فى شنعة ، شهره كمنعه ، وشهره واشتهره فاشتهر .

٥٤ — إن دائى ودَوَائى أنتِ *

قال بعضُ مشايخ بنى عامر :

مرَّ المجنونُ فى تَوَحُّشِه ، فصادف حىَّ ليلى راحلًا ، ولقيها فجأة ، فعرفها وعرفَتْه ، فَصعق وخَرَّ مغشيًّا على وجهه .

وأقبل فِتيَانٌ مِنْ حَىِّ ليلى ؛ فأخذوه ومَسَحُوا الترابَ عن وجهه ، وأسْنَدُوه إلى صدورهم ، وسألوا ليلى أن تقِفَ له وقْفَةً ؛ فرقَّت لِمَا رأته به ؛ وقالت : أمَّا هذا فلا يجوزُ أن أفْتَضِح به ، ولكن يا فلانة ـ لأَمَةٍ لها ـ اذهبى إلى قيس فقولى له : ليلى تَقْرَأُ عليك السلام ، وتقول لك : أعْزِزْ علىَّ بما أنتَ فيه ، ولو وجدتُ سبيلًا إلى شفاء دائك لوقيتُكَ بنفسى منه ، فمضتِ الوليدةُ [1] إليه ، وأخبرته بقولها ، فأفاق وجلسَ وقال : أبلغيها السلام وقولى لها : هيهات ! إن دائى ودوائى أنتِ ؛ وإنَّ حياتى ووفاتى لفى يديك ، ولقد وكَلْتِ بى شقاء لازمًا ، وبلاء طويلًا ، ثم بكى وأنشأ يقول :

أقولُ لأصحابى هى الشمسُ ضَوْءُها قريبٌ ولكِنْ فى تناوُلِها بُعْدُ
لقد عارضَتْنا الريحُ منها بنَفْحَةٍ على كَبِدِى من طيبِ أرْوَاحها بَرْدُ

---

* الأغانى : ٢ ـ ٦٤

(١) الوليدة : الجارية .

فما زلْتُ مغشِيًا عَلَيّ وقد مَضَتْ أَناةٌ (١) وما عنـدى جوابٌ ولا رَدُّ
أقلّبُ بالأيدى وأهـلى بعَوْلَةٍ (٢) يُفدُّوننى لو يستطيعون أن يَفْدُوا
ولم يبقَ إلا الجِـلْدُ والعظمُ عاريًا ولا عَظْمَ لى إنْ دام ما بى ولا جِلْدُ
أَدُنيـایَ مالى فى انقطاعى ورَغْبَتِى إليـكِ ثوابٌ منـك دَيْن ولا نَقْدُ
عِدِينى - بنفسى أنتِ - وَعْداً فرُبّما جَلَا كُرْبَةَ المكروبِ عن قلبِى الوعْدُ
وقد يُبْتَـــلَى قومٌ ولا كَبلِيَّتى ولا مثلَ جَدِّى (٣) فى الشقاء بكم جَدُّ
غَزَتْنِى جنودُ الحبِّ من كل جانبٍ إذا حانَ من جندٍ قُفولٌ (٤) أتى جُنْدُ

---

(١) أناة : انتظار (٢) العولة : رفع الصوت بالبكاء (٣) الجد : الحظ (٤) القفول : رجوع الجند بعد الغزو .

٥٥ — ما رأيت مثلَ حزنها ووجْدِها عليه*

قال بعضُ أشياخ بنى مُرّة : خرج منا رجلٌ إلى ناحية الشام والحجاز وما يلى تَيْماء والسَّراة (١) وأرضَ نجد ؛ فى طلبِ بُغْيَةٍ له ، فإذا هو بخَيْمةٍ قد رُفِعَتْ له وقد أصابه المطر ؛ فعدَل إليها وتَنَحْنَح ، فإذا امرأة قد كلمتْهُ ، فقالت : انزل ، فنزل — وراحت إبلُهم وغنمُهم فإذا أمرٌ عظم — فقالت : سَلُوا هذا الرجل مِن أينَ أقبل ؟ فقلتُ : من ناحيةِ تِهامة ونجْد ، فقالت : ادخل أيها الرجل .

فدخلتُ إلى ناحية من الخَيْمَة ، فأرْخَتْ بينى وبينها ستراً ، ثم قالت لى : يا عبدَ الله ؛ أىّ بلاد نجد وَطِئْتَ ؟ فقلت : كلّها ؛ قالت : فبِمَنْ نزلتَ هناكَ ؟ قلت : ببنى عامر ، فتنفّستِ الصُّعداء ، ثم قالت : فبأىّ بنى عامر نزلتَ ؟ فقلتُ : ببنى الحَرِيشِ ، فاستعْبَرت (٢) ثم قالت : فهل سمعتَ بذكر فتى منهم يقال له : قَيْس بن الملوّح ويلقب بالمجنون ؟ قلت : بلى والله ! وعلى أبيه نزلتُ ، وأتيتُه فنظرتُ إليه يَهِيم فى تلك الفيافى (٣) ، ويكون مع الوَحْش لا يعقل ولا يفْهم إلا أن تُذْكَرَ له امرأة يقال لها : ليلى ، فيبكى ويُنْشِد أشعاراً قالها فيها .

فرفعتِ السِّترَ بينى وبينها ، فإذا فِلْقَةُ قمر لم ترَ عَيْنى مثلَها ؛ فبكتْ حتى ظننتُ — والله — أنّ قلبها قد انصدَعَ ، فقلت : أيتها المرأة ؛ اتقِ الله فما قلتُ بأساً . فمكثت طويلاً على تلك الحال من البكاء والنحيب ، ثم قالت :

---

* الأغانى : ٢ — ٣٦

(١) السراة : الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة ونجد (٢) استعبرت : جرت عبرتها وحزنت (٣) الصحارى .

ألا ليت شِعْرِى ، والخطوبُ كثيرة   مَتَى رَحْلُ قيسٍ مستقِلٌ[1] فَرَاجِعُ
بنفْسِيَ مَنْ لا يستقلُّ بِرَحْـلِهِ   ومَنْ هُوَ إنْ لم يحفظِ اللهُ ضَائِعُ

ثم بكت حتى سقطتْ مغشيًا عليها ، فقلت لها : مَنْ أنتِ يا أمَةَ الله ؟ وما قِصّتك ؟ قالت : أنا ليلى صاحبتهُ المشئومةُ ـ واللهِ عليه ، غيرُ المؤنسة له ، فما رأيتُ مثلَ حُزْنها ووَجْدِها عليه قطّ .

(١) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

٥٦ — عند الـكَعْبَةِ*

رُوِى أن أبا المجنونِ وأمَّه ورجالَ عشيرته اجتمعوا إلى أبِى ليلى ، فوعظوه وناشدوه اللهَ والرحمَ ، وقالوا له : إن هذا الرجل لهالكٌ ، وقَبْلَ ذلك هو فى أقبحَ من الهلاك بذهاب عقله ، وإنك فاجِعٌ به أباه وأهْلَه ، فنَشَدْناك اللهَ والرَّحمَ أن تَفْعَلَ ذلك ، فو الله ما هى أشرفُ منه ولا لكَ مثلُ مالِ أبيه ، وقد حكَّمكَ فى المهْر ، وإنْ شئت أن يَخْلَع نفسه إليكَ من مالِهِ فَعَلَ .

فأبى وحَلَف بالله وبطلاقِ أُمِّها إنه لا يزوِّجُه إيَّاها أبداً ، وقال : أُفْضِحُ نفسى وعشيرتى وآتى ما لم يَأْتِهِ أحدٌ من العرب ، وأَسِمُ (١) ابنتى بِمِيسَمِ فضيحة ! فانصرفوا عنه ، وخالَفهم لوقته فزوَّجها رجلاً من قومِها وأَدْخَلها إليه .

فما أمسى إلا وقد بنَى بها (٢) ، وبلغ المجنونَ الخبرُ فأَيِس (٣) منها حينئذ وزال عقلُه ، فقال رجالُ الحىِّ لأبيه : احْجُجْ به إلى مكة ، وادعُ اللهَ عزَّ وجل لَهُ ، ومُرْه أن يتعلق بأستَار الـكعبةِ ، فيسألَ اللهَ أن يُعافِيهُ مما به ، ويُبَغِّضَها إليه ، فلعَلَّ اللهَ أن يُخَلِّصَهُ من هذا البلاء .

فحجَّ به أبوه ؛ فلما صاروا بمِنى سمع صائحاً فى الليل يصيح : ياليلى ! فصَرخ صرخةً ظنوا أنَّ نَفْسه قد تلِفَتْ ، وسقط مَغْشِيًّا عليه ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ثم أفاق حائلَ (٤) اللون ذاهلاً ، فأنشأ يقول :

---

* الأغانى : ٢ ـ ٢١

(١) أسم : أصف (٢) بنى : دخل بها (٣) أيس : يئس (٤) حائل اللون : متغيره .

عرَضتُ على قلبي العزاء فقال لى : من الآنَ فايأسْ لا أعزَّك من صَبْرِ
إذا بانَ مَنْ تَهْوَى وأصبح نائيـاً فلا شيء أجْدَى من حُلولك فى القبر
وداعٍ دَعا إذْ نحنُ بالخيفِ[1] من مِنًى فهيَّجَ أحزانَ الفــؤادِ وما يَدْرى
دعا باسم ليلى غــيرَها ، فكأنما أطارَ بليلَى طائراً كان فى صدرى
دعا باسمِ ليـــلى ضلَّلَ الله سعيَهُ وليـــلى بأرضٍ عنه نازحةٍ قفرِ

ثم قال له أبوه : تعلقْ بأستار الكعبة ، واسألِ اللهَ أنْ يعافيك من حبِّ ليلى ؛ فتعلق بأستار الكعبة ، وقال : اللهم زِدْنى لليلى حبًّا ، وبها كَلَفًا ، ولاتُنْسني ذِكرَها أبداً . فهام حينئذ واختلط .

فكان يَهيمُ فى البرِّية مع الوحْش ، ولا يأكل إلا ما ينبت فى البرية من بقْل ، ولا يشرب إلا مع الظِّباء إذا وَرَدَتْ مناهلها ، وطال شعرُ جسده ، ورأسِه ، وألِفته الظِّباء والوحوشُ ، فكانت لاتنفِرُ منه ، وجعل يهيم حتى يبلغَ حدود الشام ، فإذا ثاب إليه عقله سأل مَنْ يمرُّ به من أحياء العرب عن نجد ؛ فيقال له : وأين أنتَ من نجد ! قد شارفْتَ الشام ! أنتَ فى موضع كذا ، فيقول : فأرونى وِجْهةَ الطريق ، فيرحمونه ويَعرضُون عليه أن يحملوه أو يكسوه فيأبى ، فيدلّونهُ على طريق نجد فيتوجه نحوه !

---

(١) الخيف : ناحية فى منى .

٥٧ — ذهول*

قال نوفل بن مُساحِق : قدِمتُ البادية فسألتُ عن المجنون ، فقيل لى: توحّش وما لنا به عهد ، ولا ندرِى إلى أين صار .

فخرجتُ يوماً أتصيّدُ الأرْوَى[1] ، ومعى جماعةٌ من أصحابى ، حتى إذا كنتُ بناحية الحِمَى إذا نحن بأَرَاكَةٍ[2] عظيمة ، قد بدَا منها قطيعٌ من الظِّباء ، فيها شخصُ إنسانٍ يُرَى من خَلَلِ تلك الأَرَاكة ؛ فعجِبَ أصحابى من ذلك ، فعرفتُه وأتيتُه ، وعرفتُ أنه المجنون الذى أُخبِرْتُ عنه .

فنزلتُ عن دابّتى ، وتخفّفتُ[3] من ثيابى ، وخرجتُ أمشى رُوَيداً ، حتى أتيتُ الأَرَاكة ؛ فارتقيتُ حتى صِرْتُ على أعلاها ، وأشرفْتُ عليه وعلى الظِّباء ؛ فإذا به وقد تدلّى الشَّعْرُ على وجهه ، فلم أكَدْ أعرِفُه إلا بتأمُّلٍ شديد ، وهو يرْتعى فى ثمرِ تلك الأراكة ؛ فرفع رأسه فتمثّلتُ ببيتٍ من شعره :

أتبكى على ليْلَى ونفسُك باعَدَتْ مزَارَكَ من ليلى وشِعْبا كما معاَ

فنفرتِ الظباء ؛ واندفع فى باقى القصيدة يُنْشِدُها ، فما أنسى حُسنَ نَغْمته وحسنَ صوته ، وهو يقول[4] :

فما حَسَنٌ أن تأْتِيَ الأمرَ طائعاً وتجزعَ أنْ داعِى الصبابةِ أسْمعاَ

---

* الأغاني : ٢ ـ ٦٦

(١) الأروى : الوعول ، وهى تيوس الجبل ، واحده أروية . (٢) الأراكة : واحدة الأراك وهو شجر كثير الورق والأغصان . (٣) أى نزعت شيئاً منها . (٤) بعض هذه الأبيات ينسب إلى غير المجنون (انظر الأغانى ج ٢٢ ، ص ٦٧ ، والأمالى ج ١ ص ١٩٠) .

بكَتْ عَيْنِيَ اليُسْرِى فلما زَجَرْتُها عن الجهلِ بعد الحلم أسْبلَتا معاً[١]

وأذْكرُ أيامَ الحِمَى ثم أنْثَنِي على كَبِدِى مِنْ خَشْيةٍ أن تَصدَّعا

فليستْ عَشِيَّاتُ الحِمَى برواجعٍ عليكَ ولكن خَلِّ عينيك تدْمَعا

معِى كلُّ غِرٍّ قد عصَى عاذِلَاتِهِ بوَصْلِ الغَوانى مِنْ لَدُنْ أن تَرَعْرَعا

إذا راح يمشى فى الرِّدَاءين أسرعَتْ إليــه العيونُ الناظراتُ التطلُّعا

ثم سقطَ مَغْشِيًّا عليه ، فتمثلتُ بقوله :

يادارَ ليلى بسِقْطِ[٢] الحىِّ قد درَسَتْ إلَّا الثُّمام وإلَّا موْقِدَ النـار[٣]

فرفع رأسه إلىَّ وقال : مَنْ أنْتَ حيَّاك الله ؟ فقلت : أنا نَوْفل بنُ مُساحق ، فحيَّانى فقلت له : ما أحْدَثْت بعدى فى يأسِك منها ؟ فأنشدنى يقول :

ألا حُجِبَتْ ليلى وآلَى أميرُها علىَّ يميناً جاهداً لا أزورُها

وأوْعَدَنى فيها رجالٌ أبوهُمُ أبى وأبوها خُشِّنَتْ لى صُدُرُها

على غَيْرِ جُرْمٍ غير أنى أُحِبُّهَا وأنَّ فؤادى رَهْنُهـا وأسيرُها

ثم سنحَتْ له ظِباء فقام يَعْدُو فى أثرها حتى لحقها ، فمضى معها .

---

(١) أسبلت السماء : أمطرت : أى بكت عيناه. (٢) السقط: حيث انقطع معظم الرمل ورق.
(٣) الثمام : نبت فى البادية ، كان العرب يسدون به خصاص البيوت .

٥٨ — خاتمة المجنون*

خرج شيخٌ من بنى مُرّة ليلاقَى المجنونَ فى أرضِ بنى عامر ثم حدّث فقال : دُلِلْتُ على مَحَلّتِه فأتيتُها ، فإذا أبوه شيخٌ كبيرٌ وإخوةٌ له رجال ، وإذا نَعَمٌ كثيرٌ(١) وخيرٌ ظاهر ، فسألتُهم عنه فاستَعْبَرُوا جميعاً .

وقال الشيخُ : واللهِ لقد كان آثَرَ فى نفسى مِنْ هؤلاء وأحبَّهم إلىّ ! وإنه هَوِىَ امرأةً من قومه ، والله ما كانت تطمعُ فى مثله ، فلما أنْ فَشَا أمْرُه وأمرُها كَرِه أبوها أن يُزَوِّجها منه بعد ظهورِ الخبر ،فزوَّجها من غيره ، فذهب عَقْلُ ابنى ولَحِقَه خَبَلٌ ، وهامَ فى الفيافِى وجْداً عليها ، فحَبَسْناه وقيَّدْناه ، فجعل يَعَضُّ لسانه وشَفَتَيْه ، حتى خِفْنَا عليه أن يَقْطَعهما ، فخلَّينا سبيلَه ، فهو يَهِيم فى هذه الفيافِى مع الوحوش ؛ يُذْهَبُ إليه كلَّ يوم بطعامه فيُوضَع له حيث يراه ، فإذا تَنَحَّوْا عنه جاء فأكل منه .

فسألتُهم أن يَدُلُّونى عليه ، فدلّونى على فتًى من الحىِّ كان صديقاً له ،وقالوا : إنه لا يَأْنَس إلّا به ولا يأخذ أشعارَه عنه غيرُه ؛ فأتيتُه فسألته أن يَدُلَّنى عليه ، فقال : إن كنتَ تريد شِعْره فكلُّ شعر قاله إلى أمسِ عندى ، وأنا ذاهبٌ إليه غداً ، فإنْ كان قال شيئاً أتيتُك به . فقلتُ : بل أريد أنْ تدلّنى عليه لِآتيَه ؛

* الأغانى : ٢ ـ ٨٨ ، المسعودى : ٢ ـ ٤١٧

(١) النعم : يذكر ويؤنث .

فقال لى : إنْ نَفَر منك نَفَر منى فيذهب شِعْره ، فأبيتُ إلّا أنْ يدلّنى عليه ، فقال : اطلبه فى هذه الصحارَى ، فإذا رأيتَه فادْنُ منه مستأنِسا ، ولا تُرِه أنك تهابُه ، فإنه يتهدّدُك ويتوعّدُك أن يَرْمِيَك بشىء ، فلا يَرُوعنّكَ ، واجلس صارفاً بصَرك عنه ، والحظه أحيانا ، فإذا رأيتَه قد سكن من نِفاره فأنْشِدْه شعراً غَزَلا ، وإن كنتَ تروِى من شعر قَيْس بن ذَرِيح شيئاً فأنْشِدْهُ إياه فإنه مُعْجَبٌ به .

فخرجتُ فطلبتُه يَوْمِى إلى العصر ؛ فوجدتُه جالساً على رَمْل قدخطّ فيه بإصبعه خُطوطاً ، فدنوتُ منه غيرَ مُنْقَبض ، فنَفَرَ منى نفورَ الوَحْش من الإنس ، وإلى جانبه أحجارٌ فتناول حَجَراً ، فأعرضتُ عنه ، فمكث ساعةً كأنه نافرٌ يريد القيام ، فلما طالَ جُلوسى سكن وأقبل يخطّ بإصبعه . فأقبلتُ عليه وقلت : أحسن والله قيس بن ذَرِيح حيث يقول :

ألا ياغُرابَ البَيْن ويحكَ نَبّنى[1] بعلمك فى لُبنى وأنتَ خبيرُ
فإن أنتَ لم تُخْبر بشىء علمتَه فلا طِرْتَ إلا والجناحُ كسيرُ
ودُرْتَ بأعداء حبيبُك فيهمُ كما قد ترانى بالحبيب أدُورُ

فأقبل علىّ وهو يبكى ، ثم قال : وأنا أحسنُ منه قولًا حيثُ أقول :

كأنّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغْدَى بليلَى العامريةِ أو يُرَاحُ
قطاةٌ عزّها[2] شَرَكٌ فباتَتْ تُنَازِعُه وقد علِقَ الجناحُ

فأمسكتُ عنه هُنيهةً ، ثم أقبلتُ عليه فقلتُ : وأحسنَ والله قيس

(١) نبنى : نبئنى وأخبرنى .
(٢) عزها : غلبها .

ابن ذَرِيح حيث يقول :

وإنى لمُفْنٍ دمعَ عَيْنَىَّ بالبُكا … حِذاراً لما قد كان أو هو كائِنُ
وقالوا : غَداً أو بعد ذاك بليلةٍ … فِراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهو بائِنُ
وما كنتُ أخشى أنْ تكون مَنِيَّتى … بكفَّيْكِ إلا أنَّ ما حانَ حائنُ

فبكى - والله - حتى ظننتُ أنَّ نفسه فاضَتْ(١) ، وقد رأيتُ دموعه قد بلَّتِ الرملَ الذى بين يديه ، ثم قال : أحسنَ لعَمْرُ الله ؛ وأنا واللهِ أشعر منه حيث أقول :

وأدْنَيْتِنى حتى إذا ما سَبَيْتِنى … بقول يُحِلُّ العُصْمَ(٢) سَهْلَ الأباطِحِ
تناءيتِ عنى حين لا لِىَ حيلةٌ … وخَلَّفْتِ ما خَلَّفْتِ بين الجوانحِ

ثم سنحَتْ له ظَبْيةٌ فوثب يعدو خلفها حتى غاب عنى ، وانصرفت .

وعُدْت من غدٍ فطلبته فلم أجده ، وجاءت امرأة - كانت تَضَع له طعامه - إلى الطعام فوجدتْهُ بحاله .

فلما كان اليوم الثالث غدوتُ ، وجاء أهله معى فطلبناه يومنا فلم نجده ، وغدَوْنا فى اليوم الرابع نَسْتَقْرِى أثَرَه(٣) ، حتى وجدناه فى وادٍ كثير الحجارة خَشِنٍ وهو ميتٌ بين تلك الحجارة ، فبينما يقلّبونه إذ وجدوا خِرْقةً فيها :

ألَا أيها الشيخ الذى ما بِنا يَرضى … شقِيتَ ولا هُنِّيتَ من عيشك الغضَّا
شقيتَ كما أشقَيْتَنى وتركْتنى … أهيمُ مع الهُلّاك لا أطْعَم الغَمْضا

---

(١) فاضت نفسه : خرجت ومات .

(٢) العصم : جمع أعصم ، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض ، يريد أن قولها يخلب العصم ويستنزلها من الجبال وهى مساكنها إلى الأباطح السهلة .

(٣) نستقرى أثره : نتتبع أثره .

كأنّ فؤادى فى مخالبِ طائرٍ إذا ذُكِرَتْ ليلى يَشدّ بها قَبْضَا
كأنّ فِجاجَ[1] الأرضِ حَلْقةُ خاتَمٍ علىّ فما تزدادُ طولا ولا عرضَا

واحتمله أهله فغسّلوه وكفّنوه ودفنوه ؛ فلم تبق فتاةٌ من بنى جَعْدَة ولا بنى الحَرِيش إلا خرجتْ حاسِرةً صارخة عليه تَنْدُبه ، واجتمع فِتْيانُ الحىّ يبكون عليه أحرّ بكاء ؛ ويَنْشِجُون عليه أشدّ نَشِيج ، وحضرهم حىُّ ليلى مُعَزِّين ، وأبوها معهم ، فكان أشدّ القوم جزَعاً وبكاء عليه ، وجعل يقول : ما علمنا أنّ الأمرَ يبلغُ كلّ هذا ، لكنى كنت امرأً عربيًا أخافُ من العار ، وقُبْحَ الأحدوثة ، ما يخافهُ مثلى ، فزوّجتها وخرجَتْ عن يدى ، ولو علمت أنّ أمْرَه يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ، ولا احتملت ما كان علىّ فى ذلك .

فما رُئى يوم كان أكثرباكيةً وباكياً على ميّتٍ من ذلك اليوم .

---

(١) جمع فج : وهو الطريق .

٥٩ — اليوم يجمعنا فى بطنها الكَفَنُ*

قال الطُّفيل[١] بن عامر العمرىّ : خرجتُ ذات يوم أُرِيد الغارةَ - وكنتُ رجُلًا أحِبُّ الوَحْدة - فبينا أنا أسير ، إذ ضَلَلْتُ الطريقَ الذى أردتُه ، فسِرت أياماً لا أدرى أينَ أتوجَّه ، حتى نفِدَ زادى ، فجعلت آكلُ الحشيشَ ووَرَق الشجر حتى أشرفت على الهلاك ، ويئستُ من الحياة .

فبينا أنا أسير إذ أبصرتُ قطيعَ غنمٍ فى ناحيةٍ من الطريق ؛ فمِلتُ إليها ، وإذا شابٌّ حسنُ الوجه ، فصيح اللسان .

قال لى : يابْن العمّ ؛ أين تريدُ ؟ فقلت : أردتُ حاجة لى فى بعض المدن ، وما أظننى إلا قد ضللت الطريق . قال : أجَلْ . إن بينك وبين الطريق مَسِيرة أيام ، فانزِل حتى تستريح وتطمئنّ وتريح فرَسك .

فنزلتُ فرمى لفرسى حشيشاً ، وجاء إلىّ بثريد كثير ولَبَنٍ ، ثم قام إلى كبش فذبحه ، وأجّج ناراً[٢] ؛ وجعل يُكَبِّبُ[٣] لى ، ويطعمنى حتى اكتفيتُ .

فلما جنّنى الليل قام وفرشَ لى ، وقال : قم فارمِ بنفسك ؛ فإنّ النومَ أذهب لتعبك ، وأرجَع لنفسك .

فقمت ووضعت رأسى ، فبينا أنا نائم إذا أقبلتْ جاريةٌ لم ترَ عيناى مثلَها قطُّ

---

* المحاسن والأضداد : ٧٠ ، مسامرات الأبرار : ٢ — ٦٠ ، نهاية الأرب : ٢ — ١٩٦

(١) راوى القصة فى نهاية الأرب جميل العذرى . (٢) أشعل . (٣) أى يجعل لى اللحم كبابا .

حُسْناً وجمالا ، فَقَعَدَتْ إلى الفتى وجعل كلٌّ واحد منهما يشكو إلى صاحبه ما يَلْقى من الوَجْد به ؛ فامتنع علىّ النوم لحسنِ حديثهما . فلما كان وقت السَّحَر ، قامَتْ إلى منزلها ، فلما أصبحْنا دنوتُ منه ، فقلت له : ممَّن الرجل ! قال : أنا فلان ابن فلان ؛ وانتسب لى فعرفته ، فقلت له : وَيْحَك! إنَّ أباك لَسيِّدُ قومه ، فما حملك على وَضْعِك نفسك فى هذا المكان ! فقال : أنا والله أخبرك :

كنت عاشقاً لابنة عمى هذه التى رأيتَها ؛ وكانت هى أيضا لى وَامِقَة[1] ، فشاع خَبَرنا فى الناس ، فأتيت عمى ، فسألته أن يزوِّجَنيها ، فقال : يابنى ؛ والله ما سألتَ شَطَطاً[2] ، وما هى بآثَر عندى منك ؛ ولكن الناس قد تحدَّثوا بشىء، وعمُّك يكرَه المقالةَ القبيحة ؛ ولكن انظر غيرها فى قومك ، حتى يقومَ عمُّك بالواجب لك .

فقلت : لاحاجةَ لى فيما ذكرت ، وتحمَّلتُ[3] عليه بجماعة من قومى ، فردَّهم وزوَّجها رجلًا من ثقيف له رِياسةٌ وقَدْر ؛ فحملها إلى هنا ـ وأشار بيده إلى خِيَم كثيرة بالقرب منّا ـ فضاقتْ علىّ الدنيا برُحْبها ، وخرجت فى إثرها ؛ فلما رأتنى فرحتْ فرحاً شديداً ، فقلت لها : لا تخبرى أحداً أنِّى منك بسبيل ، ثم أتيتُ زَوْجها ، وقلت : أنا رجل من الأزْد ، أصبْت دماً وأنا خائف، وقد قصدْتُك لِما أعرف من رغبتك فى اصطناع المعروف ، ولى بَصَرٌ بالغنم ؛ إنْ رأيتَ أنْ تعطينى من غنمِك شيئاً فأكونَ فى جوارك وكنفك فافعل . قال : نعم وكرامة . فأعطانى مائة شاةٍ وقال لى : لا تَبْعُدْ بها من الحى ، وكانت ابنةُ عمى

---

(١) وامقة : محبة . (٢) شيئا بعيدا . (٣) تحملت عليه : أى أتيته بقوم يشفعون لى عنده .

تخرج إلىَّ كل ليلة فى الوقت الذى رأيتَ وتنصرف ؛ فلما رأى حسنَ حال الغنم ؛ أعطانى هذه ، فرضيتُ من الدنيا بما ترى .

قال الطُّفيل : فأقمت عنده أياماً فبينما أنا نائمٌ إذ نبَّهنى ، وقال : ياأخا بنى عامر . قلتُ له : ماشأنُك ؟ قال : إن ابنةَ عمى قد أبطأتْ ولم تكن هذه عادتَها ، ووالله ما أظنُّ ذلك إلا لأمرٍ حادث ، فحدَّثنى ، فجعلت أحدِّثه ، فأنشأ يقول :

ما بالُ ميَّةَ لا تأتى كعادتِها ... هل هاجها طَرَب[1] أو صَدَّها شُغُلُ؟
لكنَّ قلبىَ لا يَعْنيه غيرُهمُ ... حتى المماتِ ولا لِى غيرُهم أَمَلُ
لو تعلمين الذى بى مِنْ فِرَاقِكمُ ... لما اعتَلَلْتِ ولا طابت لكِ العِللُ
نفسى فداؤكِ ! قد هَيَّجْتِ لِى سقَماً ... تكاد من حرِّه الأعضاء تنفَصِلُ
لو كان عادِيُهُ منه على جَبَل ... لزال وانْهَدَّ من أركانه الجبلُ

فوالله ما اكتحل بغُمْضٍ ، حتى انفجَر عمودُ الصبح ، وقام ومرَّ نحو الحىِّ فأبطأ عنى ساعة ، ثم أقبل ومعه شىء ، وجعل يبكى عليه . فقلت له : ما هذا ؟ قال : هذه ابنةُ عمى افترسها السَّبُع ، فأكل بعضها ؛ ووضعها بالقُرْب منى ، فأوجَعَ والله قلبى !

ثم تناول سيفَه ومرَّ نحو الحى فأبطأ هُنَيْهة ، ثم أقبل إلىَّ ، وعلى عاتقه ليثٌ كأنه حمار ؛ فقلت له : ما هذا ؟ قال : صاحبى ، قلت : وكيف علمته ؟ قال : إنى قصدتُ الموضع الذى أصابها فيه ، وعلمتُ أنه سيعود إلى ما فَضلَ منها ؛ فجاء قاصداً إلى ذلك الموضع ، فعلمت أنه هو ، فحملت عليه فقتلته ؛ ثم قام فحفَر فى

---

(١) الطرب : خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور .

الأرض فأمْعَن ؛ وأخرج ثوباً جديداً ؛ وقال : يا أخا بنى عامر ؛ إذا أنا مِتُّ فادْرُجنى[١] معها فى هذا الثوب ؛ ثم ضَعْنا فى هذه الحفرة ، وأَهِلِ التراب[٢] ، واكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام :

كُنّا على ظهرِها والعَيْشُ فى مَهَلٍ ... والدهرُ يَجْمَعُنا ، والدارُ والوطنُ

فخاننا الدهرُ فى تفريق أُلْفَتِنا ... واليوم يَجْمَعُنا فى بطنها الكَفَنُ

ثم التفت إلى الأسد وقال :

ألا أيّها الليثُ المُدِلُّ بنفسه ... هَلَكْتَ ، لقد جَرَّتْ يداكَ لنا حُزْنا

وغادَرْتنى فَرْداً وقد كنتُ آلفاً ... وصيَّرتَ آفاقَ البلاد لنا سِجْنا

أأصحبُ دَهْراً خاننى بفراقِها ... معاذَ إلٰهى أن أكونَ له خِدْنا[٣]

ثم قال : يا أخا بنى عامر ؛ إذا فرغْتَ من شأننا فَصِحْ فى أدبار هذه الغنم فرُدَّها إلى صاحبها .

ثم ماتَ ، فقمتُ فأدرجتُهما فى ذلك الثوب ؛ ووضعتهما فى تلك الحُفرة ؛ وكتبتُ البيتين على قبرهما ، ورددتُ الغنم إلى صاحبها . وسألنى القوم ، فأخبرتهم الخبر ؛ فخرج جماعة منهم فقالوا : والله لننحرنَّ عليه ؛ تعظيما له ، فخرجوا ؛ وأخرجوا مائة ناقة ؛ وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا ؛ فنحرت ثم انصرفنا .

---

(١) ادرجنى : اطونى معها . (٢) هال التراب وأهاله : صبه . (٣) خدنا : صديقا .

٦٠ — العِفَّة فى الحب*

سعَتْ أَمَةٌ لبُثَيْنَةَ بها إلى أبيها وأخيها ، وقالت لهما : إنّ جَمِيلًا[١] عندها الليلةَ ، فأتياها مُشْتَمِلَيْن على سَيفين ، فرأياه جالساً حَجْرَةً[٢] منها يحدِّثُها ويشكو إليها بثَّه ، ثم قال لها : يا بُثَينة ؛ أرأيت وُدِّى إيّاك ، وشغفى بك ، ألَا تجزِينيه ؟ قالت : بماذا ؟ قال : بما يكونُ بين المتحابَّيْنِ ، فقالت له : يا جميل ؛ أهـذا تبغى ! والله لقـد كنتَ عندى بعيداً منه ، ولئن عاودتَ تعريضاً بِرِيبةٍ لا رأيتَ وجهى أبداً .

فضحك وقال : والله ما قلتُ لكِ هذا إلا لأَعلَمَ ما عندكِ فيه ، ولو علمت أنكِ تُجيبيننى إليه لعلمتُ أنك تُجيبين غيرى ، ولو رأيتُ منكِ مساعدةً عليه لضربتُكِ بسيفى هـذا ما استَمْسَك فى يدى ، ولو أطاعَتْنِى نفسى لهجرتك هِجْرَةَ الأبد ، أو ما سمعت قولى :

وإنّى لأَرْضَى من بُثَينةَ بالذى ... لو ابصره الواشِى لقَرَّتْ بَلَابِلُهْ[٣]

---

* الأغانى : ٨ ـ ١٠٥

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر العذرى ، كان شاعراً فصيحاً مقدماً جامعاً للشعر والرواية . اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه ، وكان يجتمع بها سراً عن أهلها ، فألحوا بالشكوى عليه ، ففر إلى اليمن ثم انتجع أهل بثينة الشام ، فرحل جميل إليهم فترصدوه وشكوه إلى عشيرته ، فمنعه أهله وهددوه ، فانقطع عنها ، وأخيرا لجأ إلى مصر وعاملها عبد العزيز بن مروان ، فأحسن وفادته ، ومرض هناك ومات بها سنة ٨٢ هـ . (٢) حجرة : ناحية منفرداً . (٣) البلابل : وسواس الصدر .

بِلا وبألّا أستطيع وبالمُـنى ‌ ‌ ‌ ‌ وبالأملِ المرجوّ قد خاب آمِـلُهْ
وبالنَّظْرَةِ العَجْلَى وبالحوْلِ تنقَضِى ‌ ‌ ‌ ‌ أواخِرُهُ لا نَلْتَـقِى وأوائلُهْ

فقال أبوها لأخيها : قُمْ بنا ؛ فما يَنْبَغِى لنا بعد اليوم أنْ نمنعَ هذا الرجل من لقائها ؛ فانصرفا وتركاها .

٦١ — حديث جَميل و بُثَيْنَة*

قال مَعْبَد : خرجتُ إلى مكةَ فى طلب لقاء الغَرِيض[١] ، وقد بلغنى حسنُ غنائه فى لَحْنه :

وما أنسَ م الأشياء[٢] لا أنسَ شادِنًا ... بمكةَ مَكْحُولًا أسِيلًا مدامِعُهْ

وقد كان بلغنى أنهُ أولُ لحنٍ صنعه ، وأن الجنَّ نهَتْه أن يغنّيَه لأنه فتن طائفةً منهم ، فانتقلوا عَنْ مكةَ من أجل حُسْنِه .

فلما قدمتُ مكةَ سألت عنه ، فدُلِلْتُ على منزله ؛ فأتيته فقرعتُ الباب فما كلّمنى أحد ، فسألتُ بعضَ الجيران فقلت : هل فى الدار أحدٌ ؟ قالوا لى : نعم ، فيها الغَرِيض ، فقلت : إنى قد أكثرتُ دقّ الباب ، فما أجابنى أحدٌ ! قالوا : إنّ الغَرِيض هناكَ ، فرجعتُ فدقَقْتُ الباب فلم يُجبْنى أحد ، فقلت : إن نَفَعَنى غنائى يوماً نفعَنى اليوم ، فغنَّيْتُ لَحْنِي فى شِعْرِ جميل :

عَلِقْتُ الهوَى منها وليداً فلم يزَلْ ... إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويَزِيدُ

فوالله ما تممتُ حركةَ الباب ، فقلت : بَطَل سِحْرى[٣] وضاع سَفَرى ، وجئتُ أطلبُ ما هو عسيرٌ علىّ ، واحتقرتُ نفسى وقلت : لم يتوَهّمنى[٤] لضَعْف

---

* الأغانى : ٢ ــ ٣٨٧ ، تزيين الأسواق : ٣٧

(١) مغن مشهور ، أخذ الغناء عن أبي سريج وبرع فيه ، واسمه عبد الملك ، والغريض لقبه ، قال ابن الكلبي : شبه بالإغريض ، وهو الجمار فسمى به ، ثم ثقل على الألسنة ، فحذفت الألف منه.

(٢) أصله : من الأشياء . (٣) بطل سحرى : ضاعت حيلتى . (٤) لم يتوهمنى : لم يعرفنى .

غِنائى عنده ، فما شَعرتُ إلا بصائح يصيح : يا مَعْبَد المغنى ؛ افْهَمْ وتلقَّ عنى شعرَ جميل الذى تُغَنّى فيه يا شقىَّ البَخْت ، وَغَنَّى :

وما أنسَ مِ الأشياء لا أنسَ قولها ... وقد قرَّبتْ نِضْوِى(١) : أمصرَ تريدُ ؟

ولا قولَها : لولا العيونُ التى ترَى ... أتيتُكَ فاعذِرنى فَدتْكَ جُدُودُ !

خليلىَّ ما أُخْفِى من الوَجْدِ باطِنٌ ... ودَمْعِى بما قلتُ الغَداةَ شهيدُ

يقولون : جاهدْ يا جميلُ بِغَزْوَةٍ ... وأىّ جِهادٍ غيرَهُنَّ أُرِيدُ

لكل حديثٍ عندهنَّ بَشاشةٌ ... وكلّ قتيلٍ بينهنّ شَهِيدُ

فسمعتُ شيئاً لم أسمع أحسنَ منه ، وقصَّر(٢) إلىَّ نفسى ؛ وعلِمتُ فضيلته علىَّ بما أحسَّ من نفسه ، وقلت : إنه لحرىٌّ بالاستتار من الناس تنزيهاً لنفسه ، وتعظيماً لقَدْره ، وإنَّ مثلَه لايستحقُّ الابتذال ، ولا أنْ تتداولَه الرجالُ ؛ فأردتُ الانْصِرافَ إلى المدينة راجعاً .

فلما كنتُ غيرَ بعيد إذا بصائح يصيح بى : معبدُ ؛ انتظر أُكلِّمْك ، فرجعتُ فقال لى : إن الغريضَ يدعوك ؛ فأسرعتُ فرِحاً ، فدنوتُ من الباب ، فقال لى : أتحِبُّ الدخول ؟ فقلتُ : وهل إلى ذلك من سبيل ؟ فقَرَعَ الباب ففُتح ، فقال لى : ادخل ولا تُطلِ الجلوسَ .

فدخلت فإذا شمسٌ طالعةٌ فى بيت ، فسلمت فردَّ السلام ، ثم قال : اجلسْ فجلست ، فإذا أنبلُ الناس ، وأحسنُهم وجهاً وخَلْقاً وخُلُقاً ؛ فقال : يا معبد ؛ كيف

---

(١) النضو : المهزول من الإبل . (٢) قصر إلى نفسى : صغرها فى عينى .

طَرأت(١) إلى مكة ؟ فقلتُ : جُعِلْتُ فداءك ! وكيف عرفتنى ؟ فقال : بصَوْتك ؛ فقلت : وكيف وأَنْتَ لم تسمعه قط ؟ قال : لما غنّيت عرفتك به وقلتُ : إن كان معبد فى الدنيا فهذا . فقلت : جُعلت فداءك ! فكيف أجبتنى بقولك :

وما أنس مِ الأشياء لا أنسَ قولَها وقد قَرَّبَتْ نِضوى : أَمِصْرَ تريد ؟

فقال : لقد علمتُ أنك تريد أن أُسمِعَك صوتى :

وما أنس م الأشياء لا أنس شادِناً بمكة مكحولا أسيــلًا مَدامِعُه

ولم يكن إلى ذلك سبيلٌ ، لأنه صوتٌ نُهيتُ أن أُغَنِّيَهُ ، فغنَّيْتُك هـذا الصوت جواباً لما سألتَ وغنَّيْتَ ؛ فقلتُ : والله ما عدوتَ ما أردتُ . فقال لى : يا أبا عبَّاد ؛ لولا ملالةُ الحديثِ ، وثقَلُ إطالة الجلوس لا ستكثرتُ منك فاعْذِرْ.

فخرجتُ من عنده ، وإنه لأَجَلُّ الناسِ عندى ، ورجعتُ إلى المدينة فتحدثت بحديثه ، وعجبتُ من فِطْنَتِهِ وقِيافَتِه(٢) ، فما رأيتُ إنساناً إلّا وهو أجلُّ منه فى عينى .

وذكرتُ جميلا وبُثَيْنة فقلت : ليتنى عرفتُ إنساناً يحدِّثنى بقصة جميل وخبرِ الشعر فأكون قد أخذتُ بفضيلةِ الأمرِ كلّه فى الغناء والشعر ، فسألتُ عن ذلك فإذا الحديثُ مشهور ، وقيل لى : إن أردتَ أن تُخَبَّرَ بخبره فأتِ بنى حَنْظَلَة ، فإنّ فيهم شيخاً منهم يقال له : فلان ، يُخَبِّرك الخبرَ .

فأتيتُ الشيخَ فسألتُه فقال : نعمْ ؛ بينا أنا فى إبلى فى الربيع إذا أنا برجل مُنْطَوٍ على رَحْلِهِ كأنه جانٌّ(٣) ، فسلّم علىّ ، ثم قال : ممن أنْتَ ياعبد الله ؟ فقلت :

---

(١) طرأت : أقبلت فجأة . (٢) قاف الأثر قيافة : تتبعه وعرفه . (٣) حية لاتؤذى، كثيرة فى الدور .

أحد بنى حَنْظلة ، قال : فانتسِبْ ؛ فانتسبتُ حتى بلغْتُ إلى فَخِذِى الذى أنا منه ؛ ثم سألنى عن بنى عُذْرَة أين نزلوا ؟ فقلت له : هل ترى ذلك السَّفْح ؟ فإنهم نزلوا من ورائه ؛ قال : يا أخا بنى حَنْظلة ؛ هل لك فى خير تصطنعه إلىّ ؟ فوالله لو أعطيتنى ما أصبحتَ تَسُوق من هذه الإبل ما كنتُ بأشْكَرَ منى لك عليه ، فقلت : نعم ، ومن أنت أوَّلًا ؟ قال: لا تسألنى مَنْ أنا ولا أخبرك لو سألتنى ؛ غير أنى رجلٌ بينى وبين هؤلاء القوم ما يكونُ بين بنى العمّ ، فإن رأيتَ أنْ تأتِيَهُم فإنك تجد القوم فى مجلسهم ، فتَنْشُدُهُم(١) بَكْرَةً أدْماء تجرُّ خُفَّيْها غفْلًا من السِّمَة(٢) ، فإن ذكروا لك شيئاً فذاك ، وإلا استأذَنتَهم فى البيوت وقُلْتَ : إن المرأة والصبىّ قد يَرَيان مالا يرَى الرجال فتَنْشُدُهم ولا تدعْ أحدا تصيبه عينك ولا بيتاً من بيوتهم إلّا نشدتَها فيه .

فأتيتُ القومَ فإذا هم على جَزُورٍ(٣) يقتَسِمونها، فسلَّمْتُ وانتسبْتُ لهم ونشدتهم ضالّتى ، فلم يذكروا لى شيئاً ، فاستأذنتُهُمْ فى البُيوت وقلت : إنَّ الصبىَّ والمرأةَ يريان ما لا يرى الرجال ، فأذِنُوا ، فأتيتُ أقصاها بيتاً ، ثم استقريتُها بيتاً بيتاً أنشُدُهم فلا يذكرون شيئاً ، حتى إذا انتصفَ النهار ، وآذانى حرُّ الشمس وعَطِشْتُ وفرغتُ من البيوت ، وذهبتُ لأنصرفَ حانتْ منى التفاتةٌ فإذا بثلاثة أبيات فقلت : ما عند هؤلاء إلّا ما عند غيرهم ، ثم قلت لنفسى : سوءةً ! وَثِقَ بى رجلٌ وزعم أن حاجتَه تعدِلُ مالى ، ثم آتيه فأقول : عَجَزْتُ عن ثلاثة أبياتٍ !

---

(١) تنشدهم : تناديهم وتسألهم عنها، والبكرة: الفتية من الإبل ، والآدم من الإبل : الأبيض .
(٢) السمة : العلامة، وغفلا من السمة: أى ليست فيها علامة. (٣) الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى .

فانصرفتُ عائداً إلى أعظمِها بيتاً ، فإذا هو قد أُرْخِىَ مُؤَخَّرُه ومقدّمُه ، فسلمتُ فرُدَّ علىَّ السلام ، وذكرت ضالّتى ، فقالت جارية منهم : ياعبدَ الله ؛ قد أصبتَ ضالَّتك ، وما أظنُّك إلّا قد اشتدَّ عليك الحرّ ، واشتهيتَ الشراب ؛ قلت : أجلْ ؛ قالت : ادخل ؛ فدخلتُ ؛ فأتتنى بصَحْفَةٍ فيها تَمْرٌ من تَمْرِ هَجَر(١) وقَدَح فيه لبن ، والصحْفَةُ مصرية مُفَضَّضَة ، والقَدَحُ مُفَضَّضٌ لم أر إناء قطُّ أحسنَ منه ، فقالت : دونك . فتجمّعْتُ وشربتُ من اللبن حتى رَوِيتُ ، ثم قلتُ : يا أمةَ الله ؛ والله ما أتيتُ اليومَ أكرمَ منك ولا أحق بالفضل ؛ فهل ذكرتِ من ضالّتى شيئا ؟ فقالت : هل ترى هذه الشجرة فوق الشَّرَف(٢) ؟ قلت : نعم ؛ قالت : فإنّ الشمس غرَبت أمس وهى تُطِيفُ حولها ، ثم حال الليلُ بينى وبينها ؛ فقمتُ وجزيتُها الخيرَ ، وقلت : والله لقد تغدّيتُ ورَوِيتُ .

فخرجتُ حتى أتيتُ الشجرةَ فأطَفْتُ بها ، فوالله ما رأيتُ من أثر ؛ فأتيت صاحبى فإذا هو متَّشِحٌ فى الإبلِ بكسائه ورافعٌ عَقِيرته(٣) يغنِّى . قلت : السلام عليك . قال : وعليك السلام ، ما وراءك ؟ قلت : ما ورائى من شىء ؛ قال : لا عليك ! فأخبرنى بما فعلتَ ، فاقتَصَصْتُ عليه القصةَ حتى انتهيتُ إلى ذِكْر المرأة وأخبرته بالذى صَنَعتْ ؛ فقال: قد أصبْتَ طَلِبَتَك ؛ فعجبتُ من قوله وأنا لم أجِدْ شيئاً .

---

(١) هجر : بلد باليمن مشهورة بالتمر . (٢) الشرف : المكان العالى . (٣) عقيرة الرجل : صوته إذا غنى أو بكى .

ثم سألنى عن صِفَةِ الإناءين : الصَّحْفةِ والقدَح ؛ فوصفتهما له ، فتنفَّس الصُّعَداء وقال : قد أصبتَ طلبتك ، ويْحَك ! ثم ذكرتُ له الشجرةَ وأنها رأتها تُطيف بها ، فقال : حَسْبُك ! فمكثتُ حتى أوَتْ إبلى إلى مباركها ودعوتُه إلى العَشاء فلم يدْنُ منه ، وجلس منى بمزْجَر(١) الكلب .

فلما ظنَّ أنى قد نمتُ رَمَقْتُه ، فقام إلى عَيْبَة(٢) له ، فاستخرج منها بُرْدَين فأتزَر بأحدهما وتردَّى بالآخر ، ثم انطلق عامِداً نحو الشجرة . واستبطنتُ الوادىَ فجعلت أُخْفِى نفسى ، حتى إذا خِفْتُ أن يرانى انبطحتُ ؛ فلم أزَلْ كذلك حتى سَبَقْتُه إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة ، بحيث أسمعُ كلامَهما ، فاستترتُ بهنّ ، وإذا صاحبتُه عند الشجرة ، فأقبل حتى كانَ منها غير بعيد ، فقالت: اجلس؛ فوالله لكأنه لَصِق بالأرض ، فسلّم عليها وسألها عن حالها أكرمَ سؤال ، وأبعدَه عن كلِّ ريبة ، وسألته مثل مسألته ؛ ثم أمرَت جارية معها ، فقرَّبَتْ إليه طعاما ، فلما أكل وفرغ ، قالت : أنشدنى ما قلت ، فأنشدها :

عِلقتُ الهوَى منها وليداً فلم يزَلْ ... إلى اليوم ينْمِى حبُّهـا ويزيدُ

ثم لم يزالا يتحدّثان ، ما يقولان فُحْشاً ولا هُجْراً ، حتى التفتت التفاتة ، فنظرت إلى الصبح ، فودّع كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه أحسنَ وداع ما سمعت به قطّ ، ثم انصرفا .

فقمت فمضيتُ إلى إبلى ، فاضْطَجَعْتُ ، وكلّ واحدٍ منهما يمشى خطوة ثم يلتفت إلى صاحبه ، فجاء بعد ما أَصْبَحْنا فرفع بُرْدَيه ثم قال : يا أخا بنى تميم ؛ حتى متى

---

(١) أى جلس بعيداً . (٢) العيبة : وعاء من جلد يكون فيه المتاع .

تنام ! فقمتُ وتوضأت وصليت، وحلبتُ إبلى ، وأعانني عليها ، وهو أظهرُ الناس سروراً ، ثم دعوته إلى الغداء فتغدّى ؛ ثم قام إلى عَيْبَتِه فافتتحها فإذا فيها سِلاح وبُرْدَان مما كسته الملوك ، فأعطانى أحدهما وقال : أمَا والله لو كان معى شىء ما ذَخَرْتُه عنك ، وحدَّثنى حديثَه وانتسب لى،فإذا هو جميلُ بن مَعْمَر والمرأة بُثينة، وقال لى : إنى قلت أبياتاً فى مُنصرَ فى من عندها،فهل لك إن رأيتها أن تُنشِدها؟ قلت : نعم ؛ فأنشَدَنى :

وما أنس مِ الأشياء لا أنسَ قولها ... وقد قرَّبَتْ نِضْوِى : أمصرَ تُريدُ

ولا قولَها لولا العيونُ التى تَرى ... أتيتُكَ فاعذِرنى فدَتْكَ جُدُودُ

خليلىَّ ما أُخْفِى من الوَجْد باطِنٌ ... ودَمْعِى بما قلتُ الغداةَ شهيدُ

يقولون : جاهدْ يا جميلُ بغزْوَةٍ ... وأى جهادٍ غيرهن أريدُ

لكلِّ حديثٍ عندهن بشاشة ... وكل قتيلٍ بينهن شَهِيد

ثم ودّعنى وانصرف .

فمكثتُ حتى أخذَتِ الإبلُ مراتعها ، ثم عَمَدْتُ إلى دُهن كان معى فدَهنتُ به رأسى ، ثم ارتديتُ بالبُرْد وأتيت المرأة ، فقلت : السلام عليكم ؛إنى جئت أمس طالباً واليوم زائراً ، أفتأذنون ؟ قالت : نعم ، فسمعت جُوَيْرِيَةً تقول لها: يا بُثينة؛ عليه والله بُرْد جميل ، فجعلت أُثْنى على ضيفى وأذْكر فضله ، وقلت : إنه ذكركِ فأحسَن الذكر ، فهل أنت بارزةٌ حتى أنظُرَ إليك ؟ قالت : نعم ، فلبستْ ثيابها ثم برزَتْ ودعَتْ لى بطُرَف ، ثم قالت : يا أخا بنى تميم ،والله ماثو باك هذان بمشْتَبِهين ودعَتْ بِعَيْبَتِها ، فأخرجت لى مِلْحفة[1] مرْوِيَّة مُشْبَعَةً من العصفر ، ثم قالت :

---

(١) الملحفة : اللباس الذى فوق اللباس من دثار البرد ونحوه ، ومروية : نسبة إلى مرو .

أقسمت عليك لتقومَنَّ إلى كِسْرِ البيت ولتَخلَعَنَّ مِدْرَعَتَك(١) ، ثم لتَأْتَزِرَنَّ بهذه الملحفة، فهى أشبه بِبُرْدِك ، ففعلتُ ذلك ؛ وأخذت مِدْرَعتى بيدى؛ فجعلتُها إلى جانبى، وأنشدتها الأبيات ؛ فدمعتْ ، وتحدثنا طويلًا من النهار ، ثم انصرفتُ إلى إبلى بملْحَفَة بُثينة وبُرْدِ جميل ونَظْرَةٍ من بثينة .

قال معبد : فجزيتُ الشيخ خيراً ، وانصرفت من عنده وأنا والله أحسنُ الناس حالًا بِنَظْرَةٍ من الغَرِيض واستماعٍ لغنائه وعلمٍ بحديث جميل وبثينة فيما غنيتُ أنا به ، وفيما غنَّى به الغَرِيض على حقٍّ ذلك وصدقه ؛ فما رأيتُ ولا سمعتُ بزوجين قطّ أحسن من جميل وبثينة ، ومن الغريض ومنّى .

---

(١) المدرعة : نوع من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف .

٦٢ — عِتاب بين بُثَيْنَة وجَمِيل*

لقى جميلٌ بُثَينه بعد تهاجُر(١) كان بينهما طالتْ مُدته، فتعاتبا طويلًا ؛ فقالت له : وَيْحَكَ يا جميل ! أتزعمُ أنك تَهوانى وأنت الذى تقول :

رَمى اللهُ فى عَيْنَىْ بُثينـةَ بالقَذَى ... وفى الغُرِّ من أنْيَابِهَا بالقَوادِحِ(٢)

فأطْرَق طويلًا يبْـكى، ثم قال : بل أنا القائل :

ألا لَيْتَنى أعْمَى أصمُّ تَقُودنى ... بُثَيْنَةَ لا يَخْـفى علىّ كلامُها

فقالت له : وَيْحك ! ما حَمَلك على هـذه المُنَى ! أوليسَ فى سَعة العافيـة ما كفانا جميعاً !

---

* الأغانى : ٨ ـ ١٠٤

(١) التهاجر : التقاطع . (٢) القوادح : سواد يظهر فى الأسنان .

٦٣ — يتذاكران الشعرَ والهوَى*

التقى جميلٌ وكثيّر فتذاكَرا النسيب؛ فقال كثيّر: يا جميل؛ أترَى بُثَيْنَةَ لم تَسْمع بقولك:

يقيك جميلٌ كلَّ سوء، أما لَهُ | لديكِ حديثٌ أو إليكِ رسولُ
وقد قلتُ في حبِّي لكم وصَبَابتِي | محاسِنَ شعرٍ ذِكْرُهُن يطُولُ
فإنْ لم يكنْ قوْلِي رضاكِ فعلّمِي | هُبوبَ الصَّبَا يا بَثْنُ كيف أقولُ
فما غاب عن عَيْنِي خيالُكِ لحظةً | ولا زالَ عنها، والخيالُ يزُولُ

فقال جميل: أترى عزّة يا كثيّر لم تسمعْ بقولك:

يقولُ العِدا: يا عزُّ قد حال دونكمْ | شُجاعٌ على ظَهْرِ الطريق مصمّمٌ(١)
فقلتُ لها: واللهِ لو كان دونكم | جهنّمُ ما راعتْ فؤادِي جهنّمُ
وكيف يَرُوع القلبَ يا عزّ رائع | ووجهُكِ في الظلماء للسَّفْرِ مَعْلَمُ
وما ظلمتكِ النفس يا عزُّ في الهوى | فلا تنقمِى حُبِّي فما فيه مَنْقَمُ

فبَكَيَا قطعةً من الليل، ثم انصرفا.

---

* الأغانى: ٨ — ٩٠٩

(١) يقال للضارب بالسيف إذا أصاب العظم فأنفذ الضريبة: قد صمم، فهو مصمم.

٦٤ — لا أزالُ أبْكِيه إلى المَمات*

حدَّثَتْ بُثَيْنَةُ ـ وكانت صدوقةَ اللسان، جميلةَ الوَجْه، حسنةَ البيان، عفيفة ـ قالت: والله ما أرادَنى جميل ـ رحمة الله عليه ـ بريبةٍ قَطُّ، ولا حدَّثتُ أنا نفسى بذلك منه، وإن الحىَّ انتجَعُوا موضعاً، وإنى لفى هَوْدَجٍ لى أسيرُ إذا أنا بهاتِفٍ يُنْشِد أبياتاً.

فلم أتَمالَكْ أنْ رميتُ بنفسى، وأهلُ الحىّ ينظرون، فبقيتُ أطلب المُنْشِد فلم أقف عليه، فناديت: أيها الهاتفُ بشعرِ جميل، ما وراءكَ منه! وإنى أحْسَبه قد قضى نَحْبَه ومضى لسبيله ـ فلم يجبنى مُجيب، فناديتُ ثلاثاً، وفى كل ذلك لا يردّ علىّ أحـدٌ شيئاً، فقالت صَواحِباتى: أصابك يا بُثَيْنَةُ طائفٌ من الشيطان! فقلت: كلّا، لقـد سمعتُ قائلًا يقول! قلن: نحن معكِ ولم نَسْمَعْ، فرجعْتُ فركبت مَطِيَّتِى وأنا حَيْرَى، والهةُ العقل، كاسفةُ البال.

ثم سرنا، فلما كان فى الليل سمعتُ ذلك الهاتفَ يهْتِفِ بذلك الشعر بعينِه، فرميتُ بنفسى، وسعيتُ إلى الصوت؛ فلما قَرُبْتُ منه انقطع؛ فقلت: أيها الهاتف! ارْحَمْ حَيْرَتى، وسَـكِّنْ عَبْرَتى بخبر هذه الأبيات؛ فإن لها شأناً! فلم يرُدَّ علىّ شيئاً!

فرجعتُ إلى رَحْلى فركِبْتُ وسِرْتُ وأنا ذاهبةُ العقـل، وفى كل ذلك لا تخبرنى صَواحِباتى أنهن سَمِعْنَ شيئاً.

---

* الأغانى: ٨ ـ ٢٠٢

فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحىُّ مضاجِعَهم ونامت كلُّ عين ، فإذا الهاتفُ يهتِف بى ويقولُ : يا بثينة ؛ أقبلى إلىَّ أنبئك عمَّا تريدين ، فأقبلتُ نحو الصوتِ ؛ فإذا شيخٌ كأنه من رجال الحىّ ؛ فسألته عن اسمه وبيَتْه ، فقال : دَعِى هذا ، وخُذِى فيما هو أهمُّ عليك ، فقلت له : وإن هذا لما يهمُّنى . قال : اقنعى بما قلت لك . فقلت له : أنْتَ المنشد الأبيات ؟ قال : نعم . قلت : فما خَبَر جميـل ؟ قال : نعم ! فارقتُه وقد قَضَى نَحْبَه ، وصار إلى حُفْرَته ـ رحمة الله عليه .

فصرخت صرخةً آذيتُ منها الحىّ ، وسقطتُ لوجْهِى ؛ فأُغمِى على ، فكأنَّ صوتى لم يَسْمَعْهُ أحد ، وبقيتُ سائرَ ليلتى ، ثم أفقْتُ عند طلوع الفجر ، وأهلى يطلبوننى فلا يَقِفون على موضعى ، ورفعتُ صوتِى بالعويل والبكاء ورجعتُ إلى مكانى ، فقال لى أهلى : ما خَبَرُكِ ؟ وما شأنك ؟ فقَصَصْتُ عليهم القصة ، فقالوا: يَرْحَمُ اللهُ جميلًا ، واجتمع نساء الحى وأنشدْتُهنَّ الأبيات فأسْعَدْنَنِى بالبكاء(١) ، فلم نزَلْ كذلك لا يفارقننى ثلاثاً ، وتحزّن الرجالُ أيضاً ، وبكَوْا ورثَوْه ، وقالوا كلهم : يرحمه الله ! فإنه كان عفيفاً صدوقاً .

فلم أكتحل بعده بإثمد(٢) ، ولا فرَقْتُ رأسى بخيط ولا مُشْط ولا دَهَنْته إلا من صُدَاعٍ خِفْت على بصرى منه ، ولا لبست خِماراً مصبوغاً ولا إزاراً ، ولا أزالُ كذلك أبْكِيه إلى الممات !

---

(١) بكين معى .
(٢) الإثمد : حجر يكتحل به .

٦٥ — فحىٍّ وَيْحكَ مَنْ حيَّاكَ ياجَمَلُ*

أراد زوجُ عزّةَ أنْ يحجّ بها ؛ فسمع كُثَيِّرٌ الخبر ؛ فقال : والله لأحجنّ ، لعلّى أفوزُ مِنْ عزّة بنظْرَة .

فبينما الناس فى الطَّوَاف ، إذ نظر كُثيّر عزّةَ ، وقد مضت إلى جمله ، فحيّته ، ومسحتْ بين عينيه ، وقالت : حُيِّيتَ يا جملُ . فبادر ليلْحَقَها ، ففاتته فوقف على الجمل وقال :

حَيَّتْكَ عزّةُ بعـد الحج وانصرفتْ فحىٍّ ويْحَكَ مَنْ حَيَّاكَ ياجملُ
لو كنت حَيَّيْتَها مازلْتَ ذا مِقَةٍ(١) عندى ولامَسّكَ الإدلاَجُ(٢) والعمَلُ
ليت التحيةَ كانت لى فأشكرَها مكانَ ياجملٌ حُيِّيتَ يا رجلُ

فسمعه الفرزدق ، فتبسم ؛ وقال له : مَنْ تكونُ يرحمكَ الله ! قال : أنا كثيّر عزة . فمن أنت يرحمـك الله ! قال : أنا الفرزدق بن غالب التميمى ! قال : أنت القائل :

رحلَتْ جِمَالهُمُ بكلِّ أسِيلَةٍ(٣) تركتْ فؤادكَ هائماً مخبولا
لو كنت أملكهم إذا لم يرحلوا حتى أودعَ قلبى المتبُولا(٤) !
ساروُا بقلبى فى الحُدُوجِ(٥) وغادرُوا جسمى يعالج زَفْرَةً وعويلا

---

* المستطرف : ٢ : ١٧٩

(١) المقة : المحبة . (٢) أدلج : سار من أول الليل . (٣) أسيل الخد : لين الخد طويله.
(٤) المتبول : الذاهب . (٥) الحدوج : جمع حدج ، وهو مركب للنساء كالمحفة .

فقال الفرزدق : نعم . فقال كُثَيِّر : والله لولا أنّى فى البيت الحرام لأصيحنَّ صيحةً أُفْزِعُ هشام بن عبد الملك ، وهو على سريرِ مُلْكِه ؛ فقال الفرزدق : والله لأُعَرِّفَنَّ بذلك هشاماً .

ثم تَوادعا وافْترقا .

ولما وصل الفرزدقُ إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك ، فعرّفه بما اتفق له مع كثيّر ، فقال له : اكتبْ إليه بالحضور عندنا لنطلّق عَزَّةَ من زوجها ونزوّجَه إياها ، فكتب إليه بذلك .

فخرج كثيّر يريد دمشق ، فلما خرج مِنْ حيِّه وسار قليلا رأى غراباً على بانَةٍ[1] ، وهو يفلّى نفسه ، وريشُه يتساقط ؛ فاصفرّ لونُه ، وارتاع من ذلك وجَدَّ فى السير ، ثم إنه مال ليسقىَ راحلته من حىّ بنى نَهْد[2] — وهم زَجَرَةُ الطير — فبَصُر بِهِ شيخٌ من الحىّ ، فقال : يا بنَ أخى ؛ أرأيتَ فى طريقك شيئاً فَرَاعَك ؟ فقال : نَعم ياعمّ ، رأيت غُرَاباً يتفلّى وينْتِفُ ريشَه ، فقال له الشيخ : أما الغرابُ فإنه اغتراب ، والبانة فرقة !

فازداد كثيّر حزناً على حُزْنه ، لِمَا سمع من كلام الشيخ ، وجدَّ فى السير ، إلى أنْ وصلَ إلى دمشق ، ودخل من أحدِ أبوابها ، فرأى الناس يصلُّون على جنازة ، فنزل وصلَّى معهم ؛ فلما قُضيت الصلاة صاح صائح : لا إله إلا الله ! ما أغفلَك يا كثيِّر عَنْ هذا اليوم ! فقال له كُثَيِّر : ما هذا اليوم ؟ فقال : إن هذه عزة قد ماتَت وهذه جنازتها !

---

(١) البان : شجر .

(٢) نهد : قبيلة باليمن ، وهناك رواية أخرى لهذه القصة ، وفيها أنه قدم على حى من « لهب » (انظر : ١ — ١٣٦ من هذا الكتاب ، والأغانى : ص ٣٤ ج ٩) .

فخرّ مغشيًّا عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

فما أعرَف النَّهدىّ ! لادرّ درُّه ! وأزْجَرَه للطـير لا عزّ ناصرَه

رأيتُ غرابًا قد عَـلَا فوقَ بانةٍ يُنَتِّفُ أعلى ريشِهِ ويُطَايِره

فقال : غُرَابُ اغترابٍ من النوى وبانةُ بَيْنٍ من حبيب تُعاشره

ثم شَهَقَ شَهْقَةً فارقت رُوحُهُ الدنيا ، ومات من ساعته ودُفِن مع عزّةَ في يوم واحد .

٦٦ — إلى الخلوات يأنس فيكِ قلبي*

قال يونس الكاتب :

كنّا يوماً مُتَنَزِّهِين بالعَقِيق أنا وجماعةٌ من قُرَيش ، فبينا نحن على حالنا إذ أقبل ابنُ عائشة[1] يمشي وَمعهُ غلامٌ من بني لَيْث ، وهو متوكِّئٌ على يده ، فلما رأى جماعتَنا وسَمِعَنِي أُغَنِّي جاءنا فسلّم ، وجلس إلينا ، وتحدَّث معنا ، وكانت الجماعةُ تعرِفُ سوء خُلُقه وغضَبَه إذا سُئِل أنْ يُغني ، فأقبل بعضهم على بعض يتحدّثون بأحاديثِ كُثيِّر وجميل وغيرهما من الشعراء ، يَستجرُّون بذلك أن يَطْرَبَ فيُغَنِّي ، فلم يجدوا عنده ما أرادوا .

فقلت لهم : لقد حدَّثني اليوم بعضُ الأعراب حديثاً يأكلُ الأحاديث ، فإنْ شئتم حدَّثتكم إياه ؛ قالوا : هاتِ ، قلت : حدَّثني هذا الرجل أنه مرّ بناحية الرَّبَذَة[2] فإذا صِبيَان يتَغَاطَسُون في غدير ، وإذا شابٌ جميل منهوك الجسم ، عليه أثَرُ العِلة والنُّحُولُ في جسمِهِ بَيِّن ، وهو جالسٌ ينظر إليهم ، فسلمتُ عليه فردَّ عليَّ السلام وقال : من أين وَضَح[3] الراكب ؟ قلت : من الحَيّ ، قال : ومتى عهدُك به ؟ قلت : رائحاً ، قال : وأين كان مَبِيتك ؟ قلت : بِبَنِي فلان ،

---

* سمط اللآلي : ١ — ١٥٢ ، ٢ — ٢٣٢ ، الأمالي : ٣٨

(١) هو محمد بن عائشة ، يكنى أبا جعفر ، ولم يكن يعرف له أب ، فكان ينسب إلى أمه ، وكان حسن الغناء ، عالماً بفنه ، طريف المجلس ، طيب الحديث على سوء في خلقه ، وتيه في طبعه ، توفي نحو سنة ١٠٠ هـ . (٢) الربذة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة . (٣) أي من أين بدا وطلع .

فقال : أوّهْ ! وألقى بنفسه على ظهره ، وتنفس الصُّعَداء فقلت : إنه قد خرق حجابَ قلبه ، ثم أنشأ يقول:

سقَى بلداً أمستْ سُلَيْمَى تَحُلُّه   من المُزْنِ ما يَرْوَى به ويَسِيمُ[(١)]
وإن لم أكُنْ من قاطنيــه فإنه   يَحُـلّ به شخصٌ علىّ كريمُ
ألا حَبَّذَا مَنْ ليس يَعْدِلُ قُرْبَهُ   لَدَىَّ - وإن شطَّ المَزارُ - نَعيمُ
ومَنْ لامَني فيـه حميم وصاحبٌ   فَرُدَّ بغَيْــظٍ صاحبٌ وحميمٌ

ثم سكن كالمغشيّ عليه ، فصِحتُ بالصِّبْية ، فأتوا بماء ، فصَبَبْتُه على وجهه ؛ فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصَّبُّ الغريبُ رأى خُشوعى   وأنفــاسى تَزَيَّن بالخشوعِ
ولى عينٌ أضَرَّ بهــا التِفاتى   إلى الأجْزَاع[(٢)] مُطْلَقةَ الدموعِ
إلى الخَـلَوَاتِ يأْنَسُ فيكِ قلبى   كما أنِسَ الغريبُ إلى الجميــعِ

فقلتُ له : ألا أنزلُ فأساعدَك ، أو أكُرّ عَوْدى على بدْئى إلى الحِمى إن كانتْ لك فيه حاجة أو رسالة ؟ فقال : جُزِيتَ خيراً وصَحِبَتْك السلامة ! امْضِ لِطِيَّتِك[(٣)] ، فلو أنى علمتُ أنك تُغْنى عنى شيئاً لكنتَ موضعاً للرَّغبة وحقيقاً بإسعاف المسألة ، ولكنك أدركتنى فى صُبابة من حياتى يسيرة ، فانصرفتُ وأنا لا أراه يُمسى ليلته إلّا ميتاً .

فقال القوم : ما أعجبَ هـذا الحديث ! واندفعَ ابنُ عائشة فتغنى فى الشِّعْرَيْن جميعاً ، وطرب وشرب بقيةَ يومه ، ولم يزل يغنينا إلى أن انصرفنا .

---

(١) يسيم : يكون صالحاً للإسامة بما يكون من خصب وكلأ . (٢) الأجزاع جمع جزع : وهو جانب الوادى ومنعطفه . (٣) لطيتك : لوجهتك .

٦٧ — من لم يُقيِّد جوارِحَه أتعب قلبه !*

حجّ عبد الملك بن مرْوَان، وحجّ معه خالد(١) بن يزيد بن معاوية ـ وكان من رجالاتِ قريش المعدودين وعلمائهم، عظيمَ القدر، جليلَ المنزلة، مهيب المجلس، موقَّراً مُعَظَّماً عند عبد الملك، فبينما هو يطوفُ بالبيت إذ بَصُر برملةَ بنت الزبير ابن العوّام. فعشقها عِشقاً شديداً، وأخذت بجميع قلبه، وتغيَّر عليه الحال، ولم يملِكْ من أمره شيئاً، فلما أراد عبد الملك القُفُول همَّ خالد بالتخلُّفِ عنه، فبعث إليه فسأله عن أمره، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ رَمْلَة بنت الزبير رأيتُها تطوفُ بالبيتِ، فأذْهَلَتْ عقلي! فوالله ما أبديتُ لك ما بي إلا حين عِيلَ صبري، ولقد عرَضْتُ النومَ على عيني فلم تقبَله، والسلوَّ على قلبي فامتنع منه.

فأطال عبد الملك التعجُّب من ذلك، وقال: ما كنتُ أقول: إنّ الهوى يَسْتأْسِرُ مثلَك، فقال خالد: وإنّي لأشدُّ تعجباً من تعجبك مني، فلقد كنتُ أقول: إن الهوى لا يتمكَّنُ إلا من صِنْفَينِ من الناس: الأعراب والشعراء، أما الشعراء فإنهم ألزَمُوا قلوبَهم الفكر في النساء والغزل، فمال طبعُهم إلى النساء، فضعُفَتْ قلوبُهم عن دفع الهوى، فاستسلموا له مُنْقَادين. وأما الأعراب فإنّ أحدَهُم يخلو بامرأة فلا يكون الغالبُ عنده إلا حبَّه لها.

وجملةُ أمري: أني ما رأيتُ نظرةً حسَّنَتْ عندي ركوبَ الإثم مثل نظرتي هذه.

---

* محاضرات الأبرار: ٢ ـ ٢٦، الأغاني: ١٦ ـ ٨٥

(١) هو خالد بن يزيد كان من رجالات قريش سخاء وعارضة وفصاحة، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء، فأفنى بذلك عمره، وأخمل ذكره، توفي سنة ٨٥ هـ.

فتبسم عبد الملك وقال : أو كلُّ هذا بَلَغَ بك ؟ فقال : والله ما عرفت هذه البليَّة قبل وَقتى هذا .

فوجّه عبدُ الملك إلى آل الزبير يخطب رَمْلَة على خالد ، فذكروا لها ذلك ، فقالت : لا والله أو يُطَلِّقَ نساءه ، فطلّق امرأتين كانتا عنده ، وتزوجها وظَعن بها إلى الشام ، وفيها يقول :

أليس يزيد السَّيْرُ فى كلِّ ليلة ... وفى كلِّ يومٍ من أحبّتِنا قُرْبا
أحِنُّ إلى بنتِ الزبير وقد عدَتْ ... بنا العِيسُ خَرْقاً(١) من تِهامَةَ أو نَقْبا(٢)
إذا نزلتْ أرضاً تُحَبِّبُ أهلَها ... إلينا وإن كانت منازِلُها حَرْبا
وإن نزلَتْ ماءً وإنْ كان قبلها ... مَليحاً(٣) وجدنا ماءهُ باردا عَذْبا
تَجُولُ خلاخيلُ النساء ولا أرى ... لِرَمْلَةَ خلخالا يجولُ ولا قُلْبا(٤)
أقِلّوا علىَّ اللومَ فيها فإننى ... تخيَّرْتُها منهم زبيريَّةً قَلْبا(٥)
أحِبُّ بنى العوام طُرّاً لحبِّها ... ومِنْ حبِّها أحببتُ أخوالها كَلْبا

فلما وقف عبد الملك على هذه الأبيات نظم بيتاً ودسَّه ليكيد به خالداً ؛ لأنه كان يروم الخلافة كأبيه يزيد وجدِّه معاوية ، فقال عبد الملك : يا خالد ؛ أنت القائل :

فإن تُسْلِمِى أُسلم وإن تتَنَصَّرى ... تخطّ رجالٌ بين أعينهم صلبا !

فقال خالد : لعن الله قائله ! فخَجِل عبد الملك ولام نفسه .

---

(١) الخرق : الفلاة الواسعة . (٢) النقب : الطريق فى الجبل . (٣) المليح : الملح ، ضد العذب . (٤) القلب : سوار المرأة ، يريد أن ساقها مليئة ، ويدها عبلة ، فلا سبيل إلى الجول .
(٥) فلها صفات النساء الحسان ، كما سبق ، ولها قلب كقلوب آل الزبير طهارة ، وحفاظ عهد .

٦٨ — غداً يكثر الباكون مِنّا ومِنْكم*

قال أبو رَيحانة حاجب عبد الملك[1] بن مروان : كان عبد الملك يجلس فى كل أسبوع يومين جلوساً عامًّا للناس ؛ فبينا هو جالس فى مُسْتَشْرَفٍ[2] له ، وقد أُدْخِلَتْ عليه القِصَص إذ وقعت فى يده قصةٌ ، فيها : « إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمرَ جاريتَه فلانة أن تغنّينى ثلاثة أصوات ، ثم يُنْفِذَ فىّ ما شاء من حكمه فعل ! »

فاسْتَشَاطَ من ذلك غضبا ، وقال : يارَبَاح ؛ علىَّ بصاحبِ هذه القصة ! فخرج الناس جميعاً ، وأُدْخِل عليه غلامٌ من أجمل الفِتْيَان وأحسنهم ، فقال له عبد الملك : ياغلام ؛ أهذه قِصَّتُك ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وما الذى غرَّك منى ، والله لأمثِّلَنَّ بك ! ولأرْدَعَنَّ بك نُظَرَاءك من أهل الجَسارَة ! ثم قال: علىّ بالجارية ، فجىء بها كأنها فِلْقَة قمر ! وبيدها عودُها فطُرِح لها الكرسى ، فجلست ، فقال عبد الملك : مُرْها ياغلام ؛ فقال لها : غَنِّينى ياجارية بشعر قيس ابن ذَرِيح :

لقد كنتِ حَسْبَ النفس ،لو دام وُدُّنا ؛ ولكنما الدنيا متاعُ غرورِ !
وكنَّا جميعاً قبل أن يَظْهَرَ الهوى بأنعمِ حالَىْ غبطةٍ وسُرُورِ
فما بَرِحَ الواشُون حتى بَدَتْ لنا بطونُ الهوى مقلوبةً لِظُهُورِ

* مصارع العشاق : ٢٥٣ ، نهاية الأرب ٢ — ١٦٠

(١) عبد الملك بن مروان : من أعاظم الخلفاء ، نشأ فى المدينة فقيهاً واسع العلم وتوفى سنة ٨٦ هـ.

(٢) استشرف الشىء : رفع بصره إليه ، والمكان مستشرف ، والمراد مجلسه العالى .

فغنّت ، فخرج الغلامُ بجميع ما كان عليـــه من الثياب تخريقاً ، ثم قال له عبد الملك : مُرْها تُغَنِّكَ الصوتَ الثانى ، فقال : غَنِّينى بشعر جميل :

ألا ليتَ شعرى ! هل أبيتنَّ ليلةً بوادِى القُرى ؟ إنّى إذَنْ لسعيد !
إذا قلتُ : ما بى يا بُثَيْنَة قاتِلى من الحب ! قالت : ثابتٌ ويزيدُ
وإنْ قُلْتُ: رُدّى بعضَ عقلى أعِشْ به مع الناسِ ! قالت : ذاكَ منك بعيدُ !
فلا أنا مردودٌ بمـــا جئتُ طالباً ولا حبُّها فيما يَبِيـــدُ يَبِيدُ
يموتُ الهوَى منّى إذا ما لقيتُها ، ويحيا إذا فارقتُهـــا فيعودُ

فغنّته الجاريةُ ؛ فسقط الغلامُ مغشيًّا عليه ساعة ، ثم أفاق ؛ فقال له عبد الملك : مُرْها فلتغنّك الصوت الثالث ؛ فقال : ياجارية ؛ غنّينى بشعر قيس بن الملوّح :

وفى الجيرةِ الغادِينَ من بطْنِ وجْرَةٍ[(١)] غَزالٌ غَضيضُ المُقْلَتَيْنِ رَبيبُ
فلا تَحْسَبِى أنّ الغريبَ الذى نَأَى ولـكنَّ مَنْ تنأَيْنَ عنه غريبُ !

فغنّته الجاريةُ ، فطَرَح الغلام نفسَهُ من المُستشرَف ، فلم يصل إلى الأرض حتى تَقَطَّع ؛ فقال عبد الملك : وَيْحَهُ ! لقد عجَّل على نفسه ! ولقد كان تقديرى فيه غيرَ الذى فعَلَ ! وأمر فأُخْرِجت الجارية من قصره ؛ ثم سأل عن الغلام ؛ فقالوا : غريب لايُعْرَف إلا أنه منذ ثلاث ينادى فى الأسواق ويَدُه على رأسه :

غداً يكثر الباكون منّا ومنكم وتزدادُ دارى من ديارِكم بُعْدا !

---

(١) وجرة : موضع بين مكة والبصرة .

٦٩ — وذو الشوقِ القديم وإن تعزّى
مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى العاشقينا*

بينا عُمَر[1] بن أبى ربيعة يطوفُ بالبيت فى حالِ نُسُكه — وكان قد حلف ألَّا يقول بيت شعر إلا أعتق رَقبة — فإذا هو بشابٍّ قد دنا من شابة ظاهرة الجمال فألقى إليها كلاماً ، فقال له عمر : يا عدوّ الله ؛ فى بلد الله الحرام وعند بيته تصنعُ هذا ! فقال : ياعمّاه ؛ إنها ابنةُ عمى ، وأَحبُّ الناس إلىَّ ؛ وإنى عندها لكذلك ، وما كان بينى وبينها من سوء قط أكثر مما رأيتَ ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا فلان ابن فلان ، قال : أفلا تتزوَّجُها ؟ قال : أَبَى علىَّ أبوها . قال : ولِمَ ؟ قال : يقول : ليس لك مال ؛ فقال : انصرف والْقَنِى .

فَلَقِيه بعد ذلك ، فدعا ببَغْلَتِه فركبها ؛ ثم أتى عمَّ الفتى فى منزله فخرج إليه ، وفرح بمجيئه ، ورحَّب وقرَّب ، ثم قال : ما حاجتُك يا أبا الخطاب ؟ قال : لم أرك منذ أيام فاشْتَقْتُ إليك ! قال : فانزل . فأنزله وألْطَفَه[2] ، فقال له عُمر فى بعض حديثه : إنى رأيتُ ابنَ أخيك فأعجبنى ما رأيتُ من جماله وشبَابه ، قال له : أجَل ! ما يغيبُ عنك أفضلُ مما رأيت ؛ قال : فهل لك من ولد ؟ قال : لا ، إلا

---

* الأغانى : ١ — ١٤٥ ، المحاسن والأضداد : ٣٥٩ ، العقد الفريد : ١ — ٩

(١) كان عمر بن أبى ربيعة أشعر قريش ، ولكنه اختص فى شعره بوصف النساء ، ولم يصف سواهن ، وله فى التشبيب طريقة عرفت باسمه سلكها الشعراء ، وشبب بكثيرات من النساء ، توفى سنة ٩٣ هـ . (٢) ألطفه : بره .

فلانة . قال : فما يمنعك أن تزَوَّجَه إياها ؟ قال : إنه لا مال له ، قال : فإن لم يكن له مال فلك مالٌ ، قال : فإني أضِنٌّ به عنه . قال : لكني لا أضِنُّ به عنه ، فزوِّجْه واحتَكِمْ ، قال : مائة دينار ، قال : نعم ! فدفعها عنه ، وتزوَّجها الفتى .

وانصرف عمرُ إلى منزله ، فقامت إليه جاريةٌ من جواريه ، فأخذت رِداءه ، وألقى بنفسه على الفِراش وجعل يتقلَّب ، فأتته بطعام فلم يتعرَّضْ له ؛ فقالت له : إنّ لكَ لأمراً ، وأراك تريد أن تقولَ شعراً ، فقال : هاتى الدواة فكتب :

تقول وَليدَتى لمَّا رأتْنى ... طربتُ[١] وكنت قد أقصَرْتُ[٢] حيناً
أراكَ اليومَ قد أحدَثْتَ شوقاً ... وهاج لك الهوَى داء دَفينا
وكنتَ زعمتَ أنك ذو عَزَاء ... إذا ما شئت فارقْتَ القَرِينا
بربّك هل أتاكَ لها رسولٌ ... فشاقَك أم لقيتَ لها خَدِينا[٣] ؟
فقلت : شكا إلىّ أخٌ مِحبٌّ ... كبعضِ زمانِنا إذ تَعلَمِينا
فقصّ علىّ ما يَلْقى بهندٍ ... فذكّر بعضَ ما كنّا نَسِينا
وذو الشوقِ القديم وإن تعزَّى ... مَشُوقٌ حين يَلْقى العاشقينا
وكم من خُلَّة[٤] أعرضت عنها ... لغير قِلًى وكنْتُ بها ضَنينا
أردتُ بِعادَها فصددتُ عنها ... ولو جُنَّ الفؤادُ بها جنونا

ثم دعا نسمةً من رقيقه فأعتقهم لكل بيت واحد !

---

(١) طربت : حزنت . (٢) أقصرت : نزعت عنه وأنا قادر عليه ، وكففت . (٣) الخدين : الصديق ، ومنه الخدن ، وهو محدث الجارية ، وكانت العرب لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية ، فجاء الإسلام بهدمه . (٤) الخلة : الخليلة .

٧٠ — قضى كلُّ ذى دَيْن فوفَّى غَرِيمَه
وعزَّة ممطولٌ مُعنًّى غريمها*

كان أول علاقة كُثَيِّر(١) بعزّة أنه خرج من منزله خَلْفَ غنمٍ يسوقها إلى الجار(٢)؛ فلما كان بالخَبْت(٣) وقفَ على نسوةٍ من بنى ضَمْرَة؛ فسألهنّ عن الماء؛ فقلْنَ لعزّة — وهى جاريةٌ حينَ كَعَب(٤) ثدْياها: أرْشديه إلى الماء، فأرشدتْهُ وأعجبتْه.

فبينا هو يسقى غَنَمه إذ جاءتْهُ عزّة بدراهم، فقالت: يقلْنَ لك النسوةُ: بِعْنَا بهذه الدراهم كبشاً من ضأنك. فأمرَ الغلامَ فدفع إليها كبشاً، وقال لها: رُدِّى الدراهمَ وقولى لهنّ: إذا رحتُ بكنّ اقتضيتُ حقّى.

فلما راح مرّ بِهِنّ؛ فقُلْنَ له: هذا حقُّك فخذه. فقال: عزّةُ غَرِيمى، ولستُ أقتضى حقّى إلا منها. فمزَحْن معه، وقلْن: ويحك! عزّةُ جاريةٌ صغيرة، وليس فيها وفاء لحقّكَ فأَحِلْهُ على إحدانا، فإننا أمْـلَأ به وأسرَع له أداء. فقال: ما أنا بمُحيل حَقّى عنها. ومضى لوجهه، ثم رجع إليهن حين فرغ من بيع جَلَبِه(٥) فأنشدهن فيها:

---

* الأغانى: ٩ — ٢٥

(١) هو كثير بن عبد الرحمن، كان رافضيا شديد التعصب لآل أبى طالب، ومعشوقته عزة بنت حميد من ضمرة، وكانت من أجمل النساء وآدبهن وأعقلهن، ويقال إنه لم ير لها وجهاً، إلا أنه استهام بها لما ذكر له عنها، توفى سنة ١٠٥ هـ. (٢) الجار: موضع بساحل البحر قريب من المدينة. (٣) الخبت: الوادى العميق الضيق. (٤) نهد ثدياها. (٥) الجلب: ما جلب من الحيوان.

نظرتُ إليها نظرةً وهى عاتِقٌ (١) ... على حين أنْ شبّتْ وبانَ نُهُودُها

وقد دَرّعوها (٢) وهْىَ ذاتُ مُؤَصَّدٍ (٣) ... مَجُوبٍ (٤) ولمَّا يَلْبَسِ الدِّرْعَ رِيدُها (٥)

من الخَفِرَاتِ البيضِ وَدَّ جليسُها ... إذا ما انقضتْ أحْدُوثةٌ لو تُعيدُها

وقال :

قَضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوَفَّى غَرِيمَه ... وعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

فقلن له : أبيتَ إلا عَزّةَ ! وأبرزْنَها إليه وهى كارهة . ثم أحبَّته عزة بعد ذلك أشدَّ من حُبِّه إيّاها .

---

(١) العاتق : الجارية أو أول ماتدرك . (٢) الدرع : القميص . (٣) المؤصد : صدار تلبسه الفتاة الصغيرة فإذا أدركت درعت . (٤) المجوب : الذى له جيب . (٥) الريد : الترب والند .

٧١ — تُغَنِّيه فيموت*

كانت بالمدينة قَيْنةٌ من أحْسَن الناس وَجْهاً، وأكملهم عقلا، وأفضلهم أدباً، قرأتِ القرآنَ وَرَوت الأشعار، وتعلَّمَت العَربية، فوقعت عند يزيد[1] بن عبدالملك، فأخذتْ بمجامع قلبه؛ فقال لها ذات يوم: ويحك! أمَا لك قرابةٌ أو أحد يَحْسُنُ أنْ أصْطنعه، أو أسْدِيَ إليه مَعْرُوفاً؟ قالت: يا أمير المؤمنين؛ أمَّا قرابةٌ فلا، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاى، كنت أحِبُّ أن ينالَهم من خيرِ ما صرتُ إليه.

فكتب إلى عامله بالمدينة فى إشخاصِهم، وأن يُعْطِىَ كلَّ رجل منهم عشرة آلاف درهم، وأن يُعَجِّل بِسَرَاحهمْ إليه.

ففعل عاملُ المدينة ذلك؛ فلما وصلوا إلى باب يزيد استأذنوا، فأَذِن لهم، وأكرمهم، وسألهم حوائجهم؛ فأمّا الاثنان فذكرا حوائجهما فقضاها لهما؛ وأما الثالث فسأله عن حاجته، فقال: يا أمير المؤمنين؛ مالى حاجة. قال: ولِمَ؟ ألستُ أقْدرُ على حوائجك؟ قال: يا أمير المؤمنين، ولكن حاجتى لا أحسبك تقضيها، قال: ويحك! فَسَلْنى فإنك لا تسألُنى حاجة أقدِرُ عليها إلا قضيتُها، قال: ولى الأمانُ يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وكرامة. قال: إن رأيتَ أن تأمرَ جاريتك فلانة

---

* العقد الفريد: ٤ ــ ١٢٥

(١) يزيد بن عبد الملك: من ملوك الدولة الأموية فى الشام، ولد فى دمشق، وتوفى بها سنة ١٠٥ هـ.

التى أكرمْتَنا لها أن تغنِّينى ثلاثةَ أصوات أشربُ عليها ثلاثة أرطال فافْعَل .

فتغيَّرَ وَجْهُ يزيد ؛ وقام من مجلسه ـ فدخل على الجارية ، فأَعْلَمها ، فقالت : وما عليك يا أمير المؤمنين ! افعل ذلك ، فلما كان من الغد أمر بالفتى فأُحْضِر ، وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فأُلقِيت ، فقعد يزيد على أحدها ، وقعدت الجارية على الآخر ، وقعد الفتى على الثالث ، ثم دعا بطعام فتغدَّوا جميعا ، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوُضِعت ، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ، ثم قال للفتى : قل ما بدَا لك ، وسَلْ حاجتك ، قال : تأمرها أن تغنى :

لا أستطيع سُلُوًّا عن مودَّتها ... أو يصنعَ الحبُّ بِى فوق الذى صنعاَ
أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدُنى ... حتى إذا قلت : هذا صادقٌ نزَعا

فأمرها فغنَّت ؛ فشرِب يزيد ، وشرب الفتى ، ثم شربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال فملِئت ، ثم قال للفتى : سَلْ حاجتك . قال : تأمرها أن تغنى :

تخيَّرْتُ من نَعْمان(١) عُودَ أراكة ... لهند ، ولكن مَنْ يبلِّغه هِنْدا
ألَا عرِّجا بى ؛ بارك الله فيكما ... وإن لم تكن هند لأرضكما قَصْدَا

فغنَّت بهما ، وشرب يزيد ، ثم الفتى، ثم الجارية . ثم أمر بالأرطال فمُلِئت، ثم قال للفتى : سَلْ حاجتَك . قال : يا أميرَ المؤمنين ، مُرْها تُغنى :

منَّا الوصالُ ومنكم الهجرُ ... حتى يفرِّقَ بيننا الدهر
والله ما أسْلُوكم أبداً ... ما لاح نجمٌ أو بدا فَجْرُ

---

(١) نعمان : اسم واد .

فلم تأتِ على آخر الأبيات حتى خرّ الفتى مَغْشِيًّا عليه . فقال يزيد للجارية : انظرى ما حالُه ؟ فقامت إليه ، فحرّكته فإذا هو ميِّت ، فقال لها : ابكيه . قالت : لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حىّ . قال لها : ابكيه ، فوالله لو عاش ما انصرف إلّا بكِ ؛ فَبَكَتْه ، وأمر بالفتى فأُحْسِن جِهازه ودفنُه[1] !

(١) روى أن مثل هذا حصل مع جارية للرشيد (انظر صفحة ١٦٣ ج ٢ من نهاية الأرب) .

٧٢ — فاضَتْ نَفْسُها عليه *

قال محمّد بن قَيْس :

وجّهنى عاملُ المدينة إلى يزيدَ بنِ عبد الملك - وهو إذْ ذاك خليفة - فلما خرجتُ عن المدينة إذا أنا بامرأةٍ جالسة على الطريق ، وشابٌّ نائم ، وهو يتلوّى ، ورأسُه يسقط فى حِجْرها ، وكلما سقط أعادته مكانه . فسلّمتُ ، فردّت السلام - والشابُّ مشغولٌ بنفسه - فسألتُها عنه ، فقالت : ياعبدَ الله ؛ هل لك فى الأجْر والمَثُوبة ؟ فقلت : لا أبغى سواها .

قالت : هذا وَلدى ، وكانت له ابنةُ عم تربَّيَا معا ، وشُغِفتْ به ، وشُغِف بها ، وعلم بذلك أبوها ، وعلم بها أهلُ المدينة ؛ فحجَبها عنه ، وكان يأتى الموضعَ والخِباء[1] فيبكى ، ثم خطبها من أبيها ، فأبى أن يزوِّجَه ؛ لأنا نرى ذلك عيباً ، أن تُزَوَّج امرأةٌ لرجل كان يحبُّها . ثم خطبَها رجلٌ غيره ؛ فزوَّجها أبُوها منه منذ خمسة أيام ، وهو على ماترى ؛ لا يأكلُ ولا يشرب ولا يعقِل ، فلو نزلتَ إليه ، وتحدّثْتَ معه ووعظْته وسلّيتَه ، فلعلّه يسكنُ إلى حديثِك ، ويتقوّتُ بشىء من الطعام !

قال محمد : فنزلتُ ودنوتُ منه ، وتلطفتُ به ؛ فرجَع إلىّ طرْفَه وقال بصوت حزين :

---

* المختار من نوادر الأخبار ، نهاية الأرب : ٢ - ١٨٧

(١) الخباء من الأبنية ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

أَلَا ما لِلْمليحَـــةِ لا تعودُ ! أَبُخْلٌ بالمليحة أم صدُودُ ؟
مرضْتُ فعادَنِ أهْلى جميعاً فما لكِ لا ترَى فيمن يعود !
فقدْتُكِ بينهم فبكيتُ شوقاً، وفقْدُ الإلْف ياسَلْمى شديدُ
وما استَبْطأت غيرَكِ فاعْلميه وحَوْلى من ذَوِى رَحِمى عَدِيدُ
فلو كنتِ المريضةَ كنتُ أُسْعَى إليك ولم يُنَهْنِهْنِى الوعيدُ !

ثم سكن ، فنظرت المرأةُ إلى وجهه وصرخَتْ وقالت : والله فاضت نَفْسُه ! قالتها والله ثلاثَ مرات . فغشينى من ذلك همٌّ وغمٌّ . ولمّا رأت العجوزُ ما حلَّ بى عليه من الحزن قالت : يا ولدى ؛ هوِّن عليك ، والله لقد استراح ممّا كان فيه ، عاش بأجَلٍ ، ومات بقَدَرٍ ، وقَدِم على ربٍّ كريم ، واستراح من تباريحه وغُصَصه، فهل لكَ فى استكمال الأجْر ؟ قلت : قولى ما أحببت ، قالت : هذا الحىّ منك قريبٌ ، فإن رأيتَ أنْ تمضىَ إليهم تَنْعِيه لهم ، وتسألهم الحضورَ ليُعِينونى على مُوَارَاتِه فافعَلْ .

قال محمد : فركبت وأتيتُ الحىّ ، فنعيتُه لهم ، وأخبرتُهم بصورةِ أمره ، فبينا أنا أدُور فى الحىّ إذا أنا بامرأةٍ خرجتْ من خِبائها تجرُّ خِمارَها ، ناشرةً شَعْرها ، فقالت لى : أيُّها الناعى ؛ مَنْ تَنْعَى ؟ فقلت : فلان ، فقالت : بالله عليك ، مات ! قلت : نعم ، قالت : هل سمعت منه شيئاً قبل موته ؟ قلت : نعم ، وأنشدتها الشعر ، فاستعبرت باكية ، وأنشأت تقول :

عدَانى أنْ أزورَكَ ياحبيبى معاشر كلُّهم واشٍ حسودُ
أشاعُوا ما علِمْتَ من الرزايا وعابونا ، وما فيهم رَشِيــد

فأما إذ ثَوَيتَ اليومَ لحداً فدورُ الناسِ كلهم لُحُودُ
فلا طابَتْ لى الدنيا حياةً ولاسحّتْ علَى الأرض الرُّعود

ثم خرجتُ مع القوم ، وهى تُوَلْوِل حتى انتهينا إلى الغلام ، فغسلناه وصلّينا عليه ودفنّاه ، فلمّا تفرقنا عن قبره جعلت تصرخُ وتلطمُ .

ثم ركبتُ ومضيتُ ، وهى على تلك الحال . فأتيت يزيدَ بنَ عبدالملك وناولته الكتاب ، فسألنى عن أمورِ الناس وما رأيتُه فى طريقى ، فأخبرته الخبر ، فقال لى : يا محمد ؛ امضِ الساعةَ قبل أن تَشْتَغِل فى غير هذا حتى تمرّ بأهل الفتى وبنى عمه وتمضى بهم إلى عامل المدينة ، فتأمره أن يُثْبِتَهم فى شَرَفِ العطاء ، وإن كان أصابَ الجارية ما أصابه فافْعَل بأهْلِها كما فعلت بأهله ؛ وارجع حتى تخبرَنى بالخبر ، وتأخذ جوابَ الكتاب .

قال محمد : فخرجت حتى انتهيتُ إلى قبر الغلام ، فوجدتُ بجانبه قبراً آخر ، فسألتُ عنه ، فقالوا : هذا قبرُ الجارية ، لم تزل تصرخ وتلطم حتى فاضت نَفْسها ، ودُفِنت بجانبه ، فدفعتُ أهلهما ومضيت بهم إلى عاملِ المدينة ، فأثْبَتَهُمْ فى شرف العطاء ، وعُدت فأخبرتُه ، فأجازنى على ذلك جائزةً حسنة .

٧٣ — يموتان فى وقتٍ واحد*

قال أبو مالك الراوية :

سمعتُ الفرزدقَ(١) يقول : أبَقَ(٢) غلامان لرجل منّا يقال له الخضر، فحدّثنى قال : خرجْتُ فى طلبهما ، وأنا على ناقةٍ عَيْساء كَوْماء(٣) أريد اليمامة ، فلما صرتُ فى ماء لبنى حَنيفة ارتفعت سحابةٌ فرَعدَتْ وبرَقت وأرْخَتْ عَزَالِيها(٤) ؛ فعدَلْتُ إلى بعض ديارهم وسألت القِرَى ؛ فأجابوا .

فدخلتُ دارا لهم ، وأنختُ الناقةَ ، وجلستُ تحت ظُلّةٍ(٥) لهم من جريد النخل، وفى الدار جُوَيْرِيةٌ لهم سوداء ؛ فدخلَتْ جارية كأنها سَبيكةَ فضة ، وكأن عينيها كوكبان دُرِّيان ؛ فسألتِ الجاريةَ : لمن هذه العَيْساء ؟ « تعنى ناقتى » . فقالت : لضيفِكم هذا .

فعدَلَت إلىَّ فقالت : السلام عليكم ، فرَدَدْتُ عليها السلام ؛ فقالت لى : ممن الرجل ؟ فقلت : من بنى حَنْظلة . فقالت : مِنْ أيّهم ؟ قلت : من بنى نَهْشل . فتبسَّمَت وقالت : أنت إذن ممن عَناه الفرزدقُ بقوله :

إن الذى سَمَكَ(٦) السماء بنى لها   بيتــاً دعائِمُهُ أعَـزُّ وأطْوَلُ

---

* الأغانى : ٨ ــ ٤٤

(١) الفرزدق : همام بن غالب ، من صعصعة ، شاعر عظيم الأثر فى اللغة ، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ، توفى سنة ١١٠ هـ . (٢) أبق العبد : هرب . (٣) العيساء من الإبل : التى يضرب لونها إلى الأدمة، والكوماء: عظيمة السنام طويلته . (٤) العزالى: جمع عزلاء، والعزلاء فى الأصل : مصب الماء من القربة والراوية . (٥) الظلة : الشىء يستتر به من الحر والبرد .
(٦) سمك السماء : رفعها .

بيتاً بنـــاهُ لنا المليكُ وما بَنَى ملكُ السماء فإنَّهُ لا يُنْقَـلُ
بيتاً زُرَارَةُ مُحْتَبٍ بِفِنَـــائه ومُجَاشِـعٌ وأبو الفوَارِسِ نَهْشَل[1]

فقلت : نعم ، جُعِلتُ فداكِ ! وأعجبنى ما سمِعتُ منها . فضحكتْ وقالت : فإن ابن الخَطَفَى[2] قد هدم عليكم بيتكم هذا الذى فخرتم به حيث يقول :

أخزَى الذى رفع السماء مُجاشعاً وبنى بناءَك بالحضيضِ الأسفلِ
بيتاً يُحمِّمُ قَيْنُـكم[3] بِفِنائِهِ دَنِساً مَقاعِدُهُ خبيثَ المَدْخَل

فوجَمْتُ .

فلما رأتْ ذلك فى وجهى ؛ قالت : لا عليك! فإن الناس يقال فيهم ويقولون . ثم قالت : أين تؤُمُّ[4] ؟ قلت : اليمامة . فتنفَّستِ الصُّعَداء ؛ ثم قالت : هاهى تلك أمامك ؛ ثم أنشأت تقول :

تُذَكِّرُنى بلاداً خـــيرُ أهلى بها أهل المرُوءة والـكرامَهْ
ألا فسقى الإلهُ أجشَّ صوْباً[5] يَسُحُّ بدرِّه بَـلَدَ اليمامَهْ
وحيَّا بالسـلام أبَا نُجَيْدٍ فأهلٌ للتَّحيَّةِ والسَّلامَهْ

قال : فأنِستُ بها وقلت لها : أذاتُ خِدْنٍ أم ذاتُ بعل ؟ فأنشأت تقول :

إذا رقد النِّيام فإنَّ عَمْراً تُؤَرِّقُه الهمومُ إلى الصباحِ
تُقَطِّعُ قلبه الذكرى وقَلْبِى فلا هُوَ بالخلىِّ ولا بِصَاحِ
سقى الله اليمامَةَ دَارَ قَوْمٍ بها عمرٌو يَحِنُّ إلى الرَّوَاحِ

---

(١) زرارة ومجاشع ونهشل : من سادة تميم ، قوم الفرزدق .

(٢) جرير . (٣) يحمم : يسخن ، والقين : الحداد ، يشير إلى أن مجاشعا قبيلة الفرزدق كانت قيونا لعبد كان لصعصعة بن ناجية ، فنسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى القين . (٤) تقصد .

(٥) الصوب : مجىء السماء بالمطر ، والأجش : الصوت المرتفع .

فقلت لها : مَنْ عمرو هذا ؟ فأنشأت تقول :

سألتَ ، ولو علمتَ كففتَ عنه ومَنْ لك بالجوابِ سوى الخبيرِ ؟
فإنْ تكُنْ ذا قبُول إنَّ عمراً هو القمرُ المضىء المستنير[1]
وما لى بالتبعُّــــل[2] مُستراحٌ ولو رَدَّ التبعُّلُ لى أسيرى

ثم سكتَتْ سكتةً كأنها تتسمع إلى كلامٍ ، ثمَّ تهافتَتْ[3] وأنشأت تقول :

يُخَيَّلُ لى هيَا عمرو بن كعبٍ كأنك قد حُملتَ على سريرِ
يسير بك الهوَينى القــومُ لمَّا رماك الحبُّ بالعَلَق[4] العسير
فإنْ تكُ هــكذا يا عَمرو إنى مُبكِّرةٌ عليكَ إلى القبور

ثم شهقَتْ شهقة فخرّتْ ميّتةً .

فقلتُ لهم : مَن هذه ؟ فقالوا : هذه عَقيلةُ بنتُ الضحّاك . فقلت لهم : فمن عمروٌ هذا ؟ قالوا : ابنُ عمها ، فارتحلت من عندهم .

فلما دخلتُ اليمامةَ سألتُ عن عمرٍو هذا ؛ فإذا هو قد دُفِنَ فى ذلك الوقت الذى قالت فيه ما قالت !

---

(١) فى البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروى. (٢) تبعلت المرأة: أطاعت بعلها أو تزينت له.
(٣) تساقطت من ضعفها وخورها . (٤) العلق : الهوى ، يكون للرجل فى المرأة .

٧٤ — رحلت ميّة ولم يَبْقَ إلا الديار*

قال أبو صالح الفَزارى : تَذَ كَّرْنا يوماً ذا الرُّمَّة[١] ؛ فقال لنا عِصْمة بن مالك الفَزارى ـ وكان قد بلغ عشرين ومائة سنة : إيّاى فاسألوا عنه ؛ كان حُلْوَ العينين، خفيفَ العارضين ، برّاقَ الثنايا ، واضحَ الجبين ، حسنَ الحديث ، إذا أنشد بَرْبر وجَشَّ صوتُه[٢] .

جمعنى وإياهُ مُرْتَبعٌ[٣] مرةً ، فأتانى فقال لى : هَيا عِصْمةُ ، إنّ مَيَّةَ مِنْقَرِيَّة ومِنْقَرُ أخبَثُ حىّ ، وأقوَفُه[٤] لأثر ، وأثْبَتُهُ فى نظر ، وقد عرفوا آثار إبلى ، فهل مِنْ ناقةٍ نزدارُ عليها مَيّة ؟ قلت : إى والله ! الجُؤذر ، بنتُ يمانية لجدّى لى . فقال: عَلَىّ بها .

فأتيتهُ بها فركب وردِفْتُه ، حتى إذا أشرَفنا على منزل مىّ ؛ فإذا الحىُّ خُلوف[٥] ، فأمهَلنا وتقوّض النساء من بيوتهن إلى بيت مَىّ ، وإذا فيهن ظريفة جَمَعَتْهُنّ فنزلنا بها ؛ فقالت : أنشدنا يا ذا الرُّمَّة ؛ فقال : أنشدهن يا عِصْمة ـ وكان عصمة رَاويته ـ فأنشدتهنّ قصيدته التى يقول فيها :

---

* المحاسن : ٢٢٤ ، العقد : ٤ ـ ٣٦٦ ، الأغانى : ١٦ ـ ١٢٤ ، المصارع : ١٣٧ ، ذيل الأمالى : ١٢٤ ، تزيين الأسواق : ١٩

(١) ذو الرمة : هو غيلان بن عقبة الكنانى ، كان شاعراً رقيقاً خبيراً بأحوال العشق، والرمة: حبل يجعل فى عنق البعير ، وكان كثيراً مايجعله فى عنقه ، ولذلك سمى به ، وصاحبته مية بنت مقاتل المنقرى. وكان كثير المدح لبلال بن أبى بردة، وكان أحسن شعراء عصره تشبيهاً، كامرىء القيس فى الجاهلية . توفى سنة ١١٧ هـ . (٢) البربرة : التخليط فى الكلام مع غضب ونفور . والأجش : الغليظ الصوت . (٣) المرتبع : الموضع الذى ينزل فيه أيام الربيع . (٤) من قاف الأثر : إذا عرفه . (٥) خلوف : غائبون .

نظرتُ إلى أظعانِ(١) مَيٍّ كأنها ... ذُرَا النخلِ أوْ أثلٌ تميل ذوائبُهْ
فأسْبَلَتِ العينانِ والصدرُ كاتمٌ ... بمُغْرَوْرِقٍ نمَّتْ عليه سواكبُهْ
بكاء الفتى خَافَ الفراق ولم تَجُلْ ... جَوائلُهـا أسرارُه ومَعاتِبُهْ

—

فقالت الظريفة : فالآن فلْتَجُلْ ! فقالت لها مَيّة : قاتلكِ اللهُ؟ ما تجيبين به منذُ اليوم ؟ ثم أنشدتُ حتى بلغتُ إلى قوله :

إذا سرحَتْ من حُبِّ مَيٍّ سَوَارِحٌ ... عن القلب آبَتْهُ بليلٍ عوَازِبُهْ

فقالت لها الظريفـة : قتلتِهِ ، قاتلكِ الله ! فقالت مَيّ : إنه لصحيح ، وهنيئا له .

فتنفّس ذو الرُّمة تنفُّساً كاد يطير حرُّهُ شعرَ وجهى ، ثم أنشدت حتى بلغت إلى قوله :

وقد حَلَفَت باللهِ ميةُ ما الذى ... أحدِّثُها إلا الذى أنا كاذِبُهْ
إذَنْ فرمانى اللهُ من حيث لا أرى ... ولا زَالَ فى أرضى عدُوٌّ أحاربه

فقالت مىّ : خَفْ عواقبَ اللهِ عزَّ وجلَّ يا غَيْلَان، قال: ثم أنشدتُ حتى بلغت إلى قوله :

إذا نازعَتْك القولَ ميةُ أو بدَا ... لكَ الوجهُ منها أو نَضَا الدِّرْعَ سالبُهْ
فيا لكَ من خدٍّ أسيلٍ ومنطق ... رَخيمٍ ومن خَلقٍ تعلَّلَ جادِبُهْ(٢)

فقالت الظريفة : هذا الوجهُ قد بدَا ، وهذا القول قد تُنُوزِع فيه ؛ فمن لنا أن يَنْضُو الدرع سالبُهُ ؟ فقالت مى : ما أنْكَرَ ما تجيبين به منذ اليوم !

---

(١) أظعان : جمع ظعينة : الهودج كانت فيه امرأة أم لا . (٢) الجادب : العائب، ويريد أن الناظر إليها لا يجد فى خلقها مغمزاً ؛ فيتعلل بالباطل ، وبالشىء يعيبه وليس بعيب .

فقامت الظريفة وقُمن معها ؛ فقالت : دَعُوهم ؛ فإن لهم لشأنا ؛ فقمتُ فجلست ناحيةً ؛ وجلسا بحيث نَراهما ولا نسمع من كلامهما إلا الحرفَ بعد الحَرْف ، ووالله ما رأيتُهما بَرِحا من مكانهما ، وسمعتُها تقول له : كذبْت ، فوالله ما أدرى ماالذى كذّبَتْه فيه إلى الساعة .

ثم خرج ومعه قارورةٌ فيها دُهْن وقلائد ، فقال : يا عِصْمةُ ؛ هذه دُهْنةٌ طيبة أتحفتْنا بها مىّ ، وهذه قلائد قلدَتْها مىّ الجؤذَر[١]، ولاوالله لا قلَّدْتُهُنّ بعيراً أبدا، فعقدهُنّ فى ذُؤَابة سيفه ، وانصرفنا .

فلما كان بعدُ أتانى ، فقال : هَيّا عِصمة ؛ قد رحلَت مىّ ، فلم يبق إلا الديار والنظر فى الآثار ؛ فانهَض بنا ننظر إلى آثارها ، فركب وتبعتُه ؛ فلما أشرف على المُرْتبع قال :

ألا يا اسْلمِى يا دارَ مىّ على البِلَى ولا زال مُنْهلًّا[٢] بجرْعائِك[٣] القَطْرُ
وإنْ لم تكونى غيْرَ شامٍ[٤] بقَفْرةٍ تجرُّ بها الأذيالَ صَيْفِيّةٌ[٥] كُدْرُ[٦]

ثم انفضحت عيناه بالبكاء ؛ فقلت : مَهْ يا ذا الرمة ! فقال : إنى لجلْدٌ على ما ترى ، وإنى لصَبُور !

فما رأيت أشدَّ صبابةً ، ولا أحسَن عزاء منه .

ثم افترقنا ؛ فكان آخرَ العهد به .

---

(١) اسم الناقة التى سارا عليها. (٢) منهلا: نازلا. (٣) الجرعاء: الرملةالمستوية لاتنبت شيئاً.
(٤) الشام : جمع شامة ، وهى بقعةتخالف لون الأرض . (٥) الصيفية : رياح الصيف .
(٦) الكدر : جمع كدراء ، وهى التى فى لونها غبرة .

٧٥ — صبابة ابنُ الطَّثريّة*

أصابَ الناس سَنَةٌ وجَدْبٌ ، فأقبلَ جماعةٌ من جَرْم[1] يريدون بني قُشَيْر ، وكانت بينهما عَداوةٌ وحَرْبٌ عظيمة ، ولكنهم لم يَجِدُوا بُدًّا من ذلك ، لما قد ساقهم من الجدْب والجَاعةِ ورقةِ الأمْوال ، وما أشْرَفُوا عليه من الهَلَكة ، فنصبتْ[2] قشيرٌ لهم الحرب . فقالت جَرْم : إنما جئْنا مُستجيرين غيرَ محاربين . قالوا : مِمَّ ؟ قالوا : من السَّنَة والجدْب والهلَكة التي لا باقيةَ لها . فأجارتهم قُشير وسالَمَتْهم وأرْعَتْهم طرفًا من بلادِها .

وكان في جَرْم فتًى يقال له مَيَّاد الجرميُّ ، وكان غَزِلًا حسنَ الوجه تامّ القامة، آخِذاً بقلوبِ النساء ـ والغزلُ في جَرْم جائزٌ حسن ، وهو في قُشير نائرةٌ[3] فلما نازلت جَرْم قُشيراً وجاورتْها أصبح مَيَّادُ الجَرْميُّ يغدو إلى القُشيْريَّاتِ يطلب منهن الغَزَل والصِّبَا والحديثَ عند غَيبة الرجال، واشتغالهم بالسَّقى والرِّعْية وماأشبه ذلك ؛ فدَفَعْنَهُ عنهن وأسمَعْنَه ما يكره .

وراحَتْ رجالُهُنَّ عليهنّ وهن مُغْضَبات ؛ فقالت عجائز منهنّ : واللهِ ماندرى

---

* الأغاني : ٨ ـ ١٥٧

اسمه يزيد بن الصمة ، والطثرية أمه ، كان حسن الوجه والشعر ، حلو الحديث ، غزلا آخذا بقلوب النساء ، وقد أحب امرأة من جرم ، وقاسى في سبيلها من الوجد ما قاسى مثله من المتيمين في الحب ، ونظم فيها الشعر الرقيق ، وتوفى سنة ١٢٦ هـ . (١) بطن في طيء . (٢) نصب له الحرب : وضعها . (٣) النائرة : العداوة والشحناء ، أى أن الغزل في قشير سبب العداوة .

أرْعَيتم جَرْماً المَرْعى أم أرْعيتُموهم نِساءكم ! فاشتدَّ ذلك عليهم فقالوا : وماذا ؟ قلْنَ : رجل منذ اليوم ظل مُجْحِراً(١) لنا ما يَطْلُع منا رأسُ واحدة ، يدُور بين بيوتنا .

فقال بعضهم : بَيِّتُوا جَرْماً فاصْطَلِموها(٢) . وقال بعضُهم : قبيح . قومٌ قد سقَيْتُموهم مياهَكم ، وأرْعيتموهم مراعيَكم ، وخَلَطْتُمُوهم بأنفسكم ، وأجَرْتُمُوهم من القَحْطِ والسَّنَة ، تَفْتاتُون(٣) عليهم هذا الافتيات ! لاتَفْعَلُوا ولكن لتُصْبِحوا(٤) وتَقَدَّمُوا إلى هؤلاء القوم فى هذا الرجل ، فإنه سفيهٌ من سُفهائهم ، فليأخذوا على يديه ، فإن يفعلوا فأتِمُّوا لهم إحسانكم ، وإن يمتنِعُوا ويقِرُّوا ما كان منه يَحلُّ لكم البَسْطُ(٥) عليهم ، وتخرجوا من ذِمّتهم . فأجمعوا على ذلك .

فلما أصبحوا غدَا نفَرٌ منهم إلى جرْم فقالوا : ما هذه البِدْعَةُ التى قد جاوَرْتُمونا بها ! إن كانت هذه البِدْعة سَجِيّةً لكم فليس لكم عندنا إرعاء ولا إسْقاء ، فأبعدوا عنّا أنفسكم ، وأْذَنوا(٦) بحرْبٍ . وإن كان افْتِتاناً فغَيِّروا(٧) على مَنْ فَعَله .

فقام رجالٌ من جرْم فقالوا : ما الذى نالكم ؟ قالوا : رجلٌ منكم أمْسِ ظَلَّ يَجُرُّ أذْيالَهُ بين أبياتِنا ، ما نَدْرِى عَلَامَ كان أمْرُهُ ! فقهقَهتْ جرْمٌ من جفاء القُشيريين وعَجْرَفتِها وقالوا : إنكم لتَحِسون من نسائكم بيلاء ، ألَا فابعَثُوا إلى بيوتنا رَجلًا ورجلًا .

---

(١) من أجحره ، إذا ألزمه أن يدخل جحره . (٢) استأصلوها . (٤) افتات عليه : اختلق عليه الباطل . (٤) اللام لام الأمر . (٥) بسط يده عليه : سلط عليه . (٦) كونوا على علم بحرب . (٧) فغيروا : أى ازجروه وأنكروا عليه مافعله .

فقالوا : والله ما نحسُّ من نسائِنا ببلاء، وما نعرفُ منهن إلا العفَّة والكرم ، ولكن فيكم الذى قلتم .

قالوا : فإنّا نبعث رجلًا إلى بيوتكم ، يا بنى قُشير ، إذا غدتِ الرجال وأُخْلِفَ النساء ، وتبعثون رجلًا إلى البيوت ، ونتحالفُ أنه لا يتقدَّمُ رجلٌ منا إلى زوجةٍ ولا أختٍ ولا بنت ، ولا يُعلِمُها بشىء مما دار بين القوم ؛ فيَظَلُّ كلاهما فى بيوت أصحابه حتى يرِدَا علينا عَشِيًّا الماء وتُخْلى لهما البيوت ، ولا تبرُز عليهما امرأة ، ولا تُصَادِق منهما واحداً إلا بمَوْثقٍ يأخُذُه عليها وعلامَةٍ تكون معه منها !

قالوا : اللهم نعم . فظلُّوا يوْمَهم ذلك وباتُوا ليلتَهم ، حتى إذا كان من الغد غَدَوْا إلى الماء وتحالفوا أنه لا يعودُ إلى البيوتِ منهم أحدٌ دون الليل .

وغدَا ميَّاد الجَرْمى إلى القُشَيْرِياتِ ، وغدا يَزِيد بن الطَّثْرِيَّة القُشَيْرِىّ إلى الجَرْميات ، وكان من أحسن الناس وجها وأطيبهم حديثاً ، فظلَّ عندهن بأكرم مَظَلٍّ لا يصيرُ إلى واحدة منهنّ إلا افْتَتَنَتْ به، وتابعته إلى المودّة والإخاء ، وقبض منها رَهْناً ، وسألَتْه ألّا يدخل من بيوت جَرْم إلا بيتَها ؛ فيقول لها : وأىَّ شىْء تخافين وقد أخذْتِ منى المواثيقَ والعهود ، وليس لأحد فى قلبى نصيب غيْرِك ، حتى صُلِّيَت العصر .

فانصرف يزيدُ بفتَخٍ [١] كثير وبراقِعَ ، وانصرف مكحولًا مَدْهوناً شبعانَ ريان مُرَجَّلَ اللِّمَّة [٢] . وظل ميَّاد يدورُ بين بيوت القُشَيْرياتِ مَرجوماً مُقصى

---

(١) الفتخ واحدة فتخة ، وهى حلقة من فضة لا فص لها فإذا كان فيها فص فهى الخاتم .

(٢) اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن .

لا يقربُ إلى بيتٍ إلا استقبَلته الولائدُ بالعمَدِ(١) والجَندَل ؛ فتهالكَ لمنّ ، وظن أنه ارتيادٌ(٢) منهن له ، حتى أخذَهُ ضربٌ كثير بالجَندَل ، ورأى اليأسَ منهن ، وجَهَده العطش ؛ فانصرف حتى جاء إلى سَمُرةٍ(٣) قريباً إلى نصف النهار ؛ فتوسّد يدَه ونامَ تحتها نوَيْمَةً حتى أفرَجتْ عنه الظهيرة ، وفاءت الأظلال ، وسكن بعضُ ما بهِ مِنْ ألمِ الضرب ، وبَرُدَ عطشُه قليلاً .

ثم قرب إلى الماء حتى وردَ على القوم قبلَ يزيدَ ، فوجد أمَةً تذُودُ غنماً فى بعض الظعْن(٤) ، فأخذ برُقعَها ، فقال : هذا برقع واحدة من نسائكم، فطرَحه بين يدى القوم ، وجاءتِ الأمَةُ تعدُو فتعلّقتْ ببرقعِها فرَدّهُ عليها ، وخجل ميّادٌ خجَلاً شديداً .

وجاء يزيدُ مُمسِياً وقد كاد القوم أن يتفرّقوا ، فَنَثَرَ كُمّه بين أيديهم ملآن براقع وفتَخاً ، وقد حلفَ القومُ ألّا يعرف رجل شيئاً إلا رفعه .

فلما نَثَر ما معه اسودّت وجوه جرْم ، وأمسكوا(٥) بأيديهم إمساكة. فقالت قُشَيْر : أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من العهود والمواثيق وتحرُّج الأموال والأهل ؛ فمن شاء أنْ ينصرف إلى حرام فلْيُمسِكْ يده ، فبسط كلُّ رجل يده إلى ما عرَفَ فأخذه ، وتفرّقُوا عن حرْب ؛ وقالوا : هذه مكيدة يا قُشَيْر .

وبُلِي يزيد بعِشْق جارية من جرْم فى ذلك اليوم يقال لها وَحْشيّة ، وكانت من أحسنِ النساء . ونافرَتْهمْ جرْم فلم يجدْ إليها سبيلا ، فصار من العشق إلى أن

---

(١) العمد: قضبان الحديد . (٢) ارتياد: طلب. (٣) السمرة : شجرة عظيمة. (٤) الظعن: سير البادية للنجعة . (٥) يريد أنهم قبضوا أيديهم ، ولم يعدوها إلى شىء مما نثر أمامهم .

أشْرَف على الموت ، واشتدّ به الجَهْدُ ، فجاء ابنُ عم له يقال له : خليفة بن بوْزَل، بعد اختلاف الأطباء إليه ويأسِهم منه ، فقال له : يابن عمّ ؛ قد تعلمُ أنه ليس إلى هذه المرأة سبيل ، وأن التعزِّىَ أجمل ، فما أربُك فى أن تقتل نفسكَ وتأثم عند ربك !

قال : وما همِّى يا بنَ عَمٍّ بنفسى ومالى فيها أمر ولا نَهْى ؛ ولا همِّى إلا نفس الجرْمِية ؛ فإنْ كنتَ تريد حياتى فأَرِنيها . قال : كيف الحيلة ؟ قال : تحملنى إليها ؛ فحمله إليها وهو لايطمعُ فيها ، إلا إنهم كانوا إذا قالوا له نذهب بك إلى وَحْشِيَّة أبَلَّ قليلا ، وإذا أيِسَ منها اشتدّ به الوجع.

فخرج به خليفة بن بوْزَل فحمله فتخلّل به اليمن ، حتى إذا دخل فى قبيلةٍ انتسب إلى أخرى وهو يخبر أنه طالب حاجة . وأبَلَّ حتى صلَح بعض الصلاح ؛ وطمع فيه ابنُ عمه ، وصارا بعد زمان إلى حىّ وَحْشِيَّة ، فلقيا الرُّعْيان[(١)] ، وكَمَنا فى جبلٍ من الجبال . فجعل خليفة يَنْزِلُ فيتعرَّض لرعيانِ الشاء فيسألُهم عن راعى وحشيَّة ، حتى لقىَ غلامها وغنَمَها ؛ فواعدهم موعداً ، وسألهم ماحالُ وحشية؟ فقال غلامها : هى والله بشرٍّ ؟ لا حفظ الله بنى قُشير ولا يوماً رأيناهم فيه! فمازالتْ عليلةً منذ رأيناهم ـ وكان بها طَرَفٌ مِمّا بابن الطَّثْرِيَّة .

فقال : وَيْحكَ ! فإنَّ هاهُنا إنساناً يُدَاوِيها ، فلا تقل لأحد غيرها . قال : نعم إن شاء الله تعالى .

---

(١) جمع راع .

فأعلمها الراعى ما قال له الرجل حين صار إليها، فقالت له : ويحك ! فجئ به. ثم إنه خرج فلَقِيَه، فأعلمه، وظلّ عنــده يرْعَى غنمه، وتأخر عن الشاء حتى تقدمته الشاء وجَنَحَ الليل، وانحدر بين يدى غَنَمِه، حتى أراحها. ومشى فيها يزيد حين قرُبت من البيت على أربَع، وتجَلّلَ شَمْلةً سوداء بلون شاة من الغنم !

فصار إلى وحشيَّة، فسُرّت به سروراً شديداً، وجمعت عليه من تثق به من صواحباتها وأترابها؛ وقد كان عهد إلى ابنِ عمّه أن يقيم فى الجبل ثلاث ليـال، فإن لم يرَهُ فلينصرِفْ.

فأقام يزيد ثلاث ليال، ورجع إلى أصحّ ما كان عليه، ثم انصرف فصار إلى صاحبه. فقال : ما وراءك يا يزيد؟ ورأى من سروره وطيب نفسه ما سرّه. فقال :

لو انّكَ شاهدت الصِّبا يابنَ بَوْزَلٍ ... بفَرْعِ الغضا إذ راجعتنى غَياطِلُه(١)
لَشاهَدْتَ لهواً بعد شَحْطٍ من النوى ... على سَخَطِ الأعداء حُلْواً شمائله
بِنَفسِىَ مَنْ لَوْ مرّ بَرْدُ بنانِه ... على كَبِدِى كانت شفاء أنامِلُهْ
ومَن هابَنِى فى كُلِّ أمرٍ وهِبْتُهُ ... فـلا هو يعطينى ولا أنا سائلُهُ

---

(١) الغياطل : جمع غيطلة، وهى الظلمة المتراكمة، استعارها هنا لجهالات الصبا.

٧٦ — مَعْبَد الصغير وأحد العُشّاق*

قال مَعْبَد(١) الصغير المُغَنّى : كنتُ منقطِعاً إلى البرامكة آخذُ منهم وألازِمهم؛ فبينا أنا ذات يوم فى منزلى إذا بَابى يُدَقّ ، فخرج غلامى ثم رجعَ إلىّ ، فقال : على الباب فتًى ظاهرُ المروءة ، يستأذنُ عليك ، فأذنتُ له .

فدخل علىّ شابٌّ ما رأيتُ أحسنَ وجهاً ، ولا أنظفَ ثوباً ، ولا أجملَ زِيًّا منه ، دَنِف(٢) ، عليه آثارُ السَّقَم ظاهرةٌ ، فقال لى : إنى أرجو لقاءك منذ مدة ، فلا أجِدُ إليه سبيلا ، وإنّ لى حاجةً ، قلت : ماهى ؟ فأَخرَجَ ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ ، ثم قال : أسألُك أنْ تقبَلَها ، وتصنع فى بيتين قلْتُهما لحناً تغنينى به . فقلت : هاتهما ؛ فأنشدهما وقال :

بالله ياطَرْفِىَ الجانى على بدَنِى ... لتطفئنّ بدمعى لوعةَ الحزَنِ
لَا لَا أبُوحَنَّ حتى يَحْجُبوا سكَنى ... فلا أراه ولو أُدْرِجتُ فى كفنى

قال معبد :فصنعتُ فيهما لحناً ، ثم غنَّيتُه إياه ، فأُغْمِىَ عليه ، حتى ظننته قد مات ، ثم أفاقَ ، فقال : أعِدْ فدَيْتكَ ! فناشَدْتُه الله فى نفسه وقلت : أخْشى أنْ تموتَ ؛ قال : هيهات ! أنا أشْقَى من ذاك ! وما زال يَخْضَع لى ويتَضَرّع حتى أعدتُه ، فصعِق صَعْقَةً أشَدَّ من الأولى حتى ظننتُ أنَّ نَفْسَه قد فاضت .

---

* الأغانى : ١٢ ـ ١٦١ ، تزيين الأسواق : ١٢٥

(١) كان معبد الصغير غلاماً مولدا من مولدى المدينة ، شدا بها ، وأخذ الغناء عن جماعة من أهلها ، وعن جماعة أخرى من علية المغنين بالعراق، مثل إسحاق وابن جامع، وكان أكثر انقطاعه إلى البرامكة . (٢) دنف : مريض .

فلما أفاق رددتُ الدنانيرَ عليه ، ووضعتُها بين يديه ، وقلت : ياهذا ؛ خذ دنانيرك ، وانصرفْ عنى ، فقد قضيتُ حاجتَك ، وبلغت ما أردتَه ، ولستُ أحبُّ أن أشركَك فى دمك ، فقال : ياهذا ؛ لا حاجةَ لى فى الدنانير ، فقلت : لا والله ، ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط ، قال : وماهنّ ! قلت : أولاها أن تقيم عندى وتتحرَّم بطعامى ، والثانية أن تَشْرَبَ أقْدَاحاً من النبيذ يَشُدُّ قلبك ، ويسكنُ مابك ، والثالثة أنْ تحدِّثنى بقصتك ، فقال : أفعل ما تريد .

فأخذتُ الدنانير ، ودعوتُ بطعام فأصاب منه ، ثم دعوتُ بالنبيذ فشرب أقداحاً ، وغنّيته بشعر غيره فى معناه ، وهو يشرب ويبكى ، ثم قال : الشرطُ أعزّكَ الله . فغنّيته ، فجعل يبكى أحرَّ بكاء ، ويَنْشِج أشدَّ نشيج وينتحب ، فلما رأيتُ مابه قد خَفَّ عما كان يلحقه ، ورأيت النبيذَ قد شدَّ من قلبه كرَّرْتُ عليه صوتَه مراراً ، ثم قلتُ : حدِّثنى حديثك ، فقال :

أنا رجل من أهل المدينة خرجتُ متنزِّها فى ظاهرها ، وقد سالَ العَقِيق ، فى فِتْيَةٍ من أقرانى وأخْدَانى ؛ فبصُرْنا بفتيات قد خرجنَ لمثلِ ما خرجنا له ، فجلسن حَجْرةً[1] منا ، وبصرتُ فيهن بفتاةٍ كأنها قضيبٌ[2] قد طلّه الندى ، تنظر بعينين ما ارتدَّ طَرْفُهما إلا بنفس مَنْ يلاحظهما ، فأطَلْنَا وأطلن حتى تفرق الناس ، وانصرفْنَ وانصرفْنَا ، وقد أبقَت بقلبي جُرحا بطيئاً اندِمالُه ، فعدتُ إلى منزلى وأنا وَقِيذ[3] .

وخرجت من الغد إلى العَقِيق وليس به أحد، فلم أرَ لها ولا لِصَوَاحِبِها أثراً؛ ثم جعلتُ أتتبعها فى طرق المدينة وأسواقِها ، فكأنَّ الأرض أضمرتْها ، فلم أحسَّ لها

(١) حجرة : بعيداً . (٢) القضيب : الغصن . (٣) الوقيذ : الشديد المرض المشرف .

بعينٍ ولا أثَر ، وسقمتُ حتى أيِسَ منى أهلى ، ودخلَتْ ظِئْرِى[1] ، فاستعلمتنى حالى ، وضمِنَتْ لى السعىَ فيما أحبُّه منها ؛ فأخبرتُها بقصتى ؛ فقالت : لا بأس عليك ، هذه أيام الربيع ، وهى سنَةُ خصْبٍ ، وليس يبعد عنك المطر ؛ وهذا العقيق ، فتخرج حينئذ وأخرج معك ، فإن النسوة سيجِئْنَ ، فإذا فعلن ورأيتَها اتبعتُها حتى أعرفَ موضعها ، ثم أصل بينك وبينها ، وأسعى لك فى تزويجها ؛ فكأنَّ نفسى اطمأنت إلى ذلك ، ووَثِقت به ، وسكنت إليه ، ثم قويت وطمعت ، وتراجعت نفسى .

وجاء مطرٌ فأسال الوادى ، وخَرَج الناس ؛ وخرجْتُ مع إخوانى إليه ، فجلسنا مجلسنا الأول بعَيْنِه ؛ فما كُنَّا والنسوة إلَّا كفرسَىْ رِهان ، وأومأتُ إلى ظِئْرِى فجلسَت حَجْرَةً منا ومنهن ، وأقبلتُ على إخوانى ، فقلت : لقد أحسن القائل حيث قال :

رَمَتْنِى بسهمٍ أقْصَدَ القلبَ وانثنت وقد غادَرتْ جُرحاً به ونُدُوبا[2]

فأقبلت على صواحباتها ، فقالت : أحسن والله القائل ، وأحسن مَنْ أجابه حيث يقول :

بنا مِثْلُ ما تشكو فصبْراً لعلّنا نرى فَرجاً يَشْفِى السَقَامَ قريباً

فأمسكتُ عن الجواب خوفاً من أن يظهرَ ما يفضحنى وإياها ، وعرفت ما أرادتْ ، ثم تفرق الناسُ وانصرفنا .

وتبعتْها ظِئْرِى حتى عرفَتْ منزلها ، وصارتْ إلىَّ ، فأخذتْ بيدى ، ومضينا إليها فلم تزل تتلطَّف حتى وصلت إليها ، فتلاقينا ، وشاع حديثى وحديثها وظهرَ

---

(١) الظئر : العاطفة على ولد غيرها ، المرضع له . (٢) الندوب : جمع ندبة ، أثر الجرح الباقى على الجلد .

ما بيني وبينها ، فحجبها أهلُها ، وتشدّدَ عليها أبوها ؛ فما زلت أجتهدُ في لقائها فلا أقدرُ عليه ، وشكوتُ إلى أبي لشدةِ ما نالني ؛ وسألتُه في خِطْبتها لي فمضى أبي ومشيخةُ أهلي إلى أبيها ، فخطبوها ؛ فقال : لو كان بدَأَ بهذا لأسْعفتُه بما التمسَ، ولكنه قد شهّرها[1] ، فلم أكن لأُحقِّق قولَ الناس فيها بتزويجه إياها ؛ فانصرفت على يأسٍ منها ومن نفسي .

قال معبد : ثم صارت بيننا عِشْرة ، وجلس جعفر بن يحيي للشّرْب ، فأتيته ؛ فكان أولَ صوت غنّيْتُه صوتي في شعر الفتى ؛ فطرب عليه طرباً شديداً ، وقال : ويحَكَ ! إن لهذا الصوت حديثاً فما هو ؟ فحدثتُه به ، فأمر بإحضار الفتى فأُحْضر من وقْتِه ، واستعاده الحديثَ فأعاده عليه ، فقال : هي في ذمّتي حتى أزوّجك إياها ، فطابتْ نفسه ، وأقام معنا ليلتنَا حتى أصبح ؛ وغدَا جعفر إلى الرشيد ، فحدّثه الحديث ، فعجب منه ، وأمر بإحضارنا جميعاً فأحضرنا ، وأمر بأن أغنّيَه الصوت ، فغنّيتهُ وشرب عليه ، وسمع حديثَ الفتى ، فأمر من وقته بالكتاب إلى عاملِ الحجاز بإشْخاص الرجل وابنته ، وجميعِ أهله إلى حَضْرته ، فلم يمْضِ إلا مسافة الطريق حتى أُحْضر ، فأمر الرشيدُ بإيصاله إليه فأوصل ، وخطب إليه الجارية للفتى وأقسم عليه ألا يخالف أمره ، فأجابه ، وزوّجه إياها ، وحمل إليه الرشيد ألف دينار لجهازِها ، وألفَ دينار لنفقَةِ طريقه ؛ وأمر للفتى بألف دينار ، وأمر جعفر لي وللفتى بألف دينار ؛ وكان بعدَ ذلك في جملة نُدَماء[2] جعفر بن يحيي .

---

(١) الشهرة : ظهور الشيء في شنعة . (٢) جمع نديم .

٧٧ — نَعِبَ الغرابُ بفراقهما*

قال زياد بن عثمان الغَطَفانىّ : كنّا بباب بعضِ وُلَاة المدينة فغَرِضْنا[١] من طُول الثَّواء[٢] ، فإذا أعرابىٌّ يقول : يامَعْشَر العرب ؛ أمَا منكم رجلٌ يأتينى أعلّله إذ غَرِضْنا من هذا المكان فأُخبرَه عن أم جَحْدَرٍ وعنّى !

فجئتُ إليه فقلت : مَنْ أنت ؟ فقال : أنا الرَّمّاح[٣] بن أبْرَد . قلت : فأخبرنى ببدء أمرِكما ؛ قال : كانت أمُّ جَحْدر من عشيرتى فأَعْجَبَتْنى ؛ وكانت بينى وبينها خُـلّةٌ[٤] ، ثم إنى عَتَبْتُ عليها فى شىء بلغنى عنهـا ؛ فأتيتُها فقلت : يا أمّ جَحْدَر ؛ إنّ الوَصْل عليك مَرْدُود ؛ فقالت : ما قضى الله فهو خير . فلبثتُ على تلك الحال سَنَةً .

وذهبتْ بهم نُجْعَةٌ فتباعدوا . واشتقتُ إليها شوقاً شديداً ؛ فقلتُ لامرأةِ أخٍ لى : والله لئن دَنَتْ دارنا من أم جَحدر لآتِيَنّها ؛ ولأطلبَنّ إليها أن تردّ الوَصْل بينى وبينها ، ولئن ردّته لا نقضتُه أبداً .

ولم يكن يومان حتى رَجَعُوا ، فلما أصبحتُ غَدَوْتُ عليهم ، فإذا أنا ببيتين نازِلَيْنِ إلى سَنَدٍ[٥] أبْرَقَ طويل ، وإذا امرأتان جالستان فى كِساء واحدٍ بين

---

* الأغانى : ٢ ـ ٢٧٣

(١) غرضنا : ضجرنا . (٢) الثواء : طول الإقامة . (٣) كان الرماح بن أبرد أشعر غطفان فى الجاهلية والإسلام ، عاصر الوليد بن يزيد ومدحه ، وأدرك أول الدولة العباسية ، فمدح المنصور واشتهر بنسبته إلى أمه ميادة . توفى نحو سنة ١٤٠ هـ . (٤) الخلة : الصداقة . (٥) السند : ما ارتفع من الأرض قبل الجبل أو الوادى . والأبرق من الجبال : ما كان له لونان من سواد وبياض .

البيتين ؛ فجئتُ فسلمتُ ؛ فردَّت إحداهما ولم ترد الأخرى ، وقالت : ماجاء بك يارمَّاح إلينا ؟ ما كنَّا حسبنا إلا أنه قد انقطع ما بيننا وبينَك . فقلت : إنى جعلْتُ علىَّ نذراً لئن دنَتْ بأم جَحْدَر دارٌ لآتينَّها ، ولأطلبَنَّ منها أن تَرُدَّ الوصلَ بينى وبينها، ولئن هى فعلَتْ لا نقضْتُه أبداً ـ وإذا التى تكلمنى امرأةُ أخيها ، وإذا الساكِتَةُ أمُّ جَحْدر .

فقالت امرأةُ أخيها : فادخل مُقدَّمَ البيت ، فدخلتُ ، وجاءتْ من مؤخره فدَنَتْ قليلًا ، ثم إذا هى قد برَزَتْ ، فساعة برَزَتْ جاء غراب فنَعب على رأس الأبْرَق[(١)] ، فنَظَرتْ إليه ، وشهقَتْ وتغيَّر وجْهُهَا ، فقلتُ : ماشأنُكِ ؟ قالت : لاشىء ؛ قلتُ : بالله إلَّا أخْبَرتنى ؛ قالت : أرَى هذا الغرابَ يخبرنى أنا لا نجتمعُ بعد هذا اليوم إلا ببلد غير هذا البلد ، فتَقَبَّضَتْ نفسى ، ثم قلت : جاريةٌ والله ما هى فى بيت عِيافة[(٢)] ولا قِيافة[(٣)] .

ثم تَروَّحتُ[(٤)] إلى أهلى ، فمكثتُ عندهم يومين ، ثم أصبحتُ غادياً إليها ، فقالت لى امرأةُ أخيها : ويْحَكَ يارمَّاح ! أين تذهب ؟ فقلت : إليكُمْ ، فقالت : وما تريد ؟ قد والله زُوِّجَتْ أمُّ جحدر البارحة ، فقلت : بمنْ ؟ ويحكِ ! قالت : برجل من أهلِ الشام من أهلِ بيتِها ، جاءهم من الشام فخطبها فزُوِّجَها ، وقد حُمِلت إليه !

---

(١) الأبرق : مكان مرتفع فيه حجارة ورمل وطين . (٢) العيافة : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ، والمعروف بالعيافة من العرب بنو أسد وبنو لهب . (٣) القيافة : تتبع الآثار ومعرفتها ، والمعروف بالقيافة بنو مدلج . (٤) تروحت : سرت فى وقت الرواح .

قضيتُ إليهم فإذا هو قد ضرَب سُرادقات ، فجلستُ إليه فأنشدته، وحدّثته وعدتُ إليه أياماً ، ثم إنه احتملها ، فذهب بها ؛ فقلت :

أجارتَنــا إنّ الخطوبَ تَنُوبُ   علينا ، وبعضَ الآمنين نُصِيبُ
أجارتنا لَسْتُ الغــداةَ ببارحٍ   ولـكنْ مقيمٌ ما أقام عَسِيبُ[1]
فإن تَسأليني هل صَبَرتُ فإنني   صبورٌ على رَيْبِ الزمان صَلِيبُ[2]
جرى بانْبِتَات[3] الحبلِ من أمّ جَحْدَرِ   ظِبَاءٌ وطَــيرٌ بالفراق نَعُوبُ
نظرتُ فلم أعْتَفْ[4] وعافَتْ فبيّنت   لهــا الطيرُ قبلى ، واللبيبُ لبيبُ
فقالت : حرامٌ أن نُرى بعد هذه   جميعَينِ إلّا أنْ يُلِمَّ غريبُ
أجارتنَا صَبْراً ؛ فيارُبَّ هالكٍ   تَقطَّعُ من وجْدٍ علــيه قلوبُ

ثم انحدرتُ فى طلبها ، وطمعتُ فى كلمتهــا : « إلا أن نجتمع فى بلدٍ غير هذا البلد » .

فجئتُ فدُرْتُ الشأم زماناً ، فتلقّانى زوجُها ، فقال : مالك لا تغسل ثيابك هذه ! أرْسِلْ بها إلى الدار تُغْسل ؛ فأرسلتُ بها .

ثم إنى وقفتُ أنتظر خروجَ الجارية بالثياب ، فقالت أم جَحْدرٍ لجاريتها : إذا جاء فأعْلميني ؛ فلما جئتُ إذا أمُّ جحدر وراء الباب ، فقالت : ويحك يارمّاح! قد كنتُ أحسب أن لك عَقْلًا ! أما ترى أمراً قد حِيلَ دونه ، وطابتْ أنفسنا

---

(١) عسيب : اسم جبل بعالية نجد ، يقال : لا أفعل كذا ما أقام عسيب ، أى لا أفعله أبدا.
(٢) الصليب : الشديد . (٣) انبتات : انقطاع . (٤) عاف الطير : زجرها ، وهو أن يعتبر بأسمائها ومساقطها فيتسعد أو يتشاءم .

عنه ؟ انصرفْ إلى عشيرتك فإنى أستَحْيِى لك من هذا المُقَام . فانصرفت وأنا أقول :

عسى إن حَجَجْنا أنْ نرى أمَّ جَحْدَرٍ ويجمَعَنا من نخلتين[1] طريقُ
وتَضْطَكُّ أعضادُ المَطىِّ وبيننَا حديثٌ مُسَرٌّ دون كلِّ رفيقِ[2]

---

(١) النخلتان : واديان . (٢) فى البيتين إقواء .

٧٨ — نخلتا حُلْوان

قال مُطِيع[١] بن إياس: كنت بالرّىّ[٢] مع سالم بن قُتَيْبة، وكانت لى جارية يقال لها جوذانة.

وكنت أتعشّقُ امرأةً من بنات الدّهاقين[٣]، كنتُ نازلًا إلى جنبها فى دارها، فلما خرج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - كتب المنصور إلى سالم يأمره باستخلاف رجلٍ على عمله والقدوم عليه فى خاصّتِه على البريد، فأمرنى سالم بالخروج معه، فاضطررت إلى بيْعِ الجارية، فبعتُها، ثم ندِمتُ بعد ذلك على خروجى، وتمنيت أن أكونَ أقمتُ.

ثم نزلتُ حُلْوان[٤]، فجلستُ على العَقَبة أنتظر ثَقَلى، وعِنَانُ دابتى فى يدى، وأنا مُستَنِدٌ إلى نخلةِ العَقَبة، وإلى جانبها نخلةٌ أخرى، فتذكرتُ المرأة واشتقتها وقلت:

أَسْعِـدانى يا نخلتَىْ حُلْوَان ... وابكيا لى من رَيْبِ هذا الزمان
واعلَمَا أنَّ رَيْبَه لم يزلْ يفرقُ بين الأُلّافِ والجيران
ولعمرى لو ذُقْتُما ألَمَ الفُرْ ... قة أبكاكما الذى أبكانى

---

* معجم البلدان: ٣ - ٣٢٣، الأغانى: ١٢ - ١٠٣

(١) مطيع بن إياس: عربى الأصل يرجع نسبه إلى كنانة، عاصر الدولتين: الأموية والعباسية، كان ماجنا خليعا ظريفا مليح النادرة. ولكنه متهم بالزندقة والفجور، توفى سنة ١٦٦ هـ.

(٢) الرى: مدينة عظيمة ببلاد الجبال؛ تخرج فيها كثير من عظماء المسلمين. (٣) الدهقان: التاجر، وزعيم فلاحى العجم، ورئيس الإقليم (معرب) وجمعه دهاقين. (٤) حلوان: مدينة كانت مشهورة بالعراق، وهى غير حلوان مصر.

أسعِـــدَانى وأبقِيَا نحسَاً   سوف يلقـــاكما فتفترقان

كم رمتنى صروفُ هٰذِى الليالى   بفراقِ الأحبـاب والخِـلَّان

غـــير أنى لَمْ تلقَ نفسى كما لا   قيتُ من فُرْقَةِ ابنة الدِّهقان

جارة لى بالرَّىِّ تُذهب همِّى   ويُسَـــلِّى دنوُّها أحزانى

فجعتنى الأيامُ أغبط ما كُنْـــتُ بصَدْعٍ للبين غـــير مُدانى

وبرغمى أنْ أصبحتْ لا تَراها الـــعينُ مِنّى وأصبحَتْ لا ترانى

إنْ تَـكُنْ ودّعت فقد تركت بى   لَهَبَـــاً فى الضمير ليس بِوَانِ

كحريقِ الضِّرام فى قَصَبِ الغـا   ب رمَتْهُ رِيحَـانِ مُخْتَلِفان (١)

وسمعنى سالم فقال : ويلك ! فيمن هذه الأبيات ؟ أفى جاريتك ؟ فاستحييت أن أصدقه فقلت : نعم .

فـكتب من وقته إلى خليفته أنْ يبتاعها لى ، فلم ألبث أن ورد كتابه : إنى وجدتُها قد تداولها الرجال فعزَفَتْ نفسى عنها .

---

(١) روى أن المهدى قال : قد أكثر الشعراء فى نخلتى حلوان ، ولهممت أن آمر بقطعهما ، فبلغ قوله المنصور ، فـكتب إليه : بلغنى أنك هممت بقطع نخلتى حلوان ، ولا فائدة لك فى قطعهما ، ولا ضرر عليك فى بقائهما ، فأنا أعيذك بالله أن تـكون النحس الذى يلقاهما فتفرق بينهما .

٧٩ — وَارَاحَمتَا للعاشقين! *

قال الجاحظ(١) : ذُكرتُ لأمير المؤمنين المتوكّل لتأديب بعضِ ولده ، فلما رآنى استَبْشَعَ مَنْظَرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى .

وخرجتُ من عنده ، فلقيتُ محمد بن إبراهيم وهو يُرِيدُ الانصراف إلى مدينة السلام ، فعرض علىّ الخروجَ معه ، والانحدارَ فى حرّاقته(٢) ، فركبنا فيها ، فلما أتينا فَمَ نهر القَاطُول(٣) ، وخرجنا من سَامرّا(٤) نصَب سِتَارته ، وأمر بالغناء ، فاندفعتْ عوّادة فغنت :

كلُّ يوم قطيعةٌ وعتـــابُ ينقضى دهرنا ونحن غضابُ
ليت شِعْرى أنا خُصِصْت بهـذا دُونَ ذا الخلقِ أم كذا الأحبابُ !

وسكتت ، فأمر الطنبُورِيّة فغنت :

وراحمتـــا للعاشقينا ما إنْ أرى لهم مُعينـا !
كم يُهجَرون ويُصرَمو نَ ويُقطَعون فيصبرونا !

* المسعودى : ٢ ـ ٣٧٨ ، نهاية الأرب : ٢ ـ ١٩٥

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر ، وعرف بالجاحظ لجحوظ عينيه ، كان إمام الأدباء فى العصر العباسى ، وله أساليب ومذاهب وآراء فى الأدب واللغة ، خاصة به ، ومؤلفاته كثيرة ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ . (٢) الحراقة : نوع من السفن . (٣) القاطول : نهر يتفرع من دجلة ، حفره الرشيد . (٤) بلد على نهر دجلة بناه المعتصم سنة ٢٢١ هـ ، حينما ضاقت بغداد بأهلها .

فقالت هـذه المَوَّادة : فيصنعون ماذا ؟ قالت : هكذا يصنعون ، وضربت بيدها إلى الستارة فهتكتها ، وبرزت كأنها فِلقةُ قمر ، فزَجّت بنفسها إلى الماء ، وعلى رأس محمد غلامٌ يُضَاهيها فى الجمال ، وبيده مِذَبّة ، فأتى الموضع ، ونظَرَ إليها، وهى تمرّ بين الماء ، فأنشأ يقول :

أنتِ التى غرَّقتِنى بعـــد القضا لو تعلَمِينا

وَزَجَّ بنفسه فى أثرها ، فأدار الملّاح الحرَّاقة ، فإذا بهما مُعْتَنقان ، ثم غاصا فلم يُريا !

فهال محمداً ذلك واستعظمه وقال : ياعَمْرو ، لتحدثنّى حديثاً يُسلينى عن فقد هذين ؛ وإلا ألحقتُك بهما .

فحضرنى حـديث يزيد بن عبد الملك ، وقد قعد للمظالم ، وعُرِضَتْ عليه القصص ، فمرّت به قصةٌ فيها : « إن رأى أميرُ المؤمنين ـ أعزه الله ـ أن يخرج جاريتَه فُلانة حتى تغنينى ثلاثة أصوات فعل » ؛ فاغتاظ يزيد ، وأمر مَنْ يخرج إليه ، ويأتيه برأسه ، ثم أمر أنْ يتبع الرسول برسول آخر يأمره أن يُدخِل إليه الرجل ؛ فلما وقف بين يديه قال له : ما الذى حملَك على ماصنعت ؟ قال : الثقةُ بحِلْمك ، والاتّكالُ على عفوك . فأمره بالجلوس ، حتى لم يبقَ أحدٌ من بنى أمية إلّا خرج ، ثم أمر فأُخْرجت الجارية ومعها عودها ، فقال لها الفتى غنى :

أفاطم مهلًا بعض هـــذا التدلُّلِ وإنْ كنتِ قد أزْمَعْتِ صَرْمى فأجمِلِى

فغنّته ، فقال له يزيد : قل ، قال : غنى :

تألّق البرق نجديًّا فقلت له يأيها البرق ؛ إنى عنك مشغول

فغنته ، فقال : قل ، قال : تأمر لى برطل خَمْر ، فما استتم شرابه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد ، فرمى بنفسه على دماغه فمات !

فقال يزيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أتراه الأحمق الجاهل ظن أنى أخرج إليه جاريتى وأردّها إلى مالى ، يا غلمان : خذوا بيدها ، واحملوها إلى أهله إن كان له أهل ، وإلا فبيعوها وتصدّقوا بثمنها عنه .

فانطلقوا بها ، فلما توسّطت الدار ، نظرت إلى حُفْرَةٍ فى دار يزيد قد أُعِدَّتْ للمطر ، فجذبت نفسها من أيديهم ، وأنشأت تقول :

مَنْ مات عِشقاً فَليَمُتْ هكذا ! لا خـــير فى عشق بلا موْت

ثم زجّت بنفسها على دماغها فماتت .

فسرّى عن محمد ، وأحْسَنَ صلتى .

٨٠ — اللهُ يعلم أننى كمِد

قال أبو العباس المبرّد[١] : دخلتُ فى حداثتى أنا وصديق لى من أهل الأدب إلى دَيْرٍ لنَنْظُرَ إلى مجانين وُصِفُوا لنا فيه ، فرأيتُ منهم عجائب ، حتى انتهينا إلى شاب جالس حَجْرَةً[٢] منهم ، نظيفِ الوجه والثياب على حصير نظيف ، بيده مرآة ومُشط وهو ينظر فى المرآة ، ويُسَرّح لحيته ، فقلت : ما يُقْعِدُك ها هنا وأنت مُباين[٣] لهؤلاء ؟ فرفع طَرْفاً وأمال آخر وأنشأ يقول :

اللهُ يعلمُ أننى كمِدٌ ... لا أستطيعُ أبثُّ ما أجِدُ
نَفْسَان لى : نفس تضمّنها ... بلد وأخرى حازها بلدُ
وأرى المقيمةَ ليس ينفعُها ... صبر ولا يقوَى لها جلَد
وأظنُّ غائبتى كشاهدتى ... فكأنها تجدُ الذى أجِدُ

فقلت له : أراك عاشقاً . قال : أجل، قلت : لِمَنْ ؟ قال : إنك لسئول ! قلت: محسنٌ إن أخبرتَ . قال : إنّ أبى عقد لى على ابنة عمٍّ لى فتوُفى قبل أن تُزَفّ إلىّ ، وخَلف لى مالا عظيما ، فقبض عَمّى على جميع المال ، وحَبسنى فى هذا الدّير ، وزعم أنى مجنون ، وقيّمُ الدار فى خلال ذلك يقول لنا : احذروه فإنه الآن يتغير.

ثم قال لى : بالله أنشِدْنى شيئاً ، فإنى أظنك من أهل الأدب ، فقلت : لرفيق:

---

* أمالى الزجاجى : ١٠٥ ، نهاية الأرب : ٢ ــ ١٩٠

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد، كان فى عصره شيخ أهل النحو والعربية، وإليه انتهى علمهما ، وكان قوى الذاكرة حسن العبارة ، فصيح اللسان ، توفى سنة ٢٧٥ هـ . (٢) حجرة : ناحية .
(٣) مباين : مغاير .

أنشده فأنشأ يقول:

قبلتُ فاها على خوفٍ مُخَالَسَةً ... كقابس النار لم يشعُر من العَجل

ماذا على رصد[1] فى الدار لو غفلوا ... عنى فقبلتُها عشراً على مهــل

غُضِّى جفونَكِ عنى وانظرى أَمَماً[2] ... فإنمـا افتضح العشاق بالمُقَل

فقال لى : أبو مَنْ أنت ؟ جعلت فداك ! فقلت : أبو العباس ، قال : يا أبا العباس : أنا وهذا الفتى فى طرفين ؛ هذا مجاورٌ من يهواه ، مستقبل لما يناله منه ، وأنا ناء مقصىً ، فبالله أنشدنى أنتَ شيئاً ، فلم يحضرنى غير قول ابن أبى ربيعة :

قالت سُكينة والدموعُ ذوارفٌ ... تجرى على الخــدَّين والجلباب :

ليت المغيرىَّ الذى لم أجزه ... فيما أطال تَصَــبُّرى وطِلابى

كانت تردّ لنـا المُنَى أيامُنـــا ... إذ لا أُلامُ على هوًى وتَصَابِ

خُبِّرتُ ما قالت فبتّ كأنمــــا ... يُرْمَى الحشا بصوائب النشاب

أسُكَيْنُ ما ماء الفُرات وطيبُه ... مِنى على ظمـــأٍ وحبِّ شراب

بألذَّ منك وإنْ نأيتِ وقلَّمــــا ... يَرْعَى النِّساء أمانةَ الغيَّـــاب

ثم قلت له : أنشِدْنا شيئاً آخر ، فأنشأ يقول :

أينْ لى أيها الطَّلَلُ ... عن الأحباب ما فعلوا

ترى سارُوا؟ ترى نزلوا ... بأرض الشام أورحلوا؟

فقال له رفيق ـ مجـوناً ولعباً : ماتوا ، فقال : ويلك ! ماتوا ؟ فقال : نعم ! ماتوا ، فاضطرب واحمرّت عيناه ، فجعل يضرب برأسه الأرض ، ويقول: ويلك ! ماتوا ؟ حتى هالنا أمرُه ، وانصرفنا عنه ، ثم عُدْنا بعد أيام فسألنا صاحب الدير ، فقال : مازالت تلك حاله إلى أن مات .

---

(١) الرصد : الراصدون ، أى المراقبون . (٢) الأمم : اليسير .

٨١ – فى دار المجانين*

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد : ذُكِرتُ للمتوكل منازعةٌ جرت بينى وبين الفتح بن خاقان فى تأويل آية ، وتنازع الناس فى قراءتها ، فبعث إلى محمد ابن القاسم – وكانت إليه البصرة ، فحملنى إليه مكرماً .

فلما اجتزْتُ بناحية النعمان بين واسط وبغداد ، ذُكر لى أن بِدَيْر هرقل جماعةً من المجانين يعالجون ، فلما حاذَيْتُه دَعَتْنى نفسى إلى دخوله ؛ فدخلتُه ومعى شابٌّ ممن يُرْجَع إليه فى دين وأدب ، فإذا أنا بمجنون من المجانين قدْدنا إلىّ ؛ فقلت : ما يُقْعِدك بينهم ، وأنت بائنٌ عنهم ؟ فكسر جفنه ورفع عَقيرته[1] وأنشأ يقول :

إن وصَفُونى فناحِلُ الجسدِ ... أو فتّشونى فأبيضُ الكبد
أضْعَفَ وجدى وزاد فى سقمى ... أن لستُ أشكو الهوى إلى أحد
وضعت كفى على فؤادىَ من ... حرّ الأسى، وانطويت فوق يدى
آهِ من الحب آه من كبدى ... إن لم أمت فى غد فبعد غد
كأنَّ قلبى إذا تذكّرهم ... فريسةٌ بين ساعِدَىْ أسد

فقلت: أحسنتَ، لله دَرُّك ! زِدْنى ، فأنشأ يقول :

ما أقتل البين للنفوس ! وما ... أوجع فقد الحبيب للكبد !
عرضت نفسى من البلاء لما ... أسرف فى مُهجتى وفى جلدى
يا حسرتى أنْ أموتَ معتقلا ... بين اعتلاج الهموم والكمد

---

* المسعودى : ٢ – ٣٨١

(١) العقيرة : الصوت .

فقلت : أحسنت ، لا فُضَّ فوك ! زِدْنى ، فأنشأ يقول :

الله يعلم أننى كمد ... لا أستطيعُ أبثُّ ما أجد
نفسان لى: نفسٌ تضمَّنها ... بلدٌ وأخرى حازَها بَلَد
وأرَى المقيمةَ ليس ينفعُها ... صبرٌ ؛ وليس يُعِينها جَلَدٌ
وأظنُّ غائبتى كشاهدتى ... فكأنَّها تجِدُ الذى أجِد

فقلت : والله لقد أحسنت . فاستزدْتُه ، فقال : أراك كلما أنشدتك استزدتنى ، وما ذاك إلا لفرْط أدب ، وفراق شجَن ، فأنشدنى أنت أيضاً ، فقلت للذى معى : أنشده ؛ فأنشد يقول :

عَذْلٌ وبينٌ وتوديعٌ ومُرْتحَل ... أىّ العيون على ذا ليس تَنْهَمِل ؟
تالله ما جلَدى مِنْ بعدهم جَلَدٌ ... ولا اختزان دموعى عنهمُ بُخل
وددتُ أنَّ البحارَ السبع لى مَدَد ... وأن جسمى دموعٌ كلها هَمَل
وأنَّ لى بدلًا من كل جارحةٍ ... فى كل جارحة يوم النوى مُقل
لا درَّ درَّ النوى لو صادفتْ جبلًا ... لانهدَّ منها وشيكاً ذلك الجبلُ
الهجْر والبين والواشون والإبل ... طلائعٌ يتراءى أنها الأجَلُ

فقال المجنون : أحسنتَ ! وقد حضرَنى فى معنى ما أنشدت إلىَّ شعر ، أفأنشده ؟ قلت : هات ؛ فأنشأ يقول :

ترحَّلوا ثم نِيطتْ دونهم سُجُفُ ... لو كنتُ أملكهم يوماً لما رَحلوا
يا حادِيَ العيسَ ، مهلا كى نودّعها ... رفقاً ؛ قليلًا ؛ فى توديعها الأجَلُ

ماراعنى اليوم شىءٌ غـيرُ فَقْدهم　　حتى استقلت وطال الدهر ، ما فعلوا

فقال الفتى الذى معى : ماتوا ، فقال المجنونُ : آه ، آه! إن ماتوا فسوف أموت؛ وسَقَطَ ميتاً ، فما برحتُ حتى غُسلَ وكفن ؛ وصليت عليه ودفنته .

ووردتُ سُرَّ مَنْ رأى ، فأُدخلت على المتوكل ؛ فسئلت عن بعض ماوردتُ له فأجبت ، وبين يدَيِ المتوكل البحترى الشاعر ؛ فابتدأ ينشده قصيدة يمدحه بها ، وفى المجلس أبو العنبس الصَّيمرى(١) فأنشده البحترى :

عن أى ثَغرٍ تبتسمْ　　وبأى طرفٍ تحتكمْ

حَسَنٌ يفىءُ بحسنه　　والحسن أشبه بالكرم

يابانىَ المجـدِ الذى　　قد كان قُوِّضَ فانهَدَم

اسْلَمْ لدين محمـدٍ　　فإذا سلمتَ فقد سلم

نِلْنَا الْهدَى بعد العمى　　بك والغِنَى بعـد العدم

فلما انتهى مشى القهقرَى للانصراف ، فوثب أبو العَنْبَس ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تأمر بردِّه ؛ فقد ـ والله ـ عارضته فى قصيدته هذه !

فأمر برده ، فأخذ أبو العَنْبَس ينشد :

منْ أىِّ سَلْحٍ تلتقم　　وبأى كفِّ تلتطم

أدخلت رأس البحترىِّ　　أبى عبادة فى الرَّحِمِ

---

(١) محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمرى ، نديم المتوكل ، كان أديباً ظريفاً عارفا بالنجوم شاعراً هجاء ، وهو من أهل الكوفة ، ولى قضاء الصيمرة فنسب إليها . توفى سنة ١٧٥ هـ .

ووصل ذلك بما أشبهه من الشَّتْمِ ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قَفاه ، وفحص برجله اليسرى ، وقال : يُدْفع إلى أبى العَنْبَس عشرةُ آلاف درهم ؛ فقال الفتح : يا سيِّدى ، البحترى الذى هُجِىَ وأسمع المكروه ينصرف خائباً ! قال : ويُدفع إلى البحترى عشرة آلاف درهم ؛ قال : يا سيدى ، وهذا البصرى الذى أشْخَصْناه من بلده لا يشركهم فيما حَصّلوه ؟ قال : ويدفع إليه عشرة آلاف درهم ! فانصرفنا كلنا فى شفاعة الهزل ، ولم ينفع البحترىَّ جدُّه واجتهادُه وحزمُه .

ثم قال المتوكل لأبى العَنْبَس : أخبرنى عن حِمارك ووفاته ، وما كان من شعره فى الرؤيا التى رأيتها ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كان أعقل من القضاة ، ولم يكن له جَرْية ولا زَلَّة ، فاعتلّ على غفلة ، فمات منها ، فرأيته فيما يرى النائم فقلت له : يا حمارى ؛ ألم أُبْرِدْ لك الماء ، وأُنقِّ لك الشعير ، وأحسن إليك جهدى ؟ فلم متَّ على غفلةٍ ! وما خبرُك ؟ قال : نعم ! لما كان فى اليوم الذى وقفت على فلان الصَّيْدَلانى تُكَلِّمُه فى كذا وكذا ، مرّت بى أتان حسناء ، فرأيتها فأخذتْ بمجامع قلبى فعشقتها واشتدَّ وَجْدِى بها ، فمت كذا متأسفاً . فقلت له : يا حمارى ؛ فهل قلت فى ذلك شعراً ؟ قال : نعم ، وأنشدنى :

هام قلبى بأتانٍ عند باب الصيدلانى
تيمتنى يوم رُحْنا بثناياها الحسان

وبخـــدٍ ذى دَلال مثـل خَـــد الشَّنفرانى
فَبِهِـــاَ مِت ولو عشـ ـت إذن طال هَـــوَانى

فقلت : يا حمارى ؛ فما الشنفرانى ؟ فقال : هـذا من غريب الحمير ؟ فطرب المتوكل وأمر الملهين والمغنين أن يغنُّوا ذلك اليوم بشعر الحمار، وفرح فى ذلك اليوم فرحاً وسروراً لم يُرَ مثله ، وزاد فى تكرمة أبى العَنْبَس وجائزته .

٨٢ — عتاب*

قال أبو الحسن البَبَّغاء :

بينا أنا وصديق لى من قُرَيْش نمشى بالبَلَاط[1] ليلًا ، إذا بظلّ نِسْوة فى القمر ؛ فسمعتُ إحداهن تقول : أهو هو ! فقالت لها أخرى معها : إى والله إنه لهو هو ! فدنتْ منّى ثم قالت : يا كَهْلُ ، قل لهذا الذى معك :

ليستْ لياليك فى خَاخٍ[2] بعائدةٍ   كما عهدتَ ولا أيام ذِى سَلَمَ[3]

فقلت : أَجِبْ فقد سمعتَ . فقال : قد والله قُطِـعَ بى وأُرْتِج علىّ فأَجب عنى ، فقلت :

فقلت لهـــا يا عزّ كلُّ مصيبةٍ   إذا وُطِّنَتْ يوماً لهـا النفسُ ذَلَّتِ

ثم مضينا حتى إذا كُنَّا بمفرِق طريقين مضى الفتى إلى منزله ، ومضيتُ إلى منزلى ، فإذا أنا بجُوَيرِيةٍ تجذِب ردائى ، فالتفتُّ ، فقالت لى : المرأةُ التى كلّمتها تدعوك ، فمضيتُ معها حتى دخلتُ داراً واسعة ، ثم صرتُ إلى بيتٍ فيـه حصيرٌ ، وقد ثُنِيَتْ لى وسادة فجلستُ عليها . ثم جاءت جاريةٌ بوسادة مَثْنيّة فطرحَتْها ، ثم جاءت المرأة فجلستْ عليها ، فقالتْ لى : أنت المجيب ، قلتُ : نعم ، قالت :

---

* الأغانى : ٢ ـ ٥٨

(١) البلاط : مكان بالمدينة .   (٢) موضع يقال له : روضة خاخ بين الحرمين .

(٣) ذو سلم : موضع .

ما كان أفظَّ جوابَك وأغلظه ! فقلت لها : ما حضرنى غيرُه ، فسكتتْ ، ثم قالت : لا ، والله ما خلق الله خَلقاً أحبَّ إلىّ من إنسان كان معك ! فقلت لها : أنا الضامِنُ لكِ عنه ما تحبّين ، فقالت : هيهاتَ أن يقعَ بذلك وفاء ! فقلت : أنا الضامِنُ وعلىّ أنْ آتيك به فى الليلة القابلة .

فانصرفتُ فإذا الفتى ببابى ، فقلت : ما جاء بك ! قال : ظننتُ أنها سترسِلُ إليكَ ، وسألتُ عنك فلم أعرف لك خبراً ، فظننت أنك عندها ، فجلست أنتظرك ، فقلت له : وقد كان الذى ظننتَ ، وقد وعدتُها أنْ آتيكَ فأمضىَ بك إليها فى الليلة المقبلة .

فلما أصبحنا تهيَّأنا وانتظرنا المساء ، فلما جاء الليلُ رحلنا إليها ، فإذا الجاريةُ منتظرة لنا ، فمضتْ أمامنا حين رأتنا حتى دخلت تلك الدار ودخلنا معها ، فإذا رائحةٌ طيبة ومجلسٌ قد أُعِدَّ ونُضِّد ، فجلسنا على وسائد قد ثُنِيَتْ لنا ، وجلستْ مليًّا ثم أقبلتْ عليه ، فعاتَبَتْه ثم قالت :

وأنتَ الذى أخلفتنى ما وعدتَنِى   وأشمتَّ بى مَنْ كان فيكَ يلومُ
وأبرزتنى للناس ثم تركتَنِى   لهم غرضاً أُرمَى وأنت سليمُ
فلو كان قول يَكلِمُ الجلدَ قدْ بدا   بجِلْدِىَ من قولِ الوشاة كُلُومُ

ثم سكتتْ وسكتَ الفتى هُنيهة ثم قال :

غدَرْتِ ولم أغدِرْ وخُنْتِ ولم أخُن   وفى بعضِ هذا للمحبّ عزاء
جزيتُكِ ضعفَ الوُدِّ ثم صرَمْتِنِى   فحبكِ من قلبى إليكِ أداء(1)

---

(1) أداه تأدية : أوصله وقضاه ، والاسم الأداء .

فالتفتتْ إلىّ فقالت : ألا تسمع ما يقول ! قد خبّرتُكَ ، فَغمزتُه أنْ كُفّ فكفّ ، ثم أقبلت عليه وقالت :

تجاهلْتَ وَصْلى حين جَدّت[1] عَمَايتى فهلا صرمتَ الحبـل إذ أنا أبْصِرُ

ولى من قوَى الحبْلِ الذى قد قطعته نصيبٌ وإذ رأيى جميـعٌ موفَّرُ

ولـكنما آذنتَ بالصَّرْم بغتَـةً ولستُ على مثلِ الذى جئتُ أقدِرُ

فقال :

لقد جعلتْ نفسى ـ وأنت اجترمتِه وكنت أعزّ الناس ـ عنك تطيبُ

فبكت ، ثم قالت : أو قد طابت نفسك ! لا ، والله ما فيكَ بعدها خيرٌ ، ثم التفتت إلىّ وقالت : قد علمت أنك لا تَفِى بضمانكِ ، ولا يفى به عنك .

---

(١) جدبه الأمر : اشتد ، والعماية : الغواية والضلال .

٨٣ — يا غريبَ الدارِ عن وطَنِه*

قال جماعةٌ من أهل البَصرة : خرجنا نريدُ الحج ، فلما كنا ببعض الطريق إذا غلام واقفٌ على المحجّة(١)، وهو ينادى : أيها الناس ؛ هل فيكم أحدٌ من أهل البصرة ؟ فمِلْنا إليه وقلنا له : ما تريد ؟ قال : إن مولاىَ لما به يريدُ أن يُوصيَكم، فمِلْنا معه ، فإذا شخص ملقًى على بُعْد من الطريق تحت شجرةٍ لا يحيرُ جواباً ، فجلسنا حَوْلَه ، فأحسّ بنا ، ورفع طرفه وهو لا يكاد يرفعه ضَعْفاً ، وأنشأ يقول :

يا غريبَ الدار عن وطنِهْ ... مُفرداً يبكى على شَجَنه
كلما جَدّ البُكاء به ... دبّتِ الأسقامُ فى بَدَنه

ثم أُغْمِى عليه طويلا ؛ وإنا لجلوس حوله إذْ أقبل طائر، فوقع على أعلى الشجرة، وجعل يُغرِّد ، ففتح الفَتى عينيه ؛ وجعل يَسمع تغريد الطائر ثم قال :

ولقد زاد الفؤاد شجًى ... طائر يبكى على فَنَنِه
شفَّه ما شفّنى فبكى ... كلُّنا يبكى على سكنِه

ثم تنفس تنفُّساً فاضت نَفْسُه مِنه ، فلم نبرح من عنده حتى غَسَّلْناهُ وكفّناه ، وتولّينا الصلاةَ عليه ، فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه ، فقال : هذا العباس ابن الأحْنف !(٢)

---

* المسعودى : ١ — ٢٨٥ ؛ ثمار الأزهار : ٨٢

(١) المحجة : جادة الطريق ، والجادة : معظم الطريق. (٢) كان العباس بن الأحنف عربياً شريف النسب ، لم يتكسب بالشعر ، وإنما ينظم مايجيش فى خاطره ، وأكثره فى الغزل ، ولم يتجاوزه إلى مدح أو هجاء ، وكان له مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبة ولطف ، توفى سنة ١٩٢ هـ .

البَابُ الثَالِثُ

فى القصص التى تحتج لما اتصفوا به من شدة الغيرة على الحريم ، وبالغ المخافة من التهمة ، إغلاء بالشرف وضمانا لوفرة العرض ، وما جره بعض ذلك من إزهاق الأرواح وسفك الدماء ، درءا للظِّنَّة ، واتقاء للسمعة .

٨٤ — لا أحد أذلّ من جديس*

كانت منازل طَسْم فى موضع اليمامة(١) ، وكان يملكهم عِمْليق، وكانت معهم جَدِيس ، ولكنّ عمليقاً فى أول مملكته قد تمادى فى الظُّلم والغَشْم(٢) والسيرة بغير الحق .

وكانت امرأةٌ من جَدِيس يقال لها هُزَيْلَة ، ولها زوجٌ يقال له مَاشِق، فطلّقها وأراد أَخْذَ ولدِها منها ، فخاصمَتْه إلى عِمْلِيق ، فقالت : يا أيها الملك ؛ إنى حملته تسعاً ، ووضعتُه دَفْعاً ، وأرضعته شَفْعاً ؛ حتى إذا تمّتْ أوصاله ، ودَنا فِصَاله ، أراد أنْ يأخذَه منى كَرْهاً ، ويتركنى من بعده وَرْهاً(٣) .

فقال لزوجها : ما حجّتُك ؟ قال : حُجّتى أيها الملك أنى قد أعطيتُها المهر كاملا ، ولم أُصِبْ منها طائلًا ، إلا وليداً خاملًا ، فافعل ما كنت فاعلا . فأمر بالغلام أنْ يُنزع منهما جميعاً ويجعل فى غِلْمانه . فقالت هُزَيْلَة :

أتينا أخا طَسْم ليحكُمَ بيننا فأَنفَذَ حكماً فى هُزَيلة ظالما
لعمرى لقد حُكِّمتَ لا متورّعاً ولا كنت فيما يُبْرِم الحكمَ عالما
ندمت ولم أندم وأنّى لعثرتى وأصبح بَعْلِى فى الحكومة نادما

فلما سمع عِمْلِيق قولَها أمر ألّا تزوّج بكرٌ من جَدِيس وتُهدى إلى زوجها

---

* مهذب الأغانى : ١ — ١ ، ابن الأثير : ١ — ٢٣ ، الخزانة : ٢—٢٣٥

(١) اليمامة : بلد كبير فيه قرى وحصون وعيون ونخل (المراصد) .

(٢) الغشم : الظلم . (٣) وره، كفرح : حمق.

حتى يرَاها هو قبل زوجها ، فلقُوا من ذلك بلاء وجهداً وذلّا ، فلم يزل يفعل هذا حتى زوّجت الشَّمُوس ، فلما أرادوا حَمْلَها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق ومعها القِيان يتغنين :

ابْدَئْ بعمليق وقومِى فاركبى — وبادرى الصبح لأمرٍ مُعجب

فسوف تلقيْنَ الذى لم تطْلُبى — وما لِبكرٍ عنده من مهرَبِ

فدخلت عليه ، ثم خلّى سبيلَها ، فخرجت إلى قومها شاقّةً دِرْعها وهى فى أقبح منظر ، وهى تقول :

لا أحدٌ أذَلُّ من جَديس — أهكذا يُفعَل بالعَرُوسِ !

يرضى بهذا يالقومى حرٌ — أهْدَى وقد أعْطى وَسِيقَ المهر

لأخْذَةُ للموت كذا لنفسِه — خيرٌ من أن يُفْعَلَ ذا بِعرسِه

وقالت ـ تحرّض قومها فيما أتى إليها :

أيَجْمُلُ ما يُؤتى إلى فتياتِكُمْ — وأنتمُ رجالٌ فيكم عددُ النمل

وتصبحُ تمشى فى الدماء عُفَيرَةٌ — عشيةَ زُفّتْ فى النساء إلى بَعْلِ

ولو أننا كنّا رجالًا وكنتمُ — نساءً لكنا لا نُقِرُّ بذا الفِعْلِ

فموتُوا كِراماً أو أميتوا عدوّكم — ودِبُّوا لنارِ الحرْبِ بالحطبِ الجزْلِ (١)

وإلا فخَلُّوا بطنَها ، وتحمّلُوا — إلى بلدٍ قَفْرٍ وموتوا من الهزل

فللبَيْنِ خيرٌ من تمادٍ على أذى — وللموتُ خيرٌ من مقامٍ على الذُّلّ

وإن أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه — فكونوا نساءً لاتعاب من الكُحْل

---

(١) الحطب الجزل : اليابس ، أو الغليظ منه .

ودونكم طيبُ العَرُوسِ فإنما خُلِقتم لأثواب العروس وللنَّسلِ
فبُعْداً وسُحقاً للذى ليس دافعا ويختال يمشى بيننا مِشْيَةَ الفَحْلِ

فلما سمع أخوها الأسود — وكان سيِّداً مطاعاً — قال لقومه : يا معشر جَدِيس ، إن هؤلاء القوم ليسوا بأعزَّ منكم فى داركم إلا بما كان من مُلْكِ صاحبهم علينا وعليهم ، ولولا عجزُنا وإدهانُنا[1] ما كان له فضلٌ علينا ، ولو امتنعنا لكان لنا منه النَّصَفُ[2] ، فأطيعونى فيما آمركم به ؛ فإنه عزُّ الدهر ، وذهابُ ذُلِّ العمر ؛ واقبلوا رأيى .

وقد أحمى جَدِيساً ما سمعوا من قولها ، فقالوا : نُطيعك ، ولكنَّ القوم أكثرُ وأحمَى وأقوى . قال : فإنى أصنعُ للملك طعاماً ثم أدعوهم له جميعاً ، فإذا جاءوا يَرْفُلُون فى الحُلَل ثُرْنا إلى سيوفنا ، فأَهْمَدْناهم بها . قالوا : نَفْعل .

وصنع طعاماً كثيراً ، وخرج به إلى ظَهْر بلدهم ، ودعا عمليقاً وسأله أن يتغدى عنده هو وأهل بيته ، فأجابه إلى ذلك ؛ وخرج إليه مع أهله يرْفُلُون فى الحلى والحُلَل ، حتى إذا أخذوا مجالسهم ، ومدّوا أيديهم إلى الطعام أخذوا سيوفهم من تحت أقدامهم ، فشدَّ الأسْودُ على عِمْليق فقتله ، وكل رجل منهم على جليسه حتى أماتوهم ؛ فلما فرغوا من الأشراف شدوا على السِّفْلة ، فلم يَدَعُوا منهم أحداً ، وقال الأسود فى ذلك :

ذوقِى ببَغيك يا طسمُ مجلَّلةً فقد أتيتِ لعمرى أعجب العجبِ

---

(١) الإدهان : إظهار خلاف مايضمر ، والغش . (٢) النصفة : العدل فى الأمور .

إنا أتينـــا فلم ننفكّ نقتلهم   والبغى هيّج منا سَوْرة الغضب
ولن يعودَ علينا بغيُهم أبداً   ولم يكونوا كذى أنفٍ ولا ذنب
وإن رعيتم لنا قُرْبَى مؤكدةً   كنَّا الأقاربَ فى الأرحام والنسبِ

٨٥ — آبى الذُّل *

قال عمرُو بن[١] هندصاحبُ الحيرة يوماً لجلُسائه : هل تعلمون أنّ أحداً من العرب من أهل مملـكتى يأنَفُ أنْ تخدمَ أمُّه أمى ؟ قالوا · ما نعرفه إلا أن يكون عَمْرو[٢] بن كلثوم التغلبى ، فإنَّ أمَّه ليلى بنت مُهلهل بن ربيعة وعمها كُليب ، وزوجها كلثوم ، وابنها عمرو. فسكت عمرو على ما فى نفسه ، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يَسْتزيره ، ويأمره أن تزورَ أمُّه ليلى أمَّه هند بنت الحارث.

فقدم عمرو بن كلثوم فى فُرْسان بنى تَغْلِب ، ومعه أمُّه ليلى ، فنزل على شاطئ الفُرات ، وبلغ عَمْرَو بن هند قدومُه ، فأمر فضُربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجُوه أهل مملـكته ، وصنع لهم طعاماً ، ثم دعا الناسَ إليه، فقرّب إليهم الطعامَ على باب السُّرادق ، وجلس هو وعَمْرو بن كلثوم وخواصُّ أصحـــابه فى السرادق ، وليلى أم عمرو بن كلثوم معها فى القُبَّة ، وقال عَمْرٌو لأمه: إذا فرغ الناس من الطعام ، ولم يبق إلّا الطُّرَف[٣] فنحّى خدَمك عنك واستخدمى ليلى ومُرِيها

* ابن الأثير : ١ ـ ٢٣١ ، بلوغ الأرب : ٢ ـ ١٤٢

(١) عمرو بن هند : ملك الحيرة فى الجاهلية، عرف بنسبته إلى أمه هند. ويلقب بالمحرق ، وهو صاحب صحيفة المتلمس ، وقاتل طرفة بن العبد ، وكان شديد البأس ، كثير الفتك ، هابته العرب وأطاعته القبائل . وتوفى سنة ٥٧٨ م .

(٢) عمرو بن كلثوم: صاحب المعلقة المشهورة، وينتهى نسبه إلى تغلب، وكان فارسا شاعرا، وهو أحد فتاك العرب ، ومات قبل الإسلام بنحو نصف قرن . (٣) الطرف : جمع طرفة : ماتعطيه غيرك ويراد به ما يتنقل به بعد الطعام .

فلتُناولك الشىء بعد الشىء ؛ ففعلَتْ هند ما أمرها به ابنُها ، فلما استدْعى الطُّرَف قالت هنـد لليلى : ناولينى الطَّبَق ! قالت : لِتَقُمْ صاحبةُ الحاجة إلى حاجتها ! فألحّت عليها ، فقالت ليلى : واذُلّاه يا آل تغلب ! فسمعَها ولدُها عَمْرو بن كلثوم ؛ فثار الدمُ فى وجهه ؛ والقوم يشربون ، فعرف عَمْرو بن هند الشَّرَّ فى وجهه ، وثار ابنُ كلثوم إلى سَيْفِ ابن هند وهو معلّق بالسُّرَادق - وليس هناك سيفٌ غيره - فأخذه ، ثم ضرب به رأسَ عَمْرو بن هند فقتله ، وخرج فنادى: يا آل تغلب! فانتهبوا مالَه وخيله ، وسَبَوا النساء، وساروا فلحقوا بالحيرة[1] .

---

(١) فى هذه الواقعة قال عمرو بن كلثوم معلقته المشهورة :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبق خمور الأندرينا

وقال فيها :

بأى مشيئة عمرو بن هند ترى أنا نكون الأرذلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا

٨٦ — أجْبَنُ الناس وأحيل الناس وأشجع الناس

دخل عَمْرو[١] بن معدبكرِب على عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال له عُمَر: يا عَمْرو؛ أخبرنى عن أشجع من لَقِيت. فقال: والله يا أمير المؤمنين لأخبرنك عن أجبن الناس وأحيل الناس، وأشجع الناس: خرجت مرةً أريدُ الغارةَ، فبينما أنا أسيرُ إذ بفرس مشدودٍ، ورُمْحٍ مَرْكُوز، وإذا رجلٌ جالس، وهو كأعظم مايكون من الرجال خَلْقاً، وهو مُحْتَبٍ بسيف.

فقلت له: خُذْ حِذْرك فإنى قاتِلُك. فقال: ومن أنت؟ قلت: أنا عمرو ابن معديكرِب، فشهق شهقة، فمات. فهذا أجبنُ مَنْ رأيتُ يا أمير المؤمنين.

وخرجتُ يوماً حتى انتهيتُ إلى حىّ، فإذا أنا بفرسٍ مشدودٍ، ورُمْحٍ مركوز، وإذا صاحبُه فى وَهْدَة يقضى حاجة.

فقلت: خذ حِذْرك فإنى قاتلك. قال: مَنْ أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرِب. قال: أبا ثور[٢]، ما أنصفتَنِى! أنتَ على ظهرِ فرسك، وأنا فى بئر، فأعطنى عهداً أنك لا تقتلنى حتى أركبَ فرسى، وآخذَ حِذْرِى؛ فأعطيتُه عهداً ألّا أقتلَه حتى يركب فرسه، ويأخذ حِذْره.

---

* نهاية الأرب: ٢ – ١٧٦، الغرر: ٢٢٧

(١) عمرو بن معديكرب: فارس مشهور صاحب وقائع مذكورة، فى الجاهلية والإسلام. توفى سنة ٢١ هـ.

(٢) أبو ثور: كنية عمرو.

فخرج من الموضع الذى كان فيه ، حتى احتَبى بسيفه وجلس . فقلت له : ما هذا ؟ فقال : ما أنا براكبٍ فرسى ، ولا بمقاتلك ، فإن نكثت عهدك فأنت أعلم ، فتركتُه ومضيت .

فهذا يا أمير المؤمنين أحْيَلُ من رأيت !

ثم إنى خرجْتُ يوماً آخر ؛ حتى انتهيْتُ إلى موضعٍ كنت أقطع فيه ، فلم أرَ أحداً ، فأجريت فرسى يميناً وشمالا ، فظهر لى فارس .

فلما دنا منى إذا هو غلام قد أقبل نحو اليمامة . فلما قَرُب منى سلَّم ؛ فرددْت عليه وقلت : مَنِ الفتى ؟ قال : أنا الحارث بن سَعْد ، فارس الشهباء[(١)] ؛ فقلت له : خُذْ حِذْرك ، فإنى قاتلك ، فقال : الويلُ لك ! مَنْ أنتَ ؟ قلت : أنا عمرو بن معديكرِب . قال : الحقير الذليل؟ واللهِ ما يمنعنى مِنْ قَتْلك إلا استصغارُك ، فتصاغرتْ نفسى إلىَّ وعظُم عندى ما استقبلنى به .

فقلت له : خُذْ حِذْرك ، فواللهِ لا ينصرف إلا أحدُنا . قال : اغرُبْ[(٢)] ، ثَكِلتْكَ أمُّك ! فإنى من أهل بيت ما نَكَلْنا[(٣)] عن فارسٍ قط ! فقلت : هو الذى تسمع . قال : اختَرْ لنفسك : إما أن تُطْرِدَ[(٤)] لى ، وإما أن أُطْرِدَ لك ؛ فاغتنمتُها منه ، فقلت : أطْرِد لى . فأطرد ، وحملت عليه ، حتى إذا قلت : إنى وضعتُ الرُّمْحَ بين كتفيه ، إذا هو قد صار حِزاماً لفرسه ، ثم اتَّبعنى ، فَقَرع بالقناة رأسى ، وقال : يا عَمْرو ؛ خُذْها إليك واحدة ، فوالله لولا أنى أكره قتلَ مثلِك لقتلتُكَ ؛

---

(١) الشهباء : علم على فرس . (٢) اغرب : تنح .

(٣) مانكلنا : ماجبنا . (٤) أطردت الرجل : جعلته طريداً لا يأمن .

فتصاغرتْ إلىّ نفسى ، وكان الموتُ ـ والله يا أميرَ المؤمنين ـ أحبَّ إلىَّ مما رأيت ، فقلت : والله لا ينصرفُ إلا أحدُنا ، فقال : اختر لنفسك ؛ فقلت : أطرد لى .

فأطرد لى ؛ فظننتُ أنى قد تمكّنتُ منه ، واتّبعته حتى إذا قلت : إنى قد وضعتُ الرمح بين كتفيه ؛ فإذا هو قد صار لَبَباً[1] لفرسه ، ثم اتبعنى فقرّع رأسى بالقَناة ، وقال : يا عَمْرو ؛ خُذْها إليك ثانية . فتصاغرتْ إلىَّ نفسى ؛ فقلت : والله لا ينصرف إلا أحدُنا .

فقال : اخترْ لنفسك . فقلت : أطْرِد لى . فَأَطْرَدَ حتى إذا قلت : إنى وضعتُ الرمْحَ بين كتفيه وثب عن فرسه ، فإذا هو على الأرض ؛ فأخطأتُه ومضَيت . فاستوى على فرسه ، واتبعنى فقرع بالقناة رأسى ، وقال : يا عمرو ؛ خذها إليك ثالثة . ولولا أنى أكره قَتْل مثلك لقتلتُك .

فقلت له : اقتُلنى ، فإن الموت أحبّ إلىّ مما أرى بنفسى ، وأن تسمع فتيان العرب بهذا . فقال : يا عمرو ؛ إنما العفو ثلاث ، وإنى إن استمكنت منك الرابعة قتلتك وأنشأ يقول :

وكَدْتَ أغلاظا من الأيمانِ إن عُدْتَ يا عمرو إلى الطِّعَانِ
لتوجرَنّ[2] لَهَبَ السِّنَان[3] أوْلَا ، فلستُ من بنى شيبانِ !

فلما قال هذا كرهتُ الموت ، وهِبْته هيبةً شديدة ، وقلت : إن لى إليك حاجة . قال: وما هى ؟ قلت : أكون لك صاحبا، ورضيتُ بذلك ياأمير المؤمنين!

---

(١) اللبب: مايشد فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل. (٢) أوجره الرمح: طعنه به فى فيه.
(٣) السنان : طرف الرمح .

قال : لستَ من أصحابى . فكان ذلك والله أشدَّ علىَّ وأعظمَ مما صنع .

فلم أزَلْ أطلبُ إليه حتى قال : ويحك ! وهل تدرى أين أريد ؟ قلت : لا . قال : أريدُ الموت عيانًا . فقلت : رضيتُ بالموت معك . فقال : امضِ بنا ؛ فسِرْنا جميعَ يومنا وليلتنا حتى جَنَّنا الليل ، وذهب شَطْرُه .

فوردنا على حىّ من أحياء العرب ، فقال لى : يا عَمْرو ، فى هذا الحى الموت . ثم أومأ إلى قُبَّة فى الحى ، فقال : وفى تلك القُبَّةِ الموتُ الأحمر ؛ فإما أن تمسك علىَّ فرسى ؛ فأنزل ، فآتى بحاجتى ، وإما أنْ أُمْسِكَ عليك فرسك ؛ فتنزل فتأتى بحاجتى . فقلت : لا ، بل انزل أنت ؛ فأنت أعرفُ بموضع حاجتك ؛ فرمى إلىَّ بعنان الفرس ونزل ، فرضيتُ لنفسى يا أمير المؤمنين أن أكون له سائسا .

ثم مضى حتى دخل القُبَّة ؛ فاستخرج منها جارية، لم تر عيناى قط مثلَها حسنا وجمالا ؛ فحملها على ناقة ، ثم قال : يا عَمْرو . قلت : لبيك ! قال : عليك بزِمامِ الناقة .

وسرنا بين يديه ، وهو خَلْفَنا حتى أصبحنا، فقال لى : ياعَمْرو. قلت : لبيّك ! ما تشاء ؟ قال : التفِتْ ، فانظر هل ترى أحداً ؟ فالتفتُّ ، وقلت : أرى جمالا ، قال : أغذَّ السير[1] ، ثم قال لى : يا عَمْرو . قلت : لبيّك ! قال : انظر ، فإن كان القوم قليلا ، فالجلد والقوة والموت . وإن كانوا كثيراً فليسوا بشىء . فالتفتُّ ، فقلت : هم أربعة أو خمسة . قال: أغذَّ السير، وسمع وَقْعَ الخيل ، فقال لى: ياعمرو ،

---

(١) أغذ السير : أسرع فيه .

قلت : لبَّيك ! قال : كُنْ على يمين الطريق وقِفْ ، وحوِّل وجوه دوابّنا إلى الطريق ؛ ففعلت ، ووقفت على يمين الرَّاحلة ووقف هو عن يَسَارِها .

ودنا القومُ منا ؛ فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ ، وهو أبو الجارية وأخواها وهما غلامان شابان ؛ فسلّموا فرددنا السلام ، ووقفوا عن يسار الطريق .

فقال الشيخ : خلِّ عن الجارية يابنَ أخى ؛ فقال : ما كنت لأُخَلِّيَها ، ولا لهذا أخذتُها ! فقال لأصْغَرِ ابنيه : اخرج إليه ؛ فخرج وهو يَجُرُّ رمحه ، وحمل عليه الحارث ، وهو يقول :

مِنْ دُونِ ماتَرْجُوه خَضْبُ الذابل[1] — من فارس مُسْتَلْئِم[2] مقاتل
يُنْمَى إلى شَيبانَ خَيرِ وائلِ — ما كان سَيْرِى نحوها بباطِلِ !

ثم شدَّ عليه ؛ فطعنه طعْنةً ، دقّ منها صلبه ؛ فسقط ميتاً .

فقال الشيخ لابنه الآخر : اخرج إليه يابنى ، فلا خيرَ فى الحياة على الذل ، فخرج إليه وأقبل الحارث يقول :

لقد رأيتَ كيف كانت طعنتى ! — والطعْنُ للقِرْن الشديد هِمّتى
والموتُ خير من فِرَاقِ خُلّتى — فقَتْلتى اليوم ولا مَذلّتى

ثم شدّ عليه ، فطعنه طعنةً ، سقط منها ميتاً .

فقال له الشيخ : خلِّ عن الظّعينة[3] يا بن أخى ؛ فإنى لستُ كمن رأيتَ. قال: ما كنت لأخلّيَها ولا لهذا قصدت . فقال له الشيخ : اخترْ يابن أخى ، فإن شئت

---

(١) الذابل : القنا الرقيق ، ويقصد بخضبه غمسه فى الدم. (٢) استلأم الفارس: لبس اللأمة؛ وهى الدرع . (٣) الظعينة : المرأة ما دامت فى الهودج .

طاردتك ، وإن شئت نازلتك ؛ فاغتنمها الفتى ونزل . ونزل الشيخ ، وهو يقول :

ما أرتجي بعد فناء عُمْرِي ؟ سأجعل السّنِينَ مثل الشهر

شيخٌ يحامى دون بيضِ الخِدْرِ[1] إنَّ استباحَ البيضِ قَصْمُ الظّهر

سوف ترى كيف يكونُ صَبْرِى

فأقبل الحارث ، وهو يقول :

بعد ارتِحالى وطويلِ سَفَرِى وقد ظفِرتُ وشفَيْتُ صَدْرِى

والموتُ خيرٌ من لباسِ الغَدْرِ والعار أُهْديه لحىٍّ بكر

ثم دنا ، فقال له الشيخ : يا بْنَ أخى ؛ إن شئت نازلتك ، وإن بقيت فيك قوة ضربتنى ؛ وإن شئت فاضربنى ؛ فإنْ بقيت فىّ قوة ضربتُك .

فاغتنمها الفتى ، فقال : وأنا أبدؤك . قال : هات . فرفع الحارثُ السيفَ ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه ، ضرب بطنه ضربةً قدَّ معاه ، ووقعت ضربةُ الحارث فى رأسه ؛ فسقطا ميتين .

فأخذتُ يا أمير المؤمنين أربعة أفراس ، وأربعة أسياف . ثم أقبلت إلى الناقة فعقدتُ أعنّة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودُها . فقالت الجارية : يا عمرو ؛ إلى أين ؟ ولست لى بصاحب ، ولستَ كمن رأيت ، ولو كنت صاحبى لسلكت سبيلهم ! فقلت : اسكتى ؛ قالت : فإن كنتَ صادقاً فأعطنى سيفاً ورمحاً ؛ فإن غلبتَنى فأنا لكَ ، وإن غلبتُك قتلتُك .

---

(١) بيض الخدر : يريد به النساء .

فقلت لها: ما أنا بمعطيك ذلك، وقد عرفت أصلك،وجُرأةَ قومك وشجاعتهم،
فرمَتْ بنفسها عن البعير ، وهى تقول :

أبَعْدَ ما شَيْخِى وبَعْدَ إخْوتى   أطلبُ عيشاً بعدهم فى لذّةِ ؟
هَلْ لا تكونُ قبل ذَا مَنِيَّتى ؟

وأهوتْ إلى الرُّمح ، فكادت تنتزعُه من يدى . فلما رأيت ذلك خفتُ إن هى ظَفرت بى أنْ تقتلنى ، فقتلتُها .

فهذا أشدُّ ما رأيته يا أمير المؤمنين . فقال عمر بن الخطاب : صدقت يا عمرو !

٨٧ — خَلِّ سبيلَ الحُرَّةِ المَنِيعَة*

خرج دُرَيْدُ[١] بن الصِّمَّة فى فوارس بنى جُشَم يريد الغارةَ على بنى كِنانة ، فلما كان بوادٍ لبنى كنانة رُفِع له رجلٌ من ناحية الوادى معه ظَعينة[٢] . فلما نظر إليه قال لفارسٍ من أصحابه : صِحْ به أن خلِّ عن الظعينة وانجُ بنفسك — وهو لا يعرفه — فانتهى إليه الرجل وألَحَّ عليه ؛ فلما أبى ألقى زمام الراحلة ، وقال للظعينة :

سيرى على رِسْلِكِ سيرَ الآمنِ ... سَيْرَ رَدَاحٍ[٣] ذاتِ جأشٍ ساكِنِ

إنّ انثِنائى دون قِرْنى[٤] شائنى[٥] ... أَبْلِى بلائى واخْبُرِى وعايِنِى

ثم حمل على الفارس فصرعه ، وأخذ فرسه فأعطاه الظَّعينة . فبعث دُرَيد فارساً آخر لينظرَ ما صنع صاحبُه ؛ فرآه صريعاً ، فصاح به ، فتصامَّ عنه فظنَّ أنه لم يسمع فغَشِيَه ، فألقى زمام الراحلة إلى الظعينة ، ثم حمل على الفارس فصرعه ، وهو يقول :

خَلِّ سبيلَ الحُرَّةِ المَنِيعَهْ ... إنكَ لاقٍ دونها رَبِيعَه

---

* الأغانى: ٤ — ١٢٩ ، الأمالى: ٢ — ٢٧١ ، السمط: ٢ — ٩١٠ ، العقد الفريد: ٣ — ٣٢٤

(١) دريد بن الصمة : سيد بنى جشم وفارسهم وقائدهم : كان مظفراً ميمون النقيبة ، غزا نحو مائة غزوة ما أخفق فى واحدة منها ، وأدرك الإسلام ولم يسلم . توفى سنة ٨ هـ . (٢) الظعينة : المرأة مادامت فى الهودج . (٣) امرأة رداح : عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق . (٤) القرن : الكفء . (٥) شائنى : يعيبنى .

في كفِّهِ خَطِّيَّةٌ[1] مُطِيعَه أَوْلَا فَخُذْها طعنةً سَرِيعَه
فالطعنُ مِنِّى فى الوَغَى شَرِيعَه

ثم حمل عليه فصرعه .

فلما أبطأ على دُريد بعثَ فارساً آخر ؛ لينظُرَ ما صنعا ، فانتهى إليهما ، فرآهما صَريعين ، ونظر إليه يقُود ظعينته ، ويجرُّ رُمْحـه ، فقال له الفارس : خلِّ عن الظعينة . فقـال لهـا ربيعة : اقصدى قَصْدَ البيوت ، ثم أقبل عليه فقال :

ماذا تريد من شَتِيمٍ[2] عابس ألم تَرَ الفارِسَ بَعْدَ الفارس
أرْدَاها عامـــلُ رُمْحٍ يابسِ

ثم طعنه فصرعه ، فانكسر رمحه .

فارتاب دُريد ، وظنَّ أنهم قد أخذوا الظعينةَ وقتلوا الرجل ، فلحق بهم فوجـد ربيعة[3] بن مكدّم لا رُمح معه وقد دنا من الحىّ ، ووجد أصحابه قد قُتِلُوا ، فقال له دريد : أيُّها الفارس ؛ إن مثلك لا يُقْتَل ، وإن الخيلَ ثائرةٌ بأصحابهـا ، ولا أرى معك رُمحاً ، وأراكَ حديثَ السنّ فدونك هذا الرمح ، فإنى راجعٌ إلى أصحابى ، فمثبِّطهم عنك .

فأتى دريدٌ أصحابه ، فقال : إن فارسَ الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم وانتزع رُمحى ولا طمعَ لكم فيه ؛ فانصرف القوم ، وقال دريد :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله حامى الظعينةِ فارساً لم يُقْتَلِ

---

(١) يريد رمحاً ، والرماح تنسب إلى الخط ، ثغر بالبحرين . (٢) الشتيم : الأسد العابس .
(٣) ربيعة بن مكدم: هو أحد فرسان مضر المعدودين، وشجعانهم المشهورين. توفى سنة ٥٥٨م.

أرْدَى فوارسَ لم يكونوا نُهزَةً(١) ... ثم استمرَّ كأنه لم يَفْعَل
متهلِّلا تبْدُو أسِرَّةُ وَجْهِه ... مثل الحُسام جَلَتْهُ أيْدِى الصَّيْقَل(٢)
يُزْجى ظعينتَه ويسحبُ رُمحَه ... متوجِّهاً يُمناه نحوَ المنزل
وترى الفوارِسَ من مخافةِ رُمحِه ... مثلَ البُغاث(٣) خَشِينَ وَقْعَ الأجْدَل(٤)
يا ليت شِعْرِى مَنْ أبوه وأمُّه؟ ... يا صاحِ من يكُ مثلَه لا يُجْهَل

فقال ربيعةُ :

إن كان يَنْفَعُكَ اليقينُ فسائِلى ... عَنِّى الظعينةَ يَوْمَ وادى الأخْرَمِ
إذ هِى لأوّلِ مَنْ أتاها نُهزةٌ ... لولا طِعَانُ ربيعةَ بن مُكَدَّمِ
إذ قال لى أدْنَى الفوارسِ مِيتَةً : ... خَلِّ الظَّعينةَ طائعاً لا تَنْدَمِ
فصرفتُ راحلةَ الظعينةِ نحوه ... عَمْداً ليعلمَ بعضَ ما لم يعلمِ
وهتكتُ بالرمحِ الطَّويلِ إهابَه(٥) ... فهوى صريعاً لليدين وللفمِ
ومنحتُ آخَرَ بعده جيَّاشةً ... نجلاءَ فاغرةً كشِدْقِ الأضْجَمِ(٦)
ولقد شفعْتُهما بآخر ثالثٍ ... وأبَى الفِرارَ لِىَ الغداةَ تكرُّمِى

ثم لم يلبث بعد ذلك بنو مالك بن كنانة رهط ربيعةَ بن مُكَدَّم أنْ أغارُوا على بنى جُشَم رهطِ دريد ، فقتلوا وأسَرُوا وغنموا ، وأسروا دُرَيد بن الصمة ، فأخفى نسبَه ، فبينا هو عندهم إذا جاء نسوة يتهادَيْنَ إليه ، فصرخَتْ امرأةٌ منهن فقالت : هلكتم وأهلكتم ، ماذا جرَّ علينا قومُنا ؟ هذا والله الذى أعطى ربيعة

---

(١) النهزة : الشىء الذى هولك معرض كالغنيمة ، يقال : فلان نهزة المختلس ، أى صيد لكل أحد . (٢) الصيقل : جلاء السيوف وشحاذها . (٣) البغاث : طائر أغبر . (٤) الأجدل : الصقر . (٥) إهابه : جلده . (٦) الضجم : عوج فى الفم ، وميل الشدق . ويشبه الجرح الواسع بالفم الأضجم .

رُمْحَهُ يومَ الظعينة ، ثم ألقتْ عليه ثوبها وقالت : يا آل فِراسٍ ، أنا جارةٌ له منكم ، هذا صاحِبُنا يوم الوادى ، فسألوه : من هو ؟ فقال: أنا دُرَيد بن الصِّمَّة، فما فعل ربيعة بن مُكدَّم ؟ قالوا: قتلته بنو سُلَيم ، قال : فمن الظعينة التى كانت معه؟ قالت المرأة : رَيْطَة بنتُ جِذْل وأنا هى ، فحبسه القوم ، وآمروا أنفسهم(١) وقالوا: لا ينبغى أن تُكْفَرَ نعمةُ دريد عندنا ، وقال بعضهم : والله لا يخرجُ من أيدينا إلا برضا المُخَارق الذى أسره . فانبعَثَتِ المرأة فى الليل فقالت :

سنَجْزى دُرَيداً عن ربيعةَ نِعْمةً	وكلُّ فتًى يُجْزَى بما كان قَدَّما
فإن كان خيراً كان خيراً جزاؤه	وإنْ كان شرًّا كان شرًّا مذمَّما
سَنَجْزيه نُعْمَى لم تكن بصغيرةٍ	بإعطائه الرُّمْحَ السديد المُقَوَّمَا
فقد أدركت كفَّاه فينا جزاءه	وأَهْلٌ بأن يُجْزَى الذى كان أنْعما
فلا تكفروه حقَّ نُعْماهُ فيكمُ	ولا تركبوا تلكَ التى تَمْلأُ الفَمَا
فإن كان حيًّا لم يَضِقْ بثوابهِ	ذِرَاعاً غنيًّا كان أو كان مُعْدِما
فَفُكّوا دُرَيداً من إسَار مخارقٍ	ولا تجعلوا البُؤْسَى إلى الشرّ سُلَّمَا

فأصبح القوم، فتعاونوا بينهم فأطلقوه، وكستْهُ رَيْطه وجهَّزته، ولحق بقومه، ولم يزل كافًّا عن غزْوِ بنى فِراسٍ حتى هَلَكَ .

---

(١) آمروا أنفسهم : تشاوروا .

٨٨ — عند الموت*

حُمِلَ هُدْبَةُ بن خَشْرم[١] العُذرِىّ إلى معاوية، وكان قد قَتَل[٢] زِيادةَ بن زيد العُذْرى؛ وتقدم عبد الرحمن أخو زيادة؛ فادّعى عليه؛ فقال له معاوية: ماتقول؟ قال: أتحبُّ أن يكونَ الجوابُ شعراً أم نثراً؟ قال: بل شعراً؛ فإنه أمْتَع! فقال هُدْبة:

فلمـــا رأيتُ أنمــا هى ضَربةٌ ... من السيف أو إغضاء عَينٍ على وَتْرِ[٣]
عَمدتُ لأمرٍ لا يُعيـِّرُ والدى ... خَزَايتَهُ[٤] ولا يُسَبُّ به قَبْرِى
رُمِينا فرامَيْنا فصادف سَهْمُنا ... مَنِيّةَ نَفْسٍ فى كتابٍ وفى قَدْرِ
وأنتَ أميرُ المؤمنين فما لَنــا ... وراءكَ من مَعْدًى ولا عنكَ من قَصْرِ
فإنْ تكُ فى أموالنا لا نَضِقْ بها ... ذِرَاعاً وإن صَبْرٌ[٥] فنصبرُ للصَّبْرِ

فقال له معاوية: أراكَ قد أقررْتَ يا هُدْبَة؟ قال: هو ذاك، فقال له عبد الرحمن: أقِدْنى[٦]؛ فكرِه ذلك معاوية، وضَنّ بهُدْبَة عن القتل.

---

* رغبة الآمل: ٢ ـ ٢٣٩، الكامل: ٢ ـ ٣٠٣

(١) هدبة: شاعر إسلامى فصيح متقدم من بادية الحجاز، وكان راوية للحطيئة، وكان جميل راوية هدبة. وأما زيادة فينتهى نسبه إلى الحارث بن سعد، وكلاهما شاعر إسلامى كان فى عهد بنى أمية، توفى سنة ٥٤ هـ. (٢) كان من أمر قتل هدبة لزيادة أنهما أقبلا من الشام فى ركب من قومهما وكانا يتعاقبان سوق الإبل، فرجز كلاهما بأخت الآخر بما يقبح ذكره، فغضب هدبة حتى أصاب منه غرة فقتله. (٣) الوتر: الثأر. (٤) الخزاية: الاستحياء، ويقال: رجل خزيان، وهو الذى عمل أمراً قبيحاً فاشتد لذلك حياؤه وخزايته. (٥) الصبر هنا: الحبس حتى يموت. (٦) أقاد القاتل بالقتيل: قتله به.

وكان ابن زيادة صغيراً فوَجَّه به إلى المدينة ؛ وقال : يحبَس إلى أن يبلُغَ .

فلما بلغ كان والى المدينة سعيدَ بن العاص .

فمَّا وُقِفَ عليه من قسوته قوله :

ولما دخلْتُ السجنَ يا أمَّ مالكٍ ذكرتُكِ والأطرافُ فى حَلَقٍ سُمْرِ [1]

وعند سعيدٍ غير أنْ لم أبُحْ به ذكرتُكِ، إنّ الأمر يُذْكَر بالأمرِ

فسُئل عن هذا القول ، فقال : لما رأيت ثغر [2] سعيد ، ذكرتُ به ثغرها .

ثم إنه عرِض [3] على ابن زيادةَ عشرُ دياتٍ ؛ فأبى إلّا القوَد ، فلما خرج بِهُدْبة ليُقَاد بالحرَّة [4] ، جعل يُنْشِد الأشعارَ ، فقالت له حبّى [5] المدينية : ما رأيْتُ أقسى قلباً منك ! أتُنْشِدُ الأشعار وأنتَ يُمضَى بك إلى القتل ، وهذه خَلْفك كأنها ظبيٌ عطشانُ تُوَلْوِل - تعنى امرأته ؛ فوقف ووقف الناسُ معه ، فأقبل على حُبَّى فقال :

ما وَجَدَتْ وَجْدِى بها أمٌّ واحدٍ ولا وجْدَ حُبى بابن أمِّ كلاب [6]

رأته طويلَ الساعدَيْن شَمَرْدَلًا [7] كما انتعتَتْ [8] من قوةٍ وشَباب

فأغلقت حبى الباب فى وجهه وسبّته .

---

(١) الأطراف : يريد يديه ورجليه ، والحلق السمر : القيود والأغلال . (٢) كان سعيد من أحسن الناس ثغرا . (٣) كان ممن عرض الديات عليه الحسين بن على ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، وسائر القوم من قريش والأنصار . (٤) موضع بالمدينة . (٥) حبى : اسم امرأة كانت معروفة بالمدينة ، والمدينية بإثبات الياء ، نقل ياقوت: أنه يقال: مدنى، لمن تحول عن المدينة وكان منها، ومديني لمن أقام فيها . (٦) ابن أم كلاب: زوج حبى، وكان شابا تزوجته وكانت عجوزاً . (٧) الفتى القوى . (٨) المنتعت من الدواب والناس : الموصوف بما يفضله على غيره (اللسان - مادة نعت) .

وعرض له عبد الرحمن بن حسّان ؛ فقال : أنشدني ، فقال له : أعَلَى هذه الحال ! قال : نعم ، فأنشده :

ولستُ بمِفْرَاحٍ إذا الدهرُ سرَّني ... ولا جازعٍ من صَرْفِه[1] المتقلّبِ

ولا أتبغّى الشرَّ والشرُّ تاركي ... ولكن متى أُحْمَلْ على الشرِّ أركبِ

وحرَّبني[2] مولاى حتى غشِيتُه ... متى ما يُحرِّبْك ابنُ عمّك تحرَبِ

فلما قُدِّمَ نظر إلى امرأتِه ، فدخَلَتْه غَيْرةٌ ، وقد كان جُدِعَ في حربهم ، قال :

فإن يكُ أنفِي بانَ[3] منه جمالُه ... فما حَسَبِي في الصالحين بأجْدَعَا

فلا تَنْكحي إنْ فرّقَ الدهر بيننا ... أغَمَّ[4] القفا والوجهِ ليس بأنزعا[5]

فقالت : قِفُوا عنه ساعةً ، ثم مضتْ ورجعتْ . وقد اصطلمت[6] أنفها قالت : أهذا فعلُ مَنْ له في الرجال حاجة ؟ فقال : الآن طاب الموت !

ثم أقبل على أبوَيْه فقال :

أبْلِيَانِ اليومَ صبراً منكما ... إنَّ حُزناً منكما اليومَ لشَرّْ

ما أظنُّ الموتَ إلّا هيّناً ... إنَّ بعدَ الموتِ دارَ المستقَرّْ

ثم قال :

---

(١) صرف الدهر : حدثانه ونوائبه . (٢) حربني : حملني على الغضب . (٣) بان : هنا انفصل وذهب عنه . (٤) الغمم : سيلان الشعر حتى تضيق به الجبهة والقفا . (٥) النزع : انحسار الشعر من جانبي الجبهة . (٦) الصلم : قطع الأذن والأنف من أصله . واصطلمه : استأصله .

أَذَا العَرْشِ إنى عائذٌ بك مؤمن ... مُقِرٌّ بِزَلَّاتِي إليــك فَقِيرُ
وإنى وإنْ قالوا : أميرٌ مُسَلَّطٌ ... وحُجَّاب أبوابٍ لَهُنَّ صَرِيرُ
لأَعْلَمُ أنَّ الأمرَ أمرُكَ إن تَدِنْ[1] ... فَرَبٌّ وإن تَغْفِرْ فأنت غفورُ

ثم قال لابن زيادة : أثْبِتْ قدميك ، وَأَجدِ الضَّرْبة ، فإنى أيْتَمْتُكَ صغيراً ، وأرْمَلْتُ أمك شابة !

---

(١) تدن : تجازى .

٨٩ – تَعْدو الذئابُ على مَنْ لا كِلابَ له*

حجّ أبو الأسود[1] الدؤلى ومعه امرأته – وكانت جميلة – فبينما هى تَطُوف بالبيت إذ عرَض لها عمرُ بن أبى ربيعة ، فأتت أبا الأسود فأخبرته ، فأتاه الأسود فعاتبه ، فقال له عمر : ما فعلتُ شيئاً ، فلما عادتْ إلى المسجد عاد فكلّمها ؛ فأخبرتْ أبا الأسود ، فأتاه فى المسجد وهو مع قوم جالسٌ فقال له :

وإنى لَيَثْنِينِى عن الجهل والخَنا ... وعن شَتْم أقوامٍ خلائقُ أربعُ

حياء وإسلامٌ وبُقْيا[2] وأننى ... كريم ، ومثلى قد يَضُرُّ وينفعُ

فَشَتَّانَ ما بينى وبينك إننى ... على كل حال أستقيم وتَظْلَعُ[3]

فقال له عمر : لستُ أعودُ ياعم لكلامِها بعد هذا اليوم ، ثم عاد فكلمها ؛ فأتتْ أبا الأسود فأخبرته ، فجاء إليه فقال له :

أنتَ الفتى وابنُ الفتى وأخو الفتى ... وسيدُنا لولا خلائقُ أربعُ

نكولٌ عن الجُلّى ، وقربٌ من الخنا ... وبُخلٌ عن الجدْوى؛ وأنك تُبَّعُ[4]

ثم خرجتْ وخرج معها أبو الأسود مُشْتَمِلًا على سيف ، فلما رآها عمرُ أعرض عنها ، فتمثلّ أبو الأسود :

تَعْدُو الذِّئابُ على مَنْ لا كلاب له ... وتَتَّقى صَوْلة المستأسدِ الحامى

---

* الأغانى : ١ – ١٤٨

(١) هو ظالم بن عمرو أبو الأسود الدؤلى الكنانى صاحب على وواضع النحو ، وصاحب النوادر الممتعة فى الآداب العربية . توفى سنه ٦٩ هـ . (٢) يقال : أبقيت عليه بقيا : أشفقت عليه ورحمته.
(٣) ظلع : عرج وغمز فى مشيته . (٤) يقال : هوتبع نساء ، إذا جد فى طلبهن .

٩٠ — الأحوص وابن حَزْم الأنصارى*

شبّب الأحوص[١] بامرأة يقال لها : أم جعفر ، فقال فيها :

أدُورُ ولولا أن أرى أمّ جعفرٍ بأبياتكم ما درتُ حيثُ أدور

وما كنتُ زوّاراً ولكن ذا الهوى إذا لم يُزَرْ لا بدّ أن سيزورُ

وكان لأم جعفر أخ يقال له أيمنُ ، فاستعدى عليه ابن حَزْم الأنصارى وهو والى المدينة للوليد بن عبد الملك ، فبعث ابنُ حَزْم إلى الأحوص فأتاه ـ وكان ابنُ حزم يُبغِضه ـ فقال : ماتقول فيما يَقُولُ هذا؟ قال : ومايقول؟ قال: يزعم أنك تُشَبِّبُ بأخته ، وقد فضَحْتَه وشهَّرْتَ به ! فأنكر الأحوص ذلك .

فقال لهما : قد اشتبه علىّ أمركما ؛ ولكننى أدفع إلى كل واحدٍ منكما سوطا، ثم اجْتَلِدا ـ وكان الأحوص قصيراً نحيفاً ، وكان أيمن طويلًا ضخماً ـ فاجْتلدا ، فغلب أيمنُ الأحوص فضربه حتى صرعه وأثخنه .

فلما رأى الأحوص تحامُل ابن حزم عليه امْتدح الوليد بن عبد الملك، ثم شخص إليه فى الشام ، ودَخل عليه وأنشده :

أهْوَى أُميةَ إن شطّتْ وإن قربتْ يوماً وأُهدى لها نصحى وأشعارى

---

* العقد الفريد : ٣ ـ ٢٩١ ، الأغانى : ٤ ـ ٢٣٨

(١) كان الأحوص شاعراً سمح الطبع ، سهل الكلام ، صحيح معانى الشعر ، ولشعره رونق وديباجة صافية ، مع حلاوة وعذوبة ألفاظ ، إلا أنه كان قليل المروءة والدين ، هجاء للناس . توفى سنة ١٠٥ هـ .

ولو وردتُ عليها الفَيض[1] ماحفلت ... ولا شفتْ عَطَشِى من مائه الجارى

لا تَرْثِينَ لحزمىّ رأيتَ به ... ضُرًّا ولو أُلقِىَ الحزمىُّ فى النار

الناخِسين[2] بمَرْوانٍ بذى خُشُبٍ[3] ... والمقْحِمِينَ على عثمان فى الدار

فقال له الوليد : صدقت ، والله لقد كنّا غفلنا عن حزْم وآل حزم. ثم دعا كاتبه فقال : اكتب عهد عثمان بن حيّان المُرّى على المدينة واعزل ابنَ حزم ، واكتُبْ بقَبْضِ أمواله وأموال آل حزم ، وإسقاطهم أجمعين من الديوان ، ولا يأخذوا لأموىّ عطاء أبداً . ففعل ذلك ، فلم يزالوا فى الحرمان للعطاء مع ذهاب الأموال والضياع حتى انقضت دولة بنى أمية ، وجاءت دولة بنى العباس .

فلما قام أبو جعفر المنصور بأمر الدولة ، قدم عليه أهلُ المدينة ، فجلس لهم ، وأمر حاجبه أن يتقدّم إلى كلّ رجل منهم أنْ ينتسب له إذا قام بين يديه ، فلم يزالوا على ذلك يفعلون حتى دخل عليه رجلٌ قصير قبيح الوجه؛ فلما مَثَل بين يديه قال له : يا أمير المؤمنين ؛ أنا ابن حزمٍ الأنصارى الذى يقول فينا الأحْوص :

لا تَرْثِينَ لحزمىّ رأيتَ به ... ضُرًّا ولو أُلقِىَ الحزمىُّ فى النارِ

الناخسينَ بمروانٍ بذى خُشُبٍ ... والمقحمين على عثمانَ فى الدارِ

ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ حرمْنا العطاء منذ سنين، وقبضت أموالنا وضياعنا. فقال المنصور : أعِد علىّ البيتين ، فأعادهما عليه ، فقال : أما والله لئن كان ذلك

---

(١) الفيض : نهر بالبصرة . (٢) الناخسين بمروان : يريد الطاردين لمروان والمزعجين له ، يقال : نخسوا بفلان، إذا نخسوا دابته من خلفه، وطردوه حتى سيروه فى الآفاق. (٣) ذو خشب: واد على مسيرة ليلة من المدينة ، وكان مروان بن الحكم فى المدينة فى خلافة يزيد ، ولما كانت وقعة الحرة أخرجه الثائرون هو وعثمان بن محمد بن أبى سفيان وبقية بنى أمية ممن كان يقيم بالمدينة ، وكان فى الثائرين محمد بن عمرو بن حزم .

ضرّكم فى ذلك الحين لينفعنّكم اليوم . ثم كتب إلى عامل المدينة أن يردّ جميعَ ما اقتطعه بنو أميّة من ضياع بنى حَزْم وأموالهم ، ويحسب لهم مافاتهم من عطائهم، وما استغلّ من غَلّاتهم من يومئذ إلى اليوم ، فيخلف لهم جميع ذلك من ضياع بنى مروان ، ويفرض لكل واحدٍ منهم فى شَرَفِ العطاء[1] . ثم قال : علىّ الساعة بعشرة آلاف درهم تُدْفَع إلى هـذا الرجل لنفقته ؛ فخرج من عنده بما لم يخرج به أحدٌ مِمَّنْ دخلوا عليه .

---

(١) كان شرف العطاء يومئذ مائتى دينار فى السنة .

الباب الرابع

في القصص التي أراد بها الكتّاب تصويرَ حالة ، أو شخص ، أو مجلس ، واخترعوا لها من الكلام ما يبلغ إرادتهم ، ويدخل في ذلك الباب ما وضعوه على ألسنة الطير والبهائم ، وأنواع الحيوان من محاورات وأحاديث تحمل في أثنائها العبرة والعظة والنصح .

٩١ – أُكِلتُ يوم أُكلَ الثورُ الأبيض*

قال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه : إنما مَثَلي ومثلُ عثمان كمثل أثوار ثلاثة كنّ في أَجَمَةٍ : أبيض ، وأسود ، وأحمر ؛ ومعهنّ فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهنّ عليه .

فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا في أَجمتنا إلا الثور الأبيض، فإنّ لونه مشهور ، ولوني على لونكما ، فلو تركتماني آكله صَفَتْ لنا الأجمة ، فقالا له : دونك فكُلْه ، فأكله.

فلما مَضتْ أيام ، قال للأحمر : لوني على لونك فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة ! فقال له : دونك فكُلْه ، فأكله .

ثم قال للأحمر : إني آكِلُك لا محالة، فقال : دعني أنادي ثلاثاً ، فقال : افعل؛ فنادى : ألا إني أُكِلت يوم أُكِل الثور الأبيض ؛ ثم قال علي رضي الله عنه : ألَا إني أُهِنتُ يوم قُتِل عثمان ! يرفع بها صوته !

* مجمع الأمثال : ١ – ٢٣

(١) الأجمة : الشجر الكثير الملتف .

٩٢ — حديث السقيفة*

قال أبو حيَّان(١) علىُّ بنُ محمدٍ التَّوْحيدىُّ البغدادى : سَمَرْنا ليلةً عند القاضى أبى حامدٍ أحمدَ(٢) بنِ بِشْر المرْوَرُّوذِىّ ببغداد ، فتَصَرَّف فى الحديث كلَّ مُتَصرَّف ، وكان غَزِيرَ الرِّواية ، لطيف الدِّراية ، فجرى حديثُ السَّقِيفةِ ؛ فركب كلٌّ مركباً ، وقال قوْلًا ، وعرَّض بشىء ، ونزع إلى فنّ .

فقال : هل فيكم من يَحْفظُ رسالة لأبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، إلى علىّ ابنِ أبى طالب كرّم الله وجهه ، وجوابَ علىٍّ عنها ، ومُبايعتَهُ إياه عَقِبَ تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من بناتِ الحقائق ، ومُخَبَّآتِ الصنادق ، ومنذُ حَفِظْتُها مارَوَيْتُهَا إلا لأبى محمدٍ المهلّبىّ فى وزارته ، فكتبَها عنى بيده وقال : لا أعرِفُ رِسالةً أعقلَ منها ولا أبْيَن ، وإنها لَتدلُّ على علمٍ وحلمٍ ، وفصاحة ونباهةٍ ، وبُعْدِ غَوْرٍ ، وشدة غَوْص .

فقال له العبّادَانى : أيها القاضى ؛ فلو أتممتَ المِنّةَ علينا بروايتها ؛ أسمَعْناها ؛ فنحن أوْعَى لك من المُهلّبىّ ، وأوجبُ ذِماماً عليك ، فاندفع ، وقال :

حدثنا عيسى بن دَأْب ، قال : سمعتُ مولاىَ أبا عُبَيْدَة يقول : لما اسْتَقامَتِ الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنةٍ كاد الشيطانُ

---

* ابن أبى الحديد : ٢ — ٥٩٣ ، صبح الأعشى : ٢ — ٢٧٣ ، نهاية الأرب : ٧ — ٢١٣

(١) فيلسوف متصوف ، ولد فى نيسابور ، وأقام مدة ببغداد ، وانتقل إلى الرى فصحب ابن العميد والصاحب بن عباد ، توفى نحو سنة ٤٠٠ هـ .

(٢) قاض من أكابر الفقهاء أصحاب الشافعى ، أقام زمناً بالبصرة ، ثم رحل إلى بغداد . توفى سنة ٣٦٢هـ.

بها ، فدفع اللهُ شرّها ، ويسّر خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلكؤٌ وشِماس[1] ، وتهمُّم[2] ونفَاس[3] ، فكرِه أن يتمادَى الحالُ فتبدُوَ العورةُ ، وتَشتَعِلَ الجمرة ، وتتفرّقَ ذاتُ البَيْن ؛ فدعانى بحضرته فى خَلْوَةٍ ـ وكان عنده عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه وَحْدَه ـ فقال : يا أبا عُبَيْدَة ؛ ما أيمنَ ناصِيتَكَ ، وأبْيَنَ الخيرَ بين عينيك ! طالما أعزَّ اللهُ بك الإسلام ، وأصلحَ شأنَه على يديك ، ولقد كنتَ من رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحلّ المغبُوط ؛ ولقد قال فيك فى يوم مشهود : « لكلِّ أمة أمينٌ ، وأمينُ هـذه الأمّةَ أبو عُبَيْدَة » ، ولم تزل للدين مُلْتَجأ ، وللمؤمنين مُرْتجَى ، ولِأهلكَ رُكنًا ، ولإخوانك رِدْءًا .

قد أردتُك لأمرٍ خطرُه مَخُوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم يَنْدَمِلْ جُرْحُه بيسارك ورِفقِكَ ، ولم تَجِبْ[4] حيَّة برُقْيتِكَ ، وَقَعَ اليأسُ ، وأعْضَل البأس ، واحتيجَ بعدذلك إلى ماهو أمرّ منه وأعْلَقُ ، وأعسرُ منه وأغْلَق ، واللهَ أسألُ تمامه بك ونظامه على يديك ، فتأتَّ[5] له أبا عبيـدة وتلطّف فيه ، وانصحْ لله عزّ وجلّ ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذه العِصابة غيرَ آلٍ جُهْداً ، ولا قالٍ حمداً ، والله كالِئُكَ وناصِرُك ، وهاديك ومبصِّرُك إن شاء الله .

امضِ إلى عليّ ، واخفِض له جناحَك ، واغْضُضْ عنده صوتَك ، واعلمْ أنه سلالةُ أبى طالب ، ومكانُه ممن فَقَدْناه بالأمس ـ صلى الله عليـه وسلم ـ مكانه

---

(١) الشماس : المعاندة والمعاداة . (٢) التهمم : من تهمم الشىء : طلبه وتحسسه . (٣) نافس فى الشىء : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة . (٤) تجب : تقطع . (٥) تأت له : تهيأ له وأتاه من وجهه .

وقل له : البحر مَغْرَقة، والبرُّ مَفْرَقَةٌ ، والجوُّ أكْلَف [1] ،والليل أغْدَف [2] ،والسماء جَلْوَاء [3] ، والأرض صَلْعاء [4] ، والصعودُ متعذِّرٌ،والهبوطُ مُتَعَسِّر، والحق عَطوف رَءوف ، والباطل عَنوف عَسوف ، والعُجْبُ قَدَّاحةُ الشرِّ ،والضِّغْن رائد البَوَار، والتعريض شِجَارُ الفتنة ، والقِحَة ثَقُوبُ [5] العداوة ؛ وهذا الشيطان مُتَّكِىءٌ على شِماله ، مُتَحَيِّلٌ [6] بيمينه ، نافخ حِضْنَيْهِ [7] ، ينتظر الشَّتات والفُرْقة ، ويَدِبّ بين الأمة بالشَّحْناء والعداوة ، عِناداً لله عزّ وجل أولا،ولآدم ثانياً،ولنَبِيِّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودينه ثالثاً ، يُوسْوِس بالفجور ، ويُدَلِّي بالغرور ، ويمنِّى أهل الشرور، يُوحى إلى أوليائه زُخْرُفَ القول غروراً بالباطل ، دَأْباً له منذ كان على عهد أبينا آدم ، وعادةً له منذ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر ، لا مَنْجَى منه إلا بِعَضِّ الناجذ [8] على الحق ، وغَضِّ الطرف عن الباطل ، وَوَطْءِ هامَةِ عَدُوِّ الله بالأشدِّ فالأشدّ ، والآكَدِ فالآكَدِ ، وإسلامِ النفس لله عز وجل فى ابتغاء رضاه .

ولا بد الآن من قولٍ ينفع إذ قد أضرَّ السكوت ، وخِيف غِبُّه ؛ ولقد أرشدك مَنْ أفاء [9] ضالّتك ، وَصَافاك من أحْيا مودَّته بِعتابك ، وأراد لك الخير مَن آثر البقاء معك .

ماهذا الذى تسوِّل لك نفسك ؟ ويَدْوَى [10] به قلبُك ، ويلتوى عليه رأيُكَ،

---

(١) أكلف : أسود تعلوه حمرة . (٢) أغدف : مظلم . (٣) جلواء : مصحية . (٤) صلعاء : خالية لاشجر فيها . (٥) ثقوب : ما أشعل به . (٦) التحيل : الاحتيال . (٧) نافخ حضنيه : أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر . (٨) عض عليه بالنواجذ ، أى تمسك به . (٩) أفاء : أرجع . (١٠) دوى الطائر : إذا دار فى طيرانه .

ويتخاوصُ(١) دونه طَرْفك ، ويَسْرِى فيه ظَعْنُك ، ويَتَرَادُّ معه نَفَسُك ، وتكثر معه صُعَداؤك ، ولا يفيضُ به لسانُك ؟ أعُجْمَةٌ بعد إفصاح ! أتلبيسٌ(٢) بعد إيضاح ؟ أدِينٌ غيرُ دينِ الله ؟ أخُلُقٌ غيرُ خُلقِ القرآن ؟ أهُدًى غيرُ هُدَى النبي صلى الله عليه وسلم ! أمِثْلى تمشى له الضَّرَاء وتدِبُّ له الخَمَرَ(٣) ! أم مِثْلك يَتَقَبَّضِ عليه الفَضاء ، ويُكْسَفُ فى عينه القمر ؟ ما هذه القَعْقَعَةُ بالشِّنَان(٤) ! وما هذه الوَعْوَعَة باللسان !

إنك والله جِدُّ عارفٍ باسْتِجابتنا لله عزّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالِنا وأولادِنا وأحِبّتنا ؛ هجرةً إلى الله عزّ وجلّ ، ونُصرةً لدينه فى زمانٍ أنتَ فيه فى كِنٍّ الصبا ، وخِدْرِ الغَرارة ، وعُنْفُوان الشبيبة ، غافلٌ عمّا يُشِيبُ ويُرِيب ، لا تَعِى مايُرادُ ويُشَاد ، ولا تُحَصِّل ما يُسَاقُ ويقاد ، سوى ما أنتَ جارٍ عليه إلى غايتك التى إليها عُدِلَ بك ، وعندها حُطَّ رَحْلُك ، غيرَ مجهول القَدْرِ ، ولا مَجْحُودِ الفَضْل ؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعانى أحوالًا تُزِيل الرَّواسِى ، ونُقَاسى أهوالًا تُشيب النَّواصى ، خائضين غمارها ، راكبين تيّارها ، نتجرّعُ صابها ، ونَشْرَجُ(٥) عِيابَها ، ونُحْكِم أساسَها ونُبْرِمُ أمراسَها(٦) ، والعيونُ تُحَدِّجُ(٧) بالحسدِ ، والأنوفُ تَعْطِس بالكِبْر ، والصدورُ تَسْتَعِر بالغَيْظ ، والأعناق

(١) يتخاوص : يغض عن بصره . (٢) التلبيس : التخليط . (٣) الضراء ، أصل الضراء : الشجر الملتف فى الوادى ، والمراد الاستخفاء . والخمر : ما واراك من شجر ، وهو مثل يضرب لمن يخدع صاحبه . (٤) الشنان : جمع شن ، وهو القربة الخلق الصغيرة ، والقعقعة : الصوت . يريد أنه لا يخوف بمثل هذا . (٥) أشرج العيبة وشرجها : ضم بعض عراها إلى بعض ، والعياب : جمع عيبة ، وهى وعاء من أدم تجعل فيه الثياب . (٦) أمراسها : جمع مرس ككتف : وهو الحبل . (٧) تحدق .

تتطاول بالفَخْرِ ، والشِّفَارُ تُشْحَذُ بالمكر ، والأرض تَميد بالخوف ، لا نَنْتَظِرُ عند المساء صَباحاً ، ولا عند الصباح مَساء ، ولا ندفعُ فى نَحْرِ أَمْرٍ إلا بعد أن نَحْسُوَ الموتَ دونه ، ولا نبلغ مُراداً إلا بعد الإياس من الحياة عنده ، فادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم ، والخال والعم ، والمال والنَّشَب، والسَّبَد واللَّبَد(١) ، والهِلَّةِ(٢) والبِلَّة ، بِطِيبِ أنفُس ، وقُرَّةِ أَعْيُن ، ورُحْبِ أَعْطانٍ ، وثَبَاتِ عزائم ، وصِحَّةِ عقول ، وطلاقةِ أَوْجه ، وذَلَاقَةِ أَلْسُن .

هذا مع خَفِيَّاتِ أسرار ، ومكنوناتِ أخبار ، كنتَ عنها غافِلًا ، ولولا سِنُّك لم تَكن عن شىء منها نا كِلًا(٣) ، وكيف وفؤادُك مَشْهوم(٤) ، وعودُك معجوم ! والآن قد بلغ الله بك ، وأَنْهَضَ الخيرَ لك ، وجعل مرادَك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ، فارتقبْ زمانَك ، وقَلِّص أَرْدَانَك(٥) ، ودَع التَّعَسُّسَ والتجسسَ لمنْ لا يَظْلَعُ(٦) لك إذا خطا ، ولا يتزحزحُ عنك إذا عَطَا(٧) ؛ فالأمرُ غَضٌّ ؛ والنفوس فيها مَضٌّ ، وإنك أديمُ هذه الأمة ، فلا تَحْلَمْ(٨) لَجاجاً ، وسيفُها العَضْب ، فلا تَنْبُ اعوِجاجاً ، وماؤها العَذْب ، فلا تَحُلْ أُجاجاً .

والله لقد سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر ، فقال لى : يا أبا بكر ؛ هو لمن يرغبُ عنه لا لمن يُجَاحِشُ(٩) عليه ، ولمن يتضاءلُ عنه لا لمن

---

(١) السبد : الشعر . واللبد : الصوف . والمراد : نفديه بكل ما نملك . (٢) يقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة : أى لم يأتنا بشىء ، فالهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة من البلل والخير . (٣) نكل عن الشىء : نكص وجبن . (٤) مشهوم : ذكى متوقد . (٥) الأردان : جمع ردن : وهو أصل الكم أو الكم كله . (٦) ظلع فى مشيه : عرج وغمز . (٧) عطا : مد إليك عنقه وأقبل نحوك . (٨) حلم الجلد : فسد وتثقب . (٩) يطلبه ويدافع عنه .

يَتَنَفَّجُ(١) إليه ؛ هو لمن يُقال هو لك ، لا لمن يقول هو لى .

ولقد شاورنى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الصِّهْر ، فذكر فتياناً من قريش ، فقلت : أينَ أنتَ من علىّ ! فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أكرَه لفاطمةَ مَيْعَةَ(٢) شَبَابِه ، وحداثةَ سِنّه . فقلت له : متى كَنَفَتْهُ يدُك ، ورعَتْه عينُك ، حفّت بهما البركةُ ، وأُسْبِغَتْ عليهما النعمةُ ؛ من كلام كثير خاطبته به ؛ رغبةً فيك ، وما كنتُ عرفتُ منــك فى ذلك لا حَوْجاء(٣) ولا لَوْجاء ، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك ، وأجدُ رائحة سواك ، وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى .

ولئن كان عرّض بك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، فلم يكن مُعْرِضاً عن غيرك ؛ وإن كان قال فيك فما سكت عن سِوَاك ؛ وإن تَلَجْلَجَ(٤) فى نفسك شىءٌ فهلمّ ، فالحُكْمُ مرضىٌّ ، والصواب مَسْمُوع ، والحقّ مُطَاع .

ولقد نُقِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى اللهِ عزّ وجل ، وهو عن العصابة راضٍ ، وعليها حَدِب ، يسرُّه ما سرَّها ، ويسوءُه ما ساءها ، ويَكِيدُه ما كادها ، ويرضيه ما أرضاها ، ويُسخِطُه ما أسخطها .

أمَا تعلم أنه لم يَدَعْ أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه(٥) ، إلا أبَانَهُ بفضيلة ، وخصَّه بمزيّةٍ ، وأفرَدَهُ بحالة ، لو أصفقت الأمةُ عليه لأَجْلِها لـكان عنده إيالتها

---

(١) يتطلع ويرتفع إليه. (٢) ميعة الشباب : أوله. (٣) أى ما كنت عرفت منك شيئاً.
(٤) تلجلج : تردد . (٥) سجرائه : أصفيائه .

وكَفالَتها[١] . أتظنُّ أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدًى بدَداً ؛ عَباهِل[٢] مباهلَ ، طلاحَى[٣] مَفتونةً بالباطل ، معنونةً[٤] عن الحق ؛ لا رائد ولا ذائد ، ولا ضابطَ ولا حائط ، ولا ساقَ ولا واق ، ولا هاديَ ولا حادى ! كلا ! والله ما اشتاقَ إلى ربه ، ولا سأله المصيرَ إلى رضوانه وقُرْبِه ؛ إلا بعد أن ضَربَ المَدَى ، وأوضح الهُدَى ، وأبَانَ الصُّوَى[٥] ؛ وأمَّن المسالكَ والمطَارِح ؛ وسهّل المباركَ والمَهايع[٦] ؛ وإلّا بعد أن شَدَخَ يافوخَ[٧] الشِّرْك بإذْنِ الله ، وشرم وَجْهَ النفاق لوجه الله ، وجدع أنفَ الفتنة فى ذات الله ، وتَفَل فى عينِ الشيطان بعونِ الله ، وصدع بملء فِيه ويَدِه بأمر الله عزَّ وجلَّ .

وبعدُ فهؤلاء المهاجرون والأنصارُ عندك ؛ ومعك فى بُقْعَةٍ واحدة ؛ ودارٍ جامعةٍ ، إن استَقَالُونِى لك وأشاروا عندى بك ، فأنا واضعٌ يدى فى يدك ، وصائرٌ إلى رأيهم فيك .

وإنْ تكن الأخرى فادْخُل فيما دَخَلَ فيه المسلمون ؛ وكُنِ العونَ على مصالحهم ، والفاتِحَ لِمَغَالِقِهِمْ ، والمُرْشِدَ لضالّتهم ، والرادع لغَوايتهم ؛ فقد أمر الله تعالى بالتَّعاوُنِ على البرّ والتقوى ، والتَّناصر على الحق ، ودعنا نقضى هذه الحياةَ الدنيا بصدُور بريئة من الغِلّ ؛ ونلقى الله تعالى بقلوب سليمةٍ من الضِّغن .

---

(١) أصفقوا على كذا : أطبقوا ، وآل على القوم إيالة : ولى . (٢) عباهل مباهل : مهملة .
(٣) الطلاحى : الكالة المعيية . (٤) معنونة ، من عننت الفرس : حبسته بالعنان . (٥) الصوى : الأعلام . (٦) المهايع : الطرق . (٧) اليافوخ : ملتقى عظم مقدم الرأس ومؤخره .

وبعد فالناس ثُمَامَةٌ[1] فارْفق بهم ؛ واخنُ عليهم ، ولِنْ لهم ، ولا تُشْقِ نفسك بنا خاصة منهم ؛ واترُكْ ناجِمَ[2] الحقدِ حصيداً ؛ وطائر الشر واقعاً ؛ وبابَ الفتنةِ مغلَقاً ، فلا قال ولا قِيل ؛ ولا لَوْمَ ولا تعنيف ، والله على ما تقول شهيد ، وبما نحن عليه بَصير .

قال أبو عُبَيْدة : فلما تأهَّبْتُ للنهوض قال عُمَر — رضى الله عنه : كُنْ لَدَى الباب هُنَيْهة ، فلى معك دورٌ من القول ، فوَقَفْتُ وما أدرى ما كان بعدى ، إلا أنهُ لحقنى بوجهٍ يبْدِى تَهلُّلا ، وقال لى : قل لِعَلِيّ : الرقادُ مَحْلَمَةٌ ، والهوى مَقْحَمَةٌ[3] ، وما منّا إلا له مقام معلوم ، وحقٌّ مشاعٌ أو مقسوم ، ونبأٌ ظاهر أو مكتومٌ ؛ وإن أكْيَسَ الكَيْس من مَنَح الشارِدَ تألُّفاً ، وقاربَ البعيد تلطُّفاً ، ووَزَنَ كلَّ شىء بميزانِه ، ولم يخلط خَبَرَهُ بعِيانِه ، ولم يجعل فِتْرَهُ مكانَ شِبْرِه ؛ دِيناً كان أو دنيا ؛ ضلالاً كان أو هُدًى .

ولا خير فى عِلْمٍ مُسْتَعْمَل فى جهل ، ولا خير فى معرفةٍ مَشُوبَةٍ بنُكْرٍ . ولسنا كَجِلْدَةِ رُفْغِ[4] البَعير بين العِجان والذَّنَبِ . وكل صالٍ فبِنارِه ؛ وكلُّ سَيْلٍ فإلى قَرارِه . وما كان سكوتُ هذه العصابة إلى هذه الغاية لِعِيّ ، ولا كلامها اليوم لِفَرَق أوْ رِفْقٍ . وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنْفَ كلِّ ذى كِبْر ، وقصم ظَهْرَ كلِّ جبار ؛ وقطع لسانَ كلِّ كذوب ، فماذا بَعْدَ الحقِّ إلا الضلال !

---

(١) الثمامة : واحدة الثمام ، وهو نبت ضعيف وهو على التشبيه . (٢) نجم : طلع وظهر ، والحصيد : المحصود . (٣) قحم فى الأمر : رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية . (٤) الرفغ : أصل الفخذ من باطن ، والعجان : الاست ، يريد أن منزلتهم بين الأحياء ليست حقيرة مهينة .

ما هذه الخُنْزُوانة[١] التى فى فَرَاش[٢] رأسِكَ ؟ ما هـذا الشّجا المعترض فى مدارج أنفاسك ! ما هذه القَذَاة التى أغْشَتْ ناظِرَكَ ! وما هذه الوَحرَةُ[٣] التى أكَلَتْ شراسِيفَكَ[٤] ! وما هذا الذى لبستَ بسببه جِلْدَ النمر ، واشْتَمَلْتَ عليه بالشّحْناء والنُّكْر !

ولسنا فى كِسْرَوِيّة كِسْرَى ، ولا فى قيصرية قَيْصَر ! تأمّل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ، قد جعلهم الله جَزَراً[٥] لسيوفنا، ودَرِيئَةً[٦] لرماحنا، ومرمًى لِطِعَانِنا، وتبعاً لسلطاننا ؛ بل نحن فى نورِ نُبُوّةٍ ، وضياء رسالةٍ ، وثمرةِ حِكْمَةٍ، وأثرة رحمة، وعُنوان نعمةٍ ، وظلُّ عِصْمَةٍ ، بين أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الرَّتْقِ والفَتْقِ ، لها من الله قلبٌ أبِيّ ، وساعد قوى ، ويدٌ ناصرة ، وعين ناظرة .

أتظنُّ ظنًّا يا علىّ أن أبا بكر وثَبَ على هذا الأمرِ مُفْتَاتاً على الأمة ، خادعاً لها أو مُتَسَلِّطاً عليها ! أتُرَاه حلّ عقودها ، وأحَالَ عقولَها ! أتُرَاه جعل نهارها ليلا ، ووزنها كَيْلا ، ويَقَظَتَهَا رُقاداً ، وصلاحَها فساداً ! لا والله ! سَلَا عنها فَوَلِهَتْ له ، وتطامن لها فَلَصِقَتْ به ، ومال عنها فمالت إليه ؛ واشمأزّ دونها فاشتملت عليه، حَبْوَةٌ حَبَاهُ الله بها ، وعاقِبَةٌ بلَّغه الله إليها ، ونِعمةٌ سَرْبَله الله جمالَها ،ويدٌ أوجب اللهُ عليه شكرَها ، وأمة نظر الله به إليها ، والله أعلم بخَلْقِهِ ، وأرْأفُ بعباده ، يختار ما كان لهم الخِيَرَةُ .

وإنك بحيث لا يُجْهَلُ مَوْضِعُك من بيت النبوّة ، ومعْدِنِ الرسالة، ولا يُجْحَد

---

(١) الخنزوانة : الكبر . (٢) فراش الرأس : عظام رقاق تلى القحف. (٣) الوحرة: وزغة ، والمراد العداوة والحقد . (٤) الشراسيف : جمع شرسوف ، وهو الطرف المشرف على البطن من الضلع . (٥) الجزر: كل شىء مباح للذبح . (٦) الدريئة : الحلقة يتعلم عليها الطعن والرمى .

حقَّكَ فيما آتاك الله ؛ ولكن لكَ مَنْ يزاحمك بمَنْكِبٍ أضخمَ من مَنْكِبِكَ ، وقُرْبَى أمسَّ من قُرْباك ، وسنٍّ أعْلَى من سنِّكَ ، وشيبةٍ أرْوَعَ من شيبتك ، وسيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية وفرع فى الإسلام ، ومواقفَ ليس لك فيها جملٌ ولا ناقةٌ ، ولا تُذْكر فيها فى مقدّمة ولا ساقةٍ[١] ، ولا تضرِبُ فيها بذراع ولا إصبع ، ولا تخرجُ منها ببازلٍ ولا هُبَع[٢] ، ولم يزل أبو بكرٍ حبّةَ قلبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلاقةَ نفسه ، وعَيبةَ سرّه ، ومفزع رأيه ومشورته ، وراحةَ كفّه ، ومرمقَ طَرْفِه ، وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار ؛ شُهْرَته مغنية عن الدليل عليه .

ولعمرى إنك أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ،ولكنه أقربُ منك قُرْبَة[٣] ، والقرابةُ لحم ودم ، والقُرْبَة نفس وروح .

وهذا فَرْقٌ عرَفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون . ومهما شككْتَ فى ذلك ، فلا تشكّ فى أنّ يد الله مع الجماعة ، ورضوانه لأهل الطاعة . فادخل فيما هو خير لك اليوم ، وأنفعُ لك غداً ، والفِظْ مِنْ فِيك ما يعلق بلهاتك ، فإنْ يك فى الأمدِ طول ، وفى الأجل فُسْحَة ، فستأكله مريئاً أو غير مرىء ، وستشربه هنيئاً أو غير هنىء ، حين لا رادّ لقولك إلا مَنْ كان آيساً منك ، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك ، يَمُضُّ[٤] إهابك ، ويعرُكُ[٥] أديمك ، ويزْرِى على هديك ، هنالك تقرع السنَّ من ندم ، وتَجَرَّع الماء ممزوجا بدم ، وحينئذ تأْسى[٦]

---

(١) ساقة الجيش : مؤخره . (٢) البازل : الجمل القوى الذى دخل فى سنته التاسعة ، والهبع : الفصيل الذى ينتج فى الصيف فيكون ضعيفاً . (٣) القربة : الوسيلة . (٤) يمض إهابك : يحرق جلدك . (٥) يعرك أديمك : يدلك . (٦) تأسى : تحزن .

على ما مضى من عمرك ودَارِجِ قوتك ، فتودّ أنْ لو سقيت بالكأس التى أبيتها ، وَرُدِدْتَ إلى حالتك التى استَغْوِيتَها . ولله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغُه ، وغيب هو شاهدُه ، وعاقبة هو المرجوُّ لسَرَّائها وضرائها ، وهو الولى الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عُبَيْدَة : فتمشيتُ متزمِّلا[١] ، أنوء كأنما أخطُو على رأسى ، فَرَقًا من الفُرْقَة ، وشفقا[٢] على الأمة حتى وصلت إلى علىّ رضى الله عنه فى خلاء ، فابتَثَثْتُه[٣] بَثّى كله ، وبرئْت إليه منه ، ورفقت به ؛ فلما سمعها ووعاها ، وسرَتْ فى مفاصلِه حُميَّاها قال : حلَّتْ مُعْلَوَّطَةً[٤] ، وولّت مُخْرَوِّطَةً[٥] ، وأنشأ يقول :

إحْدَى لياليكِ فهِيسِى[٦] هِيسِى   لَا تَنْعَمِى الليلةَ بالتَّعْرِيس[٧]

نعم يا أبا عبيدة ، أكلُّ هذا فى أنفس القوم ، ويحِسُّون به ، ويَضطغِنُون[٨] عليه !

قال أبو عبيدة :

فقلت : لا جوابَ لك عندى ، إنما أنا قاضٍ حقّ الدّين ، وراتقٌ فتقَ المسلمين ، وسادٌّ ثُلْمَةَ الأمة ، يعلم الله ذلك من جُلْجُلَانِ[٩] قلبى ، وقرارةِ نفسى .

فقال على رضى الله عنه: والله ما كان قعودى فى كِسرِ هذا البيت قصداً للخلاف

---

(١) متزملا : تزمل : تلفف . (٢) الشفق : الشفقة . (٣) أبثثته السر : أظهرته له . والبث: الحال . (٤) معلوطة : مقتحمة من غير روية . (٥) مخروطة : مسرعة . (٦) هيسى: سيرى أى سير كان . (٧) عرس القوم : نزلوا فى آخر الليل للاستراحة . (٨) أى ينطوون على الضغن وهو الحقد . (٩) جلجلان قلبى : أى حبته .

ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زِرَاية على مُسْلِمٍ ، بل لما قد وَقَذَنِي[1] به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفَقْدِه . وذلك أنني لم أشهدْ بعده مشهداً إلا جدّد عليّ حزناً ، وذكّرني شجَناً ، وإنّ الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، وقد عَكَفْتُ على عَهدِ الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق ، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومشيئته ، وأمرِه ونَهْيِهِ ، على أني ما علمت أنّ التظاهر عليّ واقعٌ ، ولا عن الحق الذى سيقَ إليّ دافع .

وإذ قد أُفعِمَ الوادى بى ، وحُشِد النادى من أجلى ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين وسرنى . وفى النفس كلامٌ لولا سابقُ عَقْدٍ وسالفُ عَهْدٍ ، لشفيتُ غيظى بِخِنْصَرِى وبِنِصَرِى ، وخُضْتُ لُجّته بِأَخْمَصِى وَمَفْرِق ، ولكنى مُلْجَمٌ إلى أنْ ألقى اللهَ ربى ، وعنده أحتَسِبُ ما نزل بى . وإنى غاد إلى جماعتكم ، فمبايعٌ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءنى وسرّكم ، ليقضيَ الله أمراً كان مفعولا .

قال أبو عُبَيْدة: فَعُدْتُ إلى أبى بكرٍ رضى الله عنه ، فقصصت عليه القول على غرّه[2] ، ولم أخْتَزِل شيئاً من حُلْوِهِ ومُرِّه ، وبكّرْت غُدْوَةً إلى المسجد، فلما كان كان صباح يومئذٍ إذا علىٌّ يخترق الجماعةَ إلى أبى بكر رضى الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلا ، وجلس زَمِيتاً ، واستأذَنَ للقيام ، فمضى وتبعه عمر مُكْرِماً له ، مستثيراً لما عنده .

وقام أبو بكر إليه فأخذ بيده وقال : إن عصابةً أنتَ منها يا أبا الحسن

---

(١) وقذه : تركه عليلا ، وصرعه . (٢) على غره : أى كما هو ، وكما قص على .

لمعصومةٌ ، وإن أمةً أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحتَ عزيزاً علينا ، كريماً لدينا ، نخافُ الله إذا سخِطْتَ ، ونرجوه إذا رضيت ، ولولا أنى شُدِهتُ[١] لما أجبتُ إلى ما دُعيتُ إليـــه ، ولـكنى خِفتُ الفُرْقة ، واستئثار الأنصار بالأمر على قريش ، وأُعْجِلت عن حضورك ومشاورتك ، ولو كُنْتَ حاضراً لبايعتُك ولم أعدِلْ بك ، ولقد حطّ الله عن ظَهْرِك ما أثقل كاهلى به ، وما أسدَّ مَنْ ينظر الله إليه بالـكفاية ؛ وإنا إليك لمحتاجون ، وبفضلك عالمون ، وإلى رأيك وهَدْيِك فى جميع الأحوال راغبون ، وعلى حمايتك وحَفِيظتك[٢] معوّلون . ثم انصرف وتركه مع عمر ؛ فالتفت علىّ إلى عمر فقال :

والله ما قعدتُ عن صاحبـكم كارهاً ، ولا أتيته فَرَقاً ، ولا أقولُ ما أقول تَعِلّةً[٣] .

وإنى لأعرف منتهى طَرْفى ، ومَحَطَّ قدمى ، ومَنزِعَ قوسى ، ومَوْقعَ سَهمى ؛ ولـكن قد أَزَمْتُ[٤] على فأسى ؛ ثِقَةً بربّى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفْـكِفْ غَرْبَكَ ، واستوقِفْ سِرْبَك ، ودع العِصِىَّ بلحائها ، والدِّلاء على رشائها[٥] ، فإنّا من خَلفها ووراءها ، إن قَدَحْنا أَوْرَيْنا ، وإن مَتَحْنا أَرْوَيْنَا ، وإن قَرَحْنَا[٦] أدمَيْنَا ، ولقد سمعت أماثيلك[٧] التى لَغَزْتَ بها صادرة عن صدرٍ أكِلٍ بالجوَى ، ولو شئْتُ لقُلْتُ على مَقَالتك ما إن سمِعتَه نَدِمْتَ على ما قلتَ ، وزعمتَ أنك قعدتَ فى رِكنٍ بيتك لما وقَذَك به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مِن فَقْدِه ، فهو وقذك ولم يَقِذْ غيرَك ! بل مصابُه

---

(١) شدهت : دهشت . (٢) الحفيظة : اسم بمعنى المحافظة . (٣) التعلة : ما يتعلل به .

(٤) أزم الفرس على فأس اللجام : إذا عضها وقبض عليها ، وفأس اللجام : الحديدة المعترضة منه فى الحنك ، يريد أنه كتم ماق نفسه . (٥) الرشاء : حبل الدلو . (٦) قرح : جرح .

(٧) أماثيل : جمع أمثولة ، تمثل : إذا أنشد بيتا ثم آخر ثم آخر وهى الأمثولة .

أعظمُ وأعمُّ من ذلك ، وإنّ من حقٍّ مُصابه ألا تصْدع شملَ الجماعة بفُرْقَةٍ لاعصامَ لها ، ولا يُؤْمَنُ كيدُ الشيطان فى بقائها ، هذه العربُ حولَنا ، والله لو تداعت علينا فى صُبْح نهار لم نَلْتَق فى مسائه .

وزعمتَ أن الشَّوْقَ إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمِنْ علامَةِ الشَّوْق إليه نُصرةُ دينه ، ومؤازرة أوليائه ، ومعاونتُهم .

وزعمت أنك عكفتَ على عَهْدِ الله تجمعُ ما تفرَّق منه ؛ فمن العُكُوف على عهــد الله النصيحةُ لعبادِ الله ، والرأفةُ على خَلْقِ الله ، وبذلُ ما يَصْلُحُون به ويَرْشُدون عليه .

وزعمتَ أنكَ لم تعلم أنَّ التظاهر واقعٌ عليك ، أىُّ حقٍّ لُطَّ[1] دونك ! قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصارُ بالأمس سرًّا وجهرا ، وتقلّبتَ عليه بطنًا وظهراً ، فهل ذكرَتْكَ أو أشادَتْ بك ، أو وجَدْتَ رِضاهم عنك ؟ هل قال أحدٌ منهم بلسانه : إنك تصلُحُ لهذا الأمر ، أوْ أوْمأ بعينه ، أو همّ فى نفسه ؟ أتظنُّ أنّ الناسَ ضلُّوا من أجْلِك ، وعادوا كُفّاراً زُهْداً فيك ، وباعوا اللهَ تحامُلًا عليك ؟ لا والله ! لقد جاءنى عَقِيــل بن زياد الخَزْرجى فى نفرٍ من أصْحابه ، ومعهم شُرَحْبيــل بنُ يعقوب الخزرجى وقالوا : إنّ عليًّا ينتظر الإمامة ويزعمُ أنه أولى بهــا من غيره ، ويُنْــكل على من يعقِد الخــلافة ؛ فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ فى نَحرِهم حيثُ قالوا : إنه ينتظر الوحى ، ويتوكّفُ[2] مُناجاةَ المَلَك .

فقلت : ذاك أمرٌ طوَاهُ الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر

---

(١) لط : جحد . (٢) يتوكف : ينتظر .

معقوداً بأنشُوطة[1] ، أو مشدوداً بأطراف لِيطَة[2] ؟ كلا ! والله لا عجماء بحمد الله إلا أفصحَت ، ولا شوكاء إلا وقد تفتّحت .

ومن أعجب شأنك قولُك: «ولولا سالفُ عهدٍ وسابقُ عَقْد، لشفيتُ غيظى»! وهل تركَ الدينُ لأهله أن يَشْفُوا غيظَهم بيدٍ أو بلسان؟ تلك جاهلية ٌ، وقداستأصل الله شأفتها ، واقتلع جُرثومتَها ، وهوّر[3] ليلها ، وغوّر سَيْلَها ، وأبدل منها الرَّوْحَ والرَّيحان ، والهدَى والبرهان. وزعمت أنك مُلْجَم ؛ ولعمرى إنّ مَن اتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلبَ ما عنده ، أمسك لسانه ، وأطْبَقَ فاه ، وجعل سَعيه لما وراه .

وأما قولك : إنى لأعرفُ مَنْزِع قوسى ، فإذا عرفت منزِع قوسك عرف غيرُكَ مضرِبَ سيفه ومطعن رمحه ؛ وأما ما تزعمه من الأمر الذى جعله رسول الله لك فتخلّفت إعذاراً إلى الله وإلى العارفة بهمن المسلمين، فلو عرفه المسلمون لجنحوا إليه وأصفقوا عليه ، وما كان الله ليجمعهم على العمى ، ولا ليضربهم بالضلال بعد الهدى، ولو كان لرسول الله فيك رأىٌ ، وعليك عزْمٌ ، ثم بعثه الله، فرأى اجتماعَ أمّتِه على أبى بكر لماسفّه آراءهم ، ولا ضلّل أحلامهم، ولا آثرك عليهم، ولا أرْضاك بسُخْطهم، ولأمرَكَ باتّباعهم والدخول معهم فيما ارتضَوْه لدينهم .

فقال علىّ رضى الله عنه : مهلًا يا أبا حفص ، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أُرِيدُ نكْثَه ، ولا أقررْتُ ما أقررت وأنا أبتغى حِولًا عنه ؛ وإنّ أخْسرَ الناس صَفْقَةً

---

(١) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت . (٢) الليطة: قشرة القصبة التى تليط بها أى تلزق . (٣) هور : أذهب .

عند الله مَنْ آثر النّفاق ، واحْتَضَن الشِّقاق ، وفى الله خَلَف من كل فائت ، وعِوَضٌ من كل ذاهب، وسَلْوَةٌ عن كل حادث ، وعليه التوكل فى جميع الحوادث .
ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقِعَ القَلْب ، مَبْرُودَ الغليل ، فسيح اللّبان[١] ، فصيح اللسان ؛ فليس وراء ما سمعتَ وقلتُ إلا ما يشدُّ الأَزْر ، ويحط الوِزر ، ويضع الإصْرَ[٢] ، ويجمع الأُلفةَ بمشيئةِ الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة : فانصرف علىّ وعمر رضى الله عنهما، وهذا أصعب ما مر علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] .

---

(١) اللبان : الصدر . (٢) الإصر : الذنب والثقل . (٣) قال ابن أبى الحديد فى نهاية هذه القصة : الذى يغلب على ظنى أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله موضوع مصنوع ، وأنه من كلام أبى حيان التوحيدى لأنه بكلامه ومذهبه فى الخطابة والبلاغة أشبه (انظر صفحة ٥٩٧ من ج ٢) .

٩٣ — بِمَنْ أستجيرُ من جَوْرِكَ ؟*

جلسَ معاويةُ بنُ أبى سفيان فى مجلس كان له بدِمَشق ، وكان ذلك الموضع مفتَّح الجوانب يدخلُ منه النسيم ، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات فى يومٍ شديد الحرّ ، وقد اشتدَّ نَفْحُ الهجير (١) ، إذ نَظَر إلى رجل يمشى نحوه وهو يتلظّى بالنار من حرِّ التراب ، ويحْجِل فى مَشْيِه حافياً ، فتأمّله مُعاوية وقال لجلسائه : هل خَلَقَ الله أشْقَى ممن يحتاج إلى الحركة فى هذه الساعة ؟ فقال بعضهم : لعلّه يَقْصِدُ أمير المؤمنين ، فقال : والله لئن كان قاصدى سائلاً لأُعْطِيَنّه، أومستجيراً لأُجيرنه، أو مظلوماً لأنصرَنّه . . . يا غلام ؛ قف بالباب ؛ فإن طلبنى هذا الأعرابى فلا تمنعه الدخول علىّ .

فخرج الغلامُ فَوَافَى الأعرابىُّ ، وقال: ما تريد ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ادخل، فدخلَ وسلّم على معاوية ، فقال له : ممَّن الرجل؟ قال:من تميم ، قال:ماالذى جاء بك فى مثل هذا الوقت ؟ قال : جئتُكَ مشتكياً وبك مستجيراً . قال : ممن ؟ قال : من مرْوَان بن الحكم ، ثم أنشد هذه الأبيات :

معاوى، ياذا الفَضْلِ والحلم والعقلِ ... وذا البرِّ والإحسان والجود والبَذْلِ
أتيتُك لما ضاقَ فى الأرض مَذْهَبى ... وأنكرت مما قد أصبتُ به عقلى
ففرِّج — كَلَاكَ الله — عَنّى فإننى ... لقيتُ الذى لم يَلْقَه أحدٌ قبلى

* المختار من نوادر الأخبار « مخطوط » ، نهاية الأرب : ٢ — ١٥٦

(١) الهجير : نصف النهار عند اشتداد الحر .

وخُذْ لى ـ هداكَ اللهُ ـ حقِّى من الذى رمانى بسَهْمٍ كان أيْسَره قَتْلى !
وكنْتُ أرجّى عدْلَه إن أتيتهُ فأكْثَر تَرْدَادِى مع الحبس والكَبْلِ
سَبَانِىَ سُعْدَى وانبرَى لِخُصومتى وجَارَ ولم يَعْدِلْ وغاصَبَنِى أهلى
فطلّقْتُها مِنْ جَهْدِ ما قد أصابنى فهذا ، أميرَ المؤمنين ، من العدلِ ؟

فلما سمع معاوية إنشاده والنارُ تتوقّد من فِيهِ قال : مَهْلًا يا أخا العرب، اذكر قصتك وأفْصِح عن أمرك .

قال : يا أمير المؤمنين ، كانت لى زوجة وهى ابنةُ عمى وكنت لها محبًّا وبها كلِفاً ؛ وكنْتُ بها قرير العين ، طيِّبَ العيش ، وكانت لى صِرْمَةٌ (١) من الإبل أستعينُ بها على قيام حالى وإصلاح أوَدِى (٢) ؛ فأصابتنا سَنَةٌ ذات قَحْطٍ شديد ، أذهبَتِ الخُفَّ والظِّلْفَ ، وبَقِيتُ لا أملك شيئاً ؛ فلما قلّ ما بيدى ؛ وذهب حالى ومالى ، بقيت مُهاناً ثقيلا على وجه الأرض ؛ قد أبعدنى مَن كان يشتهى القُرْبَ منى ، وازورّ عنى من كان يرغب فى زيارتى !

فلما علم أبوها ما بى من سوء الحال وشرّ المآل أخذها منى ، وسألنى الفراق وجحدنى وطردنى، وأغْلَظَ علىّ ؛ فأتيتُ إلى عاملك مرْوَان بن الحكم مُسْتَصْرِخاً، وبه راجياً لينصرنى ، فأحضر أباها وسأله عن حالى ، فقال : ما أعرفه قبل اليوم ، فقلت : أصلح الله الأمير ! إن رأى أن يُحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل .

---

(١) الصرمة : القطعة من الإبل ، وهى ما بين العشرين إلى الثلاثين . (٢) الأود : العوج .

فبعث إليها مَرْوَان وأحضرها مجلسه ، فلما وقفتْ بين يديه وقعت منه موقعَ الإعجاب ؛ فصار لى خصما وعلىَّ مُنْكراً ! وانتهرنى وأظهر لى الغضبَ وبعث بى إلى السجن ، فبقيت كأنما خَرَرْتُ من السماء فى مكان سحيق !

ثم قال لأبيها : هل لكَ أن تزوّجَها منى على ألف دينار وعشرة آلاف درهم لك ؟ وأنا ضامن لك خلاصَها من هذا الأعرابى . فرغب أبوها فى البَذْل وأجابه لذلك !

فلما كان من الغد بعث إلىّ وأخرجنى من السجن ؛ وأوقفنى بين يديه ، ونظر إلىّ كالأسد الغضبان ؛ وقال : يا أعرابى ، طلّق سُعْدَى ؛ فقلت : لا أقدر على هذا ، فسلّط علىّ جماعة من غلمانه ، فأخذوا يعذّبوننى بأنواع العذاب ، فلم أجد بُدًّا من ذلك ففعلت ؛ ثم عادوا بى إلى السجن ؛ فمكثت فيه إلى أن انقضت عِدَّتُها ، فتزوّجها ودخل بها . وقد أتيتك مستجيراً وإليك ملتجئاً ، ثم أنشد :

فى القلب منى نار ... والنار فيها استعار !
والجسم منى سقيمٌ ... واللون فيه اصفرار
وفى فؤادىَ جَمْر ... والجمرُ فيه شرارُ
والعينُ تبكى بشجْوٍ ... فدمعُها مدرارُ
والحبُّ داء عسيرٌ ... فيه الطبيب يحارُ
حُمّلت منه عظيماً ... فما عليه اصطبار
فليس ليلى لَيْل ... ولا نهارى نهارُ !

ثم اضطرب وخرّ مغشيًّا عليه ، وأخذ يتلوّى كالحيّة المقتولة ؛ فلما سمع كلامَهُ وإنشاده قال : تعدّى فظلم مَرْوَان بن الحكم فى حدود الدّين ، واجترأ على حُرَم

المسلمين ، ثم قال : والله يا أعرابى ، لقد أتيتنى بحديث لم أسمع بمثله قط ؛ ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب إلى مروان بن الحكم : قد بلغنى أنك اعتديت على رعيتك ، وانتهكت حُرْمةً من حرم المسلمين ؛ وتعدّيت حدودَ الدين ، وينبغى لمن كان واليًا أن يغضّ بصَرَه عن شهواته ، ويزجر نَفْسَه عن لذّاته ، وكتب فى آخره :

ركبتَ أمراً عظيماً لستُ أعرِفُه   أستغفر الله من جَوْر امرئٍ زانِ
قد كنتَ تشبه صوفيًّا له كُتُبٌ   من الفرائض أو آيات فُرْقانِ
حتى أتانى الفتى العُذرى مُنْتَحِبًا   يشكو إلىّ بحقٍ غَيْرِ بُهتان
أُعْطِى الإلٰه عهوداً لا أخِيسُ بها   أوْ لا فبرِئْتُ من دينٍ وإيمانِ
إنْ أنتَ راجعتَنى فيما كتبتُ به   لأجْعَلَنَّك لحمًا بين عِقْبان
طلّقْ سُعادَ ، وعجّلها مجهَّزَة   مع الكُمَيْت ومع نصر بن ذِبْيان !
فما سمعتُ كما بُلِّغْتُ من عجبٍ   ولا فِعالك حقًّا فعل إنسان

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه ، واستدعى الكميت ونصر بن ذِبْيان — وكان يستنهضهما فى قضاء الحوائج لأمانتهما — فأخذاه وسارا حتى قدما المدينة ؛ ودخلا على مرْوان وسلّما إليه الكتاب ، ففضّه وقرأه ، ثم ارتعدت فرائصه ، وطلّقها فى الحال وبعث بها إلى أمير المؤمنين ، وكتب إلى معاوية كتابًا فيه :

حوراء يقصر عنها الوصفُ إنْ وُصِفَتْ   أقولُ ذلك فى سرٍّ وإعلانِ

فلما قرأه قال : لقد أحسن فى الطاعة ، وأطنبَ فى حسن الجارية .

ولما رأى معاويةُ الجارية رَأى صورة لم يرَ مثلها فى الحسن والقدّ والجمال ؟ وخاطبها فوجدها أفصح النساء بِعُذُوبة منطق ، ثم قال : علىّ بالأعرابى ؛ فأتى إليه

وهو على غايةٍ من سوء الحال ، فقال: يا أعرابى؛ هل لك عنها من سَلْوَة، وأعوِّضك ثلاث جوارٍ مع كل جارية ألف دينار ، وأقسِمُ لك من بيت المال فى كل سنةٍ ما يكفيك ويُعينك على صحبتهن ؟

فلما سمع الأعرابى كلام معاوية شهق شَهقَة ظن معاوية أنه قد مات ، ولما أفاق قال له : ما بالك ؟ فقال : شرّ بال ، وأسوأ حال ؛ استجرتُ بعدْلك من جور ابن الحكم ، فبِمَنْ أستجيرُ من جوْرك ! ثم أنشد :

لا تجعَلَنِّىَ والأمثالُ تُضْرَبُ بى ... كالمستجيرِ من الرَّمْضاء بالنارِ
ارْدُدْ سُعادَ على حَيْرَان مكتئبٍ ... يُمْسى ويصبح فى همٍّ وتذكارِ
قد شفّه قلَقٌ ما مثلُه قلقٌ ... وأُسْعِرَ القلبُ منى أىّ إسعارِ
كيف السلوُّ وقد هام الفؤادُ بها ... وأصبح القلبُ عنها غيرَ صبّارِ !

ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أعطيتنى ما حوته الخلافة ما اعْتَضْتُه دون سُعدَى .

فقال معاوية : يا أعرابى ؛ إنك مُقِرٌّ أنك طلقتَها ، ومروان مقرٌّ أنه طلقها ، ونحن نخيّرها ، فإن اختارت سواكَ زوّجناه بها ، وإن اختارتك رجعنا بها إليك . قال : افعل ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم .

ودعاها معاوية وقال لها: ما تقولين ياسعدى؟ أىّ أحبُّ إليك؟ أمير المؤمنين فى عزّه وشرفه وسلطانه وقُصوره وما تصيرين عنده ، أو مروان بن الحكم فى عَسْفِه وجوره ، أو هذا الأعرابى مع جُوعِه وفقره وسوء حاله ؟ فأنشدتْ هذين البيتين :

هـذا وإن كان فى فقرٍ وإضرار ... أعزُّ عندىَ مِنْ قومى ومن جارى!

وصاحبِ التاج أو مرْوانَ عاملِهِ ... وكلِّ ذى درهمٍ عندى ودينـارِ

ثم قالت : والله يا أميرَ المؤمنين ؛ ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا لغدَرَات الأيام ؛ وإنّ لى معه صحبةً قديمةً لا تنسى ، ومحبّةً لا تبلى ، وأنا أحق مَن صبر معه على الضَّرّاء ، كما تنعمتُ معه فى السرّاء .

فتعجّب معاويةُ من عقلها ومروءتها ، وأمر لها بعشرة آلاف درهم ، وردّها بعَقد جديد ، فأخذها الأعرابى وانصرفَ يقول :

خـلّوا عن الطريق للأعْرابى ... ألم تَرِقُّوا ويحكم ، مما بى !

٩٤ — خدْعة لمعاوية*

سمع يزيدُ بن معاوية بن أبي سفيان بجمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله ابن سَلَام القرشي؛ وكانت من أجْمَلِ النساء في وقتها، وأحسنهِنّ أدباً، وأكثرِهنّ مالًا ؛ فَفُتِنَ بها ؛ فلما عِيلَ صبرُه ذكر ذلك لبعض خاصَّةِ أبيه ، واسمه رفيق ، فذكر ذلك لمعاوية ، ، وقال له : إنّ يزيد قد ضاق ذَرْعُه بها .

فبعث معاويةُ إلى يزيد ، فاستفسره عن أمره ؛ فبثّ له شأنَه ؛ فقال : مهلًا يا يزيد ؛ فقال له : عَلَام تأمرني بالمَهَل وقد انقطع منها الأمَلُ ؟ فقال له معاوية : فأين مُرُوءتك وحِجَاك وتُقَاك ؛ فقال : قَدْ عِيلَ الصبرُ ، ولو كان أحدٌ ينتفع فيما يُبْتَلَى به من الهوى بتُقَاه ، أو يَدْفَعُ ما أقْصَدَهُ(١) بحِجَاه، لكان أوْلَى الناس به داود(٢) حين ابْتُلِيَ به .

فقال : اكتُمْ يا بُنَيّ أمرك؛ فإنّ البَوْحَ به غيرُ نافعك، والله بالغُ أمره فيك، ولا بُدّ مما هو كائن .

وأخذ معاويةُ في الاحتيالِ في تَبْليغ يزيد مُنَاه ، فكتب إلى زوجها عبدِ الله ابن سلام ـ وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظرُ كتابي لأمرٍ فيه حَظُّك إن شاء الله تعالى ، فلا تتأخر عنه .

* نهاية الأرب : ٦ ـ ١٨٠

(١) أقصده : أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطىء مقاتله . (٢) يشير إلى داود عليه السلام ، حينما تزوج من خطيبة أحد جنوده ، ولقد عاتبه الله في ذلك ، فاستغفره، فغفر له .

فأغَذّ[١] السيرَ وقَدِم ، فأنزله معاوية منزلًا كان قد هُيِّئَ له ، وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هُريرة وأبو الدَّرْداء ، فقال لهما معاوية : إن الله قد قَسم بين عباده قسما ، ووهبهم نِعماً أوجب عليهم فيها شكره ، وحتَّم عليهم حفظَها، فحبانى منها عز وجل بأتمّ الشرف وأفضلِ الذّكر، وأوسعَ علىّ الرزق ، وجعلنى راعِيَ خَلقه ، وأمينَه فى بلاده ، والحاكمَ فى أمرِ عبادِهِ ، لِيَبْلُوَنِى أأشكر أم أكْفُر ! وأوّلُ ما ينبغى للمرء أن يتفقّدَ وينظرَ من استرعاه الله أمْرَه ، ومن لا غنى به عنه .

وقد بلغتْ لى ابنة أريد زواجها والنظر فى اختيار من يُبَاعلها[٢] ، لعل من يكون بعدى يقتدى فيه بهَدْيِى ، ويتْبع فيه أثرى ؛ فإنه قد يلى هذا المُلكَ بعدى من يغلب عليه الشيطان ، ويحمله على تعضيل البنات[٣] ؛ فلا يرون لها كفئاً ولا نظيراً . وقد رضيتُ لها ابن سلَام القرشى ؛ لدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه ؛ فقالا له : إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها ، وطلب مرضاته فيما اختصه لأنت .

فقال لهما معاوية : فاذكُرَا له ذلك عنى ! وقد كنْتُ جعلتُ لها فى نفسى شُورَى ، غير أنى أرجو ألا تخرج مِنْ رأيى إن شاء الله .

فخرجا من عنده ، وأتيا عبد الله بن سلَام ، وذكَرَا لَهُ القصة .

ثم دخل معاويةُ على ابنته ، وقال لها : إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة ، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلَام ، وحضّاك على المسارعة إلى اتباع رأيى فيه ؛

---

(١) أغذ السير وفيه : أسرع . (٢) يباعلها : يتخذها زوجا وبعلا . (٣) تعضيل البنات : حبسهن عن الزواج ظلما .

فقولى لهما : إنه كفء كريم ، وقريب حميم ، غير أن تحته زينب بنت إسحاق ، وأخاف أن يعرض لى من الغَيرة ما يعرض للنساء ؛ فأتناول منه ما يسخَط اللهُ تعالى فيه ، فيعذبنى عليه ، ولستُ بفاعلةٍ حتى يفارقَها .

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله ، وأعلماه بقول معاوية ، ردهما إليه يخطُبان له منه ، فأتياه ، فقال : قد علمتما رضائى به ، وحِرْصى عليه ، وكنت قد أعلمتكما الذى جعلتُ لها فى نفسها من الشورى ؛ فادْخُلَا عليها ، واعْرِضا عليها الذى رأيتُ لها .

فدخلا عليها وأعلماها ، فقالت لهما ما قاله معاوية لهما ؛ فرجعا إلى ابن سلَام ، وأعلماه بما قالته .

فلما ظنّ أنه لا يمنعها منه إلا فراقُ زينب أشهدهما بطلاقها ، وأعادهما إلى ابنة معاوية .

فأتيَا معاوية ، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجتَه ؛ رغبةً فى الاتصال بابنته ؛ فأظهر معاويةُ كراهةَ فعله ، وفراقَه لزينب ، وقال: ما استَحْسَنْتُ له طلاقَ امرأته ، ولا أحببتُه ؛ فانصرِفا فى عافية ، ثم عودا إليها ، وخُذا رضاها .

فقاما ثم عادا إليه ؛ فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها ؛ وقال : لم يكن لى أن أُكرِهَها ، وقد جعلتُ لها الشُّورَى فى نفسها .

فدخلا عليها فأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأتَه ليَسُرَّها ؛ وذكرا من فضله وكمال مروءته وكرم مَحْتِدِه ؛ فقالت لهما : إنه فى قريش لرفيعُ القدر ، وقد تعرفان أنَّ الأناةَ فى الأمور أرفق لما يُخَافُ من المحذور ؛ وإنى سائلة عنه حتى

أعرف دِخْلَةَ أمره ، وأعلمكما بالذى يُزِيِّنه الله لى ، ولا قوة إلا بالله ، فقالا : وفقك الله ، وخَارَ لك . وانصرَفَا عنها ، وأعلما عبد الله بقولها ، فأنشد :

فإن يك صدرُ هذا اليوم ولّى   فإن غـــداً لناظرِه قريبُ

وتحدث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب ، وخِطبَته ابنة معاوية ، ولاَمُوهُ على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه .

ثم استحثّ عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ؛ فأتياها وقالا لها : اصنعى ما أنتِ صانعه واستخيرى الله ، فإنهُ يهدى من استهداه ؛ فقالت : أرجو أن يكونَ الله قد خارَ لى ، وقد استبرأتُ[1] أمره، وسألت عنه، فوجدته غير ملائم ولا وموافق لما أريد لنفسى.

ولقد اختلف من استشرته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الآمر به ، واختلافهم أولُ ما كرهت .

فلما بلّغاه كلامَها علم أنه مَخدوع ، وقال : ليس لأمر الله رَادٌّ ، ولا لما لابدّ منه صادٌّ ؛ فإن المرء وإن كَمُلَ حِلْمُهُ ، واجتمع له عقله واستدّ رأيه ، ليس بدافع عن نفسه قَدَراً برأيٍ ولا كيد ، ولعل ما سُرّوا به واستجذلوا له لا يدوم لهم سرُوره ، ولا يصرف عنهم محذوره .

وذاع أمره ، وفشا فى الناس ، وقالوا : خَدَعه معاوية حتى طلق امرأته ! وإنما أرادها لابنه ، وقبحوا فعله .

---

(١) المعنى أنها استقصت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة .

فتمت مكيدته تلك ، ولكن المقادير أتتْ بخلافِ تدبيره ؛ وذلك أنه لما انقضت أقْرَاء[1] زينب ، وجه معاويةُ أبا الدرداء إلى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد ؛ فخرج حتى قدم الكوفة ، وبها يومئذ الحسين بن على رضى الله عنهما ، فبدأ أبو الدرداء بزيارته ، فسلم عليه الحسين ، وسأله عن سبب مقدمه ؛ فقال :

وجّهنى معاويةُ خاطباً على ابنه يزيد زينبَ بنت إسحاق ؛ فقال له الحسين : لقد كنت أردتُ نكاحها ، وقصدت الإرسال إليها إذا انقضت أقراؤها، فلم يمنعنى من ذلك إلا تخيّر[2] مثلك ؛ فقد أتى الله بك ؛ فاخطب ـ رحمك الله ـ علىّ وعليه، لتتخير من اختاره الله لها ، وهى أمانةٌ فى عُنقُك حتى تؤديها إليها وأعطيها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ؛ فقال : أفعلُ إن شاء الله .

فلما دخل عليها أبو الدراء ، قال : أيتها المرأة ؛ إن الله خلق الأمور بقدرته ، وكوّنها بعزّته ، فجعل لكل قدَراً ، ولكل قدَرٍ سبباً ؛ فليس لأحدٍ عن قدَرِ الله مَحِيص ، ولا للخروج عن أمره مَهْرب ؛ فكان مما سبق لكِ ، وقُدّر عليك ، الذى كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ، ولعل ذلك لا يضرّك، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ؛ وقد خطبكِ أميرُ هذه الأمة وابنُ ملكها ، وولىّ عهده والخليفةُ من بعده : يزيد بن معاوية ، والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدُ شباب أهل الجنة ، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما ،وقدجئتك خاطِباً عليهما فاختارى أيّهما شئت .

فسكتت طويلا ، ثم قالت : يا أبا الدرداء ؛ لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت

---

(١) المراد عدتها . (٢) التخير : الانتقاء .

غائب لأشخَصْتُ فيه الرسل إليكَ ، واتبعتُ فيه رأيك ، ولم أقتطعه دونك ، فأما إذ كنتَ أنت المرسل ؛ فقد فوّضتُ أمرى بعد الله إليك وجعلتهُ فى يديك ؛ فاختَرْ لى أرْضاهما لديك ، والله شاهد عليك ، فاقْضِ فى أمرى بالتحرّى ، ولا يصدنَّك عن ذلك اتباعُ هوى ، فليس أمرهما عليك خفيًا ، ولا أنت عما طوّقتك غبيًا .

فقال : أيتها المرأة ؛ إنما علىّ إعلامُك ، وعليك الاختيار لنفسك . قالت : عفا الله عنك ! إنما أنا ابنةُ أخيك ، ولا غِنَى لى عنك ، فلا تمنعْك رهبةُ أحدٍ عن قَوْل الحق فيما طوّقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حمّلتك ؛ والله خير مَن رُوعِى وخِيف ، إنه بنا خبير لَطِيف .

فلما لم يجد بُدًّا من القول والإشارة قال : أى بنية ؛ إن ابنَ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلىّ وأرْضَى عندى والله أعلم بخيرهما لكِ .

قالت : قد اخترتُه وأردتُه ورضيتهُ .

فتزوّجها الحسين ، وساق لها مهراً عظيما . فبلغ ذلك معاوية ، فتعاظَمه ولام أبا الدرداء لوماً شديدا ، وقال : من يرسل ذا بَلَهٍ وعَمًى يركب خلاف ما يهوَى .

ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام ، وقطع عنه جميع رَوَافِده ، لسوء قوله فيه ، وتهمته أنه خدعه ، ولم يزل يَجْفُوه حتى عِيلَ صبره ، وقلّ ما فى يده .

فرجع إلى العراق ، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالا عظيما ، ودُرًّا كثيراً ؛ فظن أنها تجحَده ؛ لسوء فعله بها ، وطلاقها من غير شىء كان منها .

فلقى حسيناً فسلم عليـــه ، ثم قال : قد علمتَ ما كان من خبرى وخبر زينب ، وإنى كنتُ قد استودعتها مالا ، ولم أقبضه ـ وأثنى عليها ـ وقال له : ذاكِرْها أمرى ، واحضضها على ردّ مالى .

فلما انصرف الحسين إليها ، قال لها : قد قَدِم عبد الله بنُ سلام ، وهو يُحْسِن الثناء عليك ، ويحمل النَّشرَ عنك فى حسن صحبتك ، وما آنسه قديماً من أمانتك ؛ فسرّنى ذلك وأعجبنى ، وذكر أنه كان قد استودعكِ مالا ، فأدّى إليـه أمانته ، ورُدى عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقاً ، ولم يطلب إلا حقاً .

فقالت : صدق ، اسْتَوْدَعنى مالًا لا أدرى ما هو ، فادفعه إليـه بطابَعه ، فأثنى عليها حسين خـــــيراً . وقال : ألا أُدْخله إليكِ حتى تَتَبَرّئى إليه منه كما دفعه إليك ؟

ثم لقى عبد الله وقال : ما أنكرتْ مالَكَ ، وإنها زعمتْ أنه بطابَعك فادْخُلْ إليها ، وتسلّم مالك منها .

فقال : أوَ ما تأمر من يدفعه إلىّ ؟ قال : لا ؛ بل تقبضه منها كما دفعته إليها .

ودخل عليها حسين ، وقال : هذا عبد الله قد جاء يطلبُ وديعته ؛ فأخرجت إليه البِدَر ، فوضَعَتْها بين يديه ، وقالت : هذا مالك ، فشكر وأثنى .

وخرج حسين عنهما ، وفضّ عبد الله بن سلام خواتم بدرَة[1] ، وحثى لها من ذلك ، وقال : خُذِى فهو قليل منى ؛ فاستَعْبرا جميعاً ، حتى عَلَتْ أصواتهما أسفاً على ما ابتُلِيا به ، فدخل الحسين عليهما ، وقد رقّ لهما ، فقال :

---

(١) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف .

أشهد الله أنى طلقتها ؛ اللهم إنك تعلم أنى لم أتزوجها رغبة فى مالها ولا جمالها، ولكنى أردت إحلالها لبَعْلِها .

فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساقه إليها من مهر ؛ فأجابته إلى ذلك ؛ فلم يقبله الحسين ، وقال : الذى أرجوه من الثواب خيرٌ لى .

فلما انقضت أقراؤها تزوجها عبد الله ، وحرَّمها الله يزيدَ بن معاوية .

٩٥ — مَنْ صَدَقَ اللهَ(١) نجا*

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أنه قال : إن ثلاثة نفرٍ انطلقوا إلى الصحراء فمطَرَتهم السماء ؛ فلجئوا إلى كهف فى جبل ينتظرون إقلاعَ المطر ؛ فبينما هم كذلك إذ هبطت صخرةٌ من الجبل ، وجَثَمَتْ على باب الغار فيئسوا من الحياةِ والنّجاة ، فقال أحدهم : لينظر كلٌّ واحد منكم إلى أفضَلِ عملٍ عَمِله فليذكره ، ثم ليدْعُ الله تعالى عسى أن يرْحمنا وينجينا .

فقال أحدُهم : اللهم إنك تعلم أنى كنت بارًّا بوالدىّ ، وكنت آتيهما بغَبُوقهما(٢) فيَغْتَبِقَانِه ، فأتيت ليلةً بغبوقهما ، فوجدتهما قد ناما ، وكرهتُ أن أوقظَهما ، وكرهت الرجوع ؛ فلم يزل ذلك دأبى حتى طلع الفجر ؛ فإنْ كنتُ عملتُ ذلك لوجهك ، فأفرِج عنا ؛ فمالت الصخرةُ عن مكانها حتى دخل عليهم الضوء .

وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنى هويت امرأة ، ولقيت فى شأنها أهوالًا حتى ظفرتُ بها ، ولكنى تركتها خوفًا منك ؛ فإن كنتَ تعلم أنه ما حملنى على ذلك إلا مخافتُك فأفرج عنا فانفرجت الصَّخْرة حتى لو شاء القوم أن يخرجوا لقدروا .

---

* مجمع الأمثال : ٢ ـ ١٦٧

(١) صدق الله : لقى الله بالصدق ، وهو أن يحقق قوله عمله . (٢) الغبوق : شراب العشى .

وقال الثالث : اللهم إنك تعلم أنى استأجرتُ أُجَرَاء ، فعمِلوا لى فوفّيتُهم
أجورَهم إلا رجلًا واحداً ترك أجْرَه عندى ، وخرج مُغَاضباً ، فربَّيت أجره حتى
نما وبلغ مبلغاً ، ثم جاء الأجيرُ ، فطلب أجرتَه ؛ فقلت : هاك ما ترى من المال ؛
فإن كنتُ عملت ذلك لك فأفرج عنا ؛ فمالت الصخرة وانطلقوا سالمين ! فقال
صلى الله عليه وسلم : « من صدق الله نجا » .

٩٦ — عمر بن أبى ربيعة فى مضرب فاطمة بنت عبد الملك*

كان عمرُ[١] بن أبى ربيعة جالساً بمنًى فى فناء[٢] مضربٍ به ، وغِلمانه حولَه إذ أقبلتْ امرأة بَرْزَة[٣] عليها أثَر النعمة ؛ فسلمتْ فردّ عليها عمرُ السلام ، فقالت له : أنت عمرُ بن أبى ربيعة ؟ فقال لها : أنا هو ؛ فما حاجتُك ؛ قالت له : حيّاك الله وقرّبَك ؛ هل لك فى محادثةِ أحسنِ الناس وجها ، وأتمّهم خَلْقاً ، وأكملِهم أدَباً ، وأشرفِهم حسباً ! قال : ما أحبَّ إلىَّ ذلك ! قالت : على شَرْط ! قال : قولى ، قالت : تُمْكننى من عينيك فأشُدُّها وأقودُك ، حتى إذا توَسَّطْتَ الموضعَ الذى أريدُ حَلَلْتُ الشدّ ، ثم أفعلُ ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهىَ بك إلى مضربك ، قال : شأنَكِ . ففعلت ذلك به .

قال عمر : فلما انتهتْ بى إلى المضْرب الذى أرادتْ كَشَفَتْ عن وجهى فإذا أنا بامرأةٍ على كرسى لم أرَ مثلها قطُّ جمالًا وكمالًا ، فسلّمتُ وجلستُ ، فقالت : أأنتَ عمر بن أبى ربيعة ؟ قلت : أنا عمر ، قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟ قلت : وما ذاك ـ جعلنى الله فداءك ! قالت : ألست القائل :

---

* الأغانى : ١ ـ ١٩٠

(١) هو عمر بن أبى ربيعة ، اختص شعره بوصف النساء وعد أنسب الشعراء ، وكان يقيم بمكة ويتعرض للحجاج ، وله فى ذلك أخبار كثيرة . توفى سنة ٩٣ هـ . (٢) الفناء : الساحة على باب الدار . (٣) برزة : بارزة الجمال .

قالت: وعَيْشِ أخى ونعمةِ والدى ... لأَنبِّهنَّ الحىَّ إنْ لم تَخْرُجِ
فخرجتُ خوْفَ يمينها فتبسّمتْ ... فعلمتُ أن يمينها لم تَحْرَجِ[1]
فتناولتْ رأسى لتعرف مسَّه ... بمُخَضَّبِ الأطراف غير مُشَنَّجِ[2]
فلثِمتُ فاها آخِذا بقرونها ... شُرْبَ النزيف[3] ببرد ماء الحَشْرَجِ[4]

ثم قالت : قم فاخرج عنى ، ثم قامتْ من مجلسها وجاءت المرأة فشدّتْ عينىّ ، ثم أخْرجَتْنى حتى انتهتْ بى إلى مضر بى وانصرفتْ وتركتنى ، فحللتُ عينىّ وقد دخلنى من الكآبة والحُزْن ما اللهُ به أعلم ؛ وبتُّ ليلتى ؛ فلما أصبحت إذا أنا بها ، فقالت : هل لك فى العَوْد ؛ فقلت : شأنكِ ، ففعلت بى مثلَ فِعلِها بالأمسِ حتى انتهتْ بى إلى الموضع ، فلما دخلتُ إذا بتلك الفتاة على كرسىّ ، فقالت : إيهِ يا فضّاح الحرائر ! قلت : بماذا ـ جعلنى الله فداءك ؟ قالت : بقولك « وناهدة الثديين » .

ثم قالت : قم فاخرج عنّى .

فقمت فخرجت ثم رُدِدْتُ ، فقالت لى: لولا وَشْكُ الرحيل، وخوفُ الفوْتِ، ومحبّتى لِمُناجاتك ، والاستكثارِ من محادثتك لأقصيتُك ، هات الآن كلِّمْنى وحدِّثنى وأنشِدنى ، فكلمتُ آدب الناس وأعلمَهم بكل شىء ، ثم نهضتْ

---

(١) لم تحرج : لم تضق ولم تكن جادة فى حلفها . (٢) مشنج : متقبض . (٣) النزيف : المنزوف ، وهو من عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه . (٤) الحشرج: النقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو .

وأبطأت العجوز وخَلَا لِىَ البيت ، فأخذت أنظر ، فإذا أنا بتَوْر[1] فيه خَلُوق[2] ، فأدخلتُ يدى فيه ثم خبأتُها فى رُدْنى[3] ؛ وجاءت تلك العجوز فشدَّت عينىَّ ونهضتْ بى تقودنى ، حتى إذا صرت على باب المضرب ، أخرجت يدى فضربتُ بها على المضْرب ثم صرت إلى مضْربى ، فدعوت غِلْمانى فقلت : أيكم يقفنى على باب مضرب عليه خَلُوق ، كأنه أثر كف فهو حرٌّ وله خَمْسمائة درهم .

فلم ألبثْ أن جاء بعضُهم فقال : قم ، فنهضت معه فإذا أنا بالكفِّ طريّة ؛ وإذا المضرب مضربُ فاطمة بنتِ عبد الملك بن مروان ، فأخذتْ فى أُهْبَـةِ الرحيل ، فلما نفرتْ نفرتُ معها فبصرتْ فى طريقها بِقِبابٍ ومضرب وهيئةٍ جميلةٍ، فسألتْ عن ذلك ، فقيل لها : هـذا عمرُ بن أبى ربيعة ، فساءها أمره ؛ وقالت للعجوز التى كانت تُرْسلها إليه : قولى له : نَشَدْتُكَ اللهَ والرحمَ ألا تصحَبنى ، وَيْحك ! ما شأنُكَ ؛ وما الذى تُريد ؟ انصرف ولا تفضحنى وتُشيط[4] بدمك .

فسارت العجوز إليه فأدّتْ إليه ما قالت لها فاطمة ، فقال : لست بمنصرف أو تُوَجِّه إلىَّ بقميصها ، فوجهت إليه بقميص من ثيابها، فزاده ذلك شَغَفاً ؛ ولم يزل يتبعهم ولا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف ، وقال ذلك :

ضاق الغَدَاة بحاجتى صـدرى ... ويئستُ بعد تقَارب الأمر
وذكرتُ فاطمةَ التى عُلِّقْتُها ... عَرَضاً فيا لِحَوادث الدهرِ
وكأنَّ فاهَا عنـد رَقْدَتها ... تجرى عليـه سُلَافَةُ الخمر

(١) التور : إناء صغير. (٢) الخلوق: نوع من الطيب. (٣) الردن: الكم. (٤) أشاط بدمه : أهدره .

فسبَت فؤادى إذ عرضْتُ لها　　يومَ الرحيل بساحةِ القصرِ
بمزيّن رَدْعُ[١] العبير به　　حسَن الترائب[٢] واضح النحر
وبجيد آدمَ[٣] شادنٍ[٤] خَرِق[٥]　　يرْعى الرياضَ ببلدةٍ قَفْرِ
لما رأيتُ مطيّها حِزَقاً[٦]　　خفقَ الفؤادُ وكنتُ ذا صبرِ
وتبادَرَتْ[٧] عيناى بعدهمُ　　وانهلَّ دمعهما على الصَّدْرِ
ولقد عصيت ذوى القرابة فيكم　　طُرًّا وأهلَ الوُد والصِّهرِ
حتى لقد قالوا وما كذبوا :　　أجننتَ أم بك داخل السِّحر !

---

(١) الردع : أثر الطيب فى الجسد .　(٢) الترائب : جمع تريبة، وهى موضع القلادة من الصدر.
(٣) الآدم : الأسمر .　(٤) شدن الظبي: ترعرع وشب.　(٥) الخرق: الخائف المتحير.
(٦) حزقاً : جماعات .　(٧) تبادرت : سالت دموعها .

٩٧ – عمـــارة*

كانت عند عبـد الله[1] بن جعفر جارية مُغَنِّية يقال لها عُمارة، وكان لها منه مكان لم يكنْ لأحدٍ من جواريه.

فلما وفَد عبد الله بن جعفر على معاوية خرج بهـا معه، فزاره يزيدُ ذاتَ يوم فأخرجها إليه، فلما نظر إليها وسمع غناءها وقعتْ فى نفسه، وجعل لا يمنعه من أن يبوحَ بما يجدُ بها إلا مكانُ أبيه، مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يكاتمُ الناس أمرها إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمرُ إليه، فاستشار بعضَ من قدم عليه من أهل المدينة وعامة من يثق به فى أمرها، وكيف الحيلةُ فيها، فقيل له: إن أمْرَ عبدالله ابن جعفر لا يُرام، ومنزلتَه من الخاصة والعامة ومنك ماقدعلمت، وأنت لاتستجيز إكراهه، وهو لا يبيعها بشىءٍ أبداً، وليس يُغْنِى فى هذا إلا الحيلة.

فقال: انظروا لى رجلا عِراقيًا له أدبٌ وظَرْفٌ ومعرفة، فطلبوه فأتَوْه به؛ فلما دخل رأى بيانا وحلاوة وفهما، فقال يزيد: إنى دعوتك لأمرٍ إن ظَفِرْتَ به فهو حظُّكَ آخر الدهر، ويدٌ أكافئُك عليها إن شاء الله؛ ثم أخبره بأمْره، فقال له: عبد الله بن جعفر ليس يُرام ما فى قلبه إلا بالخديعة، ولن يقدر أحدٌ على ما سألت، فأرجو أن أكونه والقوةُ بالله، فأَعِنّى بالمـال. قال: خذما أحببت.

---

* مصارع العشاق: ٣١٠

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، كان كريماً جواداً، يميل إلى سماع الغناء، وأخباره فى الكرم والسماع كثيرة، توفى سنة ٩٠هـ.

فأخذ من طُرَف الشام وثياب مصر، واشترى متاعاً للتجارة من رقيقٍ ودوابّ وغير ذلك ، ثم شخص إلى المدينـة ، فأناخ بعَرْصة[١] عبد الله بن جعفر ، واكترى منزلا إلى جانبه ، ثم توسّل إليه ، وقال : إنى رجلٌ من أهل العراق قدمتُ بتجارة ، وأحببتُ أن أكونَ فى عزِّ جوارك وكَنفك ، إلى أن أبيع ما جئتُ به .

فبعث عبدُ الله بن جعفر إلى قَهْرَمانه : أن أكرم الرجـل ، ووسّع عليـه فى نُزُله[٢] . فلما اطمأنّ العراق سلم عليه أياماً ، وعرّفه نفسه ، وهَيّأ له بغـلة فارِهة ، وثياباً من ثياب العراق وألطافا ؛ فبعث بهـا إليه ، وكـتب معها : « ياسيدى ؛ إنى رجلٌ تاجرٌ ، ونعمةُ الله علىّ سابغة ، وقد بعثتُ إليك بشىء من تحف ، وثياب وعطر ، وبعثتُ ببَغلة خفيفة العنان ، وطيئةِ الظهر ؛ فاتخِذْها لركوبك ؛ فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله إلّا قبلتَ هديّتى ، فإن أعظم أملى فى سفرتى هـــذه أن أستفيدَ الأُنس بك ، والتحرُّم بمواصلتك .

فأمر عبد الله بقَبْضِ هديته، وخرج إلى الصلاة ،فلما رجع مرّ بالعراق فى منزله فقام إليه ، وقبل يده ، واستكثر منه ، فرأى أدبا وظرفا وفصاحة ، فأعجب به وسُرّ بنزوله عليه ، فجعل العراق فى كل يوم يبعث إلى عبد الله بهدية طريفة . فقال عبد الله : جزى الله ضيفنا هذا خيراً ، فقد ملأُنا شكراً ، وما نقدر على مكافأته؛

---

(١) العرصة : كل بقعة بين الدور ليس بها بناء . (٢) النزل : ماهيء للضيف أن ينزل فيه .

وإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله ، ودعا بُعمارة فى جواريه ، فلما طاب لهما المجلس وسمع غناء عمارة ، تعجب وجعل يزيد عجبه ، فلما رأى ذلك عبد الله سُرَّ به إلى أن قال له : هل رأيت مثل عمارة ؟ قال : لا والله يا سيدى ، ما رأيتُ مثلَها وما تصلح إلا لك ، وما ظننت أن يكون فى الدنيا مثل هذه الجارية : حُسْن وجه ، وحُسْن عمل . قال : فكم تساوى عندك ؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة ، قال : تقول هذا لِتزيِّن لى رأيًا فيها وتجتلب سرورى ! قال له : يا سيدى ؛ والله إنى لأحب سرورك ، وما قلت لك إلا الجد ، وبعد فإنى تاجرٌ أجمع الدراهم إلى الدراهم ، طلبا للربح ولو أعطيتُها بعشرة آلاف دينار لأخذتُها ، فقال له عبد الله : عشرة آلاف ؟ قال : نعم ــ ولم يكن فى ذلك الزمان جارية بهذا الثمن ــ فقال له عبد الله : أنا أبيعكها بعشرة آلاف . قال : قد أخذتُها . قال : قد وجب البيع . وانصرف العراقى .

فلما أصبح عبدُ الله لم يشعر إلا بالمال قد جىء به ، فقيل لعبد الله : قد بعث العراقىّ بعشرة آلاف دينار ، وقال : هذا ثمن عمارة . فردّها ، وكتب إليه : إنما كنتُ أمزح معك ، ومما أعلمك أن مثلى لا يبيع مثلها ، فقال له : جُعِلت فداءك ! إن الجد والهزل فى البيع سواء ، فقال له عبد الله : ويحك ! ما أعلم جاريةً تساوى ما بذلتَ ، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك ، ولكنى كنت مازحاً ، وما أبيعُها بملك الدنيا لحرْمَتها بى ، وموضعها من قلبى . فقال العراقى : إن كنت مازحاً فإنى كنتُ جادًا ، وما اطلعتُ على ما فى نفسك ، وقد

ملكتُ الجارية ، وبعثتُ إليك بثمنها ، وليست تحل لك ، ومالى مِنْ أخذها من بُدّ .

فمانعه إياها فقال له : ليست لى بيّنة ، ولكنى أستَحْلِفك عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنبره ، فلما رأى عبدُ الله الجدَّ قال : بئس الضيفُ أنت ! ما طرقَنَا طارق ، ولا نزل بنا نازل ، أعظمُ بليةً منك ، أتحلفنى فيقول الناس : اضطهد عبدُ الله ضيفَهَ وقَهرَه ، وألجأه إلى أن استحلفه ، أما والله لتعلمن أنى سأعتصم فى هذا الأمر بالصبر وحسنِ العزاء .

ثم أمر قَهْرَمانه بقَبْض المال منه ، وبتجهيزِ الجاريةِ بما يُشْبِهها من الخدم والثياب والطيب ، فجُهِّزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار .

فقبض العراقى الجارِية ، وخرج بها ؛ فلما برز من المدينة ، قال لها : يا عُمارة : إنى والله ما ملَكْتك قط ، ولا أنت لى ، ولا مثلى يَشْترى جارية بعشرة آلاف دينار ، وما كنتُ لأقدم على ابن عم رسول الله صلّى الله عليه وآله فأسلبه أحبَّ الناس إليه لنفسى ، ولكنى دَسِيس[1] من يزيدَ بن معاوية ، وأنتِ له ، وفى طلبك بعثَ بى ، فاسْتَترى منى .

ثم مضى بها حتى وردَ دمشق ، فتلقَّاه الناسُ بجنازة يزيد ، وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد ؛ فأقام الرجُل أياماً ، ثم تلطَّف للدخول عليه ، فشرح له القصة — ولم يكن أحدٌ من بنى أمية يعدل بمعاوية بن يزيد فى زمانه نبلًا ونُسُكاً — فلما

(١) الدسيس : من تدسه ليأتيك بالأخبار .

أخْبَرَه قال : هى لك ، وكل ما دفعه إليك من أمرها فهو لك ، وارحل من يومك فلا أسمعُ بخبَرك فى شىء من بلاد الشام .

فرحل العراقى ، ثم قال للجارية : إنى قلتُ لك ما قلت حين خرجتُ بك من المدينة ؛ فأخبرتُك أنك ليزيد ، وقد صرتِ لى ، وأنا أشهد أنك لعبدالله بن جعفر ، وأنى قد رددْتُك عليه ، فاستَتِرى منى .

ثم خرج بها حتى قدم المدينة ، فنزل قريباً من عبدِ الله ، فدخل عليه بعضُ خدمه ، فقال له : هـذا العراقى ضيفُك الذى صنع بنا ما صنع ، وقد نزل العَرْصة لا حيّاه الله ! فقال عبدُ الله : مَهْ ! أنزِلوا الرجل وأكرموه ! فلما استقرّ بعث إلى عبد الله : جعلت فداءك ! إنْ رأيتَ أن تأذنَ لى لأُشافِهكَ بشىء فعلت ؛ فأذِن له ؛ فلما دخل سلم عليه ، وقبَّل يده فقرَّبه عبد الله ، ثم اقتص عليه القصة حتى إذا فرغ ، قال : قد والله وهبتُها لك قبل أن أراها وأضع يدى عليها ، فهى لك ومردودة عليك ، وقد علم الله تعالى أنى ما رأيتُ لها وجهاً إلا عندك .

فبعث إليها ، فجاءت ، وجاء بما جهزها به مُوَفَّراً ، فلما نظرتْ إلى عبد الله ، خرّت مغشيًّا عليها ، وأهوى إليها عبد الله ، وخرج العراقى وتصايَح أهلُ الدار : عُمارة ! عمارة ! فجعل عبدُ الله يقول ، ودموعه تجرى : أحلمٌ هـذا ؟ أحقٌّ هذا ؛ ما أصدّق بهذا ! فقال له العراقى : جعلت فداءك ! قد ردها عليك إيثارك الوفاء ، وصبرُك على الحق ، وانقيادك له .

فقال عبد الله : الحمد لله ، اللهم إنك تعلم أنى تصبَّرت عنها ، وآثرت الوفاء ،

وأسْلَمت لأمرك ، فرددتَها على بعّنك ؛ فلك الحمد . ثم قال : يا أخا العراق ؛ ما فى الأرض أعظم منةً منك ، وسيجازيك الله تعالى .

وأقام العراقىّ أياماً وباع عبدُ الله غنماً لهُ بثلاثة عشر ألف دينـــار ، وقال لقَهرمانه : احملها إليه ، وقل له : اعذر ، واعلمْ أنى لو وصلتك بكل ما أملك لرأيتك أهلًا لأكثر منه ؛ فرحل العراقى محموداً وافر المال .

٩٨ — عمر بن أبي ربيعة في لبسة أعرابي*

قال عثمان بن إبراهيم الخاطبي :

أتيتُ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ بعد أن نسك بسنين ، وهو في مجلس قومه من بني مخزوم ، فانتظرتُ حتى تفرّق القوم ، ثم دنوتُ منه ومعي صاحبٌ لي طريف ، وكان قد قالَ لي : تعالَ حتى نَهيجه على ذكر الغزَل ، فننظُرَ هل بَقِيَ في نفسه منه شيء ، فقال له صاحبي : يا أبا الخطاب ، أكرمَكَ الله ؛ لقد أحسن العُذْرِي وأجاد فيما قال . فنظر إليه ثم قال له : وماذا قال ؟ قال : حيث يقول :

لو جُذَّ بالسيفِ رأسي في مودّتها ... لمرَّ يَهْوِي سريعاً نحوها رأسي

فارْتاح عمرُ إلى قوله وقال: هاهْ ! لقد أجاد وأحسن . فقلت : ولله درُّ جُنادَةَ العُذْرِيّ ! فقال عمر : حيث يقول ماذا ؟ ويحك ! فقلت : حيث يقول :

سرَتْ لعينك سلمى بعد مَغْفاها ... فبتُّ مُسْتَنْبِهاً(١) مِنْ بَعْدِ مَسْرَاها

وقلتُ: أهلًا وسهلًا مَنْ هداكِ لنَا ... إن كنتِ تمثالَها أو كنتِ إياها

تأتى الرياح التي من نحو بلدتكم ... حتى أقولَ دنَتْ مِنَّا بريَّاها

وقد تراخت بنا عنها نوًى قُذُفٌ(٢) ... هَيهاتَ مُصْبَحُها من بعد مُمْساها

من حُبِّها أتمنى أن يُلاقِيَني ... من نحو بلدتها ناعٍ فينْعاها

كيما أقول فِراقٌ لا لقاءَ لهُ ... وتُضْمِرُ النفس يأساً ثم تَسْلاها

---

* الأغاني : ١ — ١٧٤ ، الأمالي : ٢ — ٥٠

(١) مستنبهاً : مستيقظا . (٢) نوى قذف : بعيدة .

ولو تموت لراعتْــنى وقلتُ ألا ... يا بؤسَ للموت ! ليتَ الموتَ أبقاها

قال : فضحك عمر ، ثم قال : وأبيك لقد أحسنَ وأجاد وما أبقى ، ولقد هَيَّجتُما علىَّ ساكناً ، وذَكَّرْتُمانى ما كان عنى غائباً ، ولأُحَدِّثنَّكما حديثاً حلواً :

بينا أنا منذ أعوام جالس إذ أتانى خالد الخرِّيت فقال لى : يا أبا الخطاب ؛ مرت بى أربعُ نسوة قُبَيْلَ العِشاء يُرِدْنَ موضع كذا وكذا ؛ ولم أرَ مثلهُنَّ فى بَدْوٍ ولا حَضَر ، فيهنَّ هندُ بنت الحارث المُرِّيَّة ، فهل لك أن تأتيَهُنَّ متنكراً ، فتسمع من حديثهن ، وتتمتع بالنظر إليهن ، ولا يَعْلَمْنَ من أنتَ ؟ فقلت له : ويحك ! وكيف لى أن أخفى نفسى ؟ قال : تَلْبَسُ لِبسةَ أعرابى ؛ ثم تجلس على قَعُود(١) ، فلا يشعُرْنَ إلا بك قد هَجَمْتَ عليهن .

ففعلتُ ما قال ؛ وجلست على قَعُود ، ثم أتيتُهُنَّ فسلمتُ عليهن ، ثم وقفتُ بِقُرْبهن ، فسألننى أن أنشدهن وأحدِّثهن ، فأنشدتُهن لكُثَيِّر وجَميل والأحوص ونُصَيْبٍ وغيرهم ؛ فقلن لى : ويحك يا أعرابى ! ما أَمْلَحك وأظْرَفك ! لو نزلت فتحدثْتَ معنا يومنا هذا ! فإذا أمسيتَ انصرفتَ فى حفظِ الله !

فأنختُ بعيرى ، ثم تحــدَّثْتُ معهن ، وأنشدتُهُنَّ فسررن بى وجَذِلْنَ بقُرْبى ، وأعجبهنَّ حديثى ، ثم إنهن تَغامزْن ، وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هذا الأعرابى ! ما أشبهَه بعمر بن أبى ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله عمر ! فمدت هند يدها فانتزَعَتْ عمامتى فألقتها عن رأسى ثم قالت لى : هيه ياعمر !

---

(١) القعود من الإبل : ما يقتعده الراعى فى كل حاجة .

أتُراك خدعتنا منذُ اليوم ! بل نحن والله خدعناك واحتلْنا عليك بخالد ؛ فأرسلناه إليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ، ونحن كما ترى . قال عمر : فحادثْتُهن ساعة ، ثم انصرفت ، فذلك قولى :

ألم تسألِ الأطلالَ والمتربَّعا ببطنِ[1] حُلَيَّاتٍ دوارس بَلْقَعَا
فيبخلْن أو يُخْبِرْنَ بالعلم بعد ما نـكأن فؤادا كان قِدْماً مُفَجّعا
بهند وأترابٍ لهند إذ الهوى جميعٌ وإذ لم نَخْشَ أن يتصدَّعا
وإذ نحن مثلُ الماء كان مِزاجُه[2] كما صفّقَ[3] الساقى الرحيقَ المُشَعْشَعَا[4]
وإذ لا نُطِيع العاذلين ولا نرى لواشٍ لدينا يطلب الصَّرْمَ[5] موضِعا
تنُوعِتْنَ حتى عاود القلبَ سُقْمُه وحتى تذكرتُ الحديث المودّعا
فقلت لمُطريهن بالحسن : إنما ضَرَرْتَ فهل تَسْطِيعُ نَفْعاً فتنفعا
وهيجْتَ قلباً كان قد ودّع الصِّبا وأشياعَه ، فاشْفَعْ عسى أن تُشَفَّعَا
لئن كان ما قد قلتَ حقًّا فما أرى كمثل الألَى أطريتَ فى الناس أربعا
فقال : تعالَ ، انظر ، وكيف لى ! أخافُ مَقاماً أن يشيع فَيَشْنُعا
فقال: اكْتَفِل[6] ثم التَثِم وأْتِ باغياً فسلِّم ، ولا تـكثِرْ بأن تتورعا
فإنى سأخفى العين عنك فلا تُرَى مخافة أن يَفشُو الحديث فَيَسْمعا

---

(١) بطن حليات : اسم موضع قرب مكة . (٢) مزاج الشراب : ما يمزج به. (٣) التصفيق: المزج . (٤) الرحيق : أطيب الخمر ، والمشعشع: الممزوج . (٥) الصرم: القطع . (٦) اكتفل البعير : إذا أدار على موضع من ظهره كساء وركب عليه .

فأقبلتُ أهْوِى مثلَ ما قال صاحبى لموعــده أُزجى قَعُوداً موقّعا[١]

فلما تواقفنـــا وسلمتُ أشرقَتْ وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تتقنّعا

تبالَهْنَ بالعرفان لمـــا عرفننى وقلنَ امرؤٌ باغٍ أكلَّ وأوْضعا[٢]

وقرّبنَ أسباب الهـوى لمتيمٍ يقيسُ ذراعاً كلما قِسْنَ إصبعا

فلمـا تنازعْنا الأحاديثَ قلنَ لى : أخِفْتَ علينا أن نُغَرَّ ونُخْدَعا ؟

فبالأمس أرسلنـــا بذلك خالداً إليكَ وبيّنّا له الشأنَ أجمعـــا

فما جئتَنا إلا على وَفْقِ موعـدٍ على ملأٍ منّا خرَجْنا له معـاً

رأينـــا خلاءً من عيونٍ ومجلساً دَميثَ[٣] الرُّبا سهلَ المَحَلّةِ مُمْرِعا[٤]

وقلنَ : كريمٌ نال وصلَ كرائمٍ فحُقَّ له فى اليومِ أن يتمتّعا[٥]

---

(١) القعود الموقع : الذى يظهره آثار الجروح لكثرة ما حمل عليه وركب ، فهو بعير ذلول .

(٢) أكل وأوضع : أسرع فى سيره . (٣) دمث المكان: سهل . (٤) ممرع : مخصب .

(٥) هذه القصيدة نفسها قصة ممتعة تتحدث عما كان فى الشعر العربى من قصص .

٩٩ — حديث يوم الدَّوحة*

قال حمّاد الراوية :

أتيتُ مكةَ ، فجلستُ فى حَلْقَةٍ فيها عمرُ بن أبى ربيعة ، وإذا هُمْ يتذاكرون العُذريين[١] وعشقهم وصَبَابتهم ، فقال عمر : أحدِّثكم عن بعض ذلك :

كان لى خليلٌ من عُذرة يقال له : الجعد بن مِهْجَع ، ويُكْنى أبا مُسْهِر ، وكان يَلْقى مثلَ الذى ألقى من الصَّبابة بالنساء والوجْدِ بهنّ ؛ على أنه كان لا عاهِرَ الخلْوة ، ولا سريع السَّلْوَة ؛ وكان يوافى الموسم فى كل سنة ، فإذا رَاثَ[٢] عن وقته ترجمتْ عنه الأخبارُ ، وتوكَّفت[٣] له الأسفار[٤] حتى يَقْدم ؛ فغمَّنى ذات سنةٍ إبطاؤه حتى قَدِم حُجّاج عُذْرَة ، فأتيتُ القوم أَنْشُدُ[٥] صاحبى ، وإذا غلام تنفّس الصُّعَداء ! ثم قال : أعَنْ أبى المُسْهِر تَسْأل ؟ قلت : عنه أسْأل ، وإياه أردتُ . قال : هَيْهات هَيْهات ! أصبح والله أبو المسهر لا مُؤْيساً فيُهْمَل ، ولا مرجوًّا فيُعَلَّل ، وأصبح والله كما قال القائل :

---

* الأغانى ١٠ ـ ٤٨ ، مصارع العشاق: ٥٦ ، العقد الفريد ٤ : ٣٨٤ ، تزيين الأسواق: ٢٤٨

(١) عذرة : قبيلة اشتهر فيها العشق . قيل لأعرابى : ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، قال : عذرى ورب الكعبة ! ثم قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأن فى نسائنا صباحة ، وفى فتياننا عفة . وقيل لعروة بن حزام : أصحيح ما يقال فيكم : إنكم أرق الناس قلوباً ؟ قال : نعم، والله لقد تركت ثلاثين شاباً فى الحى ، قد خامرهم الموت ، ما لهم داء إلا الحب ! (٢) راث : أبطأ . (٣) يقال : توكف لفلان ، أى تعرض له حتى يلقاه . (٤) قوم أسفار : ذوو سفر (٥) أنشده : أطلبه .

لعمرك ما حُبِّي لأسماء تاركى   أعِيشُ ولا أقضِى به فأمُوتُ

قلت : وما الذى به ؟ قال : مثلُ الذى بك ؛ من تهوُّركما فى الضلال ، وجرِّكُما أذيال الخسار ؛ فكأنكما لم تسمعا بجنّةٍ ولا نار ! قلت : مَنْ أنتَ منه يابن أخى ؟ قال : أخوه . قلتُ : أما والله يابن أخى ما يمنعُك أن تسلكَ مسلك أخيك من الأدب ، وأنْ تركب منه مركبه إلا عَجْزُك عن مجاراته . ثم صرفتُ وجْهَ ناقتى وأنا أقول :

أرائحة حُجَّاج عُــذرة وُجهةً   ولمَّا يرحْ فى القوم جعد بن مِهْجع

خليلان نَشْكُو ما نلاق من الهوى   متى ما يَقُل أسمعْ وإن قلتُ يسمع

ألَا ليت شعرى أىُّ شىء أصابه   فلى زافرات هِجْن ما بَيْن أضلعى

فلا يُبْعِدَنْك الله خِــلًّا فإننى   سألقى كما لاقيت فى الحب مصرعى

ثم انطلقت حتى وقفتُ موقفى من عرفات ؛ فبينا أنا كذلك إذْ بإنسان قد تغيّر لونُه ، وساءت هيئته ، فأدنى نَاقته من ناقتى حتى خالف بين أعناقهما ، ثم عانقنى حتى اشتد بكاؤُه ، فقلت : ماوراءك ؟ فقال : بَرْح العَذْل ، وطول المَطْل ، ثم أنشأ يقول :

لئن كانت عديلةُ ذاتَ مَطْلٍ   لقــد علمت بأن الحبّ داء

ألم تنظرْ إلى تغيير جسمى   وأنّى لا يفــارقنى البــكاء

وإنك لو تــكلفتِ الذى بى   لزال السِّتْرُ وانــكشف الغِطاء

وإن مَعاشرى ورجالَ قوْمِى   حتوفُهم الصبابةُ واللقـــاء

فقلتُ : يا أبا المُسْهِرِ ، إنها ساعة تُضرب إليها أكبادُ الإبل من شرق الأرض وغربها ، فلو دعوتَ الله كنت قَمِناً بحاجتك ، وأن تُنْصَر على عدوّك ؛ فتركنى وأقبل على الدعاء ، فلما نزلت الشمسُ للغروب ، وهمّ النّاسُ أن يُفيضوا سمعتُه يتكلمُ بشىء ، فأصغيتُ إليه ، فإذا هو يقول :

يا ربَّ كلِّ غَدْوة ورَوْحه من مُحرمٍ يشكو الضّبا ونَوْحَه

أنت حسيبُ الخلق يوم الدَّوْحه

فقلت له : وما يومُ الدَّوْحة ؟ قال : والله لأخبرنّك ولو لم تسألنى !

فيمننا نحو مُزْدَلِفَة[1] ، فأقبل علىّ وقال : إنى رجلٌ ذو مال كثير ؛ من نَعَمٍ وشاء ، وقد خشيتُ على أموالى التَّلَف ، فأتيتُ أخوالى كَلْباً ، فأوسعوا لى عن صدر المجلس ، وكنتُ فيهم فى خير أخوال ؛ ثم إنى خرجتُ يوماً إلى ماء لهم ، وركبتُ فرسى ، وسَمطت[2] خلفى شراباً كان أهداه إلىّ بعضُهم ثم مضيتُ حتى إذا كنتُ بين الحىّ ومَرْعَى النَّعم ، رُفِعتْ لى دَوْحةٌ عظيمة ، فنزلتُ عن فرسى ، وشَدَدْتُه بغُصْنٍ من أغصانها ، وجلست فى ظلّها ؛ فبينا أنا كذلك إذْ سطع غبارٌ من ناحية الحى ، ورُفِعت لى شخوص ثلاثة ، ثم تبينت فإذا فارس يطْرُد أتانَيْنِ ، فتأملتُه فإذا عليه دِرْعٌ أصفر ، وعمامة خزّ سوداء ، وإذا فُروع شعره تضرب خَصْريه فقلت : غلامٌ حديثُ عهدٍ بعُرس ، أعجلَتْه لذّةُ الصيد ، فترك ثوبه ؛ ولبس ثَوْبَ امرأته ؛ فما جاز علىّ إلا يسيراً حتى طعن الأتان ، وأقبل راجعاً نحوى .

---

(١) مزدلفة : موضع بين عرفات ومنى ، سمى بذلك لأنه يتقرب فيه إلى الله تعالى . (٢) سمط الشىء : علقه .

فقلت له : إنك قد تعبتَ وأتعبْتَ ، فلو نزلت ! فثَنَى رجله ونزل ، ثم شدّ فرسه بغصن من أغصان الشجرة ، وألقى رمحه وأقبـل حتى جلس ، فجعل يحدّثنى حديثاً ذكرتُ به قولَ أبى ذؤيْب :

وإنّ حـديثاً منكِ لو تبذُلينه ... جَنى النّحل فى ألبان عُوذٍ[1] مطافِلِ

فقمتُ إلى فرسى فأصلحتُ من أمره ثم رجعتُ ، وقد حَسَر العِمامة عن رأسه؛ فإذا غلامٌ كأن وجْهَهُ الدينار المنقوش ، فقلت : سبحانك اللهم ! ما أعظمَ قُدْرتك! وأحسنَ صنعتك ! فقال : مِمَّ ذاك ؟ قلت : ممـا راعنى من جمالك ، وبهرنى من نُورِكَ . قال : وما الذى يروعك من حبيس التُّراب وأكيل الدّوّاب ، ثم لا يدرى بعد ذلك أينعَم أم ييْأس ؟ قلت : لا يصنع الله بك إلّا خيراً .

ثم تحدّثنا ساعة ، فأقبل علىّ وقال : ما هذا الذى أرى قد سَمطت فى سرجك؟ قلت : شراب أهداه إلىّ بعضُ أهلك ، فهل لك فيه من أرب ؟ قال : أنتَ وذاك، فأتيته به ، فشرب منـه ، وجعل ينـكت أحياناً بالسوط على ثناياه ؛ فجعل والله يتبيّن لى ظلُّ السوط فيهن ّ ، فقلت : مهلًا ، فإنى خائف أن تـكسِرَهن ، فقال : ولِمَ ؟ قلت : لأنهن رِقَاق ، وهنّ عِذاب ؛ ثم رفع عَقيرته يتغنّى :

إذا قبّل الإنسانُ آخر يشتهى ... ثناياه لم يَأْثمْ وكان له أجرا

فإن زاد زاد الله فى حسناتِهِ ... مثاقيل يمحو الله عنه بها الوِزْرا

---

(١) العوذ : الحديثات النتاج ، والمطافل جمع مطفل : ذات الطفل .

ثم قام إلى فرسه ، فأصلح من أمره ، ثم رجع .

قال أبو مُسْهِر : فبرقتْ لى بارقةٌ تحت الدِّرْع ، فإذا ثدى ، فقلت : نشدْتك الله ! امرأة ! قالت : إى والله ؛ إلا أنى أكره العَشِير . ثم جلستْ ، فجعلت تشرب معى ، وما أفْقِد من أنسها شيئاً ، فما لبثتْ إلا يسيراً حتى انتبهت فزعة ، فلاثتْ عِمامتها برأسها ، وجالتْ فى مَتْنِ فرسها ، وقالت : جزاك الله عن الصُّحبة خيراً . قلت : أو ما تزوّدينى منك زاداً ، فناولتنى يدها فقبّلتها ، فشممت والله منها ريح المسك المفتوت ، فذكرت قول الشاعر :

كأنها إذا تَقَضَّى النومُ وانتبهتْ　　سحابةٌ ما لهـــا عينٌ ولا أثَرُ

ثم قلت لها : وأينَ الموعد ؟ قالت : إن لى إخوة شُرساً ، وَأباً غَيوراً ، ووالله لأنْ أسُرَّك أحبُّ إلىّ من أنْ أضرّك ، ثم انصرفتْ ، فجعلتُ أتْبِعُها بصرى حتى غابَتْ ، فهى والله يا بن أبى ربيعة حلّتْنِى هذا المحلّ ، وأبلغتنى هـذا المبلغ !

قال عمر : فقلت له : يا أبا المُسْهِر ؛ إنّ الغدرَ بك مع ما تذكرُ لمليح ، فبكى واشتدّ بكاؤه . فقلت : لا تَبْكِ ، فما قلتُ لك ما قلْتُ إلا مازحاً ، ولو لم أبلغ فى حاجتك بمالى لسعيتُ فى ذلك حتى أقْدِر عليه ، فقال : خيراً .

قال عمر : فلما انقضى الموسم شددتُ على ناقتى ، وشدّ على ناقتِه ، ودعوت غلامى ، فشدّ على بعير له ، وحملت عليه قبّةً حمراء من أدَم[1] ، كانت لأبى ربيعة المخزومى ، وحملت معى ألف دينار ومُطرف[2] خزّ ، وانطلقنا حتى أتينا بلاد كلب ،

---

(١) الأدم : الجلد .　　(٢) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

فَنَشَدْنا أبا الجارية ، فوجدناه فى نادى قومه ، وإذا هو سيِّدُ الحى ، وإذا الناس حوله ، فوقفتُ على القوم ، فسلّمْتُ فردّ الشيخ السلام ، ثم قال : مَن الرجل ؟ قلت : عمر بن أبى ربيعة بن المُغيرة ، فقال : المعروف غير المنكَر ! فما الذى جاء بك ؟ قلت : خاطباً ، قال : الكفء والرغبة ، قلت : إنى لم آتِ ذلك لنفسى عن غير زَهادة فيك ، ولا جهالة بشرفك ؛ ولكنى أتيتُ فى حاجة ابن أختكم العُذْرى ، وها هو ذاك . فقال : والله إنه لَكُفء الحسب ؛ رفيع البيت ، غير أن بنَاتِى لم يقعن إلا فى هذا الحى من قريش .

فوَجِمتُ لذلك ، وعرَف التغيُّر فى وجهى ، فقال : أما إنى صانع بك ما لم أصنعه مع غيرك ، قلت : وما ذاك ؟ فمثلى مَنْ شكر . قال : أخيِّرها ، فهى وما اختارت ، ثم خيَّرها ، فقالت : وما كنتُ لأستبدَّ برأى دون القرشى ، فالخيارُ والحكم له . فقال لى : إنها وقد ولَّتك أمرها ، فاقضِ ما أنتَ قاض . فحمدت الله عز وجل وأثنيتُ عليه ، وقلت : اشْهَدُوا أنى قد زوّجتُها من الجعد بن مهجع ، وأصدقتُها هذا الألف الدينار ، وجعلتُ تكرمتَها العبد والبعير والقُبَّة ؛ وكسوتُ الشيخ المُطرف ، وسألته أنْ يبنى بها فى ليلته ؛ فأرسل إلى أمها ؛ فقالت : أتخرج ابنتى كما تخرج الأَمَة ! فقال الشيخ : قومى فى جهازها ، فما برحت حتى ضربت القبة فى وسط الحريم ؛ ثم أهْدِيَتْ إليه ليلا ؛ وبتّ عند الشيخ ؛ فلما أصبحت أتيْتُ القبة ، فصِحْتُ بصاحبى فخرج إلىّ وقد أثَّر السرورُ فيه ، فقلت : كيف كنْتَ بعدى ؟ وكيف هى بعدك ؟ فقال لى : أبْدَتْ لى والله كثيراً مما كانت

أخفته عنى يوم لقيتُها ؛ فقلت : أَقِمْ على أهلك ، بارك الله لك فيهم ، وانطلقت وأنا أقول :

كفيت أخى العذرى ما كان نَابَهُ وإنّى لأعْبَاء النوائبِ حمّال

فقال العُذرى :

إذا ما أبو الخطاب خَلى مكانه فأُفٍّ لدنيا ليس من أهلها عُمر !

---

١٠٠ — لولا فصاحتُهم لضربتُ أعناقهم*

أمر الحجاجُ(١) صاحبَ حرَسِه أن يطوف بالليل ؛ فمن رآه بعد العشاء سكران ضربَ عنقه ؛ فطاف ليلةً من الليالى ، فوجد ثلاثةَ فتيانٍ يتمايلون، وعليهم أمارات السكْر ؛ فأحاطت بهم الغِلمَان ، وقال لهم صاحبُ الحرس : من أنتم حتى خالفتم أمر أمير المؤمنين ، وخرجتم فى مثل هذا الوقت ! فقال أحدهم :

أنا ابنُ من دانتِ الرقابُ له ... ما بين مخزومِها وهاشِمِها
تأتيه بالرغْمِ وهى صاغرةٌ ... يأخذ من مالِها ومن دَمِها

فأمسك عنه ، وقال : لعله من أقارب أميرِ المؤمنين ! ثم قال للآخر : وأنت مَنْ تكون ؟ فقال :

أنا ابنٌ لمن لا تَنزِلُ الدهرَ قِدرُهُ ... وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ

فأمسك عنه ، وقال : لعله ابن أشرف العرب . ثم قال للآخر : وأنت مَنْ تكون ؟ فأنشد على البديهة :

أنا ابنٌ لمن خاضَ الصفوف بعزْمِهِ ... وقوّمها بالسَّيفِ حتى استقامتِ
وركْبَاهُ لا ينفك رِجْلَاهُ منهما ... إذا الخيلُ فى يوم الكريهة ولّتِ

---

* مجانى الأدب : ٣ـ١٥

(١) الحجاج بن يوسف : نشأ بالطائف ، وولى العراق والمشرق ، وهلك بواسط سنة ٩٥ .

فأمسك عنه أيضاً ، وقال : لعله ابن أشجع العرب ؛ واحتفظ عليهم .

فلما كان الصباح رفَع أمرهم إليه ؛ فأحضرهم ، وكشف عن حالهم ؛ فإذا الأول ابن حجّام ، والثانى ابن فوّال ، والثالث ابن حائك !

فتعجب من فصاحتهم ، وقال لجلسائه : علموا أولادكم الأدب ، فوالله لولا فصاحتهم لضربتُ أعناقهم .

١٠١ — يوم دَارَة جُلْجل*

قال الفرزدق[١] : أصابنا بالبصرة مطر جَوْد[٢] ، فلما أصبحتُ ركبت بغلتى، وسرتُ إلى المِرْبد[٣] ، فإذا أنا بآثار دوابّ، وقد خرجت إلى ناحية البرية ، فظننتُ أنهم قوم خرجوا للنزهة وهم خُلَقاء أن يكون معهم سُفْرَة[٤] ، فاتبعت آثارهم حتى انتهيت إلى بغال عليها رحائل[٥] موقوفة على غدير ، فأسرعتُ إلى الغدير ، فإذا فيه نسوة مستنقعات فى الماء ، فقلت ؛ لم أر كاليوم قط ولا يوم دارة جُلْجُل ، وانصرفت مستحيياً .

فناديننى : ياصاحبَ البغلةِ ؛ ارجِعْ نسألك عن شىء فرجعتُ إليهنّ ، فقعدن فى الماء إلى حُلوقهنّ ، ثم قلن : بالله إلا ما أخبرتنا،ما كان من حديث دارة جلجل.

قلت : حَدَّثنى جدى ـ وأنا يومئذ غلامٌ حافظ ـ أن امرأ القيس كان عاشقاً لابنة عمه ـ ويقال لها عُنيزة ـ وأنه طلبها زماناً فلم يصل ، حتى كان يوم الغدير ـ وهو يوم دارة جلجل ـ وذلك أنّ الحىّ تحملوا ، فتقدم الرجال ، وتخلف النساء والخدم والثَّقَل ، فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف بعدما سار مع رجال قومه غَلْوَة، فكَمن فى غابة من الأرض حتى مرّ به النساء ، وفيهن عُنيزة ، فلما وَرَدْن الغدير

---

* العقد الفريد : ٤ ـ ٣٥٢

(١) هو أبو فراس همام بن غالب نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونبغ فيه . مات سنة ١١٠ هـ . (٢) الجود : المطر الغزير . (٣) المربد : سوق بالبصرة، كان يعقد للبيع ، وفيه ينشد الشعر . (٤) السفرة : طعام المسافر . (٥) الرحالة : السرج .

قلن : لو نزلنا واغتسلنا فى هذا الغدير فذهب عنا بعضُ الكَلَالِ ! فنزلن فى الغدير، ثم تجرَّدْن فوقفن فيه ، فأتاهن امرؤ القيس ، فأخذ ثيابَهنَّ فجمعها ، وقعد عليها ، وقال : والله لا أعطى جاريةً منكن ثوبها ، ولو قعدت فى الغدير يَوْمَها حتى تخرجَ متجردةً فتأخذ ثوبها، فأبَيْن ذلك عليه حتى تعالى النهار ، وخشين أن يقصرن عن المنزل الذى يردنه ، فخرجْن جميعاً غير عُنيزة ، فناشدته الله أن يطرح ثوبها ، فأبى، فخرجتْ فنظر إليها مُقْبلة مدبرة ، وأقبَلْنَ عليه ، فَقُلن له : إنك عذَّبتنا وحَبَسْتَنا وأَجَعْتَنَا ، قال : فإن نحرتُ لكنَّ ناقتى أتأكلن معى ؟ قلن : نعم ، فجرَّد سيفاً فعرقبها ونحرها ، ثم كشطها ، وجمع الخدمُ حطباً كثيراً ، فأجَّجْنَ ناراً عظيمة ، فجعل يقطع أطايبَها ، ويُلقى على الجمر ، ويأكلْن ويأكل معهن ، ويشرب من فَضْلَةٍ كانت معه ، ويسقيهن ويَنْبذ إلى العبيد من الكباب[1] ، فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهنّ : أنا أحمل طِنْفسته ، وقالت الأخرى : أنا أحمل رَحْله ونساعده ، فتقسَّمْنَ متاعه وزاده ، وبقيت عنيزة لم تحمل له شيئاً ، فقال لها : يابنتَ الكرام ؛ لا بد أن تحمليني معك ، فإنى لا أطيق المشى ، فحملته على غارب بعيرها فكان يجنح إليها فيميل حدْجها[2] ، فتقول : « عقرت بعيرى ، فانزل » ، وفى ذلك يقول :

ألا ربَّ يومٍ لى من البيض صالحٍ ولا سيما يوم بدارَةِ جُلْجُلِ[3]
ويوم عقرتُ للعذارى مطيّتى[4] فيا عجباً من كُورِها المتحمَّلِ

(١) الكباب: ضرب من قلى اللحم . (٢) الحدج : مركب للنساء كالمحفة. (٣) دارة جلجل: مكان بنجد . (٤) مطيته : ناقته، والعذارى: الأبكار، والكور: الرحل ، والمتحمل: المحمول.

فظلَّ العــذارى يرتمين بلحمِها ... وشحمٍ كهُدَّابِ[1] الدِّمَقْس المفتّل
ويوم دخلتُ الخدْرَ[2] خِدْرَ عنيزةٍ ... فقالت: لك الويلاتُ إنكَ مُرْجِلى[3]
تقول وقد مال الغَبيطُ[4] بنا معاً ... عقرتَ[5] بعيرى ياامرأ القيس فانزِل
فقلتُ لها: سيرى وأرْخِى زِمامَه ... ولا تُبْعِدِينى من جناكِ المُعَلّل[6]

---

(١) هداب الدمقس: أطراف الحرير، والمفتل: المفتول. (٢) الخدر: الهودج، وهو فى الأصل الستر. (٣) مرجلى: من أرجلته: صيرته راجلا. وقيل معناه: فأضحى بين رجالى.

(٤) الغبيط: الرحل. (٥) عقرت بعيرى: أدميت ظهره لثقلك. (٦) الجنى: الثمر، والمعلل: المطيب مرة بعد أخرى.

١٠٢ — دَعْنِى وربى الذى لا يَبْخَل ولا يَذْهل*

لما بلغ الوليد[١] بن يزيد أن يزيدَ بن الوليد بن عبد الملك قد شَرَّد عنه القلوب، واستجاش[٢] عليه أهل اليمن، ونازعه فى ملكه؛ احتجب عن سُمّاره، ودعا فى بعض الليالى خادماً له؛ فقال له: انْطَلِق متنكراً حتى تقف ببعض الطُّرُق؛ وتأمَّلْ من يمرُّ بك من الناس؛ فإذا رأيت كَهْلاً رثَّ الهيئةِ؛ يمشى الهُوَينى؛ وهو مُطْرِق، فسلِّم عليه؛ وقل له فى أُذُنِه: أميرُ المؤمنين يدعوك؛ فإن أسْرَعَ فى الإجابة فأتنى به، وإن استَرَاب[٣] فدعْه، واطلب غيره؛ حتى تجدَ رجلًا على الشَّرْطِ الذى ذكرتُ لك.

فانطلق الخادم؛ فأتاه برجل على الشَّرْط.

فلما دخل الرجل على الوليد حيَّاه بتحية الخلافة، فأمره الوليد بالجلوس والدُّنُوِّ منه؛ وصبَرَ إلى أن ذهب رَوْعُه، وسكن جَأْشُه، ثم أقبل عليه، فقال له: أتحسِنُ المسامرةَ للخلفاء؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال الوليد: إن كنت تُحْسِنُها فأخبِرنا ماهى؟ فقال: ياأمير المؤمنين؛ المسامرةُ إخبار لمُنْصِتٍ، وإنصاتٌ لِمُخْبِر؛ ومفاوضة فيما يعجب ويليق.

---

* ثمرات الأوراق: ١٧٤

(١) كان الوليد بن يزيد — ويكنى أبا العباس — ماجنا سفيها يقطع دهره باللهو والغزل، ويقول أشعار المغنين يعمل فيها الألحان. مات مقتولا سنة ١٢٦ هـ. (٢) استجاش أهل اليمن: حملهم على الهياج. (٣) استراب به: رأى منه مايريبه.

قال له الوليد : أحسنتَ ! لا أزيدك امتحاناً ! فقل : أسمع لقولك .

فقال الـكَهْل : نعم يا أمير المؤمنين ؛ ولـكن المسامرةَ صِنْفان لا ثالث لهما : أحدها الإخبار بما يوافق خبراً مسموعاً ، والثانى الإخبار بمـا يُوافق غرضاً من أغراض صاحبِ المجلس ، وإنى لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقةً فأنحوَ نحوها ، وألزَم أسلوبها .

فقال الوليد : صدقت ، وها نحن أولاء نقترح لك ما تقتفيه .

قد بلَغَنا أن رجلًا من رَعِيَّتِنا سعى فى ضرر مُلْـكنا ، فأثر سعيُه ؛ وشقّ ذلك علينا ، فهـل سمعتَ ذلك ؟ فقال الـكَهْل : نعم يا أمير المؤمنين ! فقال له الوليد : قل الآن على حَسَب ما سمعتَ ، وعلى ما ترى من التدبير .

فقال : بلغنى عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : أنه لمـا ندبَ الناس لقتال ابن الزبير ؛ وخرج بهم متوجِّهاً إلى مكة ـ حرسها الله ـ استصحب عمرو بنَ سعيد بن العاص ، وكان عمرو قد انطوى على فساد نيّةٍ ، وخُبْثِ طويّةٍ ، وطَماعيةٍ فى نيْل الخلافة ، وكان أميرُ المؤمنين عبدُ الملك بن مروان قد فطِن لذلك ، إلا أنه كان يحترمه .

ولمـا بَعُدَ أميرُ المؤمنين عن دمشق تمارَض عمرُو بن سعيد ، واستأذن فى العودِ إلى دمشق ؛ فأذِن له .

فلما دخل عمرو دمشق صَعِد المنبر ، فخطب الناس خطبةً ، نال فيها من الخليفة ، واستولى على دمشق ، ودعا الناس إلى خَلْع عبد الملك ؛ فأجابوه إلى ذلك ،

وبايعوه ، وحصّن بعد ذلك سورَ دمشق وحمى حَوْزتها .

فبلغ ذلك عبد الملك ، وهو متوجّه إلى ابن الزبير ؛ وبلغه مع ذلك : أن والىَ حِمص قد نزع يده من الطاعة ؛ وأن أهل الثغور قد تشوّفوا للخلاف ؛ فأحضر وزراءه ؛ فأطْلَعَهُمْ على ما بلغه ، وقال لهم : دمشق قد استولى عليها عَمْرو بن سعيد، وهذا عبد الله بن الزبير قد مَلَك الحجاز والعِرَاق واليمنَ ومِصْرَ وخُراسان ، وهذا النعمانُ بن بشير أمِير حمص ، وزُفَرُ بنُ الحارث أميرُ فِلَسْطِين قد خرجا عن الطاعة وبايعا الناس لابن الزبير .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذَهَلت عقولُهم ، فقال لهم عبدالملك : مالكم لاتنطقون؟ هذا وقتُ الحاجة إليكم .

فقال أفْضَلُهُمْ : وددت أن أكون طَيْراً على عودٍ من أعوادِ تِهامة حتى تنقضى هذه الفتن !

فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام ، وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب منفرداً، وأمر جماعة من شجعانه أن يتبعوه متباعدين ، ففعلوا .

وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضعيف ، سَيِّئْ الحال ، وهو يجمع سُمَاقاً(١) ؛ فسلم عليه عبد الملك وآنسَه بحديثه ، ثم قال له : أيها الشيخ ، أَلَكَ علمٌ بنزول هذا العسكرَ ؟ فقال الشيخ : وما سؤالك عنه ؟ فقال عبد الملك : إنى أردتُ الانتظام فى سِلْكِه ! فقال له : إنى أرى عليك سِمَةَ الرياسة ، فينبغى لك

---

(١) السماق ، كرمان : ثمر يشهى .

أن تصرفَ نفسك عن هذا الرأى ؛ فإنّ الأمــيرَ الذى أنتَ قاصده قد انحلت عُرَا مُلْـكه ؛ والسلطانُ فى اضطرابِ أموره كالبحر إذا هاج !

فقال عبد الملك : أيها الشيخ ؛ قد تاقت نَفْسِى إلى صحبةِ هذا الأمير ؛ فهل لك أن تُرْشِدَنى إلى رأيٍ ؟ فقال له الشيخ : إن هذه النازلة التى نزلتْ بهذاالأمير من النوازل التى لا تنفذ فيها العقول ، وإنى لأكره أن أردّ مسألتك بالخَيْبَة . فقال له عبد الملك : قل جزاك اللهُ خيراً !

فقال الشيخ : إذا قصدْتَ هذا الأمير ، وانتظَمْتَ فى سلـكه ؛ فانظر فى أمره فإن رأيته قد أصرّ على قَصْده ابن الزبير فاعلم أنه مخذول فاجْتَنِبْه ؛ وإن رأيته قد رجع من حيث جاء ،وترك قصدَه الأول ؛ فارْجُ له النصر والسلامة .

فقال عبد الملك : ياشيخ ، وهل رجوعـه إلى دمشق إلا كمسيره إلى ابن الزُّبير ؟ قال الشيخ : إن الذى أشْكل عليك لواضح ! وهأنذا أزيل عنك اللبس ؛ إن عبد الملك إذا قصد ابنَ الزبير كان فى صُورةِ ظالم ؛ لأنَّ ابنَ الزبير ما وثَبَ له على مملـكة ؛ فإذا قصد ابنَ سعيد كان فى صورة مظلوم ؛ لأنه نـكث بَيْعَتَه ،وخان أمانتَه ، ووثَبَ على دار ملك لم تـكن له ولا لأبيه من قَبْله ؛ بل كانت لعبد الملك ولأبيه من قبله ؛ وعَمْرو عليها مُتَعَدّ .

وفى الأمثال : سمين الغَصْبِ مهزول ، وَوَلِيُّ الغدْر معْزُول ، وسأضربُ لك مثلًا يشفى النفس ، ويزيل اللبس :

زعموا أن ثعلباً كان يسمى ظالما ، وكان له جُحْر يَأْوِى إليه ، وكان مُغْتَبِطاً به ؛

فخرج يوماً يبتغى ما يأكل، ثم رجع ؛ فوجد فيه حيَّةً ، فانتظر خُروجها، فلم تخرج ؛ فعلم أنها استَوْطنته ، ولمّا لم يمكنه السُّكْنَى معها ذهب يَطْلُبُ لنفسه مَأْوى ؛ فانتهى به السيرُ إلى جحرٍ حَسَنِ الظاهر ، حصينٍ فى أرض منيعة ذاتِ أشجار مُلْتَفَّة وماء مَعِين(١) ؛ فأَعْجَبه ، وسأل عنه ؛ فقالوا : هذا الُجحْر يملكه ثعلب اسمه مفوض ، وأنه ورثه عن أبيه ؛ فناداه ظالم فخرج إليه ، ورحّب به ، وأدخله إلى جُحره ، وسأله عن حاله ؛ فقصّ عليه خبرَه مع الحية ؛ فرقّ له مفوض ، وقال له : الموتُ خيرٌ من الحياة فى العار ، والرأىُ عندى : أن تنطلق معى إلى مَأواك الذى أخِذ منك غَصْباً ، حتى أنظر إليه ، فلعلى أهتدى إلى مكيدة تُخَلِّص بها مأواك .

فانطلقا معا إلى ذلك الجحر ؛ فتأمّله مفوض ، وقال لظالم : اذهب معى فَبِتِ الليلةَ عندى لأنظرَ ليلتى هذه فيما يسنَح من الرأى والمكِيدة .

ففعلا ذلك ، وبات مفوض مفكّراً ، وجعل ظالم يتأمّل مسكن مفوض فرأى من سعَتِه ، وطيب هوائه وحصانته ما اشتدّ به حِرْصُه عليه ، وطفق يدبّر فى حيلةٍ لاغتصابه ، و نَفْى مفوض عنه .

فلما أصبحا قال مفوض لظالم : إنى رأيتُ ذلك الُجحْرَ بعيداً من الشجر والماء فاصْرف نفسك عنه ، وهلمّ أُعينك على احتفار جُحْرٍ فى هذا المكان المشتهى .

فقال ظالم : غير هذا ممكن ؛ لأن لى نفساً تهلك لبعد الوطن حنيناً ؛ فلما سمع مفوض

---

(١) ماء معين : جار .

مقالةَ ظالمٍ ،وما يتظاهر به من الرغبة فى وطنه ، قال: إنى أرى أنْ نذهبَ يومنا هذا، فنحتطب حطباً ، ونربط منه حزمتين، فإذا جاء الليل انطلقنا إلى بعض هذه الخيام ؛ فأخذنا قَبَسَ نار، واحتملنا الحطب والقَبَس إلى مسكنك ؛ فنجعل الحزمتين فى بابه، ونُضْرِم النار ؛ فإن خرجت الحية احترقت ، وإنْ لزمت الُجُحْرَ قتلها الدخان .

فقال له ظالم : نِعْمَ الرأى !

فذهبا واحْتَطَبا حزمتين ، ولما جاء الليل انطلق مفوّض إلى ظاهر تلك الخيام، فأخذ قبساً ؛ فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين ، فأزالها إلى موضعٍ غيّبها فيه ، ثم جرّ الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض ، فسدّه بها سدًّا مُحْكَما ، وقدّر فى نفسه أن مفوضاً إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لحصانته ، فإذا يئس منه ذهب فنظر لنفسه مَأْوى .

وكان ظالم قد رأى فى منزل مفوض طعاماً ادّخره لنفسه ؛فعوّل على أنه يَقْتَاتُ به إن حاصره مفوّض ، وهو من داخل ؛ وأذْهَلَه الشَّرَه والحرصُ عن فساد هذا الرأى .

ثم إن مفوّضاً جاء بالقَبَسِ فلم يجد ظالما ؛ فظن أنه قد حمل إحدى الحزمتين تخفيفاً عنه ، وأنه سبقه إلى مسكنه الذى فيه الحية ، إشفاقاً عليه ، فشقّ ذلك عليه، وظهر له من الرأى أن يُبادرَ إليه ويلحقه ؛ ليحمل معه الحطب .

فوضع القَبس بالقرب من الحطب ، ولم يشعر أن الباب مسدود به ؛ لشدة الظلمة ، فما بَعُد عن الباب إلا وضوء النار وشدةُ الدخان قد لَحِقاً به ، فعاد وتأمّل الباب ، فرأى الحطب قد صار ناراً ، فعلم مكيدة ظالم ، ورآه قد احترق من داخل

الجحر ، وحاق به مَكْرُه ؛ فقال : هذا الباحث على حَتْفِه[1] بِظِلْفِه .

ثم إنّ مفوضاً صبر حتى انطفأت النار ؛ فدخل جُحْرَه ؛ فأخرج جثةَ ظالم ؛ فألقاها ؛ واستوطن جحره آمنا .

فهذا المثل ضربته لك ؛ لأنه ملائم لفعل عمرو بن سعيد فى بَغْيِه ومُخادَعَتِه عبدَ الملك ، وحيلتِه فى أخذ دار ملكه وتحصينها منه .

فلما سمع عبدُ الملك حكمةَ الشيخ فى ضرب أمثاله سُرّ بذلك سروراً عظيما ، ثم أقبل عليه ؛ فقال : جُزِيتَ عنى خيراً ! وإنى أريد أن تجعل بينى وبينك موعداً وتعرّفنى مكانك ؛ لألقاك به بعد يومى هذا .

فقال الشيخ : وما تريدُ بذلك ؟ فقال له عبد الملك : إنى أريد مكافأتك على ما كان منك ؛ فقال الشيخ : إنى أعطيتُ اللهَ عَهْداً ألّا أقبلَ منّةً لبخيل .

فقال عبد الملك : ومن أين علمت أنى بخيل ؟ قال : لأنك أخّرت صلتى مع القدرة ؛ فما عليك لو وصلتنى ببعض ما عليك ؟ فقال عبد الملك : أقسم لقد ذَهَلت ! ثم نزع سيفه ، وقال له : اقبل منى هذا واحرص عليه ؛ فقيمتُه عشرون ألف درهم .

فقال الشيخ : إنى لا أقْبَلُ صلةَ ذاهل ، فدعْنى وربى الذى لا يذهل ولا يبخل ؛ فهو حسبى !

فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عَظُم فى عينه ، وعلم فضله فى دينه ، فقال له : أنا عبد الملك ؛ فارفع حوائجك إلىّ ، فقال الشيخ : وأنا أيضاً عبد الملك ؛ فهلمّ نرفع حوائجنا إلى من أنت وأنا له عَبْدَان .

---

(١) الحتف : الموت .

فانطلق عبدالملك وعمل برأى الشيخ ؛ فأنجح الله قَصْدَه ، وانتصر على أعدائه.

فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجح عقلَه ، واستظرف أدبه ، واستحسن محاضرته ، وسأله عن نفسه ؛ فتسمَّى له وانْتَسب ؛ فلم يعرفه الوليد ، فاستحْيا منه ، وقال له : من جهل مثلَك فى رعيته ضاع .

فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين ؛ إن الملوك لا تعرفُ إلا من تعرَّف إليها ، ولزم أبوابها .

فقال له الوليد : صدقت ، ثم أمر له بصدَقَةٍ مُعَجَّلة ، وعهد إليه فى ملازمته ؛ فكان يتمتّع بأدبه وحكمته .

١٠٣ — أبو جعفر المنصور فى المرآة*

قال شَبِيب بن شَيْبَة : حججت عام هَلَكَ هشام ؛ وولى الوليد بن يزيد ، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة ، فبينما أنا مُرِيحٌ ناحيةً من المسجد ، إذ طلع من بعض أبوابه فتًى أسمر ، رقيقُ السمرة ، موفور اللِّمّة[١] ، خفيفُ اللحية ، رحبُ الجبهة ، أقنى[٢] بَيِّنُ القنا ، أعْيَنُ[٣] كأن عينيه لسانان ينطقان ، يخلط أُبَّهة الأملاك[٤] بِزِىّ النُّسّاك ، تقبله القلوب ، وتتبعه العيون ، يعرف الشرف فى تواضعه ، والعَفْو[٥] فى صورته ، واللُّبُّ[٦] فى مِشيته ؛ فما ملكتُ نفسى أن نهضتُ فى أثره ، سائلا عن خبره ، وسبَقَنى فتحرّم بالطواف ؛ فلما سبَّع[٧] قصد المقام ، فركع وأنا أرعاه ببصرى ، ثم نهض منصرفاً ، فكأن عيناً أصابته ، فكبا كبوة دَمِيت لها إصبعه ؛ فقعد لها القُرْفُصاء ، فدنوتُ منه متوجِّعاً لما ناله ، متصلا به ؛ أمسَحُ رجله من التراب ، فلا يمتنع علىّ ، ثم شققت حاشيةَ ثوبه ، فعصبْتُ بها إصبعه ، وما ينكر ذلك ولا يدفعه ، ثم نهض متوكئاً علىّ ، وانقدتُ له أماشيه ، حتى إذا أتى داراً بأعلى مكة ابتدره رجلان تكاد صدورهما تنفرج من هيبته ، ففتحا له الباب ، فدخل واجتذبنى ، فدخلتُ بدخوله ، ثم خلى يدى ، وأقبل على القبلة ، فصلى ركعتين أوجز فيهما فى تمام .

---

* العقد الفريد : ٣ — ٢٨٩

(١) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن . (٢) قنا الأنف : ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه . (٣) الأعين : عظيم سواد العين فى سعة . (٤) الأملاك : الملوك . والأبهة : العظمة والكبر . (٥) العفو : الفضل . (٦) اللب : العقل . (٧) سبع الشىء : جعله سبعة .

ثم استوى فى صَدْرِ مجلسه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم أتم صلاة وأطيبها ، ثم قال : لم يَخْفَ علىّ مكانك منذ اليوم ولا فعلك بى ؛ فمن تكون يرحمك الله ؟ قلت : شبيب[1] بن شَيْبَة التَّمِيمى . قال : الأهتمى ؟ قلت : نعم . فرحّب وقرّب ، ووصف قومى بأبين بيان وأفصح لسان ، فقلت له : أنا أُجِلُّك ـ أصلحك الله ـ عن المسألة ، وأحب المعرفة ؟ فتبسم وقال : لُطْفُ أهل العراق ! أنا عبد الله[2] بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ! فقلت : بأبى أنت وأمى ! ما أشبهكَ بنسبِك ، وأدلّك على منصبك ! ولقد سبق إلىّ قلبى من محبتك مالا أبلغه بوصفى لك . قال : فاحمد الله ياأخا تميم ، فإنا قوم يُسْعِد الله بحبنا مَنْ أحبه ويُشقى ببُغضنا من أبغضه ، ولن يصلَ الإيمانُ إلى قلب أحدكم حتى يحبَّ الله ويحبَّ رسوله ، وإن ضعُفنا عن جزائه قوى الله على أدائه .

فقلت له : أنت تُوصَفَ بالعلم ، وأنا مِنْ حَمَلته ، وأيامُ الموسم ضيقة ، وشغل أهلِ مكة كثير ، وفى نفسى أشياء أُحِبُّ أن أسْأَلَ عنها ، أفتأذن لى ـ جعلت فداك ! قال : نحن من أكثر الناس مستوحشون ، وأرجو أن تكون للسِّرِّ موضعاً وللأمانة راعياً ، فإن كنتَ كما رجوت فافعل !

فقدّمت من وثائق القول والأيمان ما سكن إليه ، فتلا قول الله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ . ثم قال : سلْ عمّا بدا لك

---

(١) هو خطيب البصرة فى زمانه ، نشأ فى البصرة ، وامتاز بنبالة نفس ، وسخاء كف ، وحسن تواضع ، عرف أبا جعفر المنصور قبل خلافته ، ثم اتصل به بعدها فجعله فى حاشية ولى عهده المهدى حتى ولى المهدى الخلافة ، فصار من خيرة سماره وجلسائه ، إلى أن مات سنة ١٧٠ هـ .

(٢) أبو جعفر المنصور .

قلت : ما ترى فيمن على الموسم ـ وكان عليه يوسف بن محمد بن يوسف الثَّقفى ـ فتنفّس الصُّعَدَاء وقال : عن الصلاة خَلْفَه تسألنى ، أم كرهتَ أن يتأمر(١) على آل الله مَنْ ليس منهم ؟ قلت : عَنْ كِلاَ الأمرين .

قال : إن هذا عند الله لعظيم ، فأما الصلاة ففَرْضٌ لله تعبَّد به خَلْقَهُ ، فأدِّ ما فرض الله تعالى عليك فى كل وقت مع كل أحد ، وعلى كل حال ، فإن الذى نَدَبَكَ لحجّ بيته وحُضورِ جماعته وأعياده لم يخبرْك فى كتابه بأنه لا يقبل منك نُسكا إلا مع أكمل المؤمنين إيمانًا ؛ رحمةً منه لك ؛ ولو فَعَلَ ذلك بك ضاق الأمرُ عليك ؛ فاسمح يسمح لك . ثم كررت فى السؤال عليه ؛ فما احتجتُ أن أسأل عن أمر دينى أحداً بعده .

ثم قلت : يزعم أهل العلم أنها ستكون لكم دولة ؛ فقال : لا شك فيها ؛ تطلع طلوعَ الشمس ، وتظهر ظهورَها ؛ فنسأل الله خيرَها ونعوذ بالله من شرها ، فخذ بحظ لسانك ويدك منها إن أدْرَكْتَهَا . قلت: أوَيتخلّفُ عنها أحد من العرب وأنتم سادتُها ؟ قال : نعم ، قَوْمٌ يأبون إلا الوفاء لمن اصطنعهم ، ونأبى إلا طالباً بحقنا فنُنْصَرُ ويُخْذَلُون ؛ كما نُصِرَ بأوّلنا أولُهم ؛ ويخذل بمخالفتنا مَنْ خالف منهم ؛ فاسترجعتُ ، فقال : سهِّل عليك الأمر ، « سُنَّةَ اللهِ الَّتى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا » ، وليس ما يكون لهم بحاجز لنا عن صلةِ أرحامهم ، وحِفْظِ أعقابهم ؛ وتجديد الصنيعة . قلت: كيف تسلم لهم قلوبكم ؛ وقد قاتلوا مع عدوكم ؟ قال : نحن قوم حُبِّبَ إلينا الوفاء وإن كان علينا ، وبُغِّض إلينا الغدرُ

---

(١) تأمر : تسلط .

وإن كان لنا، وإنما يشذّ عنا منهم الأقل ، فأما أنصار دولتنا ونقباء شيعتنا،وأمراء جيوشنا ، فهم مواليهم ، وموالى القوم من أنفسهم ، فإذا وضَعَتِ الحربُ أوزارها صَفَحْنا عن المسىء ، وَوَهَبْنا للرجل قومه ، ومَن اتصل بأسبابه ؛ فتذهب المُنابذة ، وتخبُو الفتنة ، وتطمئن القلوب .

قلت : ويقال إنه يُبتلى بكم مَن أخْلص لكم المحبة . قال: قد رُوِى أن البلاء أسرعُ إلى محبتنا من الماء إلى قَراره . قلت : لم أرد هذا . قال : فمه ؟ قلت : تقعون بالولىّ ، وتحظَوْن بالعدو . قال : مَنْ يسْعَدُ بنا من الأولياء أكثر ،ومن يسلم لنا من الأعداء أقل وأيسر ، وإنما نحن بشر ، وأكْثَرُنا أذُن! ولا يعلم الغيب إلا الله، وربما استتَرتْ عنا الأمور ، فنقع فيما لا نريد ، وإن لنا لإحساناً يَأْسُو[1] اللهُ به ما نَكْلم[2] ، ويَرمّ[3] ما نَثلِم ، ونستغفر الله مما لا نعلم ، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلغك ، ومع الولى التّعزز والإدلال ؛ والثقة والاسترسال، ومع العدو التحرز والاحتيال ، والتذلل والاغتيال ! وربما أمَلَّ المُدِلّ ؛ وأخَلَّ المسترسل ، وتجانب المقارب ، ومع المِقَة[4] تكون الثقة ، وعلى أن العاقبة لنا على عدونا ، وهى لولينا ، وإنك لسئول يا أخا تميم .

قلت : إنى أخاف ألّا أراك بعد اليوم . إنى لأرجو أن أراك وترانى كما تحب عن قريب إن شاء الله . قلت : عجّل الله ذلك ! قال : آمين ! قلت : ووهب لى السلامة منكم فإنى محبيكم . قال : آمين ؛ وتبسم ! وقال : لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث . قلت : وما هى ؟ قال : قَدْح فى الدين ، أو هتك للملك، أو تهمة فى حرمة . ثم قال : احفظ عنى ما أقول لك : اصدُق وإن ضرّك الصدق ،

---

(١) يأسو : يداوى . (٢) نكلم : نجرح . (٣) يرم : يصلح . (٤) المقة : المحبة .

وانصح وإن باعدك النصح ، ولا تجالس عدونا وإن أحظيناه فإنه مخذول ، ولا تَخذل ولينا فإنه منصور؛ واصحَبْنا بترك المماكرة، وتواضع إذا رفعوك ، وصل إذا قطعوك ، ولا تَسْخف فيمقتوك ، ولا تنقبض فيَحْتَشِمُوك[1] ، ولا تبدأ حتى يبدءوك ، ولا تخطب الأعمال ، ولا تتعرض للأموال ؛ وأنا رائح من عشيتي هذه فهل من حاجة ؟ فنهضت لوداعه فودعته ، ثم قلت : أترقب لِظُهور الأمر وقتاً ؟ قال : الله المقدّر الوقت ، فإذا قامت النوْحتان بالشام فهما آخر العلامات . قلت : وما هما ؟ قال : موت هشام العامَ ، وموت محمد بن على[2] مستهلَّ ذى القعدة . قلت : فهل أوصى ؟ قال : نعم ، إلى أخيه إبراهيم .

قال : فلما خرجت ، فإذا مولى له يتبعنى حتى عرف منزلى ، ثم أتانى بكسوة من كسوته ، فقال : يأمرك أبو جعفر أن تصلى فى هذه .

قال شبيب : وافترقنا ، فوالله ما رأيته إلا وحرَسِيّان قابضان علىّ يُذْنبانِ منه فى جماعة من قومى لِأُبايِعَه ، فلما نظر إلىّ أثبتنى[3] ، ثم قال : خليا عمن صحّت مودته ، وتقدمت حُرْمَتُه ، وأُخِذت قبل اليوم بيعته ، فأكبر الناس ذلك من قوله ، ووجدته على أوّلِ عهده لى .

ثم قال لى : أين كنت عنى فى أيام أخى أبى العباس ؟ فذهبت أعتذر . قال : أمسك ؛ فإن لكل شىء وقتاً لا يعدوه ، ولن يفوتك إن شاء الله حظ

---

(١) فيسمعوك ما تكره . (٢) هو محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى القرشى والد السفاح والمنصور، وكان يرأس جماعا سرية تدعو لبنى العباس واعتقله هشام بن عبد الملك حين انكشف أمره فمات معتقلا . (٣) عرفنى حق المعرفة .

مودتك ، وحقُّ مسابقتك ؛ فاختر بين رزقٍ يسَعُك ؛ أو عمل يرْفعُك . قلت : أنا حافظٌ لوصيتك . قال : وأنا لها أحفظ ؛ إنما نهيتك أن تخطب الأعمال ، ولم أنهك عن قَبُولها . قلت : الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحبُّ إلىّ . قال : ذلك لك ، وهو أجَمُّ لقلبك ، وأوْدَعُ لك ، وأعفى إن شاء الله .

ثم قال : هل زدْتَ فى عيالك بعدى شيئاً ؟ وكان قد سألنى عنهم فذكرتهم له — فعجبت من حفظه ! ثم قلت : الفرس والخادم ! قال : قد ألحقنا عيالك بعيالنا ، وخادمك بخادمنا ، وفرسك بخيلنا ، ولو وسعنى لحملت لك من بيت المال ، وقد ضممتك إلى المهدى، وأنا أوصيه بك فإنه أفرغ لك منى .

١٠٤ — واعظ أبى جعفر المنصور*

بينما المنصور يَطُوفُ ليْلًا ، إذْ سَمِع قائلًا يقول : اللّهم إنى أشكو إليك ظهورَ البَغْى والفسادِ فى الأرض ، وما يحولُ بين الحقّ وأهله من الطّمع ! فخرج المنصور، فجلس ناحيةً من المسجد ، وأرسلَ إلى الرَّجُل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن[1] ، وأقبل مع الرسول ؛ فسلّم عليه بالخلافة .

فقال المنصور : ما الذى سمعتُك تذكرُ من ظهور البَغْيِ والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهلِه من الطمع ؟ فوالله لقد حشوتَ مَسامِعى ما أرْمَضَنِى[2] ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ إنْ أمّنتَنِي على نفسى أنبأتُك بالأمور مِنْ أُصولِها ، وإلّا احتجزت منك ، واقتصرت على نفسى ، ففيها لى شاغل .

فقال : أنت آمن على نفْسِك ؛ فقل ! فقال : إن الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لأنت ! قال : ويحك ! وكيف يدخلنى الطمع ، والصَّفْراء والبَيْضاء فى قبضتى ، والحُلو والحامض عندى ؟ قال : وهل دخل أحدٌ من الطمع ما دخلك ! إن الله تبارك وتعالى استَرْعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفَلْتَ أمورَهم ، واهْتَمَمْتَ بجَمْعِ أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجِصّ والآجُرّ ؛ وأبواباً من الحديد ، وحَجَبةً معهم السِّلاح ؛ ثم سجنتَ نفسك فيها عنهم ، وبعثت

* عيون الأخبار : ٢ ـ ٣٣٣

(١) استلم الركن : لمسه ؛ بالقبلة أو باليد . (٢) ما أرمضنى : ما أوجعنى وآلمنى .

عُمّالَكَ فى جباية الأموال وجَمْعها ، وقوّيتَهم بالرجال والسِّلاح والكُرَاع[1] ، وأمرتَ بألّا يدخُلَ عليك من الناس إلا فلانٌ وفلانٌ ، نَفَرٌ سميتَهم ولم تأمرْ بإيصال المظلوم ؛ ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحدٌ إلا وله فى هذا المال حق .

فلما رآك هؤلاء النفرُ الذين استخلصتَهم لنفسك ، وآثرتَهم على رعيتك ، وأمرت ألا يُحجَبُوا عنك - تَجْبِى الأموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله ، فما بالُنا لا نخونُه ، وقد سجَن لنا نفسه !

فأتمروا بألا يصلَ إليك من علمِ أخبار الناس شىء إلا ما أرادوا ، ولا يخرجَ لك عاملٌ فيخالفَ أمرهم إلا قَصَبُوه[2] عندك ، ونَفَوْه حتى تسقط منزلتُه ويصغُرَ قدرُه ؛ فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابُوهم ؛ فكان أولَ من صانعَهُم عُمّالك بالهدايا والأموال ، ليقوَوْا بها على ظُلْم رعيتك .

ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك ، لينالوا به ظُلْمَ مَنْ دونهم ؛ فامتلأتْ بلادُ الله بالطمع ، بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك ، وأنتَ غافل ؛ فإن جاء مُتَظَلِّم حِيل بينه وبين دخول مدينتك ؛ فإنْ أراد رفعَ قصته إليك عند ظهورك وجدَكَ قد نَهيتَ عن ذلك ؛ وأوقفتَ للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ؛ فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتَكَ خبرُه سألوا صاحبَ المظالم ألا يرفع مَظْلِمَته إليك ، فإن المتظلّمَ منه له به حُرْمة ، فأجابهم خوفاً منهم .

فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذُ به ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتلُّ به ، فإذا أُجْهِدَ وأُحْرِجَ وظَهَرْتَ صرخَ بين يديك ، فَضُرِب ضَرْباً

---

(١) الكراع : السلاح ، وقيل : هو اسم يجمع الخيل والسلاح. (٢) قصبوه: عابوه وشتموه.

مُبَرِّحاً ؛ ليكون نكالًا لغيره ؛ وأنتَ تنظرُ فلا تُنْكِر ، فما بقاءُ الإسلام بعد هذا !

وقد كنتُ يا أميرَ المؤمنين أُسافِرُ إلى الصين، فقدمتُها مرةً ، وقد أُصِيبَ ملكها بسَمْعه ؛ فبكى يوماً بكاء شديدا، فحثّه جلساؤه على الصبر، فقال: أما إنى لستُ أبكى للبليّةِ النازلة بى ، ولكنى أبكى لمظلومٍ بالباب يصرُخ ولا أَسْمَعُ صوته ، ثم قال: أما إذ ذهب سمعى ؛ فإن بصرى لم يَذْهَب ! نادُوا فى الناس ألّا يلبسَ ثوباً أحمر إلا متظلّمٌ . ثم كان يركبُ الفيل طَرَفَىْ نهاره وينظر هل يرى مظلوماً !

فهذا يا أمير المؤمنين مُشركٌ باللهِ غلبت رأْفَتُه بالمشركين شُحَّ نفسه : وأنتَ مؤمنٌ بالله ، ثم من أهلِ بيتِ نبيِّه لا تغلب رأفتُك بالمسلمين على شحِّ نفسك! فإنْ كنتَ إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عِبَراً فى الطفلِ يسقطُ من بطنِ أمه ، وماله على الأرض مالٌ ، وما من مالٍ إلا ودونه يدٌ شحيحة تحويه ؛ فما يزالُ الله يلطف بذلك الطفل حتى تَعْظُم رغبةُ الناسُ إليه ؛ ولستَ بالذى تُعْطى ، بل اللهُ يعطى من يشاء ما يشاء . وإن قلت : إنما أجمعُ المالَ لتشديد السلطان فقد أراك الله عِبَراً فى بنى أمية ؛ ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدُّوا من الرجال والسلاح والكُرَاع ، حتى أرادَ اللهُ بهم ما أراد . وإن قلت : إنما أجمعُ المالَ لطلب غايةٍ أجْسمِ من الغاية التى أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين ، هل تعاقبُ مَنْ عصاك بأشدَّ مِنَ القتل ؟

قال المنصور : لا. قال: فكيف تصنعُ بالملك الذى خوّلك ملكَ الدنيا وهو لا يعاقب مَنْ عصاه بالقتل ! ولكن بالخلود فى العذاب الأليم ، قد رأى ما قد عقد عليه قلبك

وعملته جوارحُك ، ونظر إليه بصرك، واجترحتْه يداك ، ومشتْ إليه رجلاك ؛ هل يغنى عنك ماشَحَحْت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب !

فبكى المنصور وقال : يا ليتنى لم أُخْلَق ! ويحك ! فكيف أحتال لنفسى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن للناسِ أعلاماً يفزعون إليهم فى دينهم ، ويرضون بهم ؛ فاجْعَلهم بِطَانتكَ يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يُسَدِّدوك . قال : قد بعثتُ إليهم فهرَبُوا منى . فقال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ؛ ولكن افتح بابك ، وسَهِّل حجابك ، وانصُر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخُذ الفَىْء والصدقات مما حلَّ وطاب ، واقْسِمْه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامنُ عنهم أنْ يأتوك ، ويُسعِدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، فصلى ، وعاد إلى مجلسه وطُلِب الرجل فلم يوجَدْ !

١٠٥ — لماذا سُلِبُوا الملك*

سَمَر المنصورُ ذاتَ ليلة ، فذكر خُلفاء بنى أمية وسيرَهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة ؛ حتى أفضى أمرُهم إلى أبنائهم المترفين ، وكانت همتهم — مع عظم شأنِ الملك وجلالةِ قدره قَصْدَ الشهوات ، وإيثارَ اللذات ، والدخول فى معاصى الله ومَسَاخِطِه ، جهلًا باستِدْراج الله ، وأمنًا لمكرِه ، فسَلَبَهُم الله العزَّ ، ونقل عنهم النعمة .

فقال له صالح بن على : يا أمير المؤمنين ؛ إن عبدَ الله بن مرْوان لما دخل النّوبة هاربًا فيمن تبِعه ، سأل مَلِكُ النوبة عنهم ، فأُخبر ، فركب إلى عبد الله فكلمه بكلام عجيب فى هذا النحو ، لا أحفظه ، وأزعجه عن بلده ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يدعوَ به من الحبس بحضرتنا فى هذه الليلة ، ويسألَهُ عن ذلك .

فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قَدِمنا أرضَ النوبة ، وقد أخبر الملك بأمرنا ، فدخل علىَّ رجل أقْنَى(١) الأنف ، طُوَال ، حسن الوجه ، فقعد على الأرض ، ولم يقرب الثياب ، فقلت : ما يمنعُك أن تقعدَ على ثيابنا ؟ قال : لأنى ملك ، ويحق على الملك أن يتواضع لعظمة الله إذا رفعه الله ، ثم قال : لأى شىء تشربون الخمر وهى مُحرمة عليكم ؟ قلت : اجترأ على

* العقد الفريد : ٣ ـ ١٩٣ ، عيون الأخبار : ١ ـ ٢٠٥ ، ابن أبى الحديد : ٢ ـ ٢١٦

(١) قنا الأنف : ارتفاع أعلاه ، واحديداب وسطه .

ذلك عبيدنا وغلماننا وأتباعنا ؛ لأنّ الملك قد زال عنا . قال : فلم تطئون الزروع بدوابكم ، والفسادُ محرم عليكم فى كتابكم ؟ قلت : يفعل ذلك عبيدُنا وأتباعُنا بجهلهم . قال : فلم تلبسون الدّيباج والحرير ، وتستعملون الذهب والفضة ، وذلك محرّمٌ عليكم ؟ قلت : ذهبَ الملكُ عنا ، وقلّ أنْصارُنا ؛ فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا ، فلبسوا ذلك على الكُرْهِ منا .

قال : فأطْرَق مليًا ، وجعل يقلّبُ يده ، وينكت الأرض ويقول : عبيدنا وأتْباعنا وقومٌ دخلوا فى ديننا ، وزال الملك عنا ! يردده مراراً .

ثم قال : ليس ذلك كذلك ؛ بل أنتم قومٌ قد استحللتم ما حرّم الله ، وركبتم مانهاكم عنه ، وظلمتم مَنْ مُلّكتم أمرهم ؛ فسلبكم اللهُ العز ، وألبسكم الذل بذنوبكم ، ولله فيكم نقمة لن تَبلغ غايتَها ، وأخاف أن يحل بكم العذاب ، وأنتم ببلدى ، فيصيبَنى معكم ؛ وإنما للضيافة ثلاثة أيام ، فتزوّدوا ما احتجتم ، وارتحلوا عن بلدى .

١٠٦ — جعفر البرمكى والرشيد*

قال إبراهيمُ بن المهدى : قال لى جعفر بنُ يحيى[١] يوماً : إننى استأذنتُ أمير المؤمنين فى الحجامة ، وأردتُ أن أخْلُوَ بنفسى ، وأفرَّ من أشغال الناس ، وأتوحّد[٢] ، فهل أنت مساعدى ؟ قلتُ: جعلنى اللهُ فداءك ! أنا أسعدُ بمساعدتك وآنَسُ بمخالّتك[٣] ، فقال : بَكِّرْ إلىَّ بُكورَ الغراب .

قال : فأتيتُ عند الفَجْر الثانى ، فوجدتُ الشمعةَ بين يديه ، وهو قاعدٌ ينتظرنى للميعاد ؛ فصلّينا ، ثم أفضْنا فى الحديث حتى أتى وقت الحِجَامة ، فأتى الحجّامُ فحجمنا فى ساعة واحدة ، ثم قدم إلينا الطعام ، فطعِمْنَا ، فلما غسلنا أيدينا خلع علينا ثيابَ المنادمة ، وضَمَّخْنَا[٤] بالخَلُوق ؛ وظلِلْنا بأَسَرِّ يوم مرَّ بنا .

ثم إنه تذكّر حاجةً ، فدعا الحاجب ؛ فقال له : إذا جاء عبدُ الملك القَهْرَمان ، فأْذَنْ له ، فنَسِيَ الحاجبُ . وجاء عبد الملك بن صالح[٥] الهاشمى ـ على جلالته وسنّه وقدره ـ فأذن له الحاجب ، فما رَاعنا إلا طلعةُ عبد الملك بن صالح ! فتغيّر لذلك وجهُ جعفر ، وتنغّص عليه ما كان فيه .

---

* العقد الفريد : ٣ ـ ٢٦٨

(١) جعفر بن يحيى كان عالى القدر عظيم الكرم، ذا منزلة قريبة عند الرشيد، فصيحاً لسناً، قتله الرشيد سنة ١٨٧ هـ . (٢) توحد : بقى مفرداً . (٣) المخالة: المصادقة . (٤) تضمخ بالخلوق: تلطخ به، والخلوق: نوع من الطيب . (٥) عبد الملك بن صالح : أمير من أمراء بنى العباس، تولى عدة ولايات ، ثم عزله الرشيد حين علم أنه يطمع فى الخلافة ، توفى سنة ١٩٦ هـ .

فلما نظر إليه عَبْـدُ الملك على تلك الحـالة دعا غـلامَه ، فدفع إليـه سيفه وسَوَاده[1] وعمـامته ، ثم جاء فوقف على باب المجلس ، فقال : اصنعوا بنـا ماصنَعْتمُ بأنفسكم .

قال : فجاء الغلام ، فطرح عليه ثياب المنادمة ؛ ودعا بطعام فطعِم ، ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثاً ، ثم قال : ليخفف عنى فإنه شيء ماشربتُه قط ، فتهلّلَ وجه جعفر فرَحاً ـ وقد كان الرشيد حاوَرَ عبد الملك على المنادمة ، فأبى ذلك ، وتنزّه عنه ـ ثم قال له جعفر بن يحيى : جعلنى الله فداك ! قد تفضّلتَ وتطوّلتَ ، فهل من حاجة تبلغُها مقدرتى ، وتحيط بها نِعْمَتى ، فأقضيها لك مكافأةً لـماصنعت؟ قال : نعم ؛ إنّ قلب أمير المؤمنين عاتبٌ علىّ فتسأله الرضا عنى . فقال : قد رضى عنك أميرُ المؤمنين . ثم قال : وعلىّ أربعةُ آلاف دينار . قال : هى حاضرةٌ ، ولـكن من مالِ أمير المؤمنين أحبّ إلىّ من مالى. قال : وابنى إبراهيم أحبُّ أن أشُـدَّ ظهره بمصاهرة أمير المؤمنين . قال : قد زوّجَـهُ أميرُ المؤمنين ابنتَه الغالية . قال : وأحبّ أن تخفُقَ الألويةُ على رأسه بولاية . قال : وقد ولّاه أميرُ المؤمنين مِصْر ؛ فانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئذان .

فلما كان الغدُ وقفنا على باب أمير المؤمنين ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دُعِى بأبى يوسف القاضى ، ومحمد بن الحسن ، وإبراهيم بن عبد الملك ، فعقد له على ابنة الرشيد ، وحملت البِدَر[2] إلى عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر .

---

(١) سواد الأمير : ثقله ومتاعه . (٢) البدرة : كيس فيه ألف دينار .

وخرجَ جعفَر فأشار إلينا ، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه نزل ونزلنا بنزوله، فالتفت إلينا وقال : تعلقتْ قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأحبَبْتُمْ أن تعرفوا آخره ، وإنى لمّا دخلتُ على أميرِ المؤمنين ومثلت بين يديه سألنى عن أمسى ، فابتدأت أحدثه بالقصة من أولها إلى آخرها ، فجعل يقول : أحسنَ والله ؛ ثم قال : فما أجبته ؟ فجعلت أخبره وهو يقول فى كل شىء : أحسن . وخرج إبراهيم والياً على مصر !

١٠٧ — إخوان الصفاء*

روى أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد :

ذكروا أن فتياناً كانوا مجتمعين فى نظام واحد ، كلهم ابنُ نِعْمَةٍ ؛ فذكر ذاكرٌ منهم ، قال : كنا اكْتَرينا داراً شارِعة(١) على أحد طرق بغداد المعمورةِ بالناس ، وكنا نُفْلس(٢) أحياناً ، ونُوسِر أحيانا ، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله ، وكنا لا ننُكر أنْ تقع مئونتنا على واحد منا إذا أمْكنه ، ويبقى الواحدُ منا لا يقدر على شىء ، فيقوم به أصحابه الدهرَ الأطْوَل ، وكنا إذا أيْسَرنا أكَلْنا من الطعام أليَنَه ، ودعونا الملهين والملهيات ؛ وكان جلوسنا فى أسفل الدار ، فإذا عدمنا العارب جلسنا فى غُرْفة لنا نتمتع منها بالنظرِ إلى الناس ، وكنا لا نُخِل(٣) بالنبيذ فى عُسْر ولا يسر .

فإنا لكذلك يوماً إذا بفَتًى يستأْذنُ علينا ، فقلنا له : اصعد ؛ فإذا رجل نظيف حُلْو الوجه ، سَرِيُّ الهيئة ، ينبِئُ رُواؤه أنه من أبناء النعم ، فأقبل علينا ، وقال : إنى سمعت مجتمعَكم وحسنَ منادمتكم ، وصحة ألفتكم ، حتى كأنكم أُدرجتم فى قالب واحد ، فأحببتُ أن أكون واحداً منكم ، فلا تحتشموا(٤) عنى .

---

* العقد الفريد ٤ : ـ ٣٤٥

(١) دار شارعة ، أى على طريق نافذ. (٢) أفلس الشخص: إذا لم يبق معه مال. (٣) لا نخل بالنبيذ : لا نتركه . (٤) احتشم عنه ومنه : انقبض.

وصادف ذلك منا إقتاراً من القوت وكثرةً من النبيذ ـ وقد كان قال لغلام له : أول ما يأذنون لى أن أكونَ كأحدهم هاتِ ما عندك ، فغاب الغلام عنا غير كثير ، ثم أتانا بسلّة خيزران ، فيها طعام المطبخ من جـــدى ودجاج وفراخ ورُقاق وشُنَان[1] ومَحْلَب[2] وأخِلّة[3] ؛ فأصبْنا من ذلك ؛ ثم أفضنا فى شرابنا، وانبسط الرجل ؛ فإذا أحلى خلقِ الله إذا حدَّث ، وأحسنُهم استماعاً إذا حُدِّث ، وأمسكهم عن مُلاحاة إذا خولف ، ثم أفْضَيْنا منه إلى أكرم مخالقة ، وأجمل مساعدة، وكنا ربما امتحناه بأن ندعوَه إلى الشيء الذى نعلمُ أنه يكرهُه ، فيُظهر لنا أنه لا يحب غيره ، ويُرى ذلك فى إشراقِ وجهه ؛ فكنا نَغْنَى به عن حسن الغناء ، ونتدارس أخبارَه وآدابه ، فشغلنا ذلك عن تعرُّف اسمه ونسبه ، فلم يكن منا إلا تعرُّف الكنية ، فإنا سألناه عنها ، فقال : أبو الفضل .

وقال لنا يوماً بعد اتصالِ الأنس : ألا أخبركم بم عرَفْتكم ؟ قلنا : إنا لنحبُّ ذلك . قال : أحببت جارية فى جواركم ؛ فكنتُ أجلس لها فى الطريق ألتمس اجتيازها ، فأراها حتى أخلقنى الجلوس على الطريق ، ورأيت غرفتكم هذه ، فسألت عن خبرها ، فخُبِّرْتُ عن ائتلافكم وتَمَلُّئِكم ، ومساعدةِ بعضكم بعضاً ، فكان الدخول فيما أنتم فيه أسرَّ عندى من الجارية ، فسألناه عنها فخبَّرنا ، فقلنا له : نحن نُظْفِرُك بها ، فقال : يا إخوانى ؛ إنى والله على ما ترَوْن منّى من

---

(١) الشنان : الماء البارد . (٢) المحلب : العسل . (٣) الأخلة : جمع خلال ، وهو العود الذى يتخلل به .

شدة الشغف والكلَف بها ما قدَّرْت فيها حراماً قط ، ولا تقديرى إلا مطاولتَها ومصابرتُها إلى أن يمنَّ الله علىَّ بثروةٍ فأشتَريها .

فأقام معنا شهرين ، ونحن على غاية الاغتباط بقُربه ، والسرور بصحبته إلى أن اختُلِس مِنّا ، فنالنا بفراقه ثكل مُمِضّ ، ولوعة مؤلمة ، ولم نعرفْ له منزلًا نلتمسُه فيه ؛ فتكدَّر علينا من العيش ما كان طاب لنا به ، وقَبُحَ عندنا ما كان حَسُن بقربه ، وجعلنا لا نرى سروراً ولا غمًّا إلا ذكرْنا السرور بصحبته ، والغم بمفارقته ؛ فكنا فيه كما قال الشاعر :

يذكِّرُنيهم كلُّ خيرٍ رأيتُه ... وشرٍّ فما أنفكُّ منهم على ذِكْرْ

فغاب عنا زهاء عشرين يوماً ؛ فبينما نحن مجتازون يوماً من الرُّصافة[1] إذا هو قد طلَع فى موكب نَبيل ، وزِيّ جليل ، فلما بَصُرَ بنا انحطَّ من دابّته ، وانحطّ غلمانُه ، ثم قال: يا إخوانى ؛ والله ماهنأ لى عيشٌ بعدكم ، ولستُ أُميطُ لكم عن خبرى حتى آتى المنزل ، ولكن ميلوا بنا إلى المنزل ، فمِلْنا معه ، فقال : أعرفكم أولا بنفسى ، أنا العباس[2] بن الأحنف ، وكان من خبرى بعدكم أنى خرجت إلى منزلى من عندكم ، فإذا الشرْطةُ محيطة بى ، فمُضِىَ بى إلى دار أمير المؤمنين ، فصرتُ إلى يحيى بن خالد ، فقال لى : ويحك يا عباس ! إنما اختَرْتُك من ظرفاء الشعراء لقُرْب مأخذك وحسنِ تأتّيك ، وإن الذى ندبتك له من شأنك ، وقد عرفتَ خطرات الخلفاء ، وإنى أخبرك أن ماردة هى الغالبة على أمير المؤمنين اليوم ،

---

(١) الرصافة : محلة ببغداد . (٢) كان منشؤه ببغداد وكان صاحب غزل ، ويشبه من المتقدمين عمر بن أبى ربيعة ولم يكن يمدح ولا يهجو . توفى سنة ١٩٢ هـ .

وأنه جرى بينهما عتب ، فهى بذلّةِ المعشوق تأبى أن تعتـــذر ، وهو بعزّ الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك ، وقد رمتُ الأمر من قبلهما فأعْيانى ، وهو أحْرى أن تستعبده الصبابة ؛ فقل شعراً سهلًا يسهِّل عليك هذه السبيل .

ثم دعانى إلى أمير المؤمنين فصرتُ إليه ، وأُعطِيت قِرْطاساً ودواة ، فاعترانى الزَّمَع[1] ، وتعذّرت علىّ كل عَروض ، ونفرت عنى كلّ قافية ، ثم انفتح لى شىء والرسل تتعقبنى ، فجاءتنى أربعةُ أبيات رضيتُها ، وقعت صحيحةَ المعنى ، سهلة الألفاظ ، ملائمة لما طُلِبَ منى ، فقلتُ لأحد الرسل : أبلغ الوزير أنى قلت أربعةَ أبيات ، فإن كان بها مَقْنَع وجهتُ بها ، فرجع إلىّ الرسولُ بأن هاتها ، ففى أقلّ منها مقْنع ، وفى ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الروىّ ، فكتبتُ الأبيات الأربعة فى صدر الرقعة ، وعقّبتُ بالبيتين ، فقلت :

العاشقان كلاهُما متغضّبُ ... وكلاهما متوجِّدٌ مُتَعتّبُ
صدّت مغاضبةً وصدّ مغاضِبا ... وكلاهما مما يعالِجُ متعَبُ
راجع أحبتك الذين هجرتَهم ... إنّ المتيّم قلّمـــا يتجنّب
إنّ التجنبَ إنْ تطاول منكما ... دبّ السلوُّ له وعزّ المطلبُ

ثم كتبت تحت ذلك :

لا بد للعاشقِ من وقفــــةٍ ... تكون بين الهجر والصَّرْمْ
حتى إذا الهجر تمــادى به ... راجعَ مَن يهوى على رغْمِ

ثم وجهتُ بالكتاب إلى يحيى بن خالد ، فدفعه إلى الرشيد ، فقال : والله

(١) الزمع : رعدة تأخذ بالإنسان .

ما رأيتُ شعراً أشبَه بما نحن فيه من هذا ، والله لكأنى قُصِدتُ به ، فقال له يحيي: وأنت والله ياأمير المؤمنين المقصود به، هذا يقوله العباس بن الأحنف فى هذه القصة؛ فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله : « راجعَ من يهوى على رَغْمِ »: استغرب ضحكا حتى سمِعْتُ ضَحِكه ، ثم قال : إى والله ! أراجع على رَغْم ، يا غلام ؛ هاتِ نعلى ؛ فنهض وأذهله السرور عن أن يأمرَ لى بشيء ؛ فدعانى يحيي ، وقال: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة ، وأذهَل أميرَ المؤمنين السرورُ عن أن يأمر لك بشيء ؛ ثم جاء غلام فسارّه ، فنهض وثبت مكانه ، فنهضت بنهوضه ، ثم قال: يا عباس ؛ أمسيتَ أنبلَ الناس ، أتدرى ماسارّنى به هذاالرسول؟ قلت : لا ، قال : ذكر لى أن ماردة تلقّت أمير المؤمنين لماعلمت بمجيئه، ثم قالت له: ياأميرَ المؤمنين؛ كيفَ كان هذا؟ فناولها الشعر ، وقال : هـذا أتى بى إليك ، قالت : فمن يقوله ؟ قال : عباس ابن الأحنف ، قالت : فَبِمَ كوفئ ؟ قال : ما فعلت شيئاً بعـد ، قالت : إذن والله لا أجلسُ حتى يـكافأ ـ قال : فأمير المؤمنين قائم لقيامها ، وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين ، وهما يتناظران فى صِلتك ، فهذا كله لك . قلت : مالى من هذا إلّا الصلة! فقال : هذا أحسنُ من شعرك . قال : فأمر لى أمير المؤمنين بمالٍ كثير، وأمرتْ لى ماردة بمال دونه ، وأمر لى الوزير بمال دون ماأمرتْ به، وحُمِلْتُ على ما ترون من الظَّهْر ، ثم قال الوزير : من تمام اليدِ عندك ألاتخرج من الدار حتى يكون لك من هذا المال ضِياع ، فاشتريتُ لى ضياعاً بعشرين ألف درهم، ودفع لى بقية المال، فهذا الخبر الذى عاقنى عنكم ، فهلموا حتى أقاسمكم الضِّياع وأفرقَ فيكم المال. فقلنا له: هنأك الله ، فـكل منا يرجع إلى نعمةٍ من أبيه ، فأقسم وأقسمنا . قال: فامضوا بنا إلى

الجارية حتى نشتريَهَا ، فمشينَا إلى صاحبها ، وكانت جارية جميلة حلوة ، لا تحسن شيئاً ، أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل ؛ وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار ، فلما رأى مولاها ميلَ المشترى استام بها خمسمائة ، فأجبْناه بالعجب ؛ فحطَّ مائة ، ثم حطَّ مائة ، ثم قال العباس : يافتيان ، إنى والله أحتشم أن أقول بعد ما قلتم ، ولكنها حاجةٌ فى نفسى ، بهـا يتم سرورى ، فإن ساعدتم فعلت ، قلنا له : قل ، قال : هذه الجارية أنا أعاينها منذ دهر ، وأريد إيثارَ نفسى بها ، فأكره أن تنظر إلىَّ بعين من قد ماكس فى ثمنها ، دعونى أعطه بها خمسمائة دينار كما سأل ، قلنا له : وإنه قد حط مائتين . قال : وإن فعل . قال : فصادفت من مولاها رجلا حرًّا ، فأخذ ثلاثمائة ، وجهزها بالمائتين ، فما زال إلينا محسناً حتى فرّق الموت بيننا .

١٠٨ – لا أحبُّ تخديشَ وَجْهِ الصاحب*

زعمت العرب أن الثعلب رأى حجراً أبيض بين لِصْبَيْن[١] ، فأراد أن يقتال به الأسد ، فأتاه ذات يوم ، فقال له : يا أبا الحارث ، الغنيمة الباردة ! شحمة رأيتها بين لِصْبَيْن ، فكرِهت أن أدنو منها ، وأحببتُ أن تتولى ذلك أنت ! فهلمَّ لأريكها !

فانطلق به حتى جاء به إليها ؛ فقال : دونك يا أبا الحارث !

فذهب الأسد ليدخل ، فضاق به المكان ؛ فقال له الثعلب : ادْفع برأسك ! فأقبل الأسد يدفع برأسه حتى نشب ، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر .

ثم أقبل الثعلب يخدش خَوْرَانه[٢] ؛ فقال الأسد : ما تصنعُ يا ثُعَالة[٣] ؟ قال : أريد لأستنقذك ؛ قال : فمن قِبَل الرأس إذَنْ ! فقال الثعلب : لا أحب تخديش وجه الصاحب !

* مجمع الأمثال : ٢ – ١٧١

(١) اللصب : الشعب الصغير فى الجبل . (٢) المراد مؤخره . (٣) ثعالة: لقب الثعلب.

١٠٩ — حكومة الضب*

زعموا أن أرنباً التقطت تمرة ؛ فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضَّب ؛ فقالت الأرنب : ياأبا الحِسْل[1] ! قال : « سميعاً دعوت » . قالت :أتيناك لِنَحْتَكِمِ إليك . قال : « عادِلًا حَكَّمْتُما » . قالت : فاخرج إلينا . قال : « في بَيْتِهِ يُؤْتَى الحكم » ، قالت : إني وجدت تمرة ، قال : حُلْوَةٌ فَكُلِيهَا . قالت : فاختلسها الثعلب . قال : « لِنَفْسِهِ بَغى الخيرَ » ، قالت : فلطمتُه . قال : « بحقِّكِ أخذتِ » ، قالت : فَلَطَمني ، قال : « حرٌّ انتصرَ » ، قالت : فاقض بيننا ؛ قال : قد قضيت !

---

* مجمع الأمثال : ٢ ـ ١٧

(١) كنية الضب ، والحسل : ولد الضب .

١١٠ — أعلمك ثلاث خصال*

قالوا : إن رجلا صاد قُبَّرة ؛ فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك وآكلك ! قالت : واللهِ ما أشفى من قَرَم(١) ، ولا أُشْبِع من جوع ، ولكنى أعلمك ثلاث خِصال ؛ هى خيرٌ لك من أَكْلِي : أما الأولى فأعلمك إياها وأنا فى يدك ، وأما الثانية فإذا صرتُ على الشجرة ؛ وأما الثالثة فإذا صرتُ على الجبل .

فقال : هاتى الأولى ، قالت : لا تَتَلَهَّفَنَّ على ما فات ؛ فخلاها ؛ فلما صارت على الشجرة ؛ قال : هاتى الثانية ؛ قالت : لا تصدقنّ بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت : ياشقى ؛ لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى دُرَّتين وزنُ كل واحدة ثلاثون مثقالا !

فعضّ على يديه وتَلهَّفَ تلهفاً شديداً ، وقال : هاتى الثالثة ، فقالت : قد نسيت الاثنتين ، فما تصنع بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلهفنّ على ما فات ! وقد تلهفت ، أوَ لم أقل لك : لا تصدقنّ بما لا يكون أنه يكون ! وأنا ولحمى ودمى وريشى لا يكون عشرين مثقالا ، فكيف صدقت أن فى حوصلتى درتين كل واحدة منهما ثلاثون مثقالا ! ثم طارت وذهبت .

---

* ابن أبى الحديد : ٤ ــ ٣٧٤

(١) القرم : شدة شهوة اللحم .

١١١ — مُجِير أُمِّ عامر*

خرجَ قوم إلى الصيد فى يوم حارّ ؛ فإنهم لكذلك ؛ إذ عرضَتْ لهم أمُّ عامر[١] — وهى كُنْية الضبُع — فطردوها ؛ فأتعبتهم حتى ألجأوها إلى خِباءِ أعرابىّ ، فاقتحمته ؛ فخرج إليهم الأعرابى وقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صيدنا وطريدتنا ؛ فقال : كلا ؛ والذى نفسى بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائمُ سيفى فى يدى ، فرجَعُوا وتركوه ، وقام إلى لَقْحَة[٢] فحلبها ، وماء فقرب منها ، فأقبلت تَلَغُ مرةً فى هذا ومرة فى هذا حتى رَوِيَت واستراحَتْ ، فبينا الأعرابىُّ نائم فى جوف بيته ، إذ وثبتْ عليه فبقرت بطْنَه ، وشربت دمَه وتركَتْهُ !

فجاء ابن عم له يطلبه ، فإذا هو فى قبرٍ فى بيته ؛ فالتفت إلى موضع الضبع، فلم يرها ، فقال : صاحبتى والله ، فأخذ قوسه وكنانته واتبعها ، فلم يزل حتى أدركها فقتلها، وأنشأ يقول :

ومَنْ يصنع المعروف معْ غير أهله ... يلاقى الذى لاقى مجيرُ أم عامر !

---

* مجمع الأمثال : ٢ — ٨٢

(١) عامر : جرو الضبع ، وأم عامر : كنيتها .

(٢) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، ولا يوصف به.

١١٢ — كيف أُعاوِدُك وهذا أَثَر فأسِك !*

حكى أنّ أخوَين كانا فى إبل لهما ، فأجدبَتْ بلادُهما ، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيب ، وفيه حية تحْمِيه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ؛ لو أنى أتيت هذا الوادى المُكلى[1] فرعيتُ فيه إبلى وأصلحتُها ، فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحيَّة ، ألا ترى أن أحداً لا يهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ؟ قال : فوالله لأفعلَنّ ! فهبط الوادى ورعى به إبله زماناً .

ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أخُوه : والله ما فى الحياة بعد أخى خير ، فلأطلبَنَّ الحية ولأقتلنّها أو لأتْبعَنّ أخى ، فهَبَطَ ذلك الوادى وطلب الحيَّة ليقتُلَها؛ فقالت الحية : ألستَ ترى أنى قتلت أخاك ؟ فهلْ لك فى الصُّلح فأدعَك بهذا الوادى تكونُ فيه وأعطيَك كل يوم ديناراً ما بقيت ؟ قال : أوَ فاعلة أنت ! قالت : نعم . قال : إنى أفعل ، وحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضرُّها ، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر مالُه حتى صار من أحسن الناس حالا ، ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العَيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى ؟ ثم عمد إلى فأس فأخذها ؛ ثم قعد لها ؛ فمرّت به فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الُجحر ، ووقعت الفأس فوق جحرها فأثرت فيه ، فلما رأتْ ما فعل قطعت عنه الدينار ؛ فخاف الرجل شرها وندم ؛ فقال لها : هل لك أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : « كيف أعاوِدُك وهذا أثر فأسك ! »[2] .

---

* مجمع الأمثال : ٢ ـ ٨٢

(١) المكلىء : الكثير الكلأ .   (٢) سارت مثلا .

١١٣ — حكيم !*

لمـا مات بعضُ الخلفاء ، اختلفت الروم ، واجتمعت ملوكها ؛ فقالوا : الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكننا الغِرة[1] منهم والوثبَة عليهم ، وعَقَدُوا لذلك المشورات ، وترجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر .

وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة غائباً عنهم،فقالوا : من الحزم عرضُ الرأى عليه ؛ فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال : لا أرى ذلك صواباً ؛ فسألوه عن علة ذلك ؛ فقال : فى غدٍ أخبركم .

فلما أصبحوا أتَوْا إليه ، وقالوا : قد وعدتنا أن تخبرنا فى هذا اليوم بالرأى فيما عوّلنا عليه ؛ فقال : سمعاً وطاعة ! وأمر بإحضار كلبين عظيمين ، كان قد أعدّهما ؛ ثم حَرّش[2] بينهما ، وحرّض كل واحد منهما على الآخر ؛ فتواثبا وتهارشا[3] ، حتى سالت دماؤهما .

فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنـــده ، وأرسل على الكلبين ذئباً كان قد أعدّه لذلك ، فلما أبصراه تركا ما كانا فيـه ، وتألّفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه .

---

* المستطرف : ١

(٢) الغرة : الغفلة . (٢) التحريش : الإغراء . (٣) المهارشة : تحريش الكلاب بعضها على بعض .

فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال : مثلُكم مع المسلمين مثلُ هــذا الذئب مع الكلاب ؛ لا يزال الهَرْجُ[1] بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غــيرهم ؛ فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم ، وتألفوا على العدو .

فاستحسنوا قوله ، واستصوبوا رأيه ، واتبعوا مشورته .

---

(١) الهرج : الفتنة والاختلاط .

الباب الخامس

في القصص التي يعرف بها مذهبهم في شياطين الشعر وأصوات الجن في الفيافي ، وأحاديثهم عن الغول ، ورؤية من رآها منهم ، وما إلى ذلك مما يصور سعة أخيلتهم ، وسعيهم وراء المجهول بأجنحة التفكير والتصور .

١١٤ — تأبّط شرًّا يقتل الغول*

قال عمرو بن أبي عَمْرو الشيباني : نزلت على حيٍّ من فَهْم ، فسألتهم عن خبر تأبّطَ شرًّا[١] ، فقال لي بعضهم : وماسؤالك عنه ؟ أتريدُ أن تكون لِصًّا ! قلت : لا ، ولكن أريد أن أعرف أخبارَ هؤلاء العدّائين فأتحدثَ بها . فقالوا : نُحدّثك بخبره .

إنّ تأبط شرًّا كان أعْدَى ذِي رِجْلين وذي ساقين وذي عَيْنَيْن ، وكان إذا جاع لم تقمْ له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فينْتَقي على نظره أسْمَنَها ، ثم يجري خلفه فلا يفوتُه حتى يأخذَه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله .

وإنما سمي تأبط شرًّا ؛ لأنه فيما حكى لنا : لقي الْغُولَ في ليلة ظلماء في موضع يقال له : رحى بِطَانٍ[٢] ، في بلاد هُذَيل ، فأخذتْ عليه الطريق ، فلم يزلْ بها حتى قتَلَها ، وبات عليها . فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه ، فقالوا له : لقد تأبط شرًّا ، وقال في هذا :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ فتيانَ فَهْمٍ ... بما لاقيتُ عنــد رَحَى بِطانِ
وأني قد لقيتُ الغُولَ تَهْوِي ... بسُهْبٍ[٣] كالصحيفة صَحْصحانِ
فقلتُ لهــا : كِلانا نِضْوُ أيْنٍ[٤] ... أخو سفرٍ فخَــلِّي لي مكاني

---

* الأغاني : ٨ – ٢٠٩ ، معجم البلدان : ٤ – ٢٣١

(١) هو ثابت بن جابر ، وتأبط شرا لقبه ، توفي نحو سنة ٨٠ ق . هـ (٢) رحى بطان : موضع لهذيل . (٣) السهب : الفلاة ، والصحصحان : ماستوى من الأرض واتسع . (٤) الأين : الإعياء والتعب .

فشدت شَدَّةً نحوى فأهوَى لهـــا كفّى بمصقولٍ يَمانى
فأضرِ بها بلا دَهَشٍ فخرّتْ صريعاً لليدين وللجِرانِ[١]
فقالت: عُدْ فقلت لها: رويداً[٢] مكانَكِ! إننى ثَبْتُ الجَنانِ
فلم أنفكَّ متكئاً عليهـــا لأنظرَ مُصْبحاً ماذا أتانى
إذا عينان فى رأسٍ قبيحٍ كرأس الهرّ مشقوق اللسانِ
وساقا مُخْدَجٍ وشَواةُ كلبٍ[٣] وثوبٌ من عَباءٍ أو شنانِ

---

(١) الجران للبعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره . (٢) زعمت العرب أن الغول إذ ضربت ضربة واحدة ماتت بها ، فإذا ضربت ضربة أخرى عاشت . (٣) مخدج: ناقص الخلق، والشواة: جلدة الرأس ، والشنان : جمع شن، وهو القربة الخلق.

١١٥ — رَئِىّ(١) الأعشى*

قال جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ : سافرتُ فى الجاهلية فأقبلتُ على بَعير ليلةً أريد أن أستقيهُ ، فجعلت أريدُهُ على أن يتقدم ، فوالله ما يتقدّم ، فتقدمت فدنوتُ من الماء وعَقَلْتهُ ، ثم أتيتُ الماء فإذا قومٌ مشوَّهُون عند الماء فقعدت .

فبينا أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشدُّ تشويهاً منهم فقالوا : هذا شاعرُهم . فقالوا له : يافلان ؛ أنشدْ هذا فإنه ضيف ؛ فأنشد :

* ودِّعْ هريرةَ إن الركب مُرتحِلُ *

فلا والله ما خرم منها بيتاً واحداً ، حتى انتهى إلى هذا البيت :

تسمع للحَلْيِ وَسْواساً إذا انصرفتْ ... كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ(٢)

فأعجِب به . فقلت : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا . قلت : لولا ما تقول لأخبرتك أن أعشى بنى ثعلبة أنشدنيها عاماً أوّلَ بنجْران . قال : فإنك صادق ، أنا الذى ألقيتها على لسانه ، وأنا مِسْحَل صاحبه ، مَاضاع شِعر شاعر وضعه عند مَيْمون ابن قيس !

---

* الأغاني : ٩ — ١٥٦

(١) الرئى : الجنى . (٢) الوسواس : صوت الحلى ، والعشرق : شجيرة مقدار ذراع ، لها أكمام فيها حب صغار إذا جفت فرت بها الريح تحرك الحب ، فسمع له خشخشة على الحصى . شبه وسواس حليها بصوته إذا ضربته الريح . والزجل : رفع الصوت بالطرب ، والزجل بالكسر : صفة منه .

١١٦ — هاجس الأعشى *

قال الأعشى[1] : خرجتُ أريدُ قَيس بن مَعْدِيكَرب بحضرموت ، فضَلَلْتُ في أوائل أرْضِ اليمن ؛ لأنى لم أكُنْ سلكتُ ذلك الطريقَ قبلُ ، فأصابنى مطر، فرميت ببصرى أطلبُ مكاناً ألجأُ إليه ، فوقعتْ عينى على خِباءٍ[2] من شَعَر ، فقصدتُ نحوَه ، وإذا أنا بشيخٍ على بَابِ الخِبَاء ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ علىَّ السلام ، وأدخل ناقتى خِباء آخر كان بجانب البيت ، فحططتُ رَحْلِي وجلست ، فقال : مَنْ أنت ؟ وإلى أينَ تقصد ؟ قلت: أنا الأعشى، أقْصِد قَيس بن مَعْدِيكرب. فقال : حيَّاكَ الله ! أظُنُّك امتَدَحتَه بشعر ؟ قلت : نعم ، قال : فأنْشِدْنيه، فابتدأتُ مطلع القصيدة :

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أجمالَها غَضبًا عليك فما تقولُ بدَا لَها !

فلما أنشدتُه هذا المطلع قال : حسبك ! أهذه القصيدة لك ؟ قلت : نعم ، قال : مَن سُمَيَّةُ التى تَنْسُبُ بها ؟ قلت : لا أعرفها ، وإنما هو اسم أُلْقِيَ فى رُوعِى[3] ؛ فنادى : يا سُمية ؛ اخرُجى ، وإذا جارية خماسيّة[4] قد خرجتْ ، فوقفتْ وقالت :

---

* خزانة الأدب : ٣ ـ ٥٤٩ (طبعة بولاق) .

(١) هو أبو بصير ميمون الأعشى بن قيس بن جندل القيسى من فحول شعراء الجاهلية ، وطال عمره حتى كان الإسلام، فأعد قصيدة يمدح بها النبي وقصده بالحجاز فلقيه كفار قريش وصدوه عن وجهه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حمراء ، ويرجع إلى بلده ففعل ، ولما قرب من اليمامة سقط عن ناقته فدقت عنقه ومات . (٢) الخباء من الأبنية : يكون من وبر أو صوف أو شعر .

(٣) الروع : القلب والعقل . (٤) خماسية : طولها خمسة أشبار .

ما تريد ياأبتِ ؟ قال . أنشِدى عمك قصيدتى التى مدحتُ بها قيس بن معديكرب ، ونسَبْتُ بكِ فى أولها ، فاندفعت تُنشِدُ القصيدة حتى أتت على آخرها لم تَخرِمْ منها حرفاً ، فلما أتمّتها قال : انصَرِفى ، ثم قال : هل قلتَ شيئاً غير ذلك ؟ قلت : نعم ، كان بينى وبين ابن عمٍّ لى يقال له يزيد بن مُسْهِر ، ما يكون بين بنى العم ، فهجانى وهجوته فأفحَمْتُه . قال : ماذا قلت فيه ؟ قال : قلت :

ودع هُرَيرَةَ إن الركبَ مُرتحِلُ   وهل تُطيقُ وَدَاعاً أيُّها الرَّجُلُ !

فلما أنشدته البيتَ الأول ، قال : حَسْبُكَ ! مَن هُرَيرةُ هذه التى نسَبْتَ بها ؟ قلت : لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها ؛ فنادى : ياهريرة ؛ فإذا جاريةٌ قريبة السنّ من الأولى خرجتْ ، فقال : أنشدى عمك قصيدتى التى هجوتُ بها يزيدَ بنَ مسهر ، فأنشدَتْها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفاً ، فَسُقِط فى يدى وتحيّرت وتغشتنى رِعْدة .

فلما رأى ما نزل بى قال : لِيُفرِخْ رَوْعُك[1] ياأبابصير ؛ أنا هاجسُك مِسْحَل ابن أثاثة ، الذى ألقى على لسانك الشعر .

قال الأعشى : فسكنَتْ نفسى ورجعت إلىّ ، وسكن المطر ، فدلّنى على الطريق ، وأرانى سَمْتَ مقصدى ، وقال : لَا تَعُجْ يميناً ولا شمالًا حتى تقع ببلاد قَيْس .

---

(١) ليفرخ روعك : ليذهب رعبك وفزعك ؛ فإن الأمر ليس على ماتحاذر .

١١٧ — عبيد بن الأبرص والشجاع*

قال القاضى يحيى بن أكثم : دخلت يوماً على هارون الرشيد ، وهو مطرق مفكر ، فقال لى : أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن لهذا البيت شأنا مع عبيد بن الأبرص ! فقال : أخبرنى عنه . فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ حدث عَبيد قال :

كنتُ فى بعض السنين حاجًا ، فلما توسطت البادية فى شديد الحر سمعتُ ضجّة عظيمة فى القافلة ألحقَتْ أولها بآخرها ، فسألتُ عن القصة ، فقال لى رجل من القوم : تقدم ترَ ما بالناس . فتقدمت إلى أول القافلة فإذا أنا بشُجاع[1] أسود فاغرٍ فاه كالجِذْع ، وهو يخور كما يخور الثور ، ويرغو كرُغاء البعير ؛ فهالنى أمرُه ، وبقيت لا أهتدى إلى ما أصنع ؛ فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ، فعارضَنا ثانياً ؛ ولم يجسُر أحد من القوم أن يقْرَبه ، فقلتُ : أفدى هــذا العالم بنفسى ، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاصِ هذه القافلة منه .

فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسلات سيفى ، فلما رآنى قَربتُ منه سكَن ، وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعنى فيها ، فلما رأى القِربة فتح فاه ، فجعلت فم القربة

---

* المختار من نوادر الأخبار (مخطوط) ، الأغانى : ١٩ ــ ٨٦ ، المستطرف : ١ ــ ٢٤٤

(١) الشجاع : الذكر من الحيات .

فى فيه ، وصببتُ الماء كما يُصبّ فى الإناء . فلما فرغت القربة تسيّب فى لرمل ومضى ؛ فتعجبت من تعرّضه لنا وانصرافه عنا عن غير سوء لحقنا ، ومضينا لحجّنا .

ثم عُدْنا فى طريقنا ذلك ، وحططنا فى منزلنا ذلك ، فى ليلة مظلمة مُدْلَهِمّة ، فأخذت شيئاً من الماء وعدلتُ إلى ناحية عن الطريق ، فأخذتنى عينى ؛ فنمتُ مكانى ؛ فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسا ، وقد ارتحلوا ، وبقيتُ منفرداً لم أر أحداً ، ولم أهتد إلى ما أفعلهُ ، وأخذتنى حيرة ، وجعلت أضْطَربُ ، وإذا بصوت هاتف أسمعُ صوته ولا أرى شخصه يقول :

يٰأيها الشخصُ المضلُّ مركبُهُ ما عنده من ذى رشادٍ يصحبه

دونك هـذا البَكْرَ منا تركبه وبَكْرُكَ الميمون حقًّا تجنبه(١)

حتى إذا ما الليل زال غَيهبُهُ(٢) عند الصباح فى الفلا تسيّبه(٣)

فنظرت فإذا بِبَكْرٍ قائم عندى وبَكْرِى إلى جانبى ، فأنختُهُ وركبته ، وجنبتُ بكرى ؛ فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة ، وانفجر الفجر ، ووقف البكر ، فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت إلى البكْر ، وقلت :

يأيها البَكر قد أنجيتَ من كَرب ومن هموم تضل المدْلج الهادى

ألا فَخَبِّرْنىَ بالله خالقِنـا من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى

(١) جنب البعير : قاده إلى جنبه . (٢) الغيهب : شدة سواد الليل . (٣) سيب الشئ : تركه .

وارجع حميداً فقد بلّغتنا مِنَنا بوركتَ من ذى سنام رائح غادى

فالتفت البكر إلىّ ، وهو يقول :

أنا الشجاعُ الذى ألفيتَنى رَمِضاً والله يكشفُ ضرَّ الحائرِ الصَّادى

فجدتَ بالمـاء لمّا ضنّ حامِلُه نصف النهار على الرَّمْضاءِ فى الوادى

الخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ

هـذا جزاؤك مِنّا لا يُمَنُّ به لك الجميلُ علينا إنك البادى

فعجب الرشيدُ من قوله ، وأمر بالقصة والأبيات فكُتبت ، وقال : لا يضيع المعروف أين وُضع !

١١٨ — ومَن عَبِيد لولا هَبيد*

قال رَاوٍ :

خرجتُ على بعيرٍ لى صعب يمرّ لا يُملِّكُنى من أمر نفسى شيئاً ، حتى مر على جماعةِ ظباء فى سفحِ جبل ، على قُلَّتهِ رجل عليه أطْمَار(١) ، فلما رأتنى الظباء هربت ، فقال : ما أردت إلى ماصنعت؟ إنكم لتعرضون بمن لو شاء قدَعكم(٢) عن ذلك ! فداخلنى عليه من الغيظ مالم أقدِر أن أحمله ، فقلت : إن تَفْعل بى ذلك لا أرضى لك ؛ فضحك ، ثم قال : امض — عافاك الله — لبَالِك .

فجعلت أُردّد البعير فى مراعى الظباء ، لأُغضبه ، فنهض وهو يقول : إنك لجليد القلب ؛ ثم أتانى فصاح ببعيرى صيحة، ضرب بجِرَانه(٣) الأرض، ووثبتُ عنه إلى الأرض ، وعلمت أنه جانٌّ ، فقلت : أيها الشيخ ؛ إنك لأَسْوَأُ منى صنيعاً ؛ فقال : بل أنت أظلم وألأم ، بدأتَ بالظلم ، ثم لؤُمت فى تركك المضى ، فقلت : أجل ! عرفتُ خطئى ، قال : فاذكر الله فقد رُعْناك ، وبذكر الله تطمئن القلوب ، فذكرت الله تعالى ، ثم قلت دهشاً : أتروى من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال : نعم ، أروى وأقول قولا فائقاً مبرّزا ، فقلت : فأرنى من قولك ما أحببت ؛ فأنشأ يقول :

---

* الجمهرة : ٢٣

(١) الأطمار : جمع طمر ، وهو الثوب الخلق. (٢) قدعكم : كفكم ومنعكم . (٣) جران البعير: مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

طافَ الخيالُ علينا ليلةَ الوادى ... من آل سلمى ولم يُلمِمْ بميعاد

إنى اهتديت إلى مَنْ طال ليلُهُمُ ... فى سَبْسَبٍ[1] ذاتِ دَكْدَاكٍ وأعقادِ[2]

يكلفون سُرَاها كل يَعْمَلَةٍ[3] ... مثل المهاةِ إذا ما حثّها الحادى

أبلغ أبا كَرِبٍ[4] عنى وأسرته ... قولا سَيَذْهَبُ غوْراً بعد إنجاد

ياعَمْرو، ماراح من قومٍ ولا ابتكروا ... إلا وللموتِ فى آثارهم حادى

لأعرفنّك بعد اليوم تندبنى ... وفى حياتىَ ما زوّدتنى زادِى

أمَا حِمَامُك يوماً أنتَ مُدركه ... لاحاضِرٌ مُفْلِتٌ منه ولا بادِى

فلما فرغ من إنشاده قلت : لَهذا الشعر أشهر فى معدّ بن عدنان من ولد الفرس الأبلق[5] فى الدُّهم[6] العِراب[7] ، هذا لَعَبيد بن الأبرص الأسدى ، فقال : ومن عَبيد لولا هَبيد ! فقلت : ومن هبيد ؟ فأنشأ يقول :

أنا ابنُ الصَّلادم أُدْعى الهبيد ... حبوت القوافى قَرْمَى[8] أسد

عبيــدا حبوتُ بمأثورةٍ ... وأنطقت بِشْراً[9] على غير كَدْ

ولاقى بمُدرِك رهطُ الكُمَيت[10] ... ملاذاً عزيزاً ومجداً وجَدْ

منحناهمُ الشعر عن قُدْرة ... فهل تشكرُ اليومَ هذا مَعَد !

فقلت : أما عن نفسك فقد أخبرتنى ، فأخبرنى عن مُدْرِك ، فقال : هو مُدْرِك ابن واغم صاحب الـكُميت ، وهو ابن عمى ، وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن.

---

(١) السبسب : المفازة. (٢) الدكداك: أرض فيها غلظ . الأعقاد : جمع عقد، ماانعقد من الرمل.
(٣) اليعملة : الناقة النجيبة. (٤) أبو كرب: عمرو بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار.
(٥) الأبلق : ما فيه سواد وبياض . (٦) الدهم: السود . (٧) العراب: الأصيلة. (٨) القرم: السيد ، ويريد بقرمى أسد عبيدا وبشرا فهما من قبيلة أسد . (٩) بشرا: هو بشر بن أبي خازم الشاعر . (١٠) الـكميت : هو الـكميت بن زيد الأسدى .

ثم قال : لو أنك أصبت من لبنٍ عندنا ! فقلت : هات ، أريد الأنْسَ به ، فذهب فأتانى بعُسٍ[1] فيه لبن ظبى ، فكرهته لزُهومته[2] ، فقلت : إليك ! ومَجَجْتُ ما كان فى فمى منه ، فأخذه ثم قال : امض راشداً مصاحباً ، فوليت منصرفاً ، فصاح بى من خلفى ؛ أما إنك لو شربت ما فى العُس لأصبحت أشعر قومك .

قال : فندِمت على أنى لم أشرب مافى عُسِّه فى جوفى على ما كان من زُهومته ، وأنشأت أقول فى طريقى :

أسفت على عُسِّ الهَبيد وشربه لَقَدْ حَرَمَتْنِيه صروف المقــادِرِ
ولو أننى إذْ ذاكَ كنتُ شربته لأصبحتُ فى قومى لهم خيرَ شاعر

---

(١) عس : إناء . (٢) الزهومة : رائحة غير مقبولة.

١١٩ — لافظ بن لاحظ ! *

حدّث أحد الرواة قال : خرجت فى طلب لِقَاح(١) لى على فَحْلٍ كأنه فَدَن(٢)، يمرُّ بى يسبق الريح ، حتى دفعت إلى خيمة وإذا بفِنائها شيخٌ كبير ، فسلّمت فلم يرد علىّ ، فقال : من أين ؟ وإلى أين ؟ فاستحمقته ؛ إذ بَخِل بردّ السلام، وأسرعَ إلى السؤال . فقلت : مِنْ هنا ! وأشَرْتُ إلى خلفى ، وإلى ههنا ! وأشرت إلى أمامى ؛ فقال : أمّا مِنْ هٰهنا فنعم ، وأما إلى هٰهنا فوالله ما أراك تبتهج بذلك، إلا أن يسهل عليك مُدَاراة من تَرِد عليه ! قلت : وكيف ذلك أيها الشيخ ؟ قال : لأن الشكلَ غير شكلِك ، ، والزىّ غيرُ زيك ، فضرب قلبى أنه من الجن،وقلتُ : أتروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال : نعم وأقول،قلت : فأنشِدْنى ـ كالمستهزئ به ! فأنشَدَنى قول امرئ القيس :

قفا نَبْك من ذِكْرى حبيبٍ ومَنْزِلِ بِسقْط(٣) اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمَلِ

فلما فرغ قلت : لو أن امرأ القيس يُنْشَر لرَدَعك عن هذا الكلام . فقال : ماذا تقول ؟ قلت : هذا لامرئ القيس ، قال : لستُ أولَ من كُفِر نعمة أسداها ! قلت : ألا تستحى أيها الشيخ ، ألمِثلِ امرئ القيس يقال هذا ؟ قال : أنا والله منَحْتُه ما أعجبك منه ! قلتُ : فما اسمك ؟ قال : لافظ بن لاحظ ، فقلت : اسمان منكَران ! قال : أجل ! فاستحمقتُ نفسى له ، بعد ما استحمقته لها ، وأنِسْتُ به

* الجمهرة : ٢٣

(١) اللقاح: الإبل. (٢) الفدن : القصر. (٣) سقط اللوى والدخول وحومل: مواضع بنجد.

لطول محاورتي إياه ، وقد عرفت أنه من الجنّ ، فقلت له : مَنْ أشعرُ العرب ؟ فأنشأ يقول :

ذهب ابنُ حُجْر[1] بالقريض وقولِه ‌‌‌‌‌ ولقــد أجاد فما يُعَاد زياد[2]
لله هاذر إذْ يجــودُ بقوله ‌‌‌‌‌ إنّ ابن ماهر بعدَها لجــوادُ

قلت : من هاذر؟ قال : صاحب زياد الذُّبياني وهو أشعر الجن ، وأضنّهم بشعره ، ولقد علّم بنيةً لي قصيدة له من فيه إلى أذنها ، ثم صرخ بها : اخرُجي فدًى لك ما وَلَدَتْ حوّاء ! فقلت له : ما أنصفتَ أيها الشيخ، فقال : ما قلتُ بأساً ، ثم رجعت إلى نفسي فعرفتُ ما أراد ، فسكت ، ثم أنشدتني الجارية :

نأتْ بسعادَ عنك نوًى شَطون[3] ‌‌‌‌‌ فباتَتْ والفؤادُ بهـــا حزين

حتى أتت على قوله منها * كذلك كان نوحٌ لا يخونُ * قال : لو كان رأيُ قوم نوحٍ فيه كرأيي هاذر ما أصابهم الغرق ! فحفظت البيتين، ثم نهض بي الفحل فعدتُ إلى لقاحي .

---

(١) ابن حجر : امرؤ القيس . (٢) زياد : النابغة الذبياني . (٣) شطون : بعيدة .

١٢٠ — تابع زهير بن أبى سلمى*

قال علىّ بن الجهم القُرشى : دخلتُ على المتوكل يوماً، وهو جالسٌ وحدَه ، فسلمتُ عليه فردّ السلام ؛ وأجلسنى ، فحانت منى التفاتة ، فرأيتُ الفتحَ بن خاقان(١) واقفاً فى غير رتبته التى كان يقوم فيها، متكئاً على سيفه مُطرِقاً، فأنكرت حاله، فكنت إذا نظرتُ إليه نظر إلىّ الخليفة، فإذا صرفتُ وجهى نحو الخليفة أطرق .

فقال : يا علىّ ، أنكرت شيئاً ؟ قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين ! فقال : ما هو ؟ قلت : وقوفُ الفتحِ فى غير رُتْبَتِهِ التى كان يقومُ فيها !

قال : سوء اختياره أقامَه ذلك المُقَام . قلت : ما السببُ يا أمير المؤمنين؟قال : خرجتُ من عند قَبيحَة(٢) آنفاً، فأسرَرْتُ إليه سرًّا، فما عدانى السرُّ إذْ عادَ إلىّ ! قلت : لعلّك أسْرَرْتَه إلى أحد غيره يا أمير المؤمنين ! قال : ما كان هذا ؟ قلت : فلعل مُسْتَمِعاً استمعَ عليكما ! قال : ولا هذا أيضاً .

فأطرقْتُ مليًّا ؛ ثم رفعتُ رأسى ، فقلت: ياأمير المؤمنين ، قد وجدتُ له مما هو فيه مخرجاً ! قال:ماهو ؟ قلت : حدثنا الفضل بن دُكَيْنٍ ، قال أبو الجوزاء : طلّقتُ امرأتى فى نفسى، وأتانى المسجد، ثم انصرفتُ إلى دارى ، فقالتْ لى امرأتى : أطلّقتنِي

---

* معجم الأدباء : ١٦ ـ ١٨٠

(١) هو الفتح بن خاقان بن أحمد القائد ، كان فى نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب ، وكان من أولاد الملوك ، اتخذه المتوكل أخا ، وكان يقدمه على جميع أولاده وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ وهو غير الفتح بن خاقان الأندلسى . (٢) قبيحة : جارية المتوكل .

يا أبا الجوزاء؟ قلتُ: من أين لك هذا؟ قالت: خبّرتنى جارتى الأنصارية اقلت: ومَنْ خبّرها بذلك؟ قالت: ذكرت أنّ زوجها خبّرها بذلك!

فغدوتُ على ابن عباس فقصصت عليه القصة؛ فقال: علمتُ أن وسْوَاسَ[١] الرجل يحدّث وسْواس الرجل، فمِنْ ههنا يَفْشو السر.

قال أبو نُعَيْم: فكان فى نفسى من هذا شىء حتى حدّثنى حمزة الزيات، قال: خرجت سنة من السنين أريد مكةَ، فلما جُزْتُ فى بعض الطريق ضلّت راحلتى، فخرجتُ أطلبها، فإذا باثنين قد قبضاَ علىّ، أحِسّ حسّهما؛ وأسمعُ كلامهما، ولا أرى شخصَهما! فأخذانى وجاءا بى إلى شيخ قاعدٍ على تَلْعَةٍ[٢] من الأرض، حسن الشَّيْبَةِ؛ فسلّمت عليه فردّ السلام؛ فأفرخ[٣] رُوعى؛ ثم قال: مِنْ أين؟ وإلى أين؟ فقلت: من الكوفة أريد مكة.

قال: ولِمَ تخلّفْتَ عن أصْحابك؟ فقلتُ: ضلّت راحلتى فجئتُ أطلبُها!

فرفع رأسَه إلى قوم على رأسه؛ فقال: زامِلَة[٤]؛ فأُنيختْ بين يدىّ؛ ثم قال لى: أتقرأ القرآن! قلت: نعم! قال: هاته! فقرأت حتى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿ وإذْ صَرَفْنَا إليكَ نفراً من الجنّ يستمعون القرآن؛ فلما حضَرُوه قالوا: أنْصِتوا، فلما قُضِى ولّوْا إلى قومهم منذِرين ﴾.

فقال لى: على رِسْلِك! تدرى كم كانوا؟ قلت: اللهم لا! قال: كنا أربعة؛ وكنتُ المخاطِبَ لهم، فقلت: « يا قومنا أجيبوا داعىَ الله ».

---

(١) وسواس الرجل: الشيطان الذى يوسوس له. والوسوسة: الصوت الخفى والهمس.

(٢) التلعة: ما ارتفع من الأرض. (٣) الروع: القلب، وأفرخ: أخرج ما به من خوف.

(٤) منادى محذوف منه حرف النداء، اسم ناقته.

ثم قال لى : أتقول الشعر ؟ قلت : اللهم لا ! قال : أفترْويه ؟ قلت : نعم ! قال : هاته ! فأنشدته قصيدة :

أمِنْ أمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ   بحَوْمانةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ [1]

فقال : لمن هذه ؟ قلت : لزهير بن أبى سُلْمَى ! قال : الجنى ؛ قلت : بل الإنسى ! مراراً .

فرفع رأسه إلى قوم ٍعلى رأسه ، فقال : زهيرُ ! فأتى بشيخٍ كأنه قطعة لحمٍ ؛ فألقِيَ بين يديه ، فقال له : يا زهير ! قال : لبيك ! قال : « أمِنْ أم أوفى » لمن ؟ قال : لى ! قال : هذا حمزة الزياتُ يذكرُ أنها لزهير بن أبى سلمى الإنسى ، قال : صدَق هو ، وصدقتَ أنت !

قال : وكيف هذا ؟ قال : هو إلفِي من الإنس ، وأنا تابعهُ من الجنّ ، أقول الشىء فألقيه فى وَهْمِه ، ويقولُ الشىء فآخذه عنه ؛ فأنا قائلها فى الجن ، وهو قائلها فى الإنس .

قال أبو نعيم : فصدّق عندى هذا الحديثُ حديثَ أبى الجوزاء إن وَسواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل ! فمن ها هنا يفشو السر !

فاستفرغ[2] المتوكل ضحكاً ، وقال : إلىّ يافتحُ ! فصبّ عليه خلعاً[3] ، وحُمِل على شىء من الظَّهْر ، وأمر له بمال ، وأمر لى بدون ما أمر له به .

فانصرفت إلى منزلى ، وقد شاطرنى الفتح ما أخذ ، فصار الأكثر إلىّ ، والأقلّ عنده .

---

(١) أم أوفى : على حذف مضاف ، أى أمن منازل أم أوفى ، والدمنة : مابقى من آثار الديار ، وحومانة الدراج : ماء فى طريق البصرة إلى مكة ، والمتثلم : موضع أول أرض الصمان . (٢) بذل جهده فى الضحك . (٣) ما يخلع على الإنسان من الثياب وغيرها .

١٢١ — حاتم يَقْرِى الضيف بعد موته*

مرّ نفرٌ من عبد القيس بقبر حاتم[١]، فنزلوا قريباً منه، فقام إليه رجل يقال له أبو الخَيْبَرِى[٢]، وجعل يركض[٣] برجله قَبْرَهُ؛ ويقول: اقْرِنا، فقال له بعضهم: ويلك! ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات؟ قال: إن طيًّا تزعم أنه ما نزل به أحدٌ إلا قراه، ثم أجنّهم الليل، فناموا.

فقام أبو الخيبرى فزعاً، وهو يقول: واراحلتاه! فقالوا له: مالك؟ قال: أتانى حاتم فى النوم، وعقر ناقتى بالسيف؛ وأنا أنظرُ إليها، ثم أنشدنى شعراً حفِظته، يقول فيه:

أبا الخَيْبَرِىّ، وأنت امرؤٌ ... ظلومُ العشيرة شتّامُها
أتيتَ بصحبكَ تَبْغى القِرَى ... لدَى حُفرةٍ قد صَدَتْ[٤] هامُها
أتَبْغِى لى الذمّ عند المبيت ... وحَوْلك طىٌّ وأنعامها
فإنّا لنشبعُ أضيافنا ... وتأتى المطىّ فنَعْتامُها[٥]

---

* بلوغ الأرب: ١ ـ ٧٤

(١) هو حاتم بن عبد الله من قبيلة طيّ، وهو من أجواد العرب، وله أخبار كثيرة فى السخاء مشهورة، حتى جرى ذكره مجرى الأمثال، وكان مع ذلك شاعراً وشجاعاً، توفى سنة ٦٠٥م.
(٢) قال فى القاموس: كأنه ولد بخيبر. وخيبر: حصن قرب المدينة. (٣) ركض الرجل ركضاً من باب قتل: ضرب برجله. (٤) صدت: صوتت. والهامة: طير تزعم العرب أنه يصيح على قبر الميت القتيل، فلا يفتأ ينادى بثأره حتى يؤخذ به. (٥) نعتامها: عتمت الإبل، واعتمت، واستعتمت: إذا حلبت عشاء.

فقاموا ، وإذا ناقة الرجل تَـكُوس[1] عقيراً ، فانتحروها وباتوا يأكلون ، وقالوا : قَرانا حاتم حيًّا وميتاً !

وأردفوا صاحبهم ، وانطلقوا سائرين ، وإذا برجلٍ راكب بعيراً وهو يقود آخر ، قد لحقه ، وهو يقول : أيكم أبو الخَيْبَرِىّ ؟ قال الرجل : أنا ! قال : فخذ هذا البعير ؛ أنا عدى بن حاتم ؛ جاءنى حاتم اليوم فى النوم ، وزعم أنه قراكم بناقتك ، وأمرنى أن أحملك ؛ فشأنُك والبعير[2] !

ودفعه إليهم وانصرف .

---

(١) تـكوس : كاس البعير ، مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب . (٢) إلى هذه القصة أشار ابن دارة الغطفانى فى قوله يمدح عدى بن حاتم :

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل ... لدن شب حتى مات فى الخير داعيا

به تضرب الأمثال فى الشعر ميتا ... وكان له إذ ذاك حيا مصاحبا

قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ... ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

١٢٢ — جارُ مالك بن حَرِيم*

خرج مالك بن حَرِيم في نفر من قومه يريدون عُكاظ، فاصطادوا ظبياً، وأصابهم عطش شديد، فانتهوا إلى موضع فَقَصَدُوا الظَّبْيَ، وجعلوا يشربون من دمه من العطش، فلما ذهب دمُه ذبحوه، وخرجوا في طلب الحطب، وكَمَنَ مالك في خِبائه فأثار بعضُهم شُجاعاً[1] فأقبل منساباً حتى دخل رَحْل مالك، فلاذَ به، وأقبل الرجل في أثره؛ وقال: يا مالك، استيقظ فإن الشجاع عندك؛ فاستيقظ مالك، ونظر إلى الشُّجاع، فإذا هو يلُوذُ[2] به؛ فقال للرجل: عزمتُ عليك إلّا تركته، فكفَّ عنه وانسابَ الشُّجاع إلى مأمنه، وأنشأ مالك يقول:

وأوصاني الحريم بعزِّ جاري ... وأمنعه وليس به امتناع
وأدفع ضَيْمَه وأذُبُّ عنه ... وأمنعه إذا منع المَتَاع

ثم ارتحلوا واشتدَّ بهم العطش، وإذا بهاتف يهتف بهم ويقول:

يأيها القوم لا ماء أمامكم ... حتى تسوموا المطايا يومها التعبا
ثم اعدلوا شامَةً فالماء عن كثبٍ ... عينٌ رَواء وماء يذهب اللَّغبا[3]
حتى إذا ما أصبتم منه ريَّكم ... فاسقوا المطايا ومنه فاملئوا القِرَبا

فعدلوا شامة، فإذا هم في عين خَرّارة في أصل جبل، فشربوا وسقوا إبلهم.

---

* بلوغ الأرب: ٢ ـ ٣٦٢

(١) الشجاع: الذكر من الحيات. (٢) لاذ به: لجأ إليه. (٣) الشامة: ضد اليمنة، والكثب: القرب، واللغب: التعب.

وحلوا ريهم حتى أتوا عُكاظ ، ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع ، فلم يروا شيئاً ، وإذا بهاتف يقول :

يا مالِ عنى جزاك الله صالحةً ... هذا وداعٌ لكم منى وتسليمُ

لا تزهدنْ فى اصطناع الخير مع أحدٍ ... إن الذى يحرم المعروف محرومُ

من يفعل الخير لا يَعْدَمْ مغبَّته ... ما عاش ، والكفر بعد الغبِّ مذموم

أنا الشجاع الذى أنجيتَ من رهقٍ ... شكرتُ ذلك إن الشكر مقسوم

ثم طلبوا العين فلم يجدوها .

١٢٣ — الجن وابن الحمارس*

كان عبيد بن الحُمارِس الكلبي رجلا شجاعاً ، وكان نازلا بالسَّماوَةِ(١) ، أيام الربيع ، فلما حَسَرَ الربيع ، وقلّ ماؤه ، وأقلعت أنواؤه، تحمل(٢) إلى وادى تُبَل(٣) فرأى روضة وغديراً ، فقال : روضة وغدير وخطب يسير ، وأنا لما حويتُ مُجير .

فنزل هناك ، وله امرأتان : اسم إحداهما الرّباب ، والأخرى خَوْلة ؛ فقالت له خَوْلة :

أرى بلدةً قفراً قليلًا أنيسُها ... وإنا لَنَخْشَى ـ إن دجا الليلُ ـ أَهْلَها

وقالت له الرّباب :

أرَتْك برأيى ، فاستمعْ عنك قولَها ... ولا تأْمَنن جنَّ العَريف(٤) وجهلها

فقال مجيباً لهما :

ألستُ كَمِيًّا(٥) فى الحروب مجرّباً ... شجاعاً إذا شُبَّتْ له الحرب مِحْرَبا(٦)

سريعاً إلى الهيجا(٧) إذا حَمِسَ(٨) الوغى ... فأُقسم لا أغدو الغدير مُنَكَّبا(٩)

ثم صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَمَةً(١٠) ، فرماها فأقْعَصَها(١١) ، ومعها ولدها فارتبطه ؛ فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن :

---

* بلوغ الأرب : ٢ ـ ٣٥٥ ، ابن أبى الحديد : ٤ ـ ٤٤٨

(١) السماوة : بادية قرب الشام . (٢) تحمل : سافر . (٣) تبل : واد على أميال يسيرة من الكوفة، وأعلاه متصل بسماوة كلب . (٤) العريف: الحلفاء . (٥) الكمى: الشجاع (٦) المحرب : صاحب الحرب . (٧) الهيجاء : الحرب . (٨) حمس : اشتد وصلب فى القتال. (٩) نكب : عدل . (١٠) الشيهمة : الأنثى من القنافذ . (١١) أقعصها : قتلها مكانها .

يابن الُحمارس قد أسأتَ جوارنا ... وركبتَ صاحبنا بأمر مُقْطع
وعقرْتَ لقْحتهُ(١) وقُدْتَ فصيلها ... قوداً عنيفاً فى المنيف الأرفع
ونزلت مرْعى شائناً وظلمتنا ... والظلمُ فاعلُهُ وخيم المرْتَع
فلنطرقنّك بالذى أوْليْتنا ... شرًّا يجيك وما له من مَدْفع

فأجابه ابن الُحمارس :

يا مُدّعى ظُلْمى ، ولستُ بظالمٍ ... اسْمَعْ لديك مقالتى وتسمّع
لا تطمعوا فيما لدىّ فما لكم ... فيما حويتُ وحُزْتُهُ من مطمع

فأجابه الجنى :

ياضاربَ اللَّقْحَة(٢) بالعضب الأفَل(٣) ... قد جاءك الموتُ ووافاك الأجلْ
وساقك الحيْن إلى جنٍّ تُبَلْ ... فاليوم أقويت(٤) وأعْيتْكَ الحِيَلْ

فأجابه ابن الحمارس :

يا صاحب اللَّقْحَة هل أنت بجل ... مستمع منى فقد قُلْتَ الخطَلْ
وكثرةُ المنطق فى الحرب فشل ... هيجت قُمْقاماً(٥) من القوم بَطَلْ
ليث ليوث ، وإذا همّ فعل ... لا يرهبُ الجنّ ولا الإنسَ أجَلْ
من كان بالعَفْوَة(٦) من جنّ تُبَلْ

فسمعها شيخ من الجن ؛ فقال : لا والله لا نرى قَتلَ إنسان مثل هذا ، ثابتِ القلب ، ماضى العزيمة ! فقام ذلك الشيخ فأنشد :

---

(١) اللقحة : الناقة . (٢) العضب : السيف . (٣) الأفل : المثلم . (٤) أقوى : افتقر .
(٥) القمقام : السيد . (٦) العفوة : المحلة .

يابن الحُمارس قـد نزلت بلادَنا ... فأصبت منهـا مَشْرَباً ومناما
فبدأتَنا ظلماً بعقر لقُوحنـا ... وأسأت لمَّا أن نطقتَ كلاما
فاعمد لأمرِ الرشد واجْتَنِبِ الردى ... إنا نرى لك حرمـةً وذِماماً
واغرم لصاحبنـا لقوحاً مُتْبَعاً ... فلقد أصبتَ بمـا فعلتَ أثاما[1]

فأجابه ابن الحُمارس :

الله يعـلم حيث يرفع عرشه ... إنى لأكرهُ أن أُصيبَ أثاماَ
أما ادّعاؤكَ ما ادّعيتَ فإننى ... جئتُ البـلاد ولا أريد مقـاما
فأَسَمْت[2] فيهـا مالنا ونزاتُها ... لأربح فيهـا ظهرَنا أياما
فَلْيَغْدُ صاحبكم علينـا نُعْطه ... ماقـد سألتَ ولا نراه غراما

ثم غرم للجن لقوحاً متبعا[3] .

(١) الأثام: الإثم . (٢) أسام المال : أرعاه . والمال (هنا) : الإبل. (٣) قال ابن أبى الحديد بعد إيراده هذه القصة فى شرح نهج البلاغة: وهذه الحكاية وإن كانت كذباً إلا أنها تتضمن أدباً، وهى من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها .

١٢٤ — حارس مال ابن الخَشْرَم*

خرج نُجَيح اليَرْبُوعى يوماً إلى الصيد ، فعرض له حمارُ وَحْشٍ فاتّبعه ، حتى دفع إلى أَكَمَة ، فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد فى أطْمارٍ[1] ، بين يديه ذهب وفضة ودُرّ وياقوت. فدنا منه نُجيح ؛ فتناول منها بعضها ، فلم يستطع أن يحرّك يده حتى ألقاها ؛ فقال : يا هذا ؛ ما الذى بين يديك ؟ وكيف تستطيعُ حملَه ؟ ألَكَ هو أمْ لِغيرك فإنى أعجب مما أرى ، أجواد أنت فتجود لنا ، أم بخيل فأعذرك ؟ فقال الأعمى : كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين ، وهو سعد بن خَشْرَم ، فأْتِنِى بسعد يعطك ما تشاء .

فانطلق نُجيح مسرعاً ، قد استطير فُؤاده ، حتى وصل إلى مَحَلّته[2] ، ودخل خِباءه ، فوضع رأسه ، ونام لما به من الغم ؛ لا يدرى مَنْ سعد !

فأتاه فى منامه آت ؛ فقال له : يا نُجيح ؛ إنّ سَعْد بن خشرم فى حى مُحَلِّمٍ من ولد ذُهْل بن شيبان ؛ فخرج وسأل عن بنى مُحَلِّم ، ثم سأل عن خَشْرَم ، فإذا هو بشيخ قاعد على باب خِبائه ، فحيّاه نُجيح ، فردّ عليه ، فقال له نُجيح : من أنت ؟ قال : خَشْرَم بن شمَّاس . قال : وأين ابنُك ؟ قال : خرج فى طلب نُجيح اليَرْبُوعى ؟

* المحاسن والأضداد : ٦٩

(١) الأطمار : الملابس البالية . (٢) المحلة : منزل القوم .

وذلك أن آتياً أتاه فى منامه ، فحدّثه أن مالًا له فى نواحى بنى يَرْبوع لا يعلم به إلا نُجيح ، فضرب نجيح بطن فرسه ، وهو يقول :

أيطلبنى مَنْ قد عَنانى طِلَابُهُ ... فياليتنى ألقاك سعدَ بنَ خَشْرَمِ
أتيتَ بنى يَرْبوع تبغى لقاءنا ... وقد جئتُ ـ كى ألقاك ـ حىَّ مُحَلَّمِ

فلما دنا من محلّته استقبل سعداً ، فقال له : أيها الراكب ؛ هل لقيت سعداً فى بنى يربوع ؟ فقال : أنا سعد ؛ فهل تدلّنى على نُجيح ؟ قال : أنا نجيح ! وحدّثه بالحديث ؛ ثم قال : الدالُّ على الخير كفاعله .

فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان ؛ فتوارى الرجل الأعمى حين أبصرهما ، وترك المال ، فأخذه سعد كله ، فقال له نجيح : يا سعد ؛ قاسمنى ، فقال له : اطو عن مالى كشحاً ! وأبى أن يعطيه شيئاً ، فانتضى نجيح سيفه ، وجعل يضربه ، حتى برد ؛ فلما وقع قتيلًا تحوّل الرجل الحافظ للمال سِعْلَاةً[1] ، وأعاد المال إلى مكانه ؛ فلما رأى نجيح ذلك ولّى هارباً إلى قومه !

(١) السعلاة : الغول أو ساحرة الجن .

١٢٥ — فى موت أمية بن أبى الصلت*

لما بُعث النبى صلى الله عليه وسلم أخذ أمية بِنْتَيْه وهرَب بهما إلى أقصى اليمن ، ثم عاد إلى الطائف ، فبينما هو يشرب مع إخوان له فى قصر غَيْلان هناك إذ سقط غراب على شُرْفة فى القَصْر ، فنَعَب نَعْبَةً ؛ فقال أُمية : بفيك الكَثْكَث(١) ! فقال أصحابه : ما يقول ؟ قال : يقول : إنك إذا شربت الكأس التى بيدك مِتَّ . فقلت : بفيك الكثكث ، ، ثم نعب نَعْبَةً أخرى ، فقال أمية نحو ذلك ، فقال أصحابه : ما يقول ؟ قال : زعم أنه يقع على هذه المَزْبَلَة(٢) أسفل القصر ، فيستثير عظما فيبتلعه فيشجى به فيموت ، فقلت نحو ذلك . فوقع الغرابُ على المَزْبلة ، فأثار العظم ، فشجى به فمات .

فانكسر أمية ، ووضع الكأس من يده ، وتغيَّر لونه ، فقال له أصحابه : ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا وكان باطلا ! ثم ألحُّوا عليه حتى شرب الكأس فمال وأُغْمِىَ عليه ، ثم أفاق ، ثم قال : لا برىءٌ فأعتذر ، ولا قوىٌّ فأنتصر ، ثم خرجَتْ نفسه .

---

* الأغانى : ٤ ـ ١٣٣

(١) الكثكث : التراب . (٢) موضع السرجين .

١٢٦ — فى بحر الخَزَر *

قال ميمون الآمدى : ركبت بحر الخَزَرِ أريد بلداً حتى إذا ما كنت منه غير بعيد لُجِّجَ[1] مركبنا ، فاستاقته ريحُ الشمال شهراً فى اللُّجة ، ثم انكسر بنا ، فوقعتُ أنا ورجل من قريش إلى جزيرة فى البحر ليس بها أنيس .

فجعلنا نطوف حتى أشرَفْنَا على هُوَّة ، وإذا بشيخ مستندٍ إلى شجرةٍ عظيمة، فلما رآنا تَحَشْحَشَ[2] وأناف إلينا ! ففزِعْنا منه ، ثم دنونا نحوه ، وقلنا: السلام عليك أيها الشيخ ! قال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فأنِسْنا به ، فقال : ما خطْبُكُما ؟ فأخبرناه ، فضحك وقال : ما وطئ هذا الموضع أحد من ولد آدم قط ، فمن أنتما ؟ قلنا : من العرب ، قال : بأبى وأمى العرب ، فمن أيُّها ؟ قلت : أما أنا فرجل من خُزاعة ، وأما صاحبى فمن قريش . قال : بأبى قريشٌ وأَحْمَدُها! قال : يا أخا خُزاعة ، هل تدرى مَن القائل :

كَأَنْ لم يَكُنْ بين الحَجُونِ[3] إلى الصَّفَا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سَامِرُ
بلى نحن كُنَّا أهلَها فأبادَنا صُروفُ الليالى والجُدُودُ العواثر

قلت : نعم ، ذلك الحارث بن مضاض الجُرهمى . قال : ذلك مُؤدِّيها ، وأنا

---

* الجمهرة : ٢٦

(١) لجت السفينة : خاضت اللجة . ولجة البحر: معظمه . (٢) تحشحش: تحرك ، أناف: أشرف . (٣) الحجون : جبل بمكة ومقبرة .

قائلها فى الحرب التى كانت بينكم معشر خُزاعة وبين جُرْهم .

يا أخا قريش ؛ أَوُلِد عبد المطلب بن هاشم ؟ قلت : أين يذهبُ بك ، رحمك الله، فرَبَا وعظم وقال : أرى زمانا قد تقارب إبّانه ، أفوُلِد ابنه عبد الله ؟ قلنا : وأينَ يذهبُ بك ، إنك لتسألُنا مسألةَ مَنْ كان فى الموتى .

قال : فتزايد ، ثم قال : فابنه محمد الهادى ؟ قلت : هيهات ! مات رسول الله صلّى الله عليه وسلم منذ أربعين سنة .

فشهق حتى ظننا أن نفسه قد خرجت ، وانخفض حتى صار كالفرخ وأنشأ يقول :

ولرُبَّ راجٍ حِيلَ دون رجائه ومُؤمِّلٍ ذهبت به الآمالُ

ثم جعل ينوح ويبكى ، حتى بلّ دمعهُ لحيته ، فبكينا لبكائه ، ثم قال : ويحكما ! فمَنْ ولى الأمر بعده ؟ قلنا : أبو بكر الصديق ، وهو رجل من خير أصحابه. قال : ثمّ من ؟ قلنا : عمر بن الخطاب، قال : أفمن قومه ؟ قلنا : نعم . قال: أما إن العرب لا تزال بخير ما فعلت ذلك !

١٢٧ — نجىّ(١) سَواد بن قارب*

وفدَ سَوَادُ بنُ قارب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ فسلم عليه فردّ السلام، فقال عمر : ياسواد ! قال : لبيك يا أميرَ المؤمنين ! قال : مابقىَ من كهانتك ؛ فغضب ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أظنك استَقْبَلْتَ بهذا الكلام غيرى ؛ فلما رأى عمرُ الكراهية فى وجهه قال : ياسواد ؛ إن الذى كنّا عليه من عبادةِ الأوثان أعظم من الكهانة ، فحدثنى بحديث كنتُ أشتهى أن أسمعَه منك .

قال : نعم يا أمير المؤمنين، بينما أنا فى إبلى بالسَّرَاة، وكان لى نجىٌّ من الجن؛ إذ أتانى فى ليلةٍ وأنا كالنائم ، فَرَكَضنِي برجله ،ثم قال : قم يا سواد ، فقد ظهر بتِهامة نبىٌّ يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، قلت : تنحَّ عنى فإنى ناعس ؛ فولّى عنى وهو يقول:

عجبت للجنّ وتَطْلابها ... وشدِّها العيسَ بأكوارها(٢)

تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمنو الجنّ ككفّارها

فارحل إلى الصَّفوَة من هاشم ... بين روابيها وأحجارها

ثم لما كان فى الليلة الثانية أتانى ، فقال مثل ذلك القول ، فقلت : تنحَّ عنى فإنى ناعس ، فولّى عنى وهو يقول :

عَجِبْتُ للجنّ وتَخْبَارِها ... وشَدِّها العِيسَ بأقتابها(٣)

---

* بلوغ الأرب : ٢ ـ ٣٠٣ ، الجمهرة : ٢٥

(١) النجى : من يلقى بالقول السر . (٢) الأكوار : جمع كور ، وهو الرحل. (٣) الأقتاب: جمع قتب ، وهو ما يوضع على سنام البعير .

تهوى إلى مكةَ تبغى الهدى ما مؤمنو الجنِّ ككفّارها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشم ليس قداماها كأذنابهـا

ثم أتانى فى الليـلة الثالثة ، فقال مثلَ ذلك ، فقلت : إنى ناعس ، فولى عنى وهو يقول :

عجبت للجنِّ وإيجاسهـا[1] وشدِّها العِيس بأحلاسها[2]
تهوى إلى مكة تبغى الهـدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها
فارْحَلْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشمٍ واسمُ بعينيك إلى رَاسِها

قال سوَاد : فلمـا أصبحت يا أمـير المؤمنين أرسلتُ لناقةٍ من إبلى ، فشددتُ عليهـا ، وأتيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ وبايعت ، وأنشأتُ أقول :

أتانى نجىٌّ بعد هَدْء[3] ورَقْدَةٍ ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذب
ثلاث ليـال قولُهُ كل ليـلةٍ أتاك رسولٌ من لؤىِّ بن غالب
فشمّرتُ عن ذيلى الإزار وأرْقلَتْ[4] بى الذِّعْلب الوجْناء بين السَّباسب[5]
فأشهـد أنَّ الله لا ربٌّ غـيره وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنك أدنى المرسـلين وسيلةً إلى الله يابْنَ الأكْرَمين الأطَايِبِ

---

(١) أوجس : وقع فى نفسه الخوف . (٢) الحلس : كساء رقيق يكون تحت البرذعة بمنزلة المرشحة . (٣) الهدء : السكون. (٤) أرقلت: أسرعت. (٥) الذعلب : الناقة السريعة، شبهت بالذعلبة وهى النعامة لسرعتها (اللسان مادة ذعلب) ، والوجناء : الشديدة . والسباسب، جمع سبسب : المفازة .

فمرنى بما أحببتَ يا خيرَ مُرْسَلٍ وإن كان فيما قلتَ شيبُ الذوائب
وكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعةٍ بمغنٍ فتيلًا عن سَوادِ بن قارب

ففرح رسول الله وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً حتى رُئى الفرح فى وجوههم ؛ فوثب إليه عمر فالتزمه ، وقال : قد كنت أحبُّ أن أسمع هـذا الحديث منك ، فهل يأتيك رئيّك اليوم ؟ فقال : منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن !

١٢٨ — ليلى الأخيلية على قبر تَوبة*

مرّت ليلى الأخيلية(١) مع زوجها بقَبْرِ توبة بن الحمّير ، فقال لها : هذا قبرُ الكذّاب الذى قال :

ولو أنّ ليــلى الأخيليّة سلّمَتْ ... علىّ ودونى جَنْدَلٌ وصفائحُ
لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زقَا ... إليها صدًى من جانب القبرِ صائحُ

فقالت : دَعْه ، فقال : أقسمتُ عليك إلا مادنوتِ منه فَسلَّمتِ عليه. فأبت ، فكرر عليها ذلك ، فلما تقدّمتْ إلى القبْر ، وقالت : السلام عليك ياتوبة ، طار من جانب القبر طائر كان هناك ، وزقَا ونفر منه جمل ليلى ، فوقعت من أعلاه فاندقّت عنقها وماتت من وقتها !

---

* ديوان الصبابة : ١٨٤

(١) هى ليلى بنت عبد الله من بنى الأخيل بن عامر ، من النساء المتقدمات فى الشعر ، وكان توبة ابن الحمير يهواها ، وقال فيها الشعر الكثير ثم تزوجها ، توفيت سنة ٨٠ هـ .

١٢٩ — جان يختطف فتاة*

حدّث زياد بن النَّضْر الحارثى قال : كنا على غَدِيرٍ لنا فى الجاهلية ، ومعنا رجلٌ من الحىّ يقال له : عمرو بن مالك ، معه بنية له شابة ، على ظهرها ذُؤابة ، فقال لها أبوها : خذى هذه الصَّحْفة ، ثم ائتى الغدير ، فجيئينا بشىء من مائه .

فانطلقت فوافقها عليه جانّ فاختطفها ، فذهب بها ؛ فلما فقدناها نادى أبوها فى الحىّ ، فخرجنا على كل صَعْب وذَلول[1] ، وقصدنا كل شِعْبٍ[2] ونَقْب ، فلم نجد لها أثراً ؛ ومضت على ذلك السنون ، حتى كان زمنُ عمرَ بن الخطاب ، فإذا هى قد جاءت ، وقد عفا[3] شَعْرها وأظفارها ، وتغيّرت حالها ، فقال لها أبوها : أى بنية ؛ أنّى كنت ؟ وقام إليها يقبّلها ، ويَشم ريحها ، فقالت : يا أبت ؛ أتذكرُ ليلَة الغدير ؟ قال : نعم ! قالت : فإنه وافقنى عليه جان ، فاختطفنى ، فذهب بى ، فلم أزلْ فيهم ، حتى إذا كان الآن غزا هو وأهله قوماً مشركين ، أو غزاهم قوم مشركون ، فجعل لله تبارك وتعالى نذراً إن هم ظفروا بعدوّهم أن يعتقنى ويردّنى إلى أهلى فظفروا ؛ فحملنى فأصبحتُ عندكم ، وقد جعل بينى وبينه أمارةً ، إن احتجتُ إليه أن أولوِل بصوتى ، فإنه يحضرنى .

---

* المنتقى من أخبار الأصمعى : ١٣

(١) الصعب : الجمل العصى ، والذلول : الجمل الهادئ .

(٢) الشعب : الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين .

(٣) عفا شعرها : كثر وطال .

فأخذ أبوها من شعرها وأظافرها ، وأصلح من شأنها ، وزوّجها رجلا من أهله ؛ فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبَعْلها فعيَّرها ، وقال : يا مجنونة ! والله ، إن نشأتِ إلا فى الجن .

فصاحت وولولت بأعلى صوتها ، فإذا هاتفٌ يهتف : يامعشر بنى الحارث ؛ اجتمعوا وكونوا حيًّا كراماً ، فاجتمعنا فقلنا : ما أنت ـ رحمك الله ؟ فإنا نسمع صوتاً ولا نرى شخصاً ! فقال : أنا رابُّ[1] فلانة ، رعيتُها فى الجاهلية بحسبى ؛ وصُنْتُها فى الإسلام بدينى ، والله إن نلتُ منها محرّماً قط ! واستغاثت فى هـذا الوقت ، فحضرتُ فسألتها عن أمرها ، فزعمت أن زوجها عيّرها بأنها كانت فينا ، ووالله ، لو كنت تقدمت إليه لفقأتُ عينيه ! فقلنا : يا عبد الله ؛ لك الحِباء والجزاء والمكافأة ! فقال : ذلك إليه (يعنى الزوج) !

فقامتْ إليه عجوز من الحىِّ ، فقالت : أسألك عن شىء ؛ فقال : سَلِى ! قالت: إن لى بنيةً أصابتها حَصْبة[2] ، فتمزّقَ رأسها ، وقد أخذتها حُمّى الرِّبْع[3] ؛ فهل لها من دواء ؟ قال : نعم ! اعمِدى إلى ذباب الماء الطويل القوائم الذى يكون على أفواه الأنهار ، فخذى منه واحدة ، فاجعليها فى سبعة ألوان عهنٍ[4] ، من أصفرها وأحمرها وأخضرها وأسودها ، وأبيضها وأكحلها وأزرقها ، ثم افتلى ذلك الصوف بأطراف أصابعك ، ثم اعقديه على عضدك ؛ ففعلت أمها ذلك ، فكأنما نَشطتْ من عِقَال !

---

(١) راب : كافل . (٢) الحصبة : بثر يخرج بالجسد . (٣) الربع فى الحمى : أن تأخذ يوما وتدع يومين ، ثم تجىء فى اليوم الرابع . (٤) العهن : الصوف .

١٣٠ — لا بقاء للإنسان*

لبس سليمان[١] بن عبد الملك يوم الجمعة فى ولايته لباساً شُهِر به ، وتعطَّر ودعا بتَخْت[٢] فيه عمائم ، وبيده مرآةٌ ، فلم يزل يعتمّ بواحدة بعد أخرى حتى رضى بواحدةٍ منها ، فأرخى من سُدولها ، وأخذ بيده مِخْصَرة[٣] ، وعلا المنبر ناظراً فى عِطْفيه ، وجمع جمعه ، وخطب خطبته التى أرادها ، فأعجبته نفسه ، فقال : أنا الملك الشاب ، السيد المُهاب ، الكريم الوهَّاب ، فتمثّلَتْ له جاريةٌ من بعض جواريه ، فقال لها : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ قالت : أراه مُنَى النفس ، وقرّة العين ، لولا ما قال الشاعر ! قال : وما قال الشاعر ؟ قالت :

أنت نعم المتاع لو كنتَ تَبْقَى ... غير أن لا بقاء للإنسان

أنت من لا يريبنا منك شىء ... علم الله - غير أنك فان

فدمعتْ عيناه وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من خُطبته وصلاتِه دعا بالجارية ، فقال لها : ما دعاك إلى ما قلت لأمير المؤمنين ؟ قالت : والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم ، ولا دخلتُ عليه ؟ فأكبرَ ذلك ، ودعا بقيِّمَةِ جواريه ، فصدقتها فى قولها ، فراع ذلك سليمان ، ولم ينتفع بنفسه ، ولم يمكث بعد ذلك إلا مدَّةً حتى تُوفى .

---

* مروج الذهب : ١ - ١٦٣

(١) سليمان بن عبد الملك من خلفاء بنى أمية ، كانت أيامه أيام فتح وغزو وكان فصيحا بليغا ، إلا أنه كان نهما ، توفى سنة ٩٦ هـ . (٢) التخت : وعاء تصان فيه الثياب . (٣) المخصرة : ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها ، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب ، والخطيب إذا خطب .

١٣١ — الغَرِيض يتلقى غناءه عن الجن*

قال مولى لآل الغَرِيض(١) :

حدثتني بعض مَوْلَيَاتي وقد ذَكَرْنَ الغَرِيض فترحمن عليه وقلن : جاءنا يوماً يحدثنا بحديث أنكرْناه عليه ، ثم عرَفْنا بعد ذلك حقيقته، وكان من أحسن الناس وجهاً صغيراً وكبيراً ، وكنا نَلْقَى من الناس عَنَتاً بسببه ، وكان ابنُ سُرَيجٍ في جوارنا فدفعناه إليه فلقِنَ الغناء ، وكان من أحسن الناس صوتاً ففتن أهل مكة بحُسْن وجهه مع حسن صوته ؛ فلما رأى ذلك ابن سُرَيج نحّاه عنه ، وكانت بعضُ مولياته تعلّمه النِّياحة ، فبرّز فيها ، فجاءني يوماً فقال : نهتني الجنّ أن أنوح ، وأسمعتني صوتاً عجيباً ، فقد ابتنيتُ عليه لحناً فاسمعيه مني، واندفع فغنى بصوت عجيب في شعر المرّار الأسدي :

حلفتُ لها بالله ما بين ذي الغضَا وهضب القَنَانِ(٢) من عوانٍ ولا بِكْرِ
أحَبُّ إلينا منك دَلّاً وما نرى به عند لَيْلَى من ثوابٍ ولا أجرِ

فكذّبناه وقلنا :شيء فكّر فيه وأخرجه على هذا اللحن ،فكان في كل يومٍ يأتينا فيقول : سمعتُ البارحة صوتاً من الجن بترجيع وتقطيع قد بنيت عليه صوتَ كذا وكذا بشعر فلان ، فلم يزل على ذلك ونحن نُنْكِر عليه ؛ فإنا لكذلك ليلة

---

* الأغاني : ٢ ـ ٣٧٣

(١) اسمه عبد الملك ، والغريض لقبه ، كان يضرب بالعود ، وينقر بالدف ، أخذ الغناء عن ابن سريج ثم فاق عليه ، وتوفي في خلافة سليمان بن عبد الملك . (٢) القنان : جبل لبني أسد .

وقد اجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكة فى جمع سَمَرْنا فيه ليلتنا ، والغريض يغنينا بشعر عمر بن أبى ربيعة :

أمِنْ آل زينب جدّ البُكور نعم فَلِأَيِّ هواها تَصِيرُ

إذ سمعنا فى بعض الليل عَزيفاً عجيباً وأصواتاً مختلفة ذعرتنا وأفزعتنا ، فقال لنا الغريض : إن فى هذه الأصوات صوتاً إذا نمتُ سمعتُه ، وأُصْبِحُ فأبنى عليه غِنائى ، فأصْغَيْنا إليه ، فإذا نغمته نغمة الغريض بعينها ، فصدّقناه تلك الليلة .

١٣٢ — شيطان أبى نواس*

قال رَزِين الكاتب : اجتمعنا يوماً أنا وأبو نواس(١) وعلى بن الخليل فى سوق الكَرْخ(٢) ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدث بها ، فقال أبو نواس : أدْبَرَ مَن كان فى نفسى ، وكان أسْرَع الخَلْقِ فى طاعتى ؛ فما أدرى ما أحْتَال له ؟ فقال على بن الخليل يمازحه : يا أبا على ؛ سل شيخك وأستاذَك يُعطِّفه عليك ؛ فقال له أبو نواس : من تَعْنِي ؟ قال : من أنت فى طاعته ليلَك ونهارك - يعنى إبليس ، فإن لم يَقْضِ لك هذه الحاجة ، فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ، ولا أن تَقِرَّ عينه بمعصية . فقال : هو أسدُّ رأياً من أن يُخِلَّ بى أو يَخْذُلنى ، وانقضى مجلسنا ذلك .

فلما كان بعدَ أيام اجتمعنا فى ذلك الموضع ، وأخذنا فى أحاديثنا ، فضحك أبو نواس ، فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال : ذكرت قول على بن الخليل يومئذ : سَلْ شيخَك يعطفه عليك ، حينئذ قد سألتُه يا أبا الحسن ، فقضى الحاجة ، وما مضت والله ثالثةٌ حتى أتانى من غير أن أبعثَ إليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى واسْتَرْضَانى ، وكان الغضب منى والتجنى ، وأحسب الشيخَ - يعنى إبليس -

---

* عصر المأمون : ٣ - ٢٣٣

(١) هو الحسن بن هانئ ، رحل إلى بغداد ، واتصل فيها بالخلفاء من بنى العباس ، وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ، توفى سنة ١٩٢ هـ .

(٢) من أسواق بغداد .

كان يتسمّع علينـا فى وقت كلامنا ، وقد قلت أبياتاً فى ذلك ؛ فقلنا : هاتهـا ، فأنشد:

لمـا جفانى الحبيبُ وامتنعتْ عنّى الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدّ شوقى فكاد يَقْتُلنى ذكرُ حبيبى والهمُّ والفِكَرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلت له فى خَلْوَةٍ والدموعُ تنحدرُ :
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد أقرح جَفْنى البكاءُ والسهرُ
إنْ أنتَ لم تُلْقِ لى المودّةَ فى صدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قُلْتُ شعراً ولا سمعتُ غِنـا ولا جرى فى مفاصِلى السَّكَرُ(١)
فمـا مضتْ بعـد ذاك ثالثة حتى أتانى الحبيبُ يعتذرُ
فيا لهـا مِنَّةً لقـد عظُمَتْ عندى لإبليس ما لهـا خَطَرُ

---

(١) السكر : السكر .

١٣٣ — إبليس فى ضيافة إبراهيم الموصلى*

قال إبراهيم بن إسحاق الموصلى :

سألتُ الرشيد(١) أن يَهبَ لى يوماً فى الجمعة لايبعثُ فيه إلىّ بوجه ولا بسبب لأخْلُوَ فيه بجوارىّ وإخوانى ، فأذن لى فى يوم السبت ، وقال لى : هو يوم أستَثْقِله ، فالْهُ فيه بما شئت ؛ فأقمت يوم السبت بمنزلى ، وتقدمتُ فى إصلاح طعامى وشرابى بما احتجتُ إليه ، وأمرتُ بوّابى فأغلق الأبوابَ ، وتقدمتُ(٢) إليه ألا يأذنَ علىّ لأحد .

فبينما أنا فى مجلسى والخدم قد حَفُّوا بى وَجَوارىّ يترَدَّدْن بين يدى ، إذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال ، عليه قميصان ناعمان وخُفَّان قصيران ، وعلى رأسه قَلَنْسُوَةٌ لاطِئة(٣) ، وبيده عُكازة مُقَمَّعة بِفِضة ، وروائحُ المسك تفوح منه حتى ملأ البيتَ والدار ، فداخلنى بدخوله علىّ — مع ماتقدمت فيه — غيظٌ ماتداخلنى قطُّ مثلُه ، وهممتُ بطرد بوّابى ومَنْ حجبنى لأجله ، فسلم علىّ أحسنَ سلام ؛ فرددتُ عليه ، وأمرته بالجلوس فجلس ، ثم أخذ بى فى أحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سَلَّى مابى من الغضب ، وظننتُ أن غلمانى تحرَّوْا مسرَّتى بإدْخالهم مثله علىّ لأدبه وظَرْفه .

(*) الأغانى : ٥ — ٢٣١ ، ذيل زهر الآداب : ٢٦٤

(١) أعظم خلفاء بنى العباس ، وأكبرهم شأنا ، كان محافظا كثير الجهاد وافر العطاء . توفى سنة ١٩٣ . (٢) تقدمت إليه : أمرته . (٣) اللاطئة : قلنسوة صغيرة تلزق بالرأس .

فقلتُ : هل لك فى الطعام ، فقال : لا حاجةَ لى فيه ، فقلت : هل لك فى الشراب ، فقال : ذلك إليك ، فشرِبتُ رطلًا وسقيتُه مثلَه ، فقال لى : يا أبا إسحاق ؛ هل لك أن تُغنى لنا شيئاً من صَنْعتك وما قد نَفَقْتَ(١) به عند الخاصّ والعامّ ؟ فغاظنى قولُه ، ثم سهّلتُ على نفسى أمرَه ، فأخذتُ العود فجسَسْتُهُ ثم ضربت فغنّيتُ ، فقال : أحسنت يا إبراهيم ! فازداد غيظى وقلت : مارضى بما فعله من دخوله علىّ بغير إذن واقتراحه أن أُغنّيه حتى سمّانى ولم يُكَنِّنِي ولم يُجمِل مخاطبتى ! ثم قال : هل لك أن تزيدنا ؟ فتَذَمَّمْتُ(٢) فأخذتُ العود فغنّيتُ ، فقال : أَجَدْتَ يا أبا إسحاق ! فأَتِمّ حتى نـكافِئَك ونُغنّيك ، فأخذت العود وتغنيت وتحفّظتُ وقمتُ بما غنيتهُ إياه قياماً تامًّا ما تحفّظت مثلَه ، ولا قمتُ بغناء كما قمتُ به له بين يدَىْ خليفة قطُّ ولا غيره ، لقوله لى : أكافئك ، فطرِب وقال : أحسنتَ ياسيّدى ، ثم قال : أتأذن لعبدك بالغناء ؟ فقلت : شأنَك ، واستضعفتُ عقلَه فى أن يغنيى بحضرتى بعد ماسمعه منى ، فأخذ العود وجسّه فوالله لَخِلْتُه ينطق بلسانٍ عربىٍ لِحُسْنِ ماسمعتُه من صوته ثم تَغَنّى :

ولى كَبِدٌ مقروحةٌ مَنْ يَبِيعُنِي ... بها كَبِداً ليستْ بذات قُرُوحِ
أباها علىّ الناسُ لايشترونهــا ... ومَنْ يشترى ذا عِلّةٍ بصحيحِ ؟
أَئِنُّ من الشوق الذى فى جوانبى ... أَنينَ غَصيصٍ بالشراب جَرِيحِ

قال إبراهيمُ : فوالله لقد ظننتُ الحيطانَ والأبوابَ وكلّ ما فى البيت يجيبه

---

(١) نفقت : يريد سار ذكرك به . (٢) تذمم الرجل : استنكف ، ويقال : لو لم أترك الـكذب تأثما لتركته تذمما .

ويُغَنّى معه من حُسن غنائه ، حتى خِلتُ واللهِ أنى أسمعُ أعضائى وثيابى تُجَاوِبه !
وبقيتُ مبهوتاً لا أستطيعُ الكلام ولا الجواب ولا الحركةَ لِمَا خالَطَ قلبى ،
ثم غنى :

ألا يا حماماتِ اللِّوَى عُدْنَ عَوْدَةً ... فإنى إلى أصواتكنّ حزينُ
فعُدْن فلما عُدْن كِدْن يُمِتْنَنى ... وكدتُ بأسرارى لهن أبين
دَعَوْن بتَرْدَاد الهَدير كأنما ... سُقِينَ حُمَيَّا أو بهنّ جُنُونُ
فلم ترَ عينى مثلهن حمائما ... بكَيْنَ ولم تَدْمَع لهن عيونُ

فكاد ، واللهِ أعلم ، عقلى أن يذهب طرباً وارتياحاً لما سمعتُ ، ثم غنّى :

ألا يا صَبا نجدٍ متى هِجْت من نجدِ ... لقد زادنى مَسْراك وَجْداً على وَجدِ
أأنْ هتفتْ وَرْقاءُ فى رَوْنق الضُّحا(١) ... على فَنَن غضّ النبات من الرَّنْد(٢)
بكيت كما يبكى الحزينُ صبابةً ... وذُبْتَ من الحزن المبرِّح والجهْد
وقد زعموا أن المحبّ إذا دنا ... يُمَلُّ وأنّ النأى يَشْفِى من الوَجْد
بكلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا ... على أنّ قرب الدار خيرٌ من البعد
على أنّ قرب الدار ليسَ بنافع ... إذا كان من تَهواه ليس بذِى عَهْد

ثم قال : يا إبراهيم ؛ هذا الغناء فخذه وانحُ نحوه فى غنائك وعلِّمه جَوارِيكَ ،
قلتُ : أعِدْه علىّ ، فقال : لستَ تحتاج ، قد أخذته وفرغتَ منه ، ثم غاب من
بين يدىّ فارتعتُ وقمت إلى السيف فجرّدته ، وعدتُ نحو أبواب الحرَم فوجدتُها
مُغلقةً ، فقلتُ للجوارى : أىّ شىء سمعتنّ عندى ؟ فقلن : سمِعنا أحسنَ غناء

---

(١) رونق الضحا : حسنه وإشراقه .   (٢) الرند : شجر طيب الرائحة .

سُمِعَ قَطّ ، فخرجتُ متحيّراً إلى باب الدار ، فوجدته مُغْلقاً ؛ فسألتُ البوّابَ عن الشيخ . فقال لى : أى شيخ هو؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد، فرجَعتُ لِأَتأمّل أمرى ، فإذا هوقد هَتف بى من بعض جوانب البيت: لا بأس عليك يا أبا إسحاق! أنا إبليس وأنا كنتُ جليسَك ونديمَك اليومَ ، فلا ترُعْ .

فركبت إلى الرشيد وقلت : لا أطرفه أبدا بطُرْفة مثل هذه ، فدخلتُ إليه فحدّثته بالحديثِ ، فقال : وَيْحك ! تأمّلْ هذه الأصواتَ ، هل أَخذتها ؟ فأخذت العود أمتحنها ، فإذا هى راسخة فى صدرى كأنها لم تزل ، فطرب الرشيد وجلس يشرب ولم يكن عزَم على الشراب ، وأمر لى بصلةٍ وحُمْلانٍ وقال : الشيخ كان أعلم بما قال لك من أنك أخذتها وفرغتَ منها ، فلَيته أمْتَعنا بنفسه يوماً واحداً كما أمْتعك !

١٣٤ — دعبل بن على ورجل من الجن*

قال دعبل[١] بن علىّ : لما هربتُ من الخليفة بتُّ ليلةً بنيسابور وحدى ، وعزمت على أن أعملَ قصيدة فى عبد الله بن طاهر فى تلك الليلة ؛ فإنى لفى ذلك ؛ إذ سمعتُ ـ والباب مرودٌ علىّ ـ من يقول : السلام عليكم ورحمة الله ، انجُ يرحمُك الله ، فاقشعرَّ بدنى من ذلك ، ونالنى أمرٌ عظيم ، فقال لى : لا ترُعْ ، عافاك الله ، فإنى رجل من إخوانك من الجن من ساكنى اليمن ، طرأ إلينا طارئٌ من أهل العراق ، فأنشدَنا قصيدتك :

مَدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ   ومنزل وحْى مُقْفِرِ العَرَصَاتِ

فأحببتُ أن أسمعها منك . قال : فأنشدته إياها ، فبكى حتى خرّ ، ثم قال : رَحِمَكَ الله ، ألا أحدِّثُك حديثاً يزيد فى نيّتك ، ويُعينك على التمسُّك بمذهبك ؟ قلت : بلى ، قال : مكثتُ حيناً أسْمع بذكر جعفر بن محمد ، فصرت إلى المدينة فسمعتُه يقول : حدثنى أبى عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « علىٌّ وشيعتُه هم الفائزون » ، ثم ودَّعنى لينصرف ، فقلت له : يرحمُك الله ، إن رأيت أن تخبرنى باسمك فافعل ، فقال : أنا ظبيان بن عامر !

---

* الأغانى : ٧ ـ ٣٩

(١) شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذى نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ، توفى سنة ٢٤٦ هـ .

الباب السادس

في القصص التي تسرد بارعَ الملح التي أُثرت عن الحمقى والمجانين، وتفصل روائع النوادر التي فاضت بها قرائح الطفيليين والمتنبئين، وما يشبه ذلك مما فيه راحة للنفوس، ونشاط للخواطر.

١٣٥ — أنفك منك وإن كان أجْدَع*

دفع الربيع بن كعب المازنى فرساً كان قد أبرّ(١) على الخيلِ كرماً وجودة إلى أخيه كَمِيش ليأتيَ به أهله ، وكان كميش مشهوراً بالحق ، وقد كان رجلٌ من بنى مالك يقال له : قُرَاد بنُ جرم ، قدم على أصحاب الفرس ؛ ليصيب منهم غِرّة فيأخذَها ، وكان داهية ؛ فمكث فيهم مقيما ؛ لا يعرفون نسبه ، ولا يظهره هو .

فلما نظر إلى كَميش راكبا الفرس ركب ناقته ، ثم عارَضَه(٢) ، فقال : يا كميش ؛ هل لك فى عانَةٍ(٣) لم أر مثلها سِمَناً ولا عِظَماً ، وعِيرٍ(٤) فيها الذهب ؛ فأما الأُتُن فتروح بها إلى أهلك ، فتملأ قدورهم وتُفْرح صدورهم ؛ وأما العِيرُ فلا افتقار بعده !

قال له كميش : وكيف لنا به ؟ قال : أنا لك به، وليس يُدْرَك إلا على فرسك هذا ، ولا يرى إلّا بلَيْل ، ولا يراه غيرى !

قال كَمِيش : فدُونَكه ! قال : نعم ، وأمْسِك أنت راحلتى .

فركب قراد الفرس ، وقال: انتظرنى فى هذا المكان إلى هذه الساعة من غد.

قال : نعم !

ومضى قراد ؛ فلما توارى أنشأ يقول :

ضَيَّعتَ فى العيرِ ضَلَالًا مُهْرَكا   لتطعمَ الحى جميعاً عِيرَكا

---

* مجمع الأمثال : ٢ — ٢٢٦

(١) أبر على أصحابه: علاهم . (٢) عارضه: سار حياله. (٣) العانة: القطيع من حمر الوحش .
(٤) العير : القافلة تحمل الميرة .

فسوف تأتى بالهوان أهْلَكا   وقبل هذا ما خدعتُ الأنْوَكا[1]

فلم يزل كيش ينتظر حتى أمْسى من غَـدِه وجاع . فلما لم يرَ له أثراً انصرف إلى أهله ، وقال فى نفسه : إن سألنى أخى عن الفرس ، قلت: تحوّلَ ناقةً !

فلما رآه الربيعُ عرف أنه خُدع عن الفرس ؛ فقال له : أين الفرس؟ قال: تحوّل ناقة ! قال : فما فعل السرج ؟ قال : لم أذْكُر السرج فأطلب له عِلّة !

فصرعه الربيع ليقتله ؛ فقال له قنفذ بن جَعْوَنة : الْهُ عما فاتك ، فإن أنفَكَ منك وإن كان أجْدَع[2] !

وقدم قراد بن جرم على أهله بالفرس ، وقال فى ذلك :

يؤمِّلُ عيراً من نُضارٍ وعَسْجَدٍ   فهل كان لى فى غـــير ذلك مطمع
وقلتُ له: أمْسِك قلوصى[3] ولا تَرِمْ[4]   خِداعاً له إذْ ذو المكايد يخْدَع
فأصْبح يَرْمى الخافقين بطَرْفِه   وأصبح تَحْتِى ذُو أفانين[5] جُرْشُع[6]

---

(١) أنوك : أحمق . (٢) صارت مثلا: يضرب لمن يلزمك خيره وشره ، وإن كان ليس بمستحكم القرب . (٣) القلوص من الإبل : الشابة . (٤) لاترم : لاتبرح . (٥) الأفانين : جمع أفنان ، وأفنان جمع فنن ، وهو الخصلة من الشعر ، يقول : إنه ذو خصل من الشعر فى ناصيته وذنبه (٦) الجرشع : العظيم من الخيل .

١٣٦ – أبو رافع لا يَـكْذِبُ فى نَوْمٍ ولا يَقَظةٍ*

حكى أن امرأة أبى رافع[1] رأته فى نومها بعد موْته، فقال لها: أتعرفين فلاناً الصَّيْرفىَّ[2]؟ قالت له: نعم، قال: فإن لى عليه مائتى دينار.

فلما انتبهت غدَتْ إلى الصَّيْرفى فأخبرته، وسألته عن المائتى الدينار! فقال: رحم الله أبا رافع، والله ما جرتْ بينى وبينه معاملة قط!

فأقبلتْ إلى مسجد المدينة فوجدتْ مشايخ من آل أبى رافع، كلهم مقبولُ القول، جائز الشهادة، فقصَّت عليهم الرؤْيا، وأخبرتْهم خبَرَهامع الصَّيرفى، وإنكاره لما ادّعاه أبو رافع.

قالوا: ماكان أبو رافع ليَكذبَ فى نوم ولا يقظة! قرِّبى صاحِبَك إلى السلطان، ونحن نشهدُ لك عليه.

فلما علم الصيرفى عزْمَ القوم على الشهادة لها! وعلم أنهم إن شهدوا عليهلم يبرح حتى يؤديَها، قال لهم: إن رأيتم أن تُصْلِحوا بينى وبين هذه المرأة على ماترونه فافعلوا، قالوا: نعم، والصلحُ خيرٌ، ونعمَ الصلح الشَّطْرُ، فأدِّ إليها مائة دينار من المائتين، فقال لهم: أفعل، ولكن اكْتبُوا بينى وبينها كتاباً يكون وثيقةً لى.

---

* العقد الفريد: ٤ ـ ٢٠٤

(١) أبو رافع: مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وآل أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم، مع بله فيهم وعى شديد. (٢) الصيرفى: صراف الدراهم.

قالوا : وكيف تكون هذه الوثيقة ؟ قال : تكتبون لى عليها أنها قَبَضَتْ منى مائة دينار صلحاً عن مائتى الدينار التى ادّعاها أبو رافع فى نومها، وأنها قد أبْرَأَتْنى منها، وشرطتْ على نفسها ألا ترى أبا رافع فى نومها مرةً أخرى ، فيدّعى علىّ بغير هذه المائتى الدينار ؛ فتجىء بفلان وفلان يَشْهَدَان علىّ لها . فلما سمعوا الوثيقة انْتَبه القوم لأنفسهم ، وقالوا : قبّحك الله ، وقبّح ما جئت به !

١٣٧ — أهلك أعلم بك ! *

كان لأبي الأسود[1] الدؤلى دُكان[2] إلى صدر الجبل يجلس فيه وحده ، ويضع بين يديه مائدةً ، ويدعو إليها كلَّ من يمر به ، وليس لأحد أن يجلس فينصرفون عنه .

فمرَّ به صبيٌّ من الأنصار ، فقال له أبو الأسود : هلمَّ إلى الغداء يا فتى ! فأتى إليه ، فلم يرَ موضعاً يجلسُ فيه ، فتناول المائدة فوضعها فى الأرض ؛ ثم قال : يا أبا الأسود ، إن كان لك فى الغداء حاجة فانزْل ، وأقبل الفتى يأكل ، حتى أتى على جميع ما فى المائدة ، وسقطت آخر الطعام من يده لقمةٌ على الأرض فأخذها ، وقال : لا أدَعُها للشياطين ! فقال أبو الأسود : والله ما تدعُها للملائكة المقرَّبين ، فكيف تدعها للشياطين ؟ ثم قال له : ما اسْمُك ؟ قال : لُقْمان . فقال أبو الأسود : أهلُك كانوا أعلم زمانهم إذ سمَّوْك بهذا الاسم ؛ ولم يَعْدُ إلى ما كان يصنع !

---

* ذيل زهر الآداب : ١٦٧

(١) هو: ظالم بن عمرو، وأبو الأسود كنيته، وكان قد أدرك حياة النبى، وسافر إلى البصرة على عهد عمر ، واستعمله على بن أبى طالب على البصرة وكان شيعيا ، وهو أول من وضع العربية ، توفى سنة ٦٩ هـ . (٢) الدكان : الدكة المبنية للجلوس عليها .

١٣٨ — المقادير تصيِّر العَيِيَّ خطيباً*

وُصف عند الحجاج(١) رجلٌ بالجهل ؛ وكانت له إليه حاجةٌ ، فقال فى نفسه : لأَخْتَبِرَنَّه ! ثم قال له حين دخل عليه : أعِصامىٌّ أنت أم عظامىٌّ(٢) ؟ فقال الرجل: أنا عِصامى وعظامى ، فقال الحجاج : هذا أفضلُ الناس ، وقضى حاجتَه وزاده ، ومكث عنده مُدَّة .

ثم باحَثَه فوجده أجهلَ الناس ، فقال له : تصدقنى وإلّا قتلْتُكَ ، قال له : قُلْ ما بَدَا لك وأصدقك ! قال : كيف أجبتنى بما أجبت لمَّا سألتُك عما سألتُ ؟ قال له : واللهِ لم أعلم : أعِصامى خيرٌ أم عظامى ! فخشيتُ أن أقول أحدهما فأخطىء فقلتُ : أقول كليهما ، فإن ضرَّنى أحدهما نفعنى الآخر ؛ فقال له الحجاج عند ذلك : المقاديرُ تصيِّرُ العَيِيَّ خطيباً !

---

* مجمع الأمثال : ٢ — ٢٦٠

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى : قائد خطيب ، ولد ونشأ فى الطائف وانتقل إلى الشام، وهو مشهور بشدته ، توفى سنة ٩٥ هـ . (٢) يريد : أشرفت بنفسك أم تفتخر بآبائك الذين صاروا عظاماً .

١٣٩ — لئن شكرتم لأزيدنّكم*

أخذ الحجّاج لِصًّا أعرابيًّا؛ فضرب به سبعمائة سوط، فكلما قرعه بسوط قال: اللّهم شكراً! فأتاه ابنُ عم له فقال: والله ما دعا الحجاجَ إلى التمادى فى ضَرْبِك إلا كثرةُ شُكْرِك، لأن الله تعالى يقول: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»؛ فقال: أهذا هو فى كتاب الله؟ فقال: اللهم نعم، فأنشأ الأعرابى يقول:

يا ربِّ لا شُكْرَ فلا تَزِدْنى   أسرفتُ فى شُكْرِك فاعفُ عنى
باعِدْ ثواب الشاكرين منّى

فبلغ قولُه الحجاج، فخلّى سبيله.

* عيون الأخبار: ٢ ـ ٥٧

١٤٠ — الحمد لله الذى مسخك كلباً*

كان لأبى حيَّة النُّمَيْرِى(١) سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرْق ، كان يسميه « لُعَابَ المنيَّة » ، فحكى عنه بعض جيرانه أنه قال : أشرفتُ عليه ليلة وقد انتضاه ؛ وهو واقفٌ بباب بيتٍ فى داره ، قد سمع فيه حِسًّا ، وهو يقول : أيها المغترُّ بنا ، المجترئُ علينا ، بئس والله ما اخترتَ لنفسك ! خيرٌ قليل ، وسيف صقيل « لعابُ المنيَّة » الذى سمعتَ به ، مشهورة صَوْلته ، لا تُخَافُ نبْوَتُه ، اخرُج بالعفو عنك ، لأُدْخِل العقوبة عليك ! إنى والله إنْ أدْعُ قيْساً تملأْ الفضاءعليك خَيْلاًورَجْلاً(٢) ، سبحان الله ! ما أكثرَها وأطيَبها ! والله ما أنتَ ببعيد من تابعها ، والرسوبِ فى تيَّار لُجَّتها .

وهبَّت ريح ففتحت الباب ، فخرج كلبٌ ، فاربَدَّ وجهُه ، وشَغَر(٣) برجليه ، وتبادَرتْ إليه نساء الحىّ فقلن : يأبا حيّة ، ليُفْرِخْ رَوْعُك(٤) إنما هو كلب ، فجلس وهو يقول : الحمد لله الذى مَسَخَكَ كلباً ، وكفانى حرباً .

---

* الأغانى : ١٥ — ٦١ ، ابن أبى الحديد : ٢ — ٤١

(١) هو الهيثم بن الربيع، شاعر مجيد من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية مدح خلفاء عصره فيهما، وكان فصيحاً راجزاً ، له أخبار وكانت به لوثة ، وكان من أجبن الخلق توفى نحو سنة ١٦٠ هـ .

(٢) الرجل: جمع راجل . وهو ضد الفارس . (٣) شغر: رفع إحدى رجليه. (٤) لينكشف عنك فزعك .

١٤١ — يوم الحساب !*

قال أحد الرواة :

كان فى زمنِ المهدى(١) رجل صُوفىّ ؛ يركب قَصبةً فى كل جمعة يومين : الاثنين والخميس ، فإذا ركب فى هذين اليومين فليس لمعلمٍ على صبيانه حُكم ولا طاعة ، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان .

شاهدتُه يوماً وقد صعد تلًّا ؛ فنادى بأعْلَى صَوْته : ما فعل النبيُّون والمرسلون؟ أليْسُوا فى أعلى علِّيين ؟ فقالوا : بلى ! قال : هاتوا أبا بكر الصديق ؛ فأُخِذ غلام فأُجْلِس بين يديه ، فقال : جزاك الله خيراً أبا بكرٍ عن الرعيَّة ، فقد عدَلْتَ وقُمْتَ بالقِسط ، وخلفت محمداً ـ عليه السلام ـ فى حُسْن الخلافة ، ووصلتَ حَبْل الدِّين بعد حَلٍّ وتنازعٍ ، وفرغتَ منه إلى أوثق عُروة وأحْسن ثقة ، اذهبوا به إلى أعْلى عِلِّيِّين !

ثم نادى : هاتوا عُمَر ، فأُجْلِس بين يديه غلام ، فقال : جزاك الله خيراً ياأبا حفص عن الإسلام ، قد فتحتَ الفتوح ، ووَسَّعْتَ الفَىْء ، وسَلَكْتَ سبيل الصالحين ، وعدلتَ فى الرعية ، اذهبوا به إلى أعْلَى عِلِّيِّين بحذاء أبى بكر .

---

* العقد الفريد : ٤ ـ ١٩٨

(١) محمد بن عبد الله من خلفاء الدولة العباسية فى العراق ، ولى بعد وفاة أبيه وقام فى الخلافة عشر سنين ومات سنة ١٦٩ هـ .

ثم قال : هاتوا عثمان ؛ فأُتِيَ بغلام فأُجْلِس بين يديه ، فقال له : خَلَطْتَ فى تلك السنين ، ولكنَّ الله تعالى يقول : « خَلَطُوا عَمَلًا صالحًا وآخرَ سيئًا عسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهمْ » . ثم قال : اذهبوا به إلى صاحبيه فى أعلى عِليين .

ثم نادى : هاتوا علىّ بن أبى طالب ، فأُجْلِس بين يديه غلام ؛ فقال له : جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن فأنت الوصىُّ ، وولىّ النبى ، بَسَطْتَ العدل ، وزهدت فى الدنيا ، واعتزلت الفَىْء ، فلم تَخْمش فيه بناب ولا ظفر ، وأنت أبُو الذُّرِّيَّةِ المباركة ، وزوج الزكية الطاهرة ، اذهبوا به إلى أعلى عِلّيين .

ثم قال : هاتوا معاوية ، فأُجْلِس بين يديه غلام ؛ فقال له : أنت القاتل عمار ابن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، وأنت الذى جعل الخلافةَ مُلْكًا ، واستأْثرَ بالفَىْء ، وحكم بالهوَى ، وبَطِرَ بالنعمة ، وأنت أولُ من غيّر سنّة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ونَقَضَ أحكامه ، وقام بالبغى ؛ اذهبوا به فأَوْقِفوه مع الظَّلَمَة .

ثم قال : هاتوا يزيد ؛ فأُجلس بين يديه غلام ؛ فقال له : أنت الذى قتلتَ أهْلَ الحرَّةِ[1] ، وأبَحْتَ المدينة ثلاثة أيام ، وانتهكتَ حُرَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآويت المُلْحِدِين ، وبُؤْتَ باللعنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمثلتَ بشعرِ الجاهلية :

لَيْتَ أشياخِى بِبَدرٍ شهِدوا ... جَزَعَ الخزرجِ[2] من وَقْعِ الأسَلْ[3]

---

(١) موضع بظاهر المدينة بها كانت وقعة الحرة أيام يزيد . (٢) الخزرج : إحدى قبيلتى الأنصار
(٣) الأسل : الرماح .

وقَتَلْتَ حُسَيْناً ، وحملت بناتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على حَقائب(١) الإبل ، اذهبوا به إلى الدَّرْكِ الأسفل من النار !

ولم يزل يذكر والياً بعد والٍ حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز ، فقال : هاتوا عمر ، فأُتِيَ بغلام ، فأجلس بين يديه ، فقال : جزاك الله خيراً عن الإسلام ؛ فقد أحييتَ العَدْل بعد موته ، وألَنْتَ القلوبَ القاسية ؛ وقام بك عمودُ الدِّين على ساق بعد شقاق ونِفَاق ، اذهبوا به فألْحِقُوه بالصديقين ، ثم ذكر مَنْ كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بنى العباس ، فسكتَ ، فقيل له : هذا أبو العباس أمير المؤمنين ، قال : فبلغ أمرنا إلى بنى العباس ! ارفعوا حساب هؤلاء جملة ، واقذفوا بهم فى النار جميعاً !

---

(١) الحقيبة : الرفادة فى مؤخر القتب ، وكل ما شد فى مؤخر رحل أو قتب فقد احتقب .

١٤٢ — إن أُعْطُوا منها رَضُوا*

ركب محمدُ بن سليمان(١) يوماً بالبَصرة وسَوّار القاضي يُسايره في جنازة ابن عم له، فاعترضه مجنونٌ يُعرف برأسِ النعجة، فقال له: يا محمد؛ أَمِنَ العَدْلِ أن تكون نِحلتُك(٢) في كلِّ يوم مائَة ألفِ درهم، وأنا أطلبُ نصف درهم فلا أقدرُ عليه؟

ثم التفت إلى سوّار فقال: إن كان هذا عَدْلا فأنا أكْفُرُ به؟ فأسرع إليه غلمانُ محمد؛ فكفّهم عنه، وأمر له بمائة درهم!

فلما انصرف محمد وسوّار معه اعترضه رأسُ النعجةِ فقال: لقد كرّم الله مَنْصِبك(٣)، وشرّف أبوّتك، وحسّن وجهك، وعظّم قدرك، وأرجو أن يكون ذلك لخير يريده اللهُ بك!

فدنا منه سوّار فقال: يا خبيث؛ ما كان هذا قولَك في البُدَاءةِ! فقال له: سألتُك بحقِّ الله وبحق الأمير إلا ما أخبرتَني في أي سورة هذه الآية: «فإن أُعْطوا منها رَضوا، وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطونَ»؟ قال: في «براءة». قال: صدَقْتَ؛ فبرئ اللهُ ورسوله منك! فضحك محمد بن سليمان حتى كاد يَسقطُ عن دَابّتِه!

---

* المسعودي: ٢ ـ ٢٦٣

(١) محمد بن سليمان بن علي العباسي: أمير البصرة، وليها في أيام المهدي. واستمر إلى أن توفي فيها، وكان غنياً نبيلا سمت نفسه إلى الخلافة؛ وصده عن الجهر بطلبها ما كانت عليه من القوة أيام المهدي والرشيد، توفي سنة ١٧٣ هـ. (٢) النحلة: العطية. (٣) المنصب: الأصل.

١٤٣ — ما أختار غيرَ عبد الله بن طاهر*

شكا اليزيدى[١] إلى المأمون خَلَّةً[٢] أصابته وَدَيْناً لحقه ، فقال : ما عندنا فى هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ما تُريد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الأمر قد ضاقَ علىّ ، وإن غُرَمائى قد أرْهَقونى ، قال : فَرُمْ لنفسك أمراً تنلْ به نَفعاً .

فقال : لك منادمون ، فيهم ما إن حرَّكتهُ نِلتُ منه ما أُحِبُّ ، فأطلِقْ لى الحيلةَ فيهم ، قال: قل ما بدَا لكَ ؛ قال : فإذا حضروا وحضرت فمُرْ فلاناً الخادم أن يوصّل إليك رُقعتى ، فإذا قرأتَها فأرْسل إلىّ : دخولُك فى هذا الوقت متعذّر ؛ ولكن اخْتَرْ لنفسك من أحْبَبْتَ .

فلما علم اليزيدى بجلوس المأمون ، واجتماع ندمائه إليه ، وتيقّن أنهم فى سرورهم أتى البابَ فدَفع إلى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها ، فأوصلها إلى المأمون فقرأها ، فإذا فيها :

يا خيرَ إخوانى وأصحابى   هذا الطُّفَيلىّ لدى البابِ
خُبِّرَ أن القومَ فى لذّةٍ   يَصبُو إليها كلُّ أوّابِ
فصيِّرُونى واحداً منكم   أو أخْرِجوا لى بعضَ أترابى

---

* عصر المأمون : ١ — ٣٣٣

(١) اليزيدى : يحيى بن المبارك بن المغيرة من علماء العربية والأدب ، اتصل بالرشيد فعهد إليه فى تأديب المأمون فعاش إلى أيام خلافته ، توفى سنة ٢٠٢ هـ . (٢) الخلة : الحاجة والفقر .

فقرأها المأمون على مَنْ حَضَره ؛ فقالوا : ما ينبغى أن يدخل هذا الطفيلى على مثلِ هذه الحالةِ ؛ فأَرْسل إليه المأمونُ : دخولُك فى هذا الوقت متعذّر ، فاختر لنفسك من أحببتَ تنادمه .

فقال : ما أرى اختياراً غير عبد الله بن طاهر ، فقال له المأمون : قد وقع اختيارُه عليك ؛ فسِرْ إليه . قال : يا أميرَ المؤمنين ، فما أكون شريك الطفيلىّ ! قال : ما يمكن ردّ أبى محمد عن أمرين ، فإن أحببتَ أن تخرجَ وإلا فافتدِ نفسك !

فقال : يا أميرَ المؤمنين ، له علىّ عشرةُ آلاف درهم ! قال : لا أحسب ذلك يُقْنِعُه منك ومن مُجالستك ، قال: فلم يزل يزيده عشرة عشرة ، والمأمونُ يقولُ له : لا أرْضَى له بذلك ، حتى بلغ مائة ألف ، فقال له المأمون : فَعجِّلها له ، فكتب له بها إلى وكيله ، ووجّه معه رسولًا فأرسل إليه المأمون : قبضُ هذه فى مثل هذه الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفعُ عاقبةً .

١٤٤ — أترى الله يُعطيك ويَنْسانى ؟*

خرج الرشيد إلى الحجّ فلمّا كان بظاهِرِ الكُوفة إذ أبصر بُهلولا(١) المجنون على قَصبةٍ، وخَلْفَه الصِّبْيان وهو يعْدو، فقال: مَنْ هذا ؟ فقيل له: بهلول المجْنون، فقال: كنت أشْتَهِى أن أراه، فادْعوه مِنْ غير ترْوِيع، فَذَهبُوا إليه وقالوا: أجِبْ أميرَ المؤمنين ؛ فلم يجب ، فذهب إليه الرّشيد ، وقال : السلام عليك يا بهْلول ، فقال : عليك السلام يا أمير المؤمنين ، فقال: دعَوْتُك لاشتياق إليك ، فقال بهلول: لكنّى لم أشتقْ إليك ! فقال الرشيد : عظْنى يا بهلول ، فقال . وبِمَ أعِظك ؟ هذى قصورُهم وهذى قبورُهم ! فقال الرشيد : زدنى فقد أحسنتَ ! فقال: يا أمير المؤمنين مَن رزقه اللهُ مالًا وجمالا، فعفّ فى جماله، وواسى فى ماله كُتب فى ديوان الأبْرار، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً ؛ فقال : قد أمرنا لك أن تَقضِى دَينَك ، فقال : لا ، يا أمير المؤمنين ، لا يُقضَى الدّيْن بدَين ، ارْدُدِ الحق على أهله ، واقْض دين نفسك من نَفْسِك ، قال : فإنا قد أمرنا أن يُجرى عليك . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أترى الله يُعطيك ويَنْسانى ! ثم ولّى هاربًا .

---

* عقلاء المجانين : ٦٩

(١) هو بهلول بن عمرو، كان من عقلاء المجانين ، ولد ونشأ بالكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه ، وله كلام مليح ، ونوادر وأشعار ، توفى سنة ١٩٠هـ .

١٤٥ — طُفَيلى فى حضرة المأمون*

أمر المأمونُ أن يُحمل إليه عشرة من الزنادقة سُمُّوا له من أهل البصرة ، فجُمعوا فأبصرهم طُفَيْلِيّ فقال : ما اجتمعوا إلا لِصَنِيعٍ ، فدخل فى وسطهم ، ومضى بهم الموكلون ، حتى انتهوا إلى زَوْرَقٍ قد أُعِدّ لهم ، قال الطُّفيلى : هى نزهةٌ ، فدخل معهم الزورق ، فلم يكن بأَسْرَع من أن يقيّدوا ، وقيِّدَ معهم الطفيلى .

ثم سِيرَ بهم إلى بغداد ، فأُدْخلوا على المأمون ، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلا رجلًا ، ويأمر بضَرْب أعناقهم ، حتى وصل إلى الطفيلى ، وقد استَوْفى العِدّة ، فقال للموكّلِين : ماهذا؟ قالوا : والله ما ندرى ، غير أنّا وجدناه مع القوم، فجئنا به. فقال له المأمون : ما قِصّتُك ويلك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لاأعرفُ من أقاويلهم شيئاً ، وإنما أنا رجلٌ طفيلى ، رأيتُهم مجتمعين ، فظننتُ صَنِيعاً يُدْعَون إليه . فضحك المأمون ، وقال : يؤدّب !

وكان إبراهيم بن المهدى قائماً على رأس المأمون ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هبْ لى أدبَه ، وأحدّثك بحديثٍ عجيب عن نفسى ، قال : قل يا إبراهيم .

قال : يا أمير المؤمنين ، خرجْتُ من عندك يوماً ؛ فطُفْتُ فى سِكَك بغداد متطرّفاً ، حتى انتهيت إلى موضع كذا ، فشممت من قُتَارِ(١) أبازِير قُدورٍ

---

* العقد الفريد : ٤ — ٢٣٧ ، نهاية الأرب : ٣ — ٣٣٢

(١) القتار : ريح القدر والشواء ، والأبازير: التوابل .

قدْ فاح ؛ فتاقَتْ نفسى إليها ، وإلى طيب ريحها ، فوقَفْتُ إلى خيّاط ، فقلت له : لِمَنْ هذه الدار ؟ فقال : لرجل من التجار . قلت : ما اسمه ؟ قال : فلان ابن فلان ، فرميتُ بطرْفى إلى الدار ؛ فإذا شُبّاك به جارية ذات منظر حسن ، فبُهِتّ ساعة ثم أدركنى ذِهْنى ، فقلت للخياط : أهو ممن يشرب النبيذ ؟ قال : نعم ، وأحسب أنّ عنده اليوم دعوة ، وهو لا يُنادم إلا تُجّاراً مثله مَسْتورين .

فإنى لكذلك ، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدّرْب ، فقال لى الخياط : هؤلاء مُنادماه ، فقلت : ما اسماهما وما كُناهما ؟ فقال : فلان وفلان ، فحرّكتُ دابّتى وداخلتهما ، وقلت : جُعِلْتُ فِداكما ، قد استَبْطأكُما أبو فلان ، وسايرتُهما حتى بلغنا الباب ، فأجلّانى وقدّمانى ؛ فدخلتُ ودخلا .

فلما رآنى صاحب المنزل معهما لم يشكّ أنى منهما ؛ فرَحَّبَ بى وأجلسنى فى أفضلِ المواضع ، فجِئ يا أمير المؤمنين بمائدةٍ عليها خبزٌ نظيف ، وأُتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أطيبَ من رِيحها ، ثم رُفع الطعام ، وجِئ بالوضوء ، ثم صِرْنا إلى مجلس المنادمة ، وجعل صاحب المنزل يلطفُ بى ؛ ويميلُ علىّ بالحديث ؛ حتى إذا شَرِبنا أقداحاً خرجتْ علينا جارية ، كأنها بَدْر فأقبلتْ ؛ وسلّمتْ غير خَجِلة ، وثنيت لها وِسادة ، فجلستْ عليها ؛ وأُتى بالعود فوُضِع فى حِجْرِها ؛ فجسّته فاستَبَنْتُ حِذْقها فى جَسّها ؛ ثم اندفعت تُغَنّى :

توهّمَها طَرْفِى فأصبح خَدُّها ... وفيه مكان الوَهْم من نظرى أثرْ
تصافِحُها كَفّى فتؤْلِمُ كَفَّها ... فمِنْ مَسّ كَفّى فى أناملها عقرْ [1]

---

(١) العقر : الجرح .

فهيَّجتْ يا أمير المؤمنين بَلَابِلِي ، وطَرِبتُ لِحُسْنِ شِعْرها ، ثم اندفعَت تغنى :

أشرتُ إليها هل عرفتِ مودّتى ؟ فردّتْ بطَرْفِ العين: إنى على العَهْدِ
فَحِدتُ عن الإظْهَارِ عَمْداً لسِرِّها وحادَتْ عن الإظهار أيضاً على عَمْدِ

فصحتُ يا أمير المؤمنين ، وجاءنى من الطرب ما لم أملِكْ نَفْسِى معه ، ثم اندفعتْ فغنّت الصوت الثالث :

أليس عجيباً أنّ بيتاً يَضُمُّنِي وإياكِ لا نخلو ولا نتكَلّمُ !
سِوَى أعْينٍ تشكو الهوى بجفونها وتقطِيعِ أكبادٍ على النارِ تضْرَمُ
إشارة أفواهٍ وغَمْزِ حَوَاجبٍ وتكسير أجفَانٍ وكفّ تُسَلّمُ

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حِذْقِها ومعرفتها بالغناء ، وإصابتها لمعنى الشعر ، فقلت : بَقِيَ عليك يا جارية ، فضربتْ بالعود على الأرض ، وقالت : متى كنتم تُحْضِرون مجالسكم البُغَضاء ؟ فندمتُ على ما كان منِّى ، ورأيت القوم قد تغيّروا لى ، فقلت : أما عندكم عودٌ غير هذا ؟ قالوا : بلى ، فأتيتُ بعود فأصلحتُ من شأنه ثم غنّيت :

ما لِلْمَنَازِلِ لَا يُجِبنَ حَزِيناً أصممنَ أم قدُمَ البِلَى فَبلينا ؟
راحُوا العَشِيّةَ رَوْحَةً منكورة إن مُتنَ مُتْنا أو حَيِينَ حَيِينا

فما استَتْمَمْتُهُ يا أمير المؤمنين حتى قامتِ الجارية ، فأكبّت على رِجْلَيّ تقبّلهما ، وقالت : مَعْذِرةً يا سيدى ، فوالله ما سمعتُ أحداً يغنّى هذا الصوت غِناءَك ، وفعل

مولاها وأهل المجلس كفعلها ، وطرب القومُ واستحثوا الشُّرْب فشربوا ، ثم اندفعتُ أُغنِّي :

أفي الحقِّ أن تُمشى ولا تَذْكُرَنَّني وقد هَمَعَتْ عيناى من ذكرها الدَّما
إلى اللهِ أشكو بُخْلَها وسَماحَتِي لهـا عَسَلٌ منى وتبـذلُ عَلْقَمَا
فَرُدِّى مصابَ القلبِ أنتِ قتلتِه ولا تتركيه ذاهلَ العقـلِ مُغْرمَا

فطَرِب القومُ حتى خَرَجُوا من عقولهم ، فأمسكتُ عنهم ساعةً حتى تراجعوا ، ثم غنيت الثالث :

هـذا مُحِبُّك مطوِيًّا على كَمَدِهْ عبرى مدامعُه تجْرِى على جسدهْ
له يدٌ تسـأل الرحمنَ راحتَـه مما به وَيدٌ أُخْرَى على كَبِدِهْ

فجعلت الجاريةُ تصيـحُ : هذا الغناء والله يا سيدى ، لا ما كُنّا فيه منذ اليوم .

وقال صاحب المنزل: ياسيدى ؛ ذهبَ ما مضى من أيَّامى ضَيَاعاً، إذ كنتُ لا أعرفك، فمن أنت ؟ ولم يزل يُلِحُّ علىَّ حتى أخبرته الخبرَ ، فقام وقبَّل رأسى ، وقال : وأنا أعجبُ أن يكون هـذا الأدب إلا لملك ! وإنى جالس مع الخليفة ولا أشعرُ ، ثم سألنى عن قِصَّتى ، فأخبرته حتى بلغت إلى تلك الجارية التى رأيتها ، فقال للجارية : قومى فقولى لفُلانة : تنزل ، فلم تَزل تنزل جواريه واحدةً واحدة ، فأنظر إلى كفِّها ومعصمها ، وأقول : ليست هـذه ! حتى قال : والله ما بقى غير أختى وأمى ، والله لأنزلنَّهما ؛ فعجبتُ من سَعَةِ صدره ، فقلت : جُعلتُ فداكَ ! ابدَأْ بالأخت قبـل الأم ، فعسى أن تكون هى .

فبرزت ، فلما رأيت كفَّها ومِعْصَمها ، قلت : هذه هى ! فأمر غِلمانَه ، فساروا إلى عشرة مشايخ من جلّةِ جيرانه ؛ فأقبل بهم، وأمر بِبَدْرتين فيهما عشرون ألف درهم ؛ ثم قال للمشايخ : هذه أُخْتى فلانة،أشهدكم أنى قد زوجتُها من سيدى إبراهيم ابن المهدى ؛ وأمْهرتُها عنه عشرين ألف درهم، فرضيت وقبلت الزواج ، فَدَفع إليها بَدْرة ، وفرّق الأخرى على المشايخ وصَرفَهم ، ثم قال : يا سيدى ، أُمهِّد بعض البيوت ! فأخْشَمَنِي ما رأيت من كرمه ، فقلت : أُحْضِرُ عَمارِيّةً(١) وأحملها إلى منزلى . فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتْبَعَها من الجهاز ماضاقَتْ عنه بيوتُنا ، فأولَدْتُها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين – يشير إلى ولده .

فعجب المأمون من كرم الرجل ، وألحقه فى خاصة أهله ، وأطلق الطفيلى ، وأجازه .

---

(١) العمارية : هودج يجلس فيه .

١٤٦ — أنا أوَّلُ مَنْ آمن بك*

تنبّأ رجلٌ فى أيام المأمون ، وادّعى أنه إبراهيمُ الخليلُ ، فقال له المأمون : إن إبراهيمَ كانت له معجزات وبراهينُ . قال: وما بَراهينُه ؟ قال : أُضرِمتْ له نارٌ ، وأُلقِىَ فيها ؛ فصارتْ عليه برداً وسلاماً ، ونحن نُوقِدُ لك ناراً ، ونطرحُك فيها ، فإن كانتْ عليك كما كانت عليه آمنّا بك . قال : أُريدُ واحدة أخفَّ من هذه ! قال : فبراهين موسى ! قال : وما براهينُه ؟ قال : ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى ! وضربَ البحر بها فانفَلق ! وأدخلَ يده فى جيبه فأخرجها بيْضَاء ، قال : وهذه علىّ أصعبُ من الأولى ! قال : فبراهينُ عيسى ، قال : وما هى ؟ قال : إحياء الموتى ! قال : مكانكَ قد وصلت ! أنا أضربُ رقبة القاضى يحيى بن أكثم ، وأحييه لكم الساعة !

فقال يحيى : أنا أوَّل من آمنَ بكَ وصدّق !

---

* المستطرف : ٢ — ٢٤٣

١٤٧ — أبو دُلَف وجُعَيْفِرَان الموسوس*

قال علىّ بن يوسف : كنتُ عنـد أبى دُلَفٍ(١) القاسم بن عيسى العجـلىّ ، فاستأذَنَ عليه حاجبُه لُجعيفِران(٢) الموسوس ، فقال له : أى شىء أصنع بموسوس؟ قد قضينا حقوقَ العقلاء ، وبقى علينا حقوقُ المجانين ! فقلت له : جُعِلتُ فداء الأمير ، موسوس أفضلُ من كثيرٍ من العقلاء،وإن له لساناً يُتّقَى ، وقولًا مأثوراً يَبْقَى . فاللهَ اللهَ أن تَحْجُبَهُ ! فليس عليك منه أذى ولا ثقل ! فأذِنَ له . فلما مَثَلَ بين يديه قال :

يا أكرمَ العالَمِ مَوْجوداً ... ويا أعزَّ النـاس مفقوداً
لما سألتُ الناسَ عن واحدٍ ... أصبح فى الأُمَّـةِ محموداً
قالوا جميعاً : إنه قاسـمٌ ... أشْبَهَ آباءً له صِيـدًا(٣)
لو عَبَدُوا شيئاً سِوَى ربِّهِمْ ... أصبحتَ فى الأمَّةِ معبودًا
لا زلتَ فى نُعمى وفى غِبْطَةٍ ... مُكَرَّماً فى الناس مَعْدُودًا

فأمر له بِكُسْوَة وبألف درهم، فلما جِىء بالدراهم أخذ منها عشرة وقال : تأمر القَهْرَمان(٤) أن يُعطِينى الباقى مُفَرَّقاً كما جئتُ ؛ لئلا تضيعَ منى ، فقال للقهرمان:

---

* الأغاني: ٨ ـ ٦٤

(١) أبو دلف : هو أحـد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده ، كان كريما سرياً جواداً ممدحاً شجاعاً . مقداماً ذا وقائع مشهورة ، وصنائع مأثورة، وله مشاركة فى الغناء، توفى سنة ٢٢٦ هـ .

(٢) ولد جعيفران ببغداد ونشأ بها، ثم سكن سر من رأى،وكان أديباً شاعراً مطبوعاً، وغلبت عليه المرة السوداء فاختلط فى أوقاته ، ثم كان إذا أفاق ثاب إليه عقله وطبعه فقال الشعر الجيد .

(٣) الأصيد : الملك ، ورافع رأسه كبراً . (٤) القهرمان : هو المسيطر الحفيظ على ماتحت يده ، وهو من أمناء الملك وخاصته .

أعطِه المال ، وكلما جاءك فأعْطِه ما شاء حتى يفرِّق الموت بيننا ، فبكى عند ذلك جُعيفران وتنفس الصُّعَدَاء وقال :

يَمُوتُ هـــذا الذى أَرَاهُ وكل شىء له نفـــادُ
لو غيرَ ذى العرش دام شىءٌ لدام ذَا المُفضِـــلُ الجوادُ

ثم خرج . فقال أبو دُلَف : أنت كنتَ أعلم به منى .

قال ؛ وغَبرَ[١] عنى مدة ثم لقينى ، وقال : يا أبا الحسن ؛ ما فعــلَ أميرُنا وسيدنا ؟ وكيف حالُه ؟ فقلت : بخير وعلى غاية الشوق إليك . فقال : أنا والله يا أخى أشوق . ولـكنى أعرفُ أهلَ العسكر وشرَهُهم وإلحاحهم ؛ والله ما أراهم يتركونه من المسأله ولا يتركُه كرمُه أن يخلِّيهم من العطية حتى يخرجَ فقيراً . قلت : دع هذا عنك وزُرْه؛فإن كثرة السؤال لاتضرُّ بماله . فقال : وكيف ؟ أهو أيسر من الخليفة؟ قلت : لا . قال: والله لو تبذَّل[٢] لهم الخليفة كما يتبذَّل أبو دلَف وأطمعَهم فى ماله كما يُطْمِعُهم لأفقَروه فى يومين، ولـكن اسمعْ ما قلته فى وقتى هذا. قلت : هاته يا أبا الفضل ! فأنشأ يقول :

أبا حسَنٍ بَلِّغَنْ قاسماً بأنى لم أجْفُه عن قِلَا[٣]
ولا عن مَلَالٍ لإتيــانِهِ ولا عن صدود ولا عن عنَا
ولـكن تعَفَّفتُ عن ماله وأصْفَيْتُه[٤] مِدْحتى والثَّنا
أبو دلف سيدٌ ماجــدٌ سنِىُّ العطيَّةِ رحبُ الفِنــا

---

(١) غبر : مكث وذهب ، ضد . (٢) الابتذال : ضد الصيانة . (٣) القلا : البغض .
(٤) أصفيته مدحتى : أخلصتها له .

كريم إذا آنتابَهُ المعتَفُو ... ن عمَّهُم بجزيلِ الحِبَا[1]

قال : فأ بلغتها أبا دلف ، وحدّثته بالحديث الذى جرى . فقال لى : قد لقيتُه منذ أيام ، فلما رأيته وقفتُ له وسلّمت عليه وتحفّيْتُ[2] به ؛ فقال لى : سِرْ أيُّها الأمير على بركة الله ، ثم قال لى :

يامعدىَ الجود على الأموال ... ويا كريمَ النفس فى الفعال

قد صُنْتَنِى عن ذِلَّةِ السؤال ... بجودِكَ المُوفى على الآمالِ

صانكَ ذُو العزةِ والجلالِ ... من غِيَرِ الأيام واللّيالِي

قال : ولم يزل يختلفُ إلى أبى دُلَف ويَبَرّه حتى افترقا .

---

(١) الحباء : العطاء . (٢) تحفى به : بالغ فى إكرامه .

١٤٨ — رميتَ به فى بطنك*

قال دِعْبِل[١] : أقمنا يوماً عند سَهْل بن هارون ، فأطلْنا الحديث حتى اضطرّه الجوعُ إلى أن دَعا بغدائه ، فأُتِىَ بصَفْحَةٍ عَدْمُلِيَّةٍ[٢] ، فيها مَرَقُ لحمِ ديكٍ عاسٍ[٣] هرِم ، ليس قبلها ولا بعدها غيرُها ، لا تَحُزُّ[٤] فيه السكين ، ولا تؤثّرُ فيه الأضْرَاس .

فاطّلع فى القَصْعَةِ ، وقلب بصره فيها ؛ فأخذ قطعة خُبْزٍ يابس ؛ فقلَب بها جميعَ مافى الصَّفْحَةِ ففَقَدَ الرأس ؛ فبقى مُطرِقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغُلام ، وقال : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولِمَ ؟ قال : ما ظننتُ أنك تأكلُه ، ولا تسألُ عنه ! قال : ولأى شىء ظننتَ ذلك؟ فوالله إنى لأمقتُ من يَرْمِى برِجْله ؛ فكيف من يرْمى برأسه !

والرأس رئيس ، وفيه الحواسُّ الخمس ، ومنه يصيحُ الديك ، ولولا صوته ما أُرِيدَ ، وفيه عُرْفُه الذى يُتَبَرَّكُ به ، وفيه عينُه التى يُضْرَبُ بها المثل ؛ فيقال : « شرابٌ كَعَيْنِ الدِّيك » ، ودماغه عجبٌ لوجع الـكُلْيَةِ ، ولن ترى عظماً قط أهشَّ من عظم رأسه ؛ فإن كان من نُبلِ أنك لا تأكلُه فإن عندنا من يأكله ! أو ما علمت أنه خيرٌ من طَرَف الجناح ومن الساق والعُنُق !

انظر أين هو ! قال : والله ما أدرى أين هو ، رميتُ به ؛ قال : لـكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، والله حسبُك !

---

* عيون الأخبار : ٣ ـ ٢٥٩

(١) كان شاعراً مجيداً ، إلا أنه كان بذىء اللسان أولع بالهجو والحط من أقدار الناس ، كان بينه وبين الـكميت بن زيد وأبى سعد المخزومى مناقضات، ومات سنة ٢٤٦ هـ . (٢) عدملية: قديمة . (٣) العاسى : الذى أسن حتى جفَّ وصلب . (٤) لاتحز : لا تقطع .

١٤٩ — لو علِمْتُ بحالِه لوَلَجْتُ عليه !*

قال بشرُ بن سعيد : كان بالبصرة شيخٌ من بنى نَهْشل نزل بينى أخت له فى سكّة بنى مازن ، فخرج رجالُهم إلى ضياعهم ، وذلك فى شهر رمضان ، وبقِيَتِ النساء يصلِّين فى المسجد ، فلم يبقَ فى الدار إلا كلب يَعُس(١) ، فرأى بيتاً فدخل وانْصَفَق(٢) الباب ، فسمِع الحركةَ بعضُ الإماء ، فظنوا أن لصًّا دخل الدار .

فذهبتْ إحداهن إلى الشيخ ، وليس فى الحىّ رجلٌ غيره فأخْبرته فقال : ما يبتغى اللصُّ منَّا ؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتَّى وقف على باب البيت فقال : إيهِ يامَلأْمان(٣) ! أما والله إنك بى لعَارِف ، وإنى بك أيضا لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بنى مازن ، شربتَ حامضاً خبيثاً ، حتى إذا دَارت الأقداحُ فى رأسك منّتْك نفسُك الأمانى ، وقلت : أطرُقُ بنى عمرو ، والرجالُ خلوف ، والنساء يصلينَ فى مسجدهن ، فأسرقهم ، سوءةً لك ! والله ما يفعل هـذا الأحرار ! ليس والله ما منَّتْك نفسك ، فاخرُجْ وإلا دخلتُ عليـــك فصدَمَتْك منى العقوبة ، وايمُ الله لتخرجَنَّ أو لأهتِفَن هَتْفَةً مشئومة يلتقى فيها الحيَّان : عمرو وحَنْظلَة ، ويجىء سعدٌ بِعَدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هاهنا ومن هاهنا ، ولئن فعلتُ لتكونَنَّ أشأمَ مولود .

---

* عيون الأخبار : ١ — ١٦٧ ، الحيوان : ٢ — ٨٤

(١) كلب عسوس : طلوب لما يأكل . (٢) انصفق : أغلق . (٣) الملأمان : اللئيم .

فلما رأى أنه لا يجيبهُ أخذه باللين ، وقال : اخرج بأبى وأمى ! إنى والله ما أراك تعرفنى ، ولو عرفتَنى لقنعت بقولى واطمأْنَنْتَ إلىّ ! أنا عروة بن مرثد ؛ أبو الأغرّ ، وأنا خالُ القوم ، وجِلْدةُ ما بين أعينهم ، لا يعصوننى فى أمر، وأنا لك بالذمّة(١) كفيلٌ خفير ، أُصَيِّرُك بين شَحْمَةِ أذنى وعاتِقِى ، لا تُضَارُّ ؛ فاخرج فأنت فى ذمتى ، وإلا فإن عندى قَوْصَرَّتين أهداهما إلىّ ابن أختى البارُّ الوصول ، فخذ إحداهما فانتبذْها حلالًا من الله تعالى ورسوله !

وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطْرَقَ ، وإذا سكت وثب يريد المخرج ؛ فتضاحك أبو الأغرّ ، ثم قال : يا ألأمَ الناس وأوْضعهم ؛ لا أرى إلَّا أنى الليلة فى وَادٍ وأنت فى آخر ، إذا قلت لك : السوداء والبيضاء تَسْكُتُ وتُطْرِق ، فإذا سكتَ عنك تريدُ المَخْرَج ، والله لتخرجنَّ بالعفو عنك ، أو لأَلِجَنَّ(٢) عليك البيت بالعقوبة ؛ فلما طال وقوفُه جاءت جاريةٌ من إماء الحى ، فقالت : أعرابى مجنون والله ! ما أرى فى البيت شيئًا ، ودفعت الباب فخرج الكلب شدًّا ، وحادَ عنه أبو الأغرّ ، ساقطًا على قفاه ! ثم قال: أما والله لو علمت بحاله لَوَلجتُ عليه !

---

(١) الذمة : العهد والأمان . (٢) ولج الباب : دخل .

١٥٠ — وعلىّ أيضا !*

قال أبو الحسن : كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كَثُر عليه الدَّيْن حتى تَوَارى من غُرَمَائِه ، ولزِمَ منزله ، فأتاه غريمٌ عليه شىء يسيرٌ فتَلَطَّفَ حتى وصل إليه ، فقال له : ما تجعلُ لى إن أنا دَلَلْتُك على حيلةٍ تصيرُ بها إلى الظهور والسلامة من غُرمائك ؟ قال : أقضيك حقَّك وأزيدُك مما عندى مما تَقَر به عينك . فتوثَّق منه بالأيمان ، فقال له : غداً قبل الصلاة مُرْ خادمك يكْنُس بابَك وفناءك ، ويرش ويبسط على دكانك حُصراً ، ويضع لك مُتَّكأً ، ثم اجلس وكلُّ من يمرُّ عليك ويسلم تَنْبَح له فى وجهه ، ولا تزيدنَّ على النُّباح أحداً كائناً من كان ، ولو كلمك أحد مِنْ أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره ، حتى تصير إلى الوالى ، فإذا كلمك فانبح له ؛ وإياك أن تزيده أو غيره على النُّباح ، فإنَّ الوالى إذا أيقن أنَّ ذلك منك جدٌّ لم يشك أنه قد عرَض لك عارضٌ من مسٍّ فيُخلى عنك .

ففعل ، فمرَّ به بعضُ جيرانه فسلم عليه ؛ فنَبح فى وجهه ؛ ثم مر آخر ففعل مثلَ ذلك حتى تسامع غُرَماؤه ؛ فأتاه بعضهم فسلم عليه فلم يزِدْه على النّباح ، ثم آخر وآخر ؛ فتعلقُوا به فرفعوه إلى الوالى ؛ فسأله الوالى فلم يزده على النُّباح ، فرفعه معهم إلى القاضى فلم يزده على ذلك ؛ فأمر بحَبْسه أياماً ، وجعل عليه العيون . فملك نفسَه ، وجعل لا ينطقُ بحرف سوى النُّباح .

---

* الحيوان : ٢ ـ ٦٢

فلما رأى القاضى ذلك أمر بإخْرَاجه ، ووضع عليه العيونَ فى منزله ، وجعل لا ينْطِق بحرف إلا النباح ، فلما تقرّر ذلك عند القاضى أمر غرماءه بالكف عنه ، وقال : هذا رجل به لَمم ؛ فمكثَ ما شاء الله تعالى .

ثم إن غريمَه الذى كان علّمه الحيلةَ أتاه متقاضياً لِعِدَته ، فلما كلمه جعل لا يزيدُه على النباح ! فقال له : ويلك يا فلان ! وعلىَّ أيضاً ! وأنا علمتك هذه الحيلة ! فجعل لا يزيده على النباح ، فلما يئس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به .

١٥١ — كَذِبٌ بكَذِب !*

قال الجاحظ(١) : حدثنى محمد بن يَسِير(٢) عن والٍ كان بفارس قال : بينا هو يوماً فى مجلس ، وهو مشغولٌ بحسابه وأمْره ، وقد احتجب جُهده(٣) ، إذ نجَمَ(٤) شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدَحه فيه وقرّظه(٥) ومجده . فلما فرغ قال : قد أحسنتَ ، ثم أقبل على كاتبه فقال: أعْطِه عشرة آلاف درهم ؛ ففرح الشاعر فرحاً قد يُسْتَطار(٦) له .

فلما رأى حاله قال : وإنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع . اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلْدِه ! فلما رأى فرحَه قد تضاعف قال : وإن فرحَك ليتَضاعف على قدْر تضاعفِ القول ! أعطِه يا فلان أربعين ألفاً. فكاد الفرحُ يقتله . فلما رجعتْ إليه نفسه قال له : أنتَ - جعلتُ فِداك - رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلّما رأيتنى قد ازددتُ فرحاً زدْتنى فى الجائزة . وقبولُ هذا منك لا يكون إلّا من قلّة الشكر له ! ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبُه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرْضَى منك بأربعين درهما ، تأمُر له بأربعين ألف درهم ! قال : وَيْلكَ ! وتريدُ أن تعطيه شيئاً ؟ قال :

---

* البخلاء : ١ - ٥٩ (طبعة دار الكتب) .

(١) عمرو بن بحر، ولد بالبصرة، كتبه أشهر من أن تحصى، توفى سنة ٢٥٥ هـ. (٢) شاعر بصرى. (٣) أى احتجب عن الناس ما أمكنه الاحتجاب . (٤) نجم: ظهر. (٥) قرظه: مدحه. (٦) يستطار له: يذعر منه .

ومِنْ إنفاذ أمرك بدّ ؟ قال : يا أحمق ؛ إنما هـذا رجل سرّنا بكلام وسَرَرْناه بكلام ؛ هو حين زعم أنى أحسنُ من القمر ، وأشدُّ من الأسد ، وأن لسانى أقطعُ من السيف ، وأنّ أمرى أنفذُ من السِّنَان ، جعل فى يدى من هذا شيئاً أرجع به إلى شىء ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولـكنه قد سرّنا حين كذب لنا . فنحنُ أيضاً نسرّه بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذباً ؛ فيكون كذبٌ بكذب ، وقولٌ بقول . فأما أن يكون كذبٌ بصـدق ، وقولٌ بفعل ، فهـذا هو الخسران الذى ماسمعتُ به !

١٥٢ — ذهب الحمارُ بأمّ عمرو*

قال الجاحظ : دخلت يوماً مدينةً ، فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلّمتُ عليه ، فردّ علىّ أحسنَ رد ، ورحّب بى ، فجلست عنده ، وباحثتُه فى القرآن ؛ فإذا هو ماهرٌ فيه، ثم تفاتحنا الفقه والنحو وأشعار العرب ؛ فإذا هو كامل الآداب ؛ فقلت : سأختلفُ إليه وأزورُه .

وجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكُتّاب(١) مُغلَق ، ولم أجده ؛ فسألتُ عنه ، فقيل : مات له ميتٌ ؛ فحزِن عليه ، وجلس فى بيته للعزاء .

فذهبتُ إلى بيته ، وطرقتُ الباب ، فخرجتْ إلىّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيِّدَكِ . فدخلَتْ وخرجتْ ، وقالت : باسم الله ؛ فدخلت إليه ، وإذا به جالس . فقلت : عظَّم اللهُ أجرك ؛ لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنة . كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت ؛ فعليك بالصبر .

ثم قلت له : هذا الذى تُوفّى ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : فمَنْ هو ؟ قال : حبيبتى . فقلت فى نفسى : هذه أولى العجائب . فقلت : سبحان الله ! النساء كثير وستجد غيرها . فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : وهذه الثانية .

---

* المستطرف : ١ ـ ٢٤٢

(١) المكتب والكتاب : موضع التعليم .

ثم قلت : وكيف عشقتَ من لم تر ؟ فقال : اعلم أنى كنت جالساً فى هـذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق[1] ، إذ رأيت رجلًا عليه بُرْد ، وهو يقول :

يا أمَّ عمرٍو جزاكِ الله مكرمةً   رُدِّى عَلَىَّ فؤادى أينما كانا

فقلت فى نفسى : لولا أن أمّ عمرو هذه ما فى الدنيا أحسنُ منها ماقيل فيها هذا الشعر ؛ فعشِقْتُها .

فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرٍو   فلا رجعتْ ولا رَجَع الحِمَارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقتُ المكتَب ، وجلست فى الدار !

فقلت : يا هـذا ؛ إنى كنت قد ألَّفت كتـابًا فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنتُ حين صاحبتُك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قوّيتَ عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ بك إن شاء الله .

---

(١) الطاق : ماعقد من الأبنية .

١٥٢ — أعجب ما رأيت من المجانين*

حدث المبرد[١] قال: قال لى المازنى: بلغنى أنك تنصرف من مجلسنا إلى مواضع المجانين والمعالجين[٢] فما معنى ذلك؟ فقلت: أعزّك الله تعالى؛ إن لهم طرائف من الكلام! قال: فأخبرنى بأعجب ما رأيت من المجانين! فقلت: صرتُ يوماً إليهم فمررت على شيخٍ منهم، وهو جالس على حصير قصبٍ، فجاوزتُه إلى غيره، فقال: سبحان الله! أين السلام؟ مَن المجنون؛ أنا أم أنت؟ فاستحييتُ منه، وقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: لو كنتَ ابتدأتَ لأوجبتَ علينا حُسْنَ الرَّدِّ، على أنّا نصرفُ سوء أدبك إلى أحسنِ جهاته من العذر، لأنه كان يقال: إن للداخل على القوم دهشةً، اجلس - أعزّك الله - عندنا، وأومأ إلى موضع من الحصير، فجلستُ إلى ناحية منه، فقال لى - وقد رأى معى مِحْبَرتى: أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما: أصحابِ الحديثِ الأغثاث، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر؟ قلت: الأدباء! قال: أتعرفُ أبا عثمانَ المازنى؟ قلت: نعم! قال: أتعرف الذى يقول فيه القائل:

وفتًى من مازن أستاذ أهل البَصْرَهْ
أُمُّـــــهُ معرفة وأبـــوه نَـكِرَهْ

---

* معجم الأدباء: ١٩ ـ ١١٦

(١) هو محمد بن يزيد، المعروف بالمبرد إمام العربية فى زمنه ببغداد وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده ببغداد وتوفى بها سنة ٢٨٦ هـ. (٢) المدخولين فى عقولهم، والمتعاطين للعلاج.

فقلت : لا أعرفه ، فقال : أتعرفُ غُلاماً له قد نبغ في هذا العصر ، له ذهنٌ وحفظ وقد برّز في النحو ، يعرف بالمُبَرِّد ؟ فقلت: أنا والله الخبير به ! قال : فهل أنشدكَ شيئاً من شعره ؟ قلت : لا أحسبُه يُحْسِنُ قول الشعر ! فقال : يا سبحان الله ! أليس هو القائل :

حَبّذَا ماء العناقيـــدِ بريقِ الغـــانياتِ
بهمـــا ينبتُ لَحْمِي ودَمِي أيّ نباتِ

قلت : قد سمعتُه ينشد هذا في مجلس أُنْسٍ ؛ فقال : ياسبحان الله ! ألا يستحي أن ينشد مثل هذا الشعر حول الكعبة ؟ ثم قال : ألم تسمع ما يقولون في نَسَبه ؟ قلت : يقولون : إنه من الأزد أزْد شنوءة ، ثم من ثُمالة ! قال : أتعرفُ القائل في ذلك :

سألنَا عن ثُمَالَةَ كل حَيٍّ فقــال القائلون : وما ثُمالَهْ ؟
فقلت : محمد بن يزيد منهم فقالوا : زِدْتَنا بهمُ جَهالَهْ !
فقال لى المبرّدُ : خــلِّ قومى فقومى مَعْشَرٌ فيهمْ نَذَالَهْ !

فقلت : أعرفه ! هذا عبدُ الصمد بن المعذّلِ يقولها فيه ! فقال : كذب فيما ادّعاه ! هذا كلامُ رجلٍ لا نسب له ، يريد أن يُثْبِتَ له بهــذا الشعر نسباً ، فقلت له : أنت أعلم ! فقال : ياهذا ، قد غلبت خفّةُ روحك على قلبي ، وقد أخّرْتُ ماكان يجب تقديمه ، ما الكنية ؟ أصلحك الله ! فقلت : أبو العبــاس ، قال : فما الاسم ؟ قلت: محمد ، قال : فالأب ؟ قلت: يزيد . قال : قبّحَكَ الله ! أحوجتني إلى الاعتذار بما قدمتُ ذكرَه ، ثم وثب وبسط يده فصافحني ؛ فرأيتُ القيدَ في

رجْله ، فأمِنْتُ غائلته ، فقال : يا أبا العباس ، صُنْ نفسَك من الدخول فى هذه المواضع ؛ فليس يتهيّأ فى كل وقتٍ أن تصـادف مِثْلى على مثل حالى ، ثم قال : أنت المبرّد ! أنت المبرّد ! وجعـل يصفّقُ ، وانقلبتْ عينـاه واحمرّت وتغيّرت حالته ، فبادرت مسرعاً خوفَ أن تبدرَ إلىّ منه بادرة ؛ وقبلتُ منه والله نُصْحه ، ولم أعاودْ بعدها إلى تلك المواضع أبداً !

١٥٤ — مجنون أديب*

قال أبو العباس أحمد بن يحيي المعروف بثعلب (١) : كان ببغداد فتى يجن ستة أشهر ، فاستقبلني يوماً ببعض السكك فقال : ثعلب ! قلت : نعم ، قال : فأنشدني ، فأنشدته :

وإذا مررتَ بقبرِه فاعقِر به ... كُومَ (٢) الهجانِ وكلَّ طِرْفٍ (٣) سابحِ
وانضَحْ جوانبَ قبره بدمائها ... فلكذا يكون أخا دمٍ وذبائحِ

فضحك ثم سكت ساعة ؛ وقال : ألا قال :

اذهبا بي إن لم يكن لكما عقـ ... ـرٌ على تُرْب قبره فاعقِراني
وانضَحا من دمي عليه فقد كا ... نَ دمي من نداه لو تعلمانِ

ثم رآني يوماً بعد ذلك فتأملني ، وقال : ثعلب ! قلت : نعم ؛ قال : أنشدني ، فأنشدته :

أعارَ الجَوْدَ (٤) نائله ... إذا ما مالُهُ نَفِدَا
وإنْ أسدٌ شكا جُبناً ... أعار فؤادَه الأسدَا

فضحك وقال : ألا قال :

علَّمَ الجَوْدَ الندى حتى إذا ... ما حكاه علَّم البأسَ الأسدْ
فله الجَوْدُ مُقِرٌّ بالندى ... وله الليثُ مقرٌّ بالجَلَدْ

---

* عقلاء المجانين : ١٣٥ ، نهاية الأرب : ٣ ـ ٢١٣

(١) أحمد بن يحيي إمام الكوفيين في النحو واللغة كان راوية للشعر مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة ، توفي سنة ٢٩١ هـ . (٢) الكوم : القطعة من الإبل . (٣) الطرف: الكريم من الخيل . (٤) الجود : المطر الغزير .

١٥٥ — كدّر الله من كدّر العيش*

قال الحمدونى : بعث إلىّ أحمد بن حرب المهلبى فى غداةٍ ، السماء فيها مغيمة ، فأتيتُه ، والمائدةُ موضوعةٌ مُغَطّاةٌ ، وقد وافت « عجاب » المغنّية ؛ فأكلنا جميعاً وجلسنا على شرابنا ؛ فما راعنا إلا داقٌّ يدقُّ الباب فأتاه الغلام ؛ فقال : بالباب فلان ! فقال لى : هو فتًى من آل المهلّب ، ظريف نظيف ! فقلت : ما نريد غيرَ ما نحنُ فيه !

فأذن له ؛ فجاء يتبختر ، وقُدّامى قَدَحُ شراب فكسره ، فإذا رجل آدم(١) ضخم ! وتكلم ؛ فإذا هو أعْيا الناس .

فجلس بينى وبين « عجاب » ؛ فدعوت بدواة ، وكتبت إلى أحمد ابن حرب :

كدّرَ الله عيشَ من كدّرَ العَيْـ ... شَ ؛ فقد كان صافياً مُسْتطَابَا
جاءنا والسماء تهطـل بالغَيْـ ... ثِ وقد طابق السماعُ الشرابا
كسر الكأس وهى كالكوكب الدُّرِّ(٢) ... يّ ضمّت من المُدامُ(٣) رُضَابا(٤)
قلت لَمَّا رُميتُ مِنهُ بما أكـ ... رَهُ ، والدهرُ ما أفاد أصابا !
عجّل اللهُ نِقمـةً لابنِ حربٍ ... تدَعُ الدارَ بعد شهرٍ خرَابَا !

---

* زهر الآداب : ٤ — ١٧٧

(١) الآدم : الأسمر . (٢) الكوكب الدرى : الثاقب المضئ ، نسب إلى الدر لبياضه .

(٣) المدام : الخمر . (٤) الرضاب : العسل ، أو رغوته .

ودفعتُ الرقعة له ؛ فقال : ألا نَفَّسْتَ[١] ؛ فقلتَ : بعـد حول[٢] ؟ فقلت : أردتُ أن أقولَ بعد يوم ؛ نخِفتُ أن يصيبنى مضرّةُ ذلك !

وفطِن الثقيل ؛ فنهض ، فقال : آذيتَه ! فقلت : هو آذانى !

---

(١) نفس تنفيسا : فرج ، يريد ألا فرجت عن نفسك وصبرت . (٢) يريد : بدل شهر التى وردت فى البيت .

١٥٦ — يضيف أهل الصُّفة ثم يضربهم

كان زيادُ بنُ عبد الله الحارثى والياً على المدينة ، وكان فيه بُخْلٌ وجفاء ؛ فأهدى إليه كاتبٌ سِلالاً فيها أطعمة ، وقد تنوّق [1] فيها ، فوافقته وقد تغدّى ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : غَداء بعثه فلان الكاتب ! فغضب ، وقال : يبعثُ أحدهم الشىء فى غير وقته ! ياخيثم بن مالك — يريد صاحبَ شرطته : ادعُ لى أهلَ الصُّفة [2] يأكلون هذا !

فبعث خيثم الحرسَ يدعونهم ، فقال الرسول الذى جاء بالسلال : أصْلح الله الأمير ! لو أمرتَ بهذه السلال تُفْتح وينظرُ ما فيها !

قال : اكشِفُوها ، فإذا طعام حسن من دَجاج وجِدَاء [3] وسمك وأخْبَصَة [4] وحَلواء ! فقال : ارفَعُوا هذه السّلال .

وجاء أهل الصُّفّة ، فأُخْبِر بهم ، فأمر بإحْضارهم ، وقال : ياخيثم ، اضربْهم عشرة أسواط ، فإنه بلغنى أنهم يحدثون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !

---

* نهاية الأرب : ٣ — ٣٠٥ .

(١) تنوق فى الأمر : تأنق فيه (٢) أهل الصفة : كانوا أضياف الإسلام ، وكانوا يبيتون فى مسجده صلى الله عليه وسلم (٣) الجداء : جمع الجدى ، وهو ولد المعز (٤) الخبيص : طعام من التمر والسمن .

١٥٧ – ابن المدبِّر وطفيلى *

كان ابنُ المدبِّر قليلَ الجلوس للمُنادمة ، وكان له سبعة ندماء لا يأْنَسُ بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم ، قد اصْطَفَاهم لعِشْرَته ، واختارهم لمنادمته ، كل رجل منهم قد انفرد بنوْع من العلم لا يساويه فيه غيرُه .

وكان طفيلىٌّ يُعرَف بابن دُرَّاج من أكمل النَّاس أدباً ، وأخفِّهم رُوحاً ، وأشدهم فى كل مليحة افتناناً ؛ فلم يزل يحتالُ إلى أن عرَف وقت جلوس ابن المدبر للندماء ، فتزيَّا فى زى ندمائه ، ودخل فى جملتهم ، وظنَّ حاجبُه أن ذلك بعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء ، ولم ينكر شيئاً من حاله .

وخرج ابنُ المدبر ، فنظر إليه بين القوم ، فقال لحاجبه : اذهب إلى ذلك الرجل ، فقل له : ألَكَ حاجة ؟ فسُقِط فى يد الحاجب ، وعلم أن الحيلة قد تمتْ عليه ، وأن ابنَ المدبر لا يرضى فى عقوبته إلا بقتْلِه ، فذهب إليه ، فقال له : الأستاذ يقول لك : ألك حاجة ؟ فقال : قل له : لا . فقال له : ارجع إليه فقل له : أىُّ شىء أنت ؟ فقال : قل له : طفُيلىٌّ يرحمك الله !

فقال له ابنُ المدبر : أنت طفيلى ؟ قال : نعم ! أعزَّك الله ! قال : إن الطفيلى يُحتَملُ دخولُه بيوت الناس وإفسادُه عليهم مايريدونه من الخَلْوة بندمائهم والخوض فى أسرارهم لخصال ، منها أن يكون لاعباً بالشِّطْرَنجِ ، أو بالنَّرْدِ ، أو ضارباً بالعود أو الطُّنْبور !

---

* المسعودى : ٢ ـ ٤٣٤ .

فقال : أيّدكَ الله ! أنا أحسنُ هذه الأشياء كلّها ، قال : وفى أى وظيفة أنتَ منها ؟ قال : فى العُليَا من جميعها !

فقال لبعض ندمائه : لاعِبْه بالشِّطْرَنج ، فقال الطفيلى : أصلح الله الأستاذ ! فإن قُمِرْتُ[1] ؟ قال : أخرجناك من ديارنا . قال : فإن قَمَرْتُ ؟ قال : أعطيناك ألفَ درهم . قال : فإن رأيت ـ أيدك الله ـ أن تحضر الألف ؛ فإن فى حضورها قوة للنفس والإيقان بالظفَر .

فأُحضرت ؛ فلعبا فغلب الطفيلىُّ ، ومدَّ يده ليأخذَ الدراهم ، فقال الحاجب لينفى عن نفسه بعضَ ما وقع فيه : أعزَّ الله الأستاذ ؛ إنه زعم أنه فى الطبقة العُليا ، وابنُ فلان غلامك يَغْلبه .

فأحضر الغلام ، فغلبَ الطفيلىُّ ، فقال له : انصرفْ ، فقال : أحضروا النَّرد ، فأُحضرت فلُوعب فغلَب ، فقال الحاجب : ولا هذا ـ يا سيدى ـ فى الطبقة العليا من النَّرد ، ولكن بهٌ ابنًا فلان يغلبه ، فأُحضِر البواب فغلب الطفيلىُّ ، فقال له : اخرج ، فقال : يا سيدى ، فالعود ؟

فأُتى بالعود ، فضرب فأصاب ، وغنَّى فأطرب ، فقال الحاجب : ياسيدى ؛ فى جوارنا شيخ هاشمى يُعلِم القِيان أحذقُ منه ، فأُحْضر الشيخ ، فكان أطربَ منه ، فقال له : اخرج ، قال : فالطنْبُور ، فأعطى طنبوراً فضرب ضرباً لم يرَ الناسُ أحسنَ منه ، وغنَّى غناء فى النهاية ، فقال الحاجب : أعزَّ الله الأستاذ ؛ فلانٌ فى جوارنا أحذقُ منه ، فأُحْضِر فكان أحذق منه وأطيب ، فقال له ابن المدبر :

(١) قمرت : غلبت فى اللعب .

قد تقصّينا لك بكل جهد ، فأبَتْ حِرْفَتُك إلا طردَك عن منزلنا .

فقال : ياسيدى ، بقى شىء ! قال : ما هو ؟ قال : تأمر لى بقوس بُنْدُق [١] مع خمسين بُنْدُقة رصاص ، ويقام هذا الحاجب على أربع وأرميه بها ، وإن أخطأتُ بواحدة منها ضربت رقبتى . فضجّ الحاجب من ذلك ، ووجد ابنُ المدبر فى ذلك شفاء لنفسه وعقوبة له على ما فرط منه فى إدخـــال الطفيلىّ إلى مجلسه . فأمر بإكافين [٢] فأحضرا ، وجعل أحدهما فوق الآخر ، وشُدّ الحاجب فوقهما ، وأمر بالقوس والبندق فدفعا إلى الطفيلى ، فرمى به ؛ فما أخطأه ؛ وخلّى عن الحاجب وهو يتأوّه لما به ، فقال له الطفيلى : أعلى باب الأستاذ من يُحْسن مثل هذا ؟ فقال : ما دام البُرْجاس [٣] استى فلا !

(١) البندق : الذى يرمى به، الواحدة بهاء (٢) الإكاف : البرذعة (٣) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه .

١٥٨ — صناعتهم التَّطْفيل *

قال درّاج : قدمتُ من بغداد ، فمررتُ بباب قومٍ وعندهم وَليمة ، وإذا بصاحب الدار يدخلُ ويضع سلّماً فكلما رأى إنساناً لا يعرفُه قال : اصعدْ ياأبى ؛ فصعدتُ إلى غرفةٍ مفروشة حتى وافيتُ فيها ثلاثةَ عشر طفيليا ، ثم رُفع السُّلم ، ووُضِعت الموائد ، فبقى أصحابى قد تحيّروا وقالوا : مامَرَّ بنا مثل ذا قط ؛ قلت : يافتيان ، ماصناعتكم ؟ قالوا : التطفيل ، قلت : فما عندكم فى هذا الأمر الذى وقعنا فيه ؟ قالوا : ماعندنا فيه حيلة ، قلت : فإذا احتلتُ لكم حتى تأكلوا وتنزلوا تُقِرُّون أنى أعلمكم بالتطفيل ؟ قالوا : ومن تكون بالله ؟ قلت : أنا ابن دراج . قالوا : قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا . قال : فجئتُ إلى صاحب الدار فاطلعتُ عليه والناس يأكلون وقلت : ياصاحبَ الدار ؛ قال : مالَك ؟ قلت : أيما أحبُّ إليك : تصعدُ إلينا بخوانٍ كبير ، نأكلُ وننزلُ أو أرمى بنفسى ، فيخرج من دارك قتيل ؛ ويصير عُرْسُك مأتماً ؟ وجعلت أُرِيه كأنى أرمى بنفسى ، فصاح وقال : اصْبر ويلك لا تفعل ! وجعل يعجِّل ويقول: هذا مجنون . وأصعدوا إلينا خواناً ، فأكلنا ونزلنا.

---

* التطفيل : ٦٢ .

١٥٩ — اصبروا عليَّ إلى غدٍ *

ادّعى مُدّعٍ النبوة ، فطُلب ودُعى له بالسّيف والنّطع ؛ فقال : ما تَصنعون ؟ قالوا : نقتُلك ، قال : ولِم تقتلوننَى ؟ قالوا : لأنك ادّعيتَ النبوة ، قال : فلستُ أدّعيها ، قيل له : فأيُّ شيء أنت ؟ قال : أنا صِدّيق ، فدُعِي له بالسِّياط ، فقال : لم تَضربوننى ؟ قالوا : لادّعائك أنك صدِّيق ، قال : لا أدَّعى ذلك ، قالوا : فمن أنْتَ ؟ قال : من التابعين لهم بإحْسان ، فدعى له بالدِّرَّة [1] ، قال : ولِم ذلك ؟ قالوا : لادعائك ماليس فيك ، فقال : ويحكم ! أدخل إليكم وأنا نبيّ تريدون أن تحطّونى فى ساعة واحدة إلى مرتبة العوامّ ! اصبروا علىّ إلى غدٍ حتى أصيرَ لكم ما شئتم !

---

* نهاية الأرب : ٤ ـ ١٦

(١) الدرة بالكسر : التى يضرب بها .

١٦٠ — هو خيرُ الناسِ مهما يفعل *

حدّث رجلٌ من عامر بن لؤىّ ، قال : كان صبيٌّ منا ترك له أبوه غنماً وعبيداً ؛ فخرج يوماً ، فنظر إلى جاريةٍ فى خبائها فهوِيها ، ومال إلى أمها ، وسألها لِمَن تزوّجها منه ، فقالت : حتى أسألَ عن أخلاقك .

فسأل عن أقرب الناس إليها ، فدُلَّ على شيخٍ كان معروفاً بحُسْنِ المَحْضَر . فأتاه وسلَّم عليه ، وقال : ماجاء بك ؟ فأخبره ! فقال : لا عليك ! فإنّ العجوز غيرُ خارجةٍ من رأيى ، فامْضِ إلى منزلك ، وأقِمْ يوماً أو يومَيْنِ ، ومُرْ بغنمك أن تُساقَ ، ونادِ فى أهلك : أمَا من أراد أن يحلُبَ فلْيأْتنا ! ودَعْنِى والأمر !

فشاع الخبرُ ، فخرجت العجوز مع مَنْ خرج ، والشيخُ مع القوم ، فنظر إلى الشابّ ، وقد كانت العجوز قد أخبرتُه بشأنِه ، فقال : هو هو ! فقالت : نعم ! قال : لقد حُرِمتِ حظَّكِ ! قالت : إنى أريد أن أسألَ عن أخلاقه . قال : أنا ربيتُهُ . قالت : فكيف لسانه ؟ قال : خطيبُ أهله ، والمتكلم عنهم . قالت : فكيف سماحتهُ ؟ قال : ثِمَالُه[1] فى قومه ، وربيعهم ! قالت : فكيف شجاعته ؟ قال : حامى قومه والمدافعُ عنهم !

قال : فطلَع الفتى ، فقال : أما ترين ما أحسن ما أقبل ! ما انحنى ولا انثنى !

---

* المحاسن والمساوىء : ٦٤٣ (طبع ليزج) .

(١) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

فلما قرب سلّم ، فقال : ما أحسن ماسلّم ! ماحار ولا ثار . ثم استوى جالساً ، فقال : ما أحسن ما جلس ! ما ركع ولا عجز . قالت : أجل ! فذهب يتحرك فضرط ، فقال الشيخ : ما أحسن والله ما ضرط ، ما أطّنّها ولا أغنّها ولا نَفَخَها ولا تَرْتَرَها [1] . فنهض الفتى خَجِلاً ، فقال الشيخ : ما أحسن والله مانهض ! قالت العجوز : أجَلْ والله ! فَصِحْ به ورُدَّه ، فوالله لزَوَّجْناه ولو فعل أكثَرَ مما فعل !

---

(١) الترتر : التزلزل والتقلقل .

١٦١ — طفيلي في عرس *

دخل طفيلي عُرساً فلم يقدر على الدخول ، فأخذ قرطاساً وأَدْرَجَه[1] ، ولم يكتب فيه شيئاً ، وسأل عن العروس : هل له قريب غائب ؟ فقيل : أخوه .

فكتب عُنوان الكتاب من فلان ابن فلان أخيه . وجاء فدقّ الباب ، وقال : معي كتابٌ من أخي العروس . فخرج العروسِ مبادراً فأَدْخَلَه وأَحْضَرَ له الطعام ؛ فلما قرأ العنوان قال : سبحان الله ! تراه نَسِيَ اسمي إذ لم يكتبْه على الكتاب ! فقال الطفيلي : وأعجبُ من هذا أنه لم يكتب داخلَه شيئاً من العجلة ! فعلم مراده وأدخله !

---

* ذيل زهر الآداب : ٢٨٠

(١) أدرج الكتاب : طواه .

١٦٢ — طفيلي محدِّث *

قال أبو عمرو نصر بن علي : كان لي جار طفيليّ ، وكان من أحسنِ الناس مَنْظراً ، وأعذبهم منطقاً ، وأطيبهم رائحة ، وأجملهم لباساً ، وكان من شأنه معي أني إذا دعيتُ إلى مَدْعاة[1] تبعني ، فيكرمه الناس من أجلي ، و يظنون أنه صاحبٌ لي؛ فاتفق يوماً أن جَعفر بنَ القاسم الهاشميّ أميرَ البصرة أراد أن يَخْتِن بعض أولاده ، فقلت في نفسي : كأني برسول الأمير قد جاء ، وكأني بهذا الرجل قد تبعني ، والله لئن تبعني لأفْضحنَّه !

فأنا على ذلك إذ جاء رسولُه يدعوني ، فما زدتُ أن لبستُ ثيابي وخرجت ، وإذا أنا بالطفيلي واقفٌ على باب داره ، وسبقني بالتأهّب فتقدمتُ وتبعني ؛ فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة ، ودعا بالطعام ، وأحضرت الموائد وكان كلُّ جماعة على مائدة لكثرة الناس ، فقدِّمت إليَّ مائدة والطُّفيلي معي ، فلما مَدَّ يده ، وشرع في تناول الطعام قلت : حدثنا نافع عن ابنِ عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من دخل دار قومٍ بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقاً ، وخرج مُغِيراً ».

فلما سمع ذلك قال : أنِفتُ لك والله أبا عمرو من هذا الكلام ! فإنه ما مِنْ أحدٍ من الجماعة إلا وهو يظنُّ أنك تعرض به دُونَ صاحبه ، أو لا تستَحِي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيِّد مَنْ أطعم الطعام ، وتبخل بطعام غيرك على مَنْ سواك !

* التطفيل للبغدادي : ٦٦ .

(١) المدعاة : الدعوة

ثم لا تستحي أن تحدث بهذا الحديث وهو ضعيف ، وتحكم برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون على خلافه ! لأن حكم السارق القطع ، وحكم المغير أن يُعزّر على ما يراه الإمام ، وأين أنت عن حديث حدّثناه أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طعامُ الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية » . وهو إسنادٌ صحيح ومَتْنٌ صحيح !

قال نصر : فأفحمني فلم يحضرني له جواب ، فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي ، وسمعته يقول :

ومن ظن مِمّن يلاقي الحروب   بألّا يصاب فقد ظنّ عَجْزَا

١٦٣ — غِنًى وغفلة *

كان بمصر شريف من وَلَد العباس يعرف بأبي جعفر ؛ شبيه بابن الجصاص فى الغفلة والجَدّ والنّعمة .

قال أبو القاسم بن محمد التنوخى : بعثنى أبى إليه من قرية تعرف بتلا يستَقْرِضه عشرة أرادب قمحاً وثلاثين زوج بقر ، وكتب معى بذلك رقعة ، فأتيتُ إليه وسلمت عليه ، ودفعت إليه الرقعة ؛ فقال : ذكرتُ أباك ، فهو صاحبى وصديقى وخليطى ! وأين هو الآن ؟ قلت : بقرية تلا ـ أعزّ الله سيدى الشريف ! قال : نعم ! حفظه الله ! هو بالفُسْطاط معنا ، وقد انقطع عنا كذا ! ما كنت أظنه إلا غائباً !

قلت : لا سيدى هو بتلا ! قال : فمالك ما قلتَ لى ؟ فما كان سبيله أن يؤنسنى برقعة من قِبَله ؟ قلت : يا سيدى ، قد دفعت إليك رُقْعته ! قال : وأين هى ؟ قلت : تحت البساط ! فأخذها وقرأها ، وقال : قل لى الآن ، أكان لك أخٌ أعرفه حاد الذهن يحسن النحو والعروض والشعر ؛ فما فعلَ الله به ؟ قلت : أنا هو ـ أعزّك الله ! قال : كبرتَ كذا ! وعهدى بك تأتينى معه ؛ قلت : نعم ! أيّد الله الشريف !

قال : وما الذى جئتَ فيه ؟ قلت له : والدِى بعثنى إليك برقعة يسألك فيها قرض عشرة أرادب قمحاً وثلاثين زوج بقر . قال : وهو الآن بالفسطاط ؟!

* ذيل زهر الآداب : ٢٢٢ .

قلت : لا يا سيدى هو بتلا ! قال : نعم ! وإنما ذاك الفتى أخوك ؟ قلت : لا ! أنا هو .

فصار يراجعنى فى الكلام وقد ضجرتُ من شدَّة غَفْلَته ، وكثرة نسيانه لما أقُول له ، حتى أقبل كاتبهُ أبو الحسين ، فقال له : سَلْ هـذا الفتى ما يريد ؟ فسألنى فعرّفتُهُ فأخبره ، فقال له : نفِّذْ له حاجته . فوقّع لى الكتاب بما أراد ، وقال : تَلْقَانى للقَبْضِ بالديوان ، فشكرت الشريف ونهضت ! فقال : اصبر يابنىّ فقد حضر طعامُنا ؛ وقدم الطعام ، وفيه طعام غير جيد ، فرفع يده ، وقال : مثل مطبخى يكون فيه مثل هـذا ! علىّ بالطبَّاخ ! فأُتِى ، فقال له : ما هذا العمل ! فقال : يا سيدى ؛ إنما أنا صانع ، وعلى قَدْرِ ما أُعطَى أعمل ! وقد سألت المُنْفِق أن يشترىَ لى ما أحتاجُ إليه فتأخر عنى ، فعملتُ على غير تمكّن ؛ فجاء التقصير كما ترى .

فقال : علىّ بالمُنْفِق فأُحْضِر ، فقال : مَالِى قليل ؟ قال : لا ، يا سيدى إنما أُنْفِق ما أُعْطَى ، وقد سألت الجِهْبِذَ[1] أن يدفعَ لى فتأخر عنى ؛ فقال : علىّ بالجِهْبِذِ ! فأُتِى به . فقال : مالك لم تدفع للمُنْفِق شيئاً ؟ قال : لم يوقِّع لى الكاتب ! فقال للكاتب : لِمَ لَمْ تدفع إليه شيئاً ؟ فتَلَعْثَم فى الكلام ، ولم يكن عنده جوابٌ ؛ فقال للكاتب : قف ها هنا ، فوقف ، ووقف خلفه الجِهْبِذُ ، ووقف خلف الجهبذ المنفق ، وخلف المنفق الطباخ ، وقال : ليصنع كلُّ واحد منكم بمن يَليه بأكثر ما يقدر عليه فتصافعوا .

قال : فخرجت وأنا متعجّب من غباوته وغَفْلته !

---

(١) الجهبذ : النقاد الخبير ، ويريد القائم بالإنفاق وحفظ الأموال .

١٦٤ — حذاء أبي القاسم *

كان في بغداد رجلٌ اسمه أبو القاسم الطُّنْبُورِي ، وكان له مَدَاسٌ (١) ، وهو يَلبَسُه سبعَ سنين ، وكان كلما تقطَّع منه موضعٌ جعل مكانه رقعةً إلى أن صار في غاية الثِّقَل ، وصار الناسُ يضربون به المثل .

فاتَّفق أنه دخل يوماً سوق الزجاج ، فقال له سِمْسَار (٢) : يا أبا القاسم ، قد قَدِم إلينا اليوم تاجر من حَلَب ، ومعه حِمْلُ زجاجٍ مُذَهَّب قد كسدَ ، فاشتَرِه منه ، وأنا أبيعه لك بعد هذه المدة ؛ فتَكْسِبُ به المثل مِثْلَيْنِ ! فمضى واشتراه بستِّين ديناراً .

ثم إنه دخل إلى سوق العطارين ؛ فصادفه سِمْسَار آخر ، وقال له : يا أبا القاسم ؛ قد قدِم إلينا اليوم من نَصِيبين (٣) تاجرٌ ، ومعه ماءُ وَرْد ، ولِعَجَلَةِ سفره ، يمكن أن تشتريه منه رخيصاً ، وأنا أبيعه لك فيما بعد ، بأقرب مدة ؛ فتَكْسِبُ به المثل مِثْلين !

فمضى أبو القاسم ، واشتراه أيضاً بستين ديناراً أخرى ، وملأَه به الزجاج المذهب وحمله ، وجاء به فوضعه على رَفٍّ من رفوف بيته في الصَّدْر !

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يغتسل ؛ فقال له بعض أصدقائه : يا أبا القاسم ؛

---

* مجاني الأدب : ٣ ـ ٢٣٢ .

(١) المداس كسحاب : الذي يلبس في الرجل (٢) السمسار : المتوسط بين البائع والمشترى

(٣) قاعدة ديار ربيعة .

أشتهى أن تغير مداسك هذا ! فإنه فى غاية الشناعة ! وأنت ذو مال بحمد الله ! فقال له أبو القاسم : الحقُّ معك ؛ فالسَّمْعُ والطاعة .

ثم إنه خرج من الحمام ، ولبس ثيابه ، فرأى بجانب مداسه مداساً آخر جديداً ؛ فظن أن الرجلَ من كرمه اشتراه له ؛ فلبسه ، ومضى إلى بيته !

وكان ذلك المَدَاسُ الجديدُ للقاضى ، وقد جاء فى ذلك اليوم إلى الحمَّام ، ووضع مَدَاسَه هناك ، ودخل يَسْتَحِمُّ !

فلما خرج فتّش عن مداسه ؛ فلم يَجِدْهُ ؛ فقال : أمَنْ لبس حذائى لم يترك عوضه شيئاً ؟ ففتَّشُوا ؛ فلم يجدوا سوى مداس أبى القاسم ! فعرفوه ؛ لأنه كان يُضْرَبُ به المثل !

فأرسل القاضى خدَمَه ، فكَبَسُوا [1] بيته ، فوجدوا مداسَ القاضى عنده ؛ فأحضره القاضى ، وضربه تأديباً له ، وحبسه مدة ، وغرمه بعض المال وأطلقه !

فخرج أبو القاسم من الحبس ، وأخذ حذاءه ، وهو غضبان عليه ، ومضى إلى دجلة ، فألقاه فيها ؛ فغاص فى الماء !

فأتى بعض الصيادين ورمى شبَكته ، فطلع فيها ! فلما رآه الصيَّاد عرفه ، وظن أنه وقع منه فى دجلة ! فحمله وأتى به بيت أبى القاسم ؛ فلم يجده ! فنظر فرأى نافذة إلى صدر البيت ، فرماه منها إلى البيت ، فسقط على الرف الذى فيه الزجاج ، فوقع ، وتكسّر الزجاج وتبدّد ماء الورد !

---

(١) كبس داره : هجم عليها واحتاط بها .

فجاء أبو القاسم ونظر إلى ذلك فعرف الأمر ، فلطم وجهه ، وصاح يبكى ، وقال : وافقرَاه ! أفقرَنى هذا المداس الملعون !

ثم إنه قام : ليَحفُرَ له فى الليل حُفْرَة ، ويدفنه فيها ، ويرتاح منه ؛ فسمع الجيرانُ حسَّ الحفرِ ؛ فظنوا أن أحداً ينقب عليهم ؛ فرفعوا الأمر إلى الحاكم ؛ فأرسل إليه ، وأحضره ، وقال له : كيف تَستَحِلُّ أن تنقبَ على جيرانك حائطهم ؟ وحبَسه ، ولم يُطْلِقه ، حتى غَرِم بعض المال !

ثم خرج من السجن ومضى وهو حَرْدان (١) من المداس ، وحمله إلى كنيف الخان ، ورماه فيه ، فسدَّ قصبة الكنيف ؛ ففاض وضجر الناس من الرائحة الكريهة ! وبحثوا عن السبب ؛ فوجدوا مداساً فتأملوه ؛ فإذا هو مداسُ أبى القاسم ! فحملوه إلى الوالى ، وأخبروه بما وقع ؛ فأحضره الوالى ، ووبخه وحبسه ، وقال له : عليك تصليح الكنيف ! فغرم جُمْلة مال ، وأخذ منه الوالى مقدار ما غرم تأديباً له وأطلقه .

فخرج أبو القاسم والمدَاسُ معه ، وقال — وهو مغتاظ منه : والله ما عدتُ أفارقُ هذا المدَس !

ثم إنه غسَله وجعله على سطح بيته حتى يجف ؛ فرآه كلب ؛ فظنه رِمَّةً (٢) فحمله وعبر به إلى سطح آخر ؛ فسقط من الكلب على رأس رجل ، فآلمه وجرحه جرحاً بليغاً ، فنظروا وفتشوا لمن المداس ، فعرفوا أنه لأبى القاسم !

---

(١) حران : غضبان (٢) الرمة بالكسر : العظام البالية .

فرفعوا الأمر إلى الحاكم ؛ فألزَمه بالعِوَض ، والقيام بلوازم المجروح مُدّةَ مرضه ! فنفِدَ عند ذلك جميعُ ما كان له ، ولم يبق عنده شيء !

ثم إن أبا القاسم أخذ المداس ، ومضى به إلى القاضى ، وقال له : أريد من مولانا القاضى أن يكتب بينى وبين هذا المداس مبارأة شرعية على أنه ليس منى ولستُ منه ! وأن كلًّا منا برىء من صاحبه ، وأنه مهما يفعلْه هذا المداس لا أُؤاخذ أنا به ! وأخبَره بجميع ما جرى عليه منه !

فضحك القاضى منه ووصله ومضى !

﴿ تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه ﴾

فهرس القصص

الباب الأول

فى القصص التى تصف ما عقدوه من مجالس الطرب ، وحفلات الغناء ، وما أثاروه من أسباب المنافسة بين المغنّين ، قاصدين الترفيه عن النفوس ، وجلاء الهم ، وتهذيب المشاعر ، وترقيق الوجدان :

الباب الثانى

فى القصص التى تفضح عن رقة قلوب العرب، ورفاهة عواطفهم وسمو نفوسهم بالإخبار عمن وقع الحب فى قلبه وامتزج العفاف والشرف بحبه ، ولكن امتنع عليه أمله ، فبقى معذباً فى سبيل مَن أحبّ ؛ وراح شهيدَ الرقّة والعفاف :

البــاب الثالث

فى القصص التى تحتجُّ لما اتصفوا به من شديد الغيرة على الحريم ، وبالغ المخافة من التهمة ؛ إغلاء بالشرف ، وضمانا لوفرة العرض ، وما جره بعد ذلك من إزهاق الأرواح وسفك الدماء ، درءاً للظنة ، واتقاء للسمعة :

البــاب الرابع

فى القصص التى أراد بها الكتاب تصوير حالة ، أو شخص أو مجلس ، واخترعوا لها من الكلام ما يبلغ إرادتهم ، ويدخل فى ذلك الباب ما وضعوه على ألسنة الطير والبهائم ، وأنواع الحيوان من محاورات وأحاديث تحمل فى أثنائها العبرة والعظة والنصح :

البـــــاب الخامس

في القصص التي يعرف بهـــا مذهبهم في شياطين الشعر ، وأصوات الجن في الفيافي وأحاديثهم عن الغول ، ورؤية من رآها منهم ، وما إلى ذلك مما يصوّر سعة أخيلتهم ، وسعيهم وراء المجهول بأجنحة التفكير والتصوير :

البـــــاب السادس

فى القصص التى تسرد بارع الملح التى أثِرَت عن الحمقى والمجانين ، وتفصل روائع النوادر التى فاضت بها قرائح الطفيليين والمتنبئين ؛ وما يشبه ذلك مما فيه راحة للنفوس ونشاط للخواطر :

فهرس الأعـــلام

(غ)

(ن)

فهرس الأماكن

مراجع هـــذا الجزء

الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى
الأمالى : لأبى على القــالى
الأمالى : للزجاجى
البخلاء : للجاحظ
بلوغ الأرب : للألوسى
تزيين الأسواق : لداود الأنطاكى
التطفيل : للبغدادى
ثمرات الأوراق : للحموى
جمهرة أشعار العرب : لأبى زيد محمد بن الخطاب القرشى
الحيوان : للجاحظ
خزانة الأدب : للبغدادى
ذيل الأمالى : لأبى على القالى
ذيل زهر الآداب : للحصرى
رغبة الآمل : للمرصفى
زهر الآداب : للحصرى
شرح الأمالى : للبكرى

شرح مقامات الحريرى : للشريشى

شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد

صبح الأعشى : للقلقشندى

عصر المأمون : للدكتور فريد رفاعى

العقد الفريد : لابن عبد ربه

عيون الأخبار : لابن قتيبة

غرر الخصائص الواضحة : لأبى إسحاق الوطواط

الكامل فى التاريخ : لابن الأثير

الكامل فى الأدب : للمبرد

مجانى الأدب : للأب لويس شيخو

مجمع الأمثال : للميدانى

المحاسن والأضداد : للجاحظ

المحاسن والمساوئ : للبيهقى

محاضرات الأبرار : لابن عربى

المختار من نوادر الأخبار (مخطوط) : لمحمد بن أحمد الأنبارى

مروج الذهب : للمسعودى

المستطرف فى كل فن مستظرف : للأبشيهى

مصارع العشاق : لأبى جعفر بن أحمد السراج

معجم الأدباء : لياقوت الحموى

معجم البلدان : لياقوت الحموى

المنتقى من أخبار الأصمعى

مهذب الأغانى : للمرحوم الخضرى

نفح الطيب : للمقرى

نهاية الأرب : للنويرى

مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة : للزمخشرى
الأعــــلام : للزركلى
تاريخ آداب اللغة العربية : لجورجى زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية : للمرحوم الخضرى
رغبة الآمل من كتاب الكامل : للمرصفى
شرح ديوان الحماسة : للتبريزى
شرح الأمالى : للبكرى
شرح المفضليات : لابن الأنبارى
طبقات الشعراء : لابن سلام
طبقات الشعراء : لابن قتيبة
الفاخر فى الأمثال : للضبى
فهرس خريطة الممالك الإسلامية : لأمين واصف
القاموس المحيط : للفيروزابادى
لسان العرب : لابن منظور
المعارف : لابن قتيبة
معجم البلدان : لياقوت الحموى
وفيات الأعيان : لابن خلكان